إبراهيم أبو عواد

عقائد العرب في الجاهلية

مقدمة

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبي محمد وإخوته الأنبياء الكرام وآل كُلٍّ وصحب كُلٍّ .

مِمَّا لا شك فيه أن الجاهلية كحالة عَقَدية تاريخية تستوجب دراسةً عميقة ، وذلك من أجل سبر غورها وتمحيصها وعرضها عاريةً أمام شمس المنهج العِلمي في البحث. فالجاهليةُ _ على الرغم من افتقارها إلى نظم سياسية واجتماعية وثقافية مُخطَّط لها _ تملك جَدلياتٍ وظواهر تحفر أساساتٍ لتعميق الوجود الإنساني في قلب البيئة المعادِية (الصحراء). والظاهرةُ الجاهلية هي امتداد لبُنية الخرافات والأساطير التي انتشرت بسبب الانقطاعِ عن الهداية الرَّبانية المتمثلة في الرسالات السماوية ، والغوصِ في العقائد الوثنية التي تحركها مصالح القبائل المتنازِعة من أجل السيطرة على الماء والكلأ والمقدَّسات. وكلُّ قبيلة كَوَّنت أنساباً بُغية تعميق وجودها واستمرار تتابعها، وافتخرت بها إلى درجة التعصب الأعمى .

والكائنُ الجاهلي كان خاضعاً لسُلطة القبيلة بشكل صارم ، لاعتقاده بأنها الوحيدة القادرة على منحه امتداداً لوجوده ، ومعنىً لأنشطته الحياتية . وكان مُشركو الجزيرة العربية خاضعين للسُّلطة الوثنية، في حين أن أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) يَخضعون لسُلطتهم الدينية المشوَّشة نتيجة التحريف . وكلُّ سُلطة تُعبِّر عن اتجاهات الفرد ومشاعره وقِيَمه السلوكية . وهذا يَقودنا إلى أهمية السُّلطة في تقييمِ الوقائع الاجتماعية في بعض الأحيان ، وصُنعِها في كثير من الأحيان .

والسؤالُ الذي يَطرح نَفْسَه هو : هل يصح إطلاق عبارة " المجتمع الجاهلي " ؟ . الجواب ليس بالسهولة التي قد نتصورها . فالمجتمعُ هو تركيبة متجانسة ذات مسار واحد تنطوي تحته المسارات المعبِّرة عن كَيْنونة الفرد وأحلامه . وبالتالي ، لا معنى لعِبارة " المجتمع الجاهلي " بسبب افتقاد الإنسان الجاهلي إلى البنية التحتية والفَوْقية في الجسد الثقافي الاجتماعي الواعي. وحِينَ تُذكَر عِبارة " المجتمع الجاهلي " في هذا الكتاب ، فيكون الأمرُ من باب المجاز والتَّوسع اللغوي .

إنَّ هذه الجماعات البدوية التي عاشت في الجزيرة العربية قبل مجيء الرِّسالة المحمَّدية_ ولا أقول قبل مجيء الإسلام ، فالإسلامُ جاءَ إلى كَوْكبنا مع أبينا آدم ﷺ _ لم تكن منفصلة عن المسار التاريخي العام . بل هي امتدادٌ ذهني فكري للجاهليات الراسخة في أنحاء العالَم . وما

الجاهليةُ اليهودية التَّوْراتية التي بَدَّلَتْ دِينَ موسىﷺ،والجاهليةُ النصرانية الإنجيلية التي بَدَّلَتْ دِينَ المسيح ﷺ إلا زخم أسطوري وثني ، شَكَّل مخزوناً مرئياً للجاهلية في أرض الجزيرة العربية .

والتحليلُ الواعي لأنساق الجاهلية يَرمي إلى كشف طبيعة التفكير لدى الفرد الجاهلي ، وفكِّ شِيفرة البيئة العربية القاسية (الصحراء) . وهنا ، تتجلى أهميةُ التعامل مع السُّلوكيات الفكرية العربية ، فهي المادة الفلسفية البدائية (الخام) . وهذه المعطياتُ تحتاج ــ من أجل تحليلها ــ إلى هدوء وتروٍّ . ولا بُد من تأصيل البحث لَبنةً لبنة ، والسيطرةِ على كافة التفاصيل الفكرية ، وتوضيحِ الفلسفة العربية في الجاهلية بكل تقاطعاتها الدِّينية والثقافية والسِّياسية والاجتماعية . إذن، يجب التنقيبُ في الأساس الفكري للجاهلية، وتشريحُ الجذورِ العَقَديةِ والفروعِ الاجتماعية ، وإيجاد روابط منطقية بين هذين المجالَيْن . ولا يمكن إغفال الجانب النَّفسي في المنظومة الجاهلية ، فهذا الجانبُ يُبرِز المدلولاتِ الإيجابية والسَّلبية في علاقة الفرد بنفْسه وقبيلته ومحيطه الاجتماعي وتطلعاته الوجودية .

والأيديولوجيةُ الجاهلية ــ بوَصْفها نمطاً استحواذياً ــ تُجَسِّد كلَّ أحلام التخلف والتبعية وتغييب النماذج الثورية . إننا أمام حالة هلامية عَقدية تعتمد على الوثن في تشكيل صور العلاقات الاجتماعية ، ومن هنا تَنبع خطورةُ توليد الأنماط الضالة . ولا بُد من دراسة الأبعاد الحقيقية للحالة الجاهلية بكل ملابساتها وحيثياتها المؤدلَجة وغير المؤدلَجة . وهذا يتطلب ترسيخَ الوعي والوعي المضاد، والإحاطةَ بكل الجوانب الإنسانية في تقاطعات الحياة . والجديرُ بالذِّكر أن غالبية الباحثين لم يُركِّزوا على إشكاليات أنسنة العلاقات البشرية داخل المحيط القمعي، واكتفوا بتوزيع نظراتهم على القشور دون الغوص في أعماق التشكيلات الإنسانية ، لذا جاءت دراساتهم مُشوَّشة وسطحية . وإننا ندعو كُلَّ الباحثين المتمكنين إلى سَبْر أغوار التجمع الجاهلي ، وعدم الوقوف عند الباب دون الدخول إلى هذا العالَم المعتم المتجسِّد في البيئة الوثنية .

إنَّ هذا الكتاب يُقدِّم دراسةً دِينية واجتماعية وفلسفية ، تحاول تحليلَ ظاهرة الجاهلية بكل جوانبها ، وكشفَ التكوينات الفكرية في الأنساق المتوازِية والمتقاطعة . فإن وَجَدْتَ في كلامي خَيْراً فمن الله وَحْدَه ، وإن وَجَدْتَ غيرَ ذلك فمن نفْسي والشيطان .

واللهُ وَلِيُّ التوفيق .

إبراهيم أبو عواد

تمهيد

إن الجاهلية لَيْستْ مرحلةً زمنية فقط ، بل هي أيضاً منظومة فكرية وتاريخية متكاملة ، ولها أبعاد متعددة . لذلك يَنبغي تحليلُها بعمق ، وتعليلُ الأحكام المتعلِّقة بها ، والابتعادُ عن الأحكام الجاهزة والانطباعاتِ المعلَّبة .

وقد كانَ الصحابة _ رضي الله عنهم _ حَريصين على ذِكْر أيام الجاهلية ، وتحليلها بأسلوب منطقي بعيداً عن العواطف الفَوْضوية ، وذلك من أجل الاستفادة من هذا التاريخ الماضَوِي الذي حَمَلَ عقائدَ البشر وأحلامهم وذكرياتهم .

وفي كَثيرٍ من الأحيان ، كان الصحابةُ يَتذكرون أحداثَ الجاهلية ، ويتندَّرون بها ، ويأخذون بالضَّحك . ولم يكن النبيُّ ﷺ يَعترض على ذلك . فالإنسانُ لا يمكن أن يَشْطب تاريخَه ، حتى لو لم يكن راضياً عنه. والجاهليةُ _ كأيِّ نسقٍ تاريخي_ هي خليط من الحق والباطل ، والعدالةِ والظلم ، والحب والكراهية ، والآمالِ العريضة ، والأحلامِ الضائعة ... إلخ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨١٠) : أن جابر بن سَمُرة _ رضي الله عنه _ قال : ((وكانوا يَتحدَّثون ، فَيَأخذون في أمر الجاهلية ، فَيَضحكون ، ويَتبسَّم ﷺ)) .

لقد كان الصحابةُ _ رضي الله عنهم _ يَذْكُرون أيامَ الجاهلية فَيَضحكون من باب الفُكاحة والتَّندُّر ، حيث يَسْردون الأحداثَ الجاهلية، ويَرْوون القصصَ التي حَدَثَت معهم في تلك المرحلة ، هذه القصص المشتملة على حياتهم في ظِل الشِّرْكِ والأصنام ، والاضطرابِ النَّفْسي ، والقلقِ الوجودي ، ومرجعيةِ القَبيلة والعادات والتقاليد . قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ٧٩) : ((وفِيه جَواز الحديث بأخبار الجاهلية ، وغَيْرها من الأمم ، وجَواز الضَّحِك . والأفضل الاقتصار على التَّبسُّم كما فَعَله رسولُ الله ﷺ في عامة أوقاته)) اهـ .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ١١٥) : ((ومِن جُملة ما يَتحدَّثون به أنه قال واحد : ما نَفَعَ أحداً صَنَمُه مِثْل ما نفعني ، قالوا : كيف هذا ؟ ، قال : صَنَعْتُه مِنَ الْحَيْس ، فجاءَ القَحْطُ ، فكنتُ آكله يَوْماً فَيَوْماً)) اهـ .

وهذا الكلامُ أشْبَه بالطُّرفة . فالصحابيُّ يَستهزئ بالصنم ، ويُورِد كلامَه في سِياق السُّخرية . فهو يَقول إن الصَّنم قد نَفَعَه في الجاهلية . ومعلومٌ أن الأصنام لا تضرُّ ولا تَنفع . لذلك تعجَّب الصحابةُ من كلامه الذي جاء في سِياق السُّخرية والتشويق . وقد فسَّر الأمرَ بشكل طريف . فقد

صَنَعَ في الجاهلية صَنماً مِنَ الْحَيْس، (وهو الخَلْطُ وتَمْرٌ يُخْلَطُ بِسَمْنٍ وأقِطٍ فَيُعْجَنُ بِشِدَّة) . فجاءَ القحطُ، وسَيطرت المجاعةُ على المجتمع، فما كانَ مِنه إلا أن أَكَلَه على دفعات. وهنا تَكمن المفارَقةُ، وتَبْرز الكوميديا السَّوْداء . فالمفروضُ _ في البيئة الجاهلية _ أن الصَّنم هو الإله المعبود ، المحاط بالقداسة والتعظيم والاحترام . أمَّا في هذه الحالة فصارَ مَخْزوناً إستراتيجياً من الطعام ، وتَمَّت الاستفادة منه في وقت الجوع ، حيث أُكِلَ بالتقسيط ، فلم يَقْدِرْ أن يُدافع عن نفْسه ، ولم يَقْدِر أن يُدافِع عن المؤمنين بِه . وصارَ الصَّنمُ المقدَّسُ طَعاماً ، يَسير في أمعاء الإنسان ، ثُمَّ يُطرَح في الخلاء .

ومن القصص الجاهلية الطريفة التي كانَ الصحابةُ يتندرون بِها ، ويَضحكون بسببها ، قصة الصحابي راشد بن عبد ربِّه _ رضي الله عنه _ . ففي الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٣٠٨) : [وكان راشد يَسْدُن صَنماً لبني سُلَيم، فرأى يَوماً ثعلبَيْن يَبُولان عَلَيْه فقال : أرَبٌّ يَبولُ الثُّعلبانُ برأسه ... لقد ذَلَّ مَن بَالَت عَلَيْهِ الثعالبُ . ثُمَّ شَدَّ عَلَيْه ، فَكَسَرَه ، ثُم أتى النبيَّ ﷺ ، فقال له : ((ما اسْمُك ؟)) ، قال : غاوي بن عبد العُزَّى ، قال : أنتَ راشد بن عبد رَبِّه ، فأسلمَ ، وَحَسُنَ إسلامه ، وشهدَ الفتحَ معَ النبي ﷺ] اهـ .

كان راشد يَخدم صَنَماً لبني سُلَيم . والجديرُ بالذِّكر أن كُلَّ قبيلة عربية في الجاهلية ،كانَ لها صنم أو أصنام خاصة بها . وقد رأى راشد في أحد الأيام ثعلبين يَبولان على الصنم الذي يَخْدمه ويَعتني بِه ، والذي يُقدِّسه بنو سُلَيم . وقد تأثَّر بهذا المشهد المقزِّز . فهذا الرَّبُّ المزعوم صارَ مكاناً للبَوْل والقذارة، ولم يُدافِع عن نفْسه ، ولم يَقْدر على تطهير ذاته . وقد أدركَ راشد في تلك اللحظة أن هذا الصنم إلهٌ وهمي، لا يَستحق العبادةَ، فهو لم يُدافِع عن نفْسه، وبالتالي ، لنَ يُدافِع عن المؤمنين بِه . ولا فائدة من إلهٍ عاجز عن حماية نفْسه وحمايةِ المؤمنين به. لذلك قام بكسره ، وجاءَ النبيَّ ﷺ من أجل اعتناق الإسلام . وقد قامَ النبيُّ ﷺ بتغيير اسْمِه القبيح المرتبط بالغواية والانحراف وعبادة الأصنام ، ومَنَحَه اسماً جميلاً يُمثِّل معنى الرَّشادِ والهدايةِ وعُبوديةِ الله تعالى .

ومنهجُ تذكُّر الأحداث الشخصية في الجاهلية ليس خاصاً بالصحابة _ رضي الله عنهم _ . فالنبيُّ ﷺ سَرَدَ بعضَ ذِكرياته الشخصية في الجاهلية . وهذه الذكرياتُ الماضية عِبارة عن تاريخ ، ولا بُد من دراسته وتحليله والاستفادة مِنه . فعن علي بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ قال : سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((مَا هَمَمْتُ بِما كان أهل الجاهلية يَهُمُّون بِه إلا مَرَّتَيْن من الدَّهر ، كِلاهما يَعْصِمُني اللهُ تعالى مِنهما ، قلتُ لَيْلةً لفتىً كان معي من قُرَيْش في أعلى مكة في أغنام

لأهلها تُرْعَى : أَبْصِرْ لي غنمي حتى أَسْمُرَ هذه الليلة بمكة ، كما تَسْمُر الفِتيان ، قال : نعم . فخرجتُ ، فلمَّا جِئتُ أدنى دار من دُور مكة سَمعتُ غِناءً ، وصوتَ دُفوف وزَمْر ، فقلت : ما هذا ؟، قالوا : فلان تزوَّجَ فلانة ، لِرَجُل مِن قُـرَيْش تزوَّجَ امرأة ، فَلَهَوْتُ بذلك الغِناء والصوت حتى غلبتني عيني فنمتُ ، فما أيقظني إلا مَس الشمس ، فرجعتُ فَسَمعتُ مِثلَ ذلك ، فقِيل لي ما قِيل لي ، فلهوتُ بما سَمعتُ ، وغلبتني عيني فما أيقظني إلا مَس الشمس ، ثم رَجَعْتُ إلى صاحبي فقال : ما فَعلتَ ؟، فقلتُ : ما فعلتُ شيئاً)) . قال رسولُ الله ﷺ : ((فَوَاللهِ ما هَممتُ بعدها أبداً بِسُوء مِمَّا يَعمل أهلُ الجاهلية ، حتى أكرمَني اللهُ تعالى بِنُبُوَّته))(*) .

إن اللهَ تعالى قد حَفِظَ النبيَّ ﷺ قبل البِعثة وبعدها . وقد صانه سُبحانه من انحرافاتِ الجاهلية وآثامها . فاللهُ تعالى كانَ يُهَيِّئُ مُحمَّداً لحمل النُّبوةِ والرسالةِ الإلهية الخاتَمة ، وقيادةِ الإنس والجن إلى توحيد الله تعالى . لذلك فقد عَصَمَه اللهُ تعالى من الكبائر والصغائر ، وحَفِظَه في الجاهلية والإسلام . وقد عُرِفَ في قَوْمه _ أثناء مرحلة الجاهلية _ بالصادق الأمين ، وأنه صاحب الْخُلُق الرفيع ، الذي يَمتاز بالقَوام الحسَن والوجهِ الجميل الذي لم يَسْجَدْ لصنم قَط . وقد جَمَعَ مُحمَّد في الجاهلية المجدَ مِن كُل أطرافه ، وتحلَّى بكل الصفات الحسَنة التي تَجْذب الآخرين . وهذه مؤشرات باهرة على عِناية الله تعالى بِه ، وتطهيره حتى يُصبح النبيَّ الخاتَم ، الذي سَيَحْمل الشريعةَ الإلهية الناسخة لكل الشرائع السابقة .

وقد عَرَضَ النبيُّ ﷺ بَعْضاً من ذِكْرياته الشخصية في الجاهلية ، وكانَ بِإمكانه أن يُخفيَها ، ولا يَتحدث بها . ولكنَّ النبيَّ ﷺ ليس لَدَيْه ما يُخفيه أو يَخجل مِنه . فهو الشريف الطاهر ، والصادق والأمين . وتاريخُه في الجاهلية والإسلام ناصعُ البَياض ، لا توجد فيه أيَّةُ نقطة سَوْداء .

وقد هَمَّ النبيُّ ﷺ أن يُشارك أهلَ الجاهلية ببعض أفعالهم، فهو ابْنُ بِيئته ومُجتمعه . وأفرادُ هذا المجتمع الجاهلي _ أولاً وأخيراً _ هُم أقاربه وعَشيرته . وقد تاقت نَفْسُ النبي ﷺ _ بِحُكْم الطبع

(*) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٣) برقم (٧٦١٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن حزم في الفِصَل في المِلَل (٤/ ٢٥) : ((فصحَّ أنه _ عليه السلام _ لم يَعْصِ قَط بكبيرة ولا بصغيرة ، لا قَبْل النُّبوة ولا بعدها ، ولا هَمَّ قَط بمعصية ، صَغُرَت أو كَبُرَت ، لا قَبْل النُّبوة ولا بعدها، إلا مَرَّتَيْن بالسَّمَر، حيث رِما كان بعض ما لم يكن نهي عنه بَعْد ، والْهَمُّ حينئذٍ بالسَّمر ليس هَمّاً بِزنا، ولكنه بما يَحذو إليه طَبْع البَرِيَّة من استحسان مَنظر حَسن فقط)) اهـ .

الإنساني والطبيعة النَّفْسية_ إلى السَّهر والمسامَرة (الحديث بالليل) كما يَفْعل مَن هُم في مِثْل سِنِّه. ولا يخفَى أن الإنسان يتأثر بأبناء جِيله ، خصوصاً في مرحلة الصِّبا والفُتُوَّة والشباب . وقد اكتفى النبيُّ ﷺ بالاستمتاع بالغِناء الصادر عن حفلة الزَّواج. ولا شَكَّ أنهُ غِناء بعيد عن الوقاحة والمجون. فالحفلةُ حفلةُ زواج ، ولا بُد أن يَكون الغِناء يُجسِّد معاني الفرح ، والترابط الاجتماعي ، وتكوينِ أُسرة جديدة . وقد عَصَمَ اللهُ النبيَّ ﷺ مِن كُل سُوء، وأبعدَ عنه أوساخَ الجاهلية. وقال ابن إسحاق في سِيرته (١/ ٥٧): ((فَشَبَّ رسولُ الله ﷺ يَكْلَؤه اللهُ، ويَحْفظه، ويَحُوطُه من أقذار الجاهلية ومعايبها ، لِمَا يُريد به من كرامته ورسالته ... حتى بلغ أن كان رَجلاً أفضل قَوْمه مُروءة ، وأحسنهم خَلْقاً ، وأكرمهم مُخالَطة ، وأحسنهم جِواراً ، وأعظمهم خُلُقاً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش ، والأخلاقِ التي تُدَنِّس الرِّجالَ ، تَنَزُّهاً وتَكَرُّماً ، حتى ما اسْمُه في قَوْمه إلا " الأمين "، لِمَا جَمَعَ اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ فِيه من الأمور الصالحة)) اهـ .

والجاهليةُ دائرةٌ مُغلَقة ، ونظامٌ محصور في الأوهامِ الذهنية والعاداتِ الاجتماعية البالية . فمصلحةُ الفرد مرتبطة بمصلحة القَبيلة في الخير والشر . وإذا أدركْنا المصلحةَ الفردية المرتبطة بالصُّوَر الاجتماعية ، أدركْنا كيفيةَ التحول النَّوْعي من انهيار الفرد إلى انهيار الجماعة الحاضنة للأحلام الفردية . وهذه المنظومةُ الواهيةُ هي الأساس الفكري لفوضى التشريع الجاهلي .

وعن حُذَيْفة قال:قال رسول الله ﷺ: ((لا تَكُونوا إمَّعَة، تَقولون: إنْ أحسنَ الناسُ أحْسَنَّا، وإنْ ظَلموا ظَلَمْنا، ولكنْ وَطِّنوا أنفسَكم، إن أحسنَ الناسُ أن تُحسِنوا، وإن أساءوا فلا تَظلموا))(**).

والإمَّعةُ هو الشخص الذي ليس له رأي ، وإنما يُقلِّد الآخرين بدافع الجهل أو الهوى أو العَصبية القَبلية . وهذا النمطُ كان منتشراً بكثرة في الجاهلية القائمة على تغييب العقل . وهذا النمطُ السَّلبي مرفوضٌ في الإسلام، لأن الإسلام أمرَ الناسَ بالتفكير ، واتخاذِ القرارات بناءً على اليقين لا الشَّك ، ورفضِ الأهواءِ والشُّبهاتِ . فينبغي توطينُ النَّفْس (حَمْلها) على اتِّباع الحق في كل الحالات . فالرِّجالُ يُعرَفون بالحق ، والحقُّ لا يُعرَف بالرِّجال . لذلك هَدم الإسلامُ المنطقَ الجاهلي القائم على الجهل والعصبية القَبلية ، والذي عبَّر عنه الشاعرُ بقَوْله :

وَهَلْ أنَا إلا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

(**) رواه الترمذي في سُننه(٤/ ٣٦٤)برقم (٢٠٠٧)، وقال: ((هذا حديث حسن غريب)) اهـ. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣١): ((رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن)) اهـ .

الفساد القلبي

إن القلب هو المحور والركيزة في التعامل مع الأمور . ويرجع ذلك إلى كَوْنه القوة العاقلة التي تَزِنُ الأعمال وتَحكم عليها . وكل فساد إنما منبعه من القلب. والتجمعات الجاهلية كانت تستند إلى قلوب قاسية فاسدة ، عشعشت فيها أدغالُ الخرافة والشكوك والاعتقادات التالفة . فالبيئة المبنية على أساسات فكرية ركيكة لا بد أن تُنتِج مُكوِّناتٍ ذهنية سامة تتوزع على محيا الإنسان ، وتسيطر على فكره وظنونه واعتقاداته . وكل المدلولات السالبة تتجمع في هذا الجسد المصبوغ بالقلب الخراب وتوابعه من أعمال شريرة وسلوكيات شائنة . والبيئةُ تجسيد ملموس للعقيدة ، فإن كانت العقيدة زائغة جاء الواقع مؤلماً مفكَّكاً ، وإن كانت سليمة جاء الواقع طَيِّباً يَتَّسع للجميع .

وقال اللهُ تعالى مُوضِّحاً العقيدة الجاهلية بكل قُبحها: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

أي إنَّ المنافقين الذين تبنوا العقائد الجاهلية يظنون بالله تعالى ظنوناً سيئة . وهذه الظنون تتم إعادة إنتاجها في كل العصور من قبل أهل الشكوك وأصحابِ العقائد الزائغة الذين يحاولون ترويجها ونشرها في التجمعات البدائية من أجل بسط النفوذ على عقول الناس ، والتحكم بمصائرهم ، وتقسيم المجتمع إلى سادة لا يُسألون عما يفعلون ، وعبيد لا يَجرؤون على رفع رؤوسهم في وجه جلاديهم . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٥٤): ((وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لَمَّا ظَهروا تلك الساعة أنها الفَيْصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الرَّيْب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة)) اهـ .

وكلُّ فردٍ متزعزع العقيدة غير ثابت الوجدان ، سوف يَسقط _ حتماً _ في ظن الجاهلية ، ويَغرق في الشكوك والشبهات . إذ إن فساد العقيدة يُضعف الجبهةَ الداخلية في الذات البشرية ، مما يؤدي إلى الارتباك عند الشدائد ، والسقوطِ المريع أمام الأزمات . وهذا بالتأكيد يَقتل الروحَ المعنوية للفرد والجماعة ، ويَقود إلى تشتيت الجهود المجتمعية، وتفرقةِ الصف الإنساني ، وبثِّ اليأس والقنوط والانكسار في الحياة الاجتماعية . وهذه هي الضربة القاضية التي تُنهي تماسكَ المجتمع ، وتجعله هَشَّاً أمام العواصف .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٥٨٩) : ((﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ ، هذه الجملة في محل نصب على الحال : أي : يظنون بالله غير الحق الذي يجب أن يُظَنَّ به ، وظن الجاهلية

بدل منه وهو الظن المختص بملة الجاهلية ، أو ظن أهل الجاهلية ، وهو ظنهم أن أمر النبي ﷺ باطل ، وأنه لا يُنصَر ، ولا يتم ما دعا إليه من دِين الحق)) اهـ .

وهنا يَبْرز الفرق بين أهل الجاهلية وأهلِ الإسلام . فأهلُ الجاهليون غاطسون في سوء الظن بالله تعالى، والنظرِ إلى شريعته الخالدة على أنها أضغاث أحلام سُرعان ما تَذهب أدراج الرياح . أمَّا أهل الإسلام فهم يُحسِنون الظن بالله تعالى ويَعرفون _ حَقَّ المعرفة _ أن الشريعة ظاهرة ، وأن أمر النبي ﷺ حق لا جِدال فيه. وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٥) : عن جابر بن عبد الله الأنصاري _ رضي الله عنه _ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ قَبْل مَوْته بثلاثة أيام يقول : ((لا يَموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِن الظنَّ بالله _ عَزَّ وجَلَّ _)) .

وهذا تحذير من اليأس من الرحمة الإلهية، والقنوطِ من عفو الله تعالى، وتنبيه على أهمية الرَّجاء عند الخاتمة (نهاية مسيرة الإنسان على هذه الأرض) . فعلى المرء أن يظن أن الله تعالى سيرحمه ويَعفو عنه .

وعن أبي طلحة قال : ((غَشِيَنا النعاسُ ، ونحن في مَصَافِّنا _ يعني مواضعنا _ يوم بدر . فكنتُ فيمن غَشِيَه النعاس يومئذ ، فجعل سيفي يَسقط من يدي ، وآخذه ويسقط وآخذه . والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هَم إلا أنفسهم ، أجبن قوم وأذله للحق ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، أهل شك وريبة في أمر الله))[1].

والقلب دائماً متعلق بما أُودع فيه. فإن زرعتَ فيه شكاً وريبة، حصدتَ تخاذلاً ما بعده تخاذل. وإن زرعتَ فيه يقيناً راسخاً حصدتَ كل خير . ولا يخفى أن الشك آفة كل قلب، إذ إنه يقوم بزعزعة الإيمان القلبي وامتصاصه تدريجياً إلى أن يصبح القلبُ منكوساً . وهذا ما حصل للكثيرين طوال فترات التاريخ المتعاقبة . وأهل الشِّرك في الجاهلية كانوا يفتقدون إلى اليقين التام والإيمان الخالص ، فأصابتهم لَوْثةُ الشِّرك المقيت ، وجعلوا في كل أعمالهم التعبدية شركاء لله تعالى _ بزعمهم _. وهؤلاء المشركون موجودون في كل عصر. وهناك عدة دوافع لشِركهم . الدافع الأول : نزعة النَّفْس إلى التجسيد والتجسيم القريب إلى متناول اليد فكانت الأوثان المادية المحسوسة. والثاني:غياب المرشد الأمين والواعظ الناصح. والثالث : انهيار القيم العقلانية بشكل عام مما أدى إلى فهم مُشوَّش للأُلوهية .

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٤٥) برقم (٧١٨٠) .

وهذا كله أوصلهم إلى عبادة تالفة مُتوارَثة ما أنزل اللهُ تعالى بها من سُلطان . فالعبادات الوثنية عبارة عن خليط من الحق والباطل بدون منهج واضح. قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلا وَهُم مُشْرِكُون ﴾ [يوسُف : ١٠٦] . فأهل الجاهلية يؤمنون بأن الله تعالى هو الخالق ، وهو الذي يَرْزقهم ، ويُميتهم ، لكنهم يُثبِتون له شُركاء ، فيعبدونهم لِيُقرِّبوهم إلى الله تعالى .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٨٤٣): عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : كان المشركون يقولون : لَبَّيْكَ لا شريك لَكَ . قال : فيقول رسول الله ﷺ : ((وَيْلكم ، قَدْ قَدْ)) . فيقولون : إلا شريكاً هو لَكَ ، تَملكه وما مَلَكَ . يقولون هذا وهُم يَطوفون بالبيت .

فالنبيُّ ﷺ يُريد أن يَمنعهم من الإشراك بالله تعالى . ومعنى كلامه ﷺ : كفاكم هذا الكلام، وتوقَّفوا عنده . فالعِبارةُ الأُولى التي قالها المشركون عِبارة رائعة ، وهي: " لَبَّيْكَ لا شريك لَكَ "، ولو سَكتوا بعدها لكان خَيْراً، ولكنهم أَبَوْا إلا أن يُشرِكوا بقولهم : " إلا شريكاً هو لَكَ ، تَملكه وما مَلَكَ " . فَحَسْب اعتقادهم هناك شريك لله تعالى ، ولكنه مِلْكٌ لله الذي يَمْلكه وما مَلَكَ . وهكذا كانت تَلْبية المشركين ، وهُم يَطوفون حول الكعبة .

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٢/ ١١٤٤) : ((وفي حديث تَلْبية الجاهلية " لَبَّيك لا شريك لَكَ ، إلا شريك هُوَ لَكَ تَمْلِكه وما مَلَك ". يَعنون بالشَّريك الصَّنَمَ ، يُريدون أن الصَّنم وما يَملِكه ويَختصُّ به من الآلاتِ التي تكون عنده وحَوْله ، والنُّذورِ التي كانوا يتقرَّبون بها إليه مِلْكٌ لله تعالى فذلك معنى قولهم : " تَملِكه وما مَلَك ")) اهـ .

والقلب دائماً على الْمِحَكِّ ، تُعرَض عليه الفِتَن ، فإمَّا أن يَنجح أو يُخفِق .

ففي صحيح مسلم (١/ ١٢٨) : أن حذيفة بن اليمان ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((تُعرَض الفتنُ على القلوب كالحصير عُوداً عوداً ، فأيُّ قلب أُشربها نُكت فيه نُكتة سوداء، وأي قلب أَنكرها نُكت فيه نُكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فِتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسْوَد مُرْبَادَّاً ، كالكُوز مُجَخِّياً ، لا يَعْرِف معروفاً ، ولا يُنكِر مُنكَراً ، إلا ما أُشرِبَ مِن هَواه)) .

فالفِتنُ مُسلَّطةٌ على هذا القلب لتختبره وتميز الخبيث من الطيب . وبعض القلوب يكون لديها قابلية واستعداد لتشرُّب الفتن، وذلك بسبب ضعفها أمام الإغراءات والأهواء التي تعصف بالكائن البشري . والنوع الآخر يمتلك حصانةً وسياجاً منيعاً يَحول دون تقبُّلها . وبالنتيجة يصير لدينا قلبان : أبيض وأسْود . ولا منطقة رمادية بينهما .

((قال القاضي عياض ــ رحمه الله ــ: ليس تشبيهه بالصفا بياناً لبياضه لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل ، وأن الفتن لم تلصق به ، ولم تؤثر فيه كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يَعلق به شيء))[2].

وقال ابنُ سراج : ((ليس قوله كالكوز مجخياً تشبيهاً لِمَا تقدم من سواده بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قُلِبَ ونُكس حتى لا يَعلق به خير))[3].

وهذه النوعيةُ من القلوب الظلامية كانت تنتشر بكثرة في البيئة الجاهلية بسبب عدم وجود التوجيه السماوي المتمثل في رسالات الأنبياء الكرام ــ عليهم الصلاة والسلام ــ . معَ العِلْم أن العرب الوثنيين قبل الإسلام كانوا يُعظِّمون البيتَ الحرام، وكانوا يحترمون أباهم إبراهيم ﷺ ، ولكن تعظيمهم لم يكن مُجدياً مع وجود أصنامهم حول الكعبة التي تطعن في التوحيد أيَّما طعن .

والفسادُ القلبي إنما ورثوه عن آبائهم الغابرين الوثنيين الذين اختطوا هذا الدرب المعتم، وتركوا أبناءهم يقتدون بهم ، عن طريق توجيههم إلى الطريق الأثيم . والأبناء يتحملون جزءاً كبيراً من المسؤولية ، لأنهم لم يُعمِلوا عقولهم ويتفكروا في طبيعة الطريق الذي يمشون فيه ، ومآلهم بعد انقضاء هذه الحياة الفانية .

وقد نعى اللهُ تعالى على المشركين اتباعهم لتقاليد آبائهم الباطلة . فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

فهؤلاء المشرِكون إذا قِيل لهم : اتَّبِعوا الوحي السماوي، والتزِموا بدِين الإسلام، وابْتَعِدوا عن الشِّرك والأصنام . قالوا : بل نتَّبع دِينَ آبائنا الذي وَرِثْناه . وكيف يقومون باتِّباعهم وآباؤهم جُهَّال لا عقول لهم ؟!. والعاقلُ يَتَّبع أصحابَ العقول ، ويَسير على خُطى العلماء ، ولا يَسير وراء العوام والجهَّال والمنحرِفين عَقَدياً .

كما أن العاقلَ يَتْبع الدليلَ النَّقلي والعقلي ويسير على بصيرة ، ولا يمشي وراء هواه ومِزاجه . ونلاحظ أن هؤلاء المشركين لم يُقدِّموا دليلاً عِلمياً على اتِّباعهم لآبائهم، ولم يَعرِضوا براهينهم الدِّينية وحُججهم المنْطقية ، وإنما اكتفوا بالتقليد الأعمى بعيداً عن المنهج العِلمي. وهذا مُؤشِّرٌ

---

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٧٢) .

(٣) المرجع السابق (٢/ ١٧٣) .

باهر على أن دِين أهل الجاهلية مبني على التقليد الأعمى، والعصبية القَبَلية ، وتقديسِ المؤروث التاريخي الوهمي ، واعتناقِ كلام الناس بلا تفكير ، والسَّيْرِ على خُطى الآباءِ والقبيلة بلا بصيرة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٧) : ((نَزلت في المشركين أُمِروا باتِّباع القُرآن ، وسائر ما أَنزل اللهُ مِن الحُجج والآيات ، فَجَنحوا إلى التقليد)) اهـ .

وكما قال الشاعر :

وَمَن يَكُن الغرابُ له دَليلاً يَمُرُّ بِه على جِيَفِ الكِلابِ

وتؤثر محتوياتُ القلب على المحيط الخارجي المكوَّن من أنماط حياتية مختلفة نابعة من العقيدة . فالجماعات الجاهلية تمارس أنشطتها بناءً على ما ورثته من تقاليد وعادات تُمثِّل بالنسبة للكائن الجاهلي نصاً دينياً مقدَّساً لكنه غير مُدوَّن . إن القابلية للفساد والإفساد لها مفعول شديد على التجمعات البشرية ، حيث يتم في أفلاك هذه القابلية قيادة الإنسان نحو التنازل عن قوته العاقلة لصالح العقل الجمعي في بيئته المعاشة ، وبالتالي ينعدم إحساس المرء بفطرته ، ويزداد إحساسه بالقبيلة والمفردات الاجتماعية الجارفة ضمن مدارات بالغة الانغلاق والتَّقَوْقُع . وهذا الانغلاق يفرض عزلةً قاسية على قدرة العقل على امتصاص المعطيات المختلفة ، ويلعب دوراً فعالاً في ارتداد الفرد إلى أنوية العناصر الاجتماعية الأولية مثل : الأسرة والقبيلة . فالوصاية التي يمارسها الفكرُ القَبَلي على عقول الأتباع تؤدي بالنهاية إلى كائن مسخ فاقد الهوية الذاتية ، وعائش في الخطط المرسومة من قِبَل الآخرين . إنه انصهار مؤلم للفرد المعطَّل في وعاء القبيلة المستندة إلى وُجهة فكرية جمعية منحرفة.وهذه العوامل الطاغية تؤدي إلى مرحلة الإنسان الإمَّعة الذي يمتاز بإنسانية منقوصة، والذي يقول كما يُقال،ويمشي مُغمَض العينين في الطريق الذي يحدده الآخرون.

والقلب بفِطرته يميل إلى الخير، إلا أن الهوى والشهوة حينما تدخلانه تُفسدانه فتبدأ الانهيارات المتسلسلة في المفاهيم القِيَمِيَّة لدى الفرد . فكل بيئة هي نتاج للحالة القلبية ، فمن كان ذا قلب مريض _ والمرض هنا ليس مادياً بل معنوياً _ ، سوف تتأثر أفعاله الحياتية سلباً. وسوف يصبح مِعْولَ هدم في السور الاجتماعي الذي تتحصن وراءه المجموعات البشرية. وبسبب هذا الأمر تبزغ الظواهر السالبة والعد التنازلي لوجود الجماعة الإنسانية . كما أن الممارسات المتفاعلة مع العناصر المحيطة تصير مشوَّشة نتيجة اختلال منظومَتَي المدخَلات والمخرَجات. وهذا يُفضي إلى تدمير منهجي للحضارة الإنسانية ، وإضاعة لكل المعارف المتراكمة عبر الأزمنة .

والوقائع الكامنة في بُنية العلاقات بين الأفراد سوف يَشُوبها الكثير من الخلل والاضطراب اللذين يؤديان إلى فقدان الفرد لسيادته ونفوذه على عقله وواقعه، فتخسر الجماعةُ إبداعاً محتمَلاً، وتُهدر قدرات ذاتية تفاعلية دون سبب ، ويصبح الانتماء قسرياً ونفعياً بالمقام الأول ، فالفرد ينتمي إلى الجماعة رغماً عنه وليس بإرادته . وما يدفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على تحقيق منافعه الشخصية الضيقة بمفرده ، فينتمي إلى الجماعة لكي تصير له سُلَّماً يتسلق عليه ، ضارباً بعَرْض الحائط كل القيم النبيلة العامة التي تمس الجماعة بوصْفها شكلاً تعبيرياً للوجود الإنساني في هذه الحياة . والمدلولات غير القادرة على إعادة صياغة العلاقات الإنسانية ، تصير عبئاً ثقيلاً على كاهل الفرد المنتمي إلى التجمع البشري ، وصولاً إلى مرحلة يصبح فيها الانتماء ذاته عبئاً على الفرد التائه وسط غابة من التناقضات القاتلة ، والمفارَقاتِ العنيفة ، والأضدادِ الشرسة .

وفي ظل انطفاء الشعور القلبي فإن انطفاءً صادماً سيظهر في منظومة الحواس برفقة فوضى عارمة تضرب المساحاتِ الوجدانية للذاكرة الفكرية . فيغدو الفردُ مجرَّد رَجْع صدى خالٍ من المعنى، وبالتالي يتجذر القلب كجزء من المشكلة لا الحل. أي إن الإفرازات السلبية في مساحات القلب الإنساني سوف تتراكم لِتُنتج إنساناً مسخاً فاقداً للمعنى الحياتي ، وغير شاعر بحجم التحديات المصيرية الوجودية التي تعترض طريقه ، وتهدد مستقبله الآدمي . مما يؤدي _حتماً_ إلى إنتاج إنسان فاقد لشرعية وجوده .

وبما أن القلب هو المحور المركزي في صناعة الحضارة الإنسانية على المستوى الفردي الشخصاني ، والمستوى العمومي الشَّعبي ، فمن الطبيعي أن يتصدر قائمةَ المستويات الشعورية الدافعة إلى الإنتاج والتحديث والتأطير الاجتماعي ضد الفعل الأسطوري الديناميكي . لذلك فالتعويل على النقاء القلبي من أجل بَثِّ الروح المعنوية الهادرة في أوصال الحياة المجتمعية ، يكتسب مزيداً من الأهمية مع مرور الوقت نتيجة ازدياد الحاجات الإنسانية إلى الراحة النفسية الجوانية في مجتمع مادي ميكانيكي مُتكلِّس في قيود شهوتَي البطن والفَرْج .

ومن هنا تنبع أهمية التأطير الإنساني العميق المستند إلى القوة القلبية العاقلة لإخراج الفرد من مأزقه الداخلي الصادم ، وإتاحة الفرصة له من أجل مزيد من الإبداع الحضاري ، وبناء المجتمع الإنساني المنشود المبني على قيم الحضارة المؤمنة المتصلة بالوحي السماوي الحقيقي لا المتخيَّل . ولا يمكن للحضارة أن تتكرس إلا بتكريس العدالةِ الاجتماعية وتكافؤ الفرص، وبناءِ العلاقات المتوازنة بين السُّلطة الرسمية والسُّلطة الشعبية . وهذه القِيَمُ تَمنح الفردَ القُدرةَ على

الخروج من عباءة خَوْفه ، والخروجِ من المنفَى الكامن في داخله . والتأطيرُ الجاهلي المصادِم للفعل العقلاني المؤمن ، تكمن خطورته المركَّبة في الاعتماد على تحييد القلب الإنساني (القوة الشعورية العاقلة) ، والتركيز على المعقولية الغريزية الشهوانية التي تخترع أنظمةً منسوبة إلى الفعل العقلي ، ومحتوية على الاندفاع الهستيري للشبق الشهواني غير المنضبِط . لذلك فشلَ المشروعُ الجاهلي في صناعة حضارة إنسانية متحرِّكة ، ولم يَقْدر على الخروج من ثقافة رعي الغنم بكل إفرازاتها السُّلْطوية البدائية ، وانعكاساتها السياسية المتمركزة حول بدائية الفعل الإنساني البسيط العاجز عن مواكبة الزمان (التاريخ) والمكان (الجغرافيا) .

إن العقل الجاهلي الوثني لم ينطلق من صفاء النظرة القلبية ، بل انطلق من قيمة التمركز حول الشهوة المقدَّسة حسب الموروث الجاهلي التركيبي . أي إن المفردات الحياتية المتدفقة في وعي الإنسان العربي البِكْر المحصور في الصحراء المعزولة بالكامل عن سياقات المسار الحضاري الكَوْني ، هي مفردات بالغة التشويش لأنها مستندة إلى وعي استباقي مغلوط شديد السطحية والضحالة . وهذا يعود إلى عوامل كثيرة من أهمها : تَقَوْقُعُ المسارات العقلانية حول شرعية شيخ القبيلة (مَصْدر السُّلطات الخيالية والواقعية)، وغيابُ المرجعية الفكرية الناقدة لطبيعة أفعال الحواس، مما أدى إلى سيطرة الارتجال على الفِعل الحياتي المعاش ، واختفاءِ المسار القادر على اختراع وجهة الرؤية وتثبيتها واقعاً ملموساً ذا أبعاد مستقبلية هادفة .

والإشكاليةُ الفكرية العنيفة التي قادت إلى فوضى في أنظمة بناء الجوارح البشرية، هي الإغراقُ الفلسفي في نفي القلب عن المعنى الشعوري العمومي ، والاعتمادُ بالكلية على تفاصيل المشاعر الخام في إعادة رسم خارطة أبعاد الحضارة الجاهلية اللاحضارية .

والمبدأُ الذي يعيد تشكيل المنحى الروحي للضمير الجاهلي الداخلي ، هو تكريس قتل الضمير باسم القبيلة ، مما يؤدي ــ بالضرورة ــ إلى قَوْلبة الروح الفكرية الوثابة في كيانات سياسية مدفوعة بأجندة عُرْفية مستقاة من اتجاه القبيلة الفكري الوثني ، وسياستها حيال القضايا المصيرية ، ومكانتها بين القبائل ، في ظل منظومة الصراع المحتدمة بين العائلات الكبرى والعائلات الصغيرة المنضوية تحتها بُغية تقاسم النفوذ ، والسيادة على المقدَّسات ، والسيطرة على الشعائر الوثنية . مع العِلم أن طبيعة الشعائر التي تنحو منحىً أيديولوجياً متماهية مع أبعاد العادات والتقاليد والأعراف القَبَلية الستاتيكية (الساكنة) ، والمتجمدة في القوالب الذهنية الافتراضية المحالة إلى أبعاد دينية وثقافية واجتماعية . ومما لا شك فيه أن إبعاد القلب عن منظومة الحواس،

أدى إلى إشاعة جو من الفوضى والعبثية في الفعل الاجتماعي البشري ، فانتشر الارتباكُ الواضح في صيغ الأفعال الجاهلية المندمجة مع التيارات الوثنية الأيديولوجية . لذلك تفشَّى في أوصال الحضارة الجاهلية الوثنية اللاحضارية مبدأُ معاداة الحواس ، وقمعِ الجوارح البشرية بُغية تأسيس انهيار شهواني صارم مصبوغ بالتعاليم البدائية العُرفية للذات الصَّنمية . والجديرُ بالذِّكر أن القلب الصافي لا يمكن أن يجتمع مع الذات الوثنية داخل الكيان البشري الحر . وبالإضافة إلى هذا ، فإن غياب القلب القادر على صناعة تحولات الجماعة الفكرية ، قاد إلى عبودية جديدة لا تدور حول قداسة الوثن في المنظور الفلسفي الجاهلي فَحَسْب ، بل تدور كذلك حول سُلْطة شهوة اتباع الهوى ، واختراعِ عقائد اختزالية انكماشية قادمة من الآراء الشخصانية المفتقدة إلى الوعي المنطقي الحر والحاسم . وتجذيرُ المشاعر الداخلية في البيئة الصَّنمية المبنية على شرعية الموروث الهلامي المقدَّس ، قد تم اعتماده كصيغة للتشريع الجاهلي ، لأن اتباع الهوى هو التأسيس اللفظي والمعنوي للحياة البدوية البدائية في الجزيرة العربية المعزولة عن أماكن صنع القرار . وبالتالي أصبحت القيمةُ الشعورية الداخلية جزءاً لا يتجزأ من النظام التشريعي الرسمي للعقلية العشائرية الحاكمة على أنساق التحولات البشرية ، في البيئة الوثنية المقتولة القاتلة أو القاتلة المقتولة ، في ظل اختلاط مريع بين الفعل ورد الفعل بسبب غياب منهج الترتيب العقلاني ، وهذا جعل من ثنائية (التابع / المتبوع) إشكاليةً لفظية غارقة في جدلية العناصر السابقة واللاحقة . وهذا يُفسِّر عدم قدرة حواس النسغ الجاهلي على مواكبة العصر أو التأثيرِ في سَيْر الحضارة العالمية.

إن المنهج العلمي التثويري الرامي إلى التغيير ، لا يمكن أن ينال شرعية اسمه ووَصْفه إلا من خلال خطوات عقلانية تراتبية . أي إن مفهومية الترتيب الواعي للأفكار الثورية الطامحة إلى التغيير هي حجر الأساس المركزي في بناء الصيغ الرمزية والواقعية . ومن خلال هذه الرؤية نفهم عجز المجتمعات الجاهلية الشكلية عن تشييد مجتمع حقيقي واعٍ ومتماسك ، ويتمتع بالاستمرارية المعنوية والمادية . فالطبيعةُ الوثنية المختلطة بالأبعاد المجتمعية فشلتْ في صناعة مجتمع الصفاء الروحي ، والنقاءِ القلبي ، والعدالةِ الاجتماعية ، والتنميةِ المستدامة على صعيد الإنسان والبيئة ، لأن الصيغة الرمزية لانعكاسات السُّلطة الوثنية لم تَقْدر على ترتيب خطوات منهجية لبناء العناصر الحضارية باتزان ، وهذا يُفسِّر غُربةَ العربي القديم في بيئته الجارحة ، وغُربةَ البيئة البدوية الصحراوية في نفوس أبنائها . فلم يَظهر مفهومُ الانتماء إلا كعصبية قَبَلية ، والتفاف شَعْبَوِي

مهووس حول شيخ القبيلة ، باعتباره رأس الأمر ، والحامل للمظهر الاجتماعي المتماسك أمام باقي القبائل . وأيضاً انحصرت المعقوليةُ الانتمائية إلى البيئة الحاضنة ، كسياقٍ شِعري مشتمل على التمسك بالأرض الحاملة لذكريات الطفولة ومراتع الصبا والحب الأول والسُّلالة العائلية . وتمسُّكُ العربي الجاهلي بوطنه وأسرته لم يأت استناداً إلى وعي إنساني تراتبي ومنهجي ، بل جاء كوعي تقليدي ارتجالي خام يَتبع نداءَ الغريزة ولا يَتبع نداءَ العقل ، بسبب افتقاد الفرد الجاهلي البدائي إلى الإفرازات المنطقية لمنظومة القلب الحاكم على الحواس والرغباتِ والمشاعرِ والتأطيراتِ المجتمعية . وينبغي القولُ إن القِيَم الفكرية الجاهلية تنطلق من المبادئ الأيديولوجية الصَّنمية ، والثوابتِ الاجتماعية الغارقة في الولاء لرأس العشيرة والسُّلالةِ العائلية المناوئة لحرية التفكير والنقد والنقض.

لذلك تكرَّسَ مفهومُ الخروج على الجماعة كإطار كارثي مرفوض ، وردة ما بعدها ردة ، لأن منظومة سياسة العقل العربي القديم في الصحراء هي متواليات تقديسية للقبيلة بغض النظر عن تصرفاتها. وهكذا يَبْرز الخضوعُ للجماعة وعدمُ نقد أفعالها كعاملَيْن رئيسِيَّيْن في تشكيل الشخصية الجاهلية القامعة المقموعة ، والهاربةِ من منهج إعمالِ العقل وتأسيسِ متواليات النقد والنقض ، خَوْفاً من أن تُصبَغ الشخصية العربية الجاهلية بالرِّدة أو الانشقاق أو الخروج على قوانين القبيلة .

إن تكريس الفساد القلبي كقوة شعورية مُحرِّكة للأنساق الجدلية الوثنية ، أفرزَ بنيةً اجتماعية مُهَلْهَلَة عاجزة عن توفير المتطلبات الحياتية الإنسانية للوعي الإنساني العمومي . لذا انحصرت الحياة العربية البدائية في ثقافة الصحراء وإفرازاتها القاسية المضادة للشعور المدني المتحضِّر ، وحُشرت الثقافة العربية العُرفية في زاوية عقلية البدو الرُّحَّل الذين لا يفهمون معنى الانتماء إلا من خلال توفر العشب ووسائلِ الحياة للأفراد والحيوانات .

وعلى الرغم من تمركز مفهوم الوطن حول الماء والعشب، إلا أن ذهنية التعلق بالوطن مفتوحة على مجالات نفسية أخرى أكثر التصاقاً بالوعي الغريزي الذكرياتي الداخلي . وفي ذلك إشارة إلى بقايا الإحساس القلبي الجواني القادر على توليد شعور إنساني رمزي يدل على الارتباط الوثيق بين الذات الفكرية للفرد البدائي وبين الوعي الاجتماعي المحيط .

ومن خلال نمو تيار الديناميكية المشاعرية في الكيان الإنساني ، تتجذر أهميةُ المستويات الفكرية المنبثقة عن القلب، لأن القلب هو المفتاح الشعوري لاجتماعيات اللغة الرمزية المعاشة على مستوى الشكل والمضمون ، أو القالب والمحتوى. وليس المقصود باللغة _ في هذا المقام

_ الترتيب الأبجدي المتشكل على صورة وسيلة تخاطب، وإنما الوعي الكلي المنتشر في أوصال المجتمع نظاماً إنسانياً حياتياً بكل تفاصيله وتناقضاته . فاللغةُ الرمزية هي محيطُ التواجد الإنساني الفعال ، وشرعيةُ الوجود البشري بغض النظر عن الطبيعة الأخلاقية للفعل البشري .

وقد تم تأصيلُ المنحى الفلسفي للتناقض الحياتي في وجوديات العرب البدائيين بفعل غياب التنسيق المشترك بين الوعي القلبي للجماعة البشرية ، وبين اللغةِ الرمزية لتقاطعات التاريخ والجغرافيا على الجسد البشري المحصور في متاهة الأضداد الزمانية والمكانية .

ومما لا شك فيه أن اختلاط المفاهيم في الذهنية الصَّنمية الذي يحاصر القلبَ من كل الجهات ، قد قاد مسيرةَ الحواس إلى الدرب المسدود، فأضحت علاقة الفرد(الصانع) مع الوثن (المصنوع) علاقة طبقية تنزع إلى قيم الحواس السلبية. لذلك تَظهر الحضارةُ الجاهلية الوهمية كامرأة مُغْتَصَبة تنظر إلى مُغتصِبها باعتباره سَيِّدها المطْلق ومالك أمرها وقُدوتها السامية . وهذا التدجين الذاتي بالغ الخطورة ، لأنه ينطلق من القاعدة الإشكالية القاتمة : ((المغلوب مُولَع بتقليد الغالب)) .

وهذه القاعدة تتكرر بصورة هستيرية ، وتتكاثر بشكل بكتيري، في طبيعة السياق الاجتماعي للحالة الوهمية للأنا الجاهلي والآخر الوثني . فالعربي القديم ما هو إلا انعكاس سالبي للمُنْتَج الثقافي الصَّنمي ، إذ إن فساد القلب المتفشي في كل الجوارح يصنع مجالاً من الأفعال وردود الأفعال ، فيتكلس الذهنُ العربي البدائي في حالات وثنية من المد والجزر ، ضمن فوضى انعكاس الأفكار المتخيَّلة على الواقع المحسوس الجارح، وبالتالي تَثْبت الانعكاساتُ المعرفية بين الْمُنْتَجات الثقافية الصورية والذوات البشرية ، كوعي أسطوري يستمد شرعيته الخيالية من شرعية الصنم المزعومة . وهذه المتاهة الفكرية تسلب الفردَ أية قدرة على نقد الأنساق ونقضِ محتوى الهرطقات البدوية ذات الطبيعة الصحراوية ، ليس على مستوى الجغرافيا فَحَسْب ، بل أيضاً على مستوى تسلسل الوعي الرمزي . والمشكلةُ العنيفة في المتاهة المعرفية البدوية كامنة في طبيعة الحصار الفكري المفروض على الفرد والجماعة بشكل تبادلي وفق منهجية تبادل الأدوار بين السجين والسجان ، والضحية والجلاد ، والوعي المعرفي المتماسك والهرطقة ذات الصبغة العشائرية المقدَّسة .

والفردُ المحصور في دوائر الخوف لا يمكن أن يُعمِل عقلَه بسبب عجزه عن تجميع قواه الذهنية المبعثرة نتيجة التكثيف الضاغط على حرية تفكيره . ولا يمكن للحضارة أن تمتلك صُوَرَ

المستوياتِ العقلية التحليلية إلا من خلال تحريرِ اللغة الإبداعية من سَطْوة المد الأسطوري ، وتحررِ الفرد من ثنائية الخوف القاتلة (الخوف من السُّلطة الخارجية ممثلة بالعقل الجمعي الإنساني العمومي الضاغط/ والخوف من الخطأ أو الفشل) . والوصفةُ السحرية لصناعة عقل نَقدي حاسم هي اقتحام دوائر الخوف باستخدام أدوات التحليل العقلاني الواعي ، لأن أفضل وسيلة لقتل الخوف هي اقتحامه .

ومبدأُ الاقتحام غير منتشر في السياقات العربية الأولية بسبب ضغط البنى السُّلْطوية المتسلسلة (خضوع الفرد لأسرته، وخضوع الأسرة للقبيلة ، وخضوع القبيلة لشيخها ، وخضوع الشيخ لهواه) . لذا تَظهر فكرةُ اقتحام تقاطعات الخوف كمحاولةٍ انقلابية على القبيلة ، وخُطةٍ لبَعْثرة هَيْبتها أمام القبائل ، وتكسيرِ كلام شيخ القبيلة . وهذه محرَّمات كارثية قد تُطيح برؤوس في سبيل المحافظة على قداسة القبيلة كمَصْدر لتوليد المشاعر القَلْبية ، وإصدارِ القرارات الحاسمة التي تتلاعب بمصائر البشر والحيواناتِ والبيئةِ .

ومن خلال هذا الحصار يتم تقديم مبدأ السلامة على مبدأ الإبداع ، وفق منهجية الاستسلام للأمر الواقع وسياسةِ " الموت مع الجماعة رحمة " . وهذا قتلٌ للإبداع ، وقمعٌ للجوارح البشرية القادرة على التغيير . ومَن غرقَ قلبُه في مستنقع التبعية والتقليد الأعمى ، لا يمكنه أن يكون قائداً لمسيرة النهضة والتحديث ، ولن يَقْدر على كسر العزلة الصحراوية المفروضة على السياقات المجتمعية من رأس السُّلطة (شيخ القبيلة) حتى القاعدة (الرَّعاع) .

إن العقلَ الجاهلي غارق في العناد والصلابةِ الفارغة . وهذا مرجعه إلى تأثره الشديد بالبيئة العربية الصحراوية القاسية . فطِباعُ العرب الوثنيين شديدة الخشونة لأنهم نشأوا في مناخ ضاغط على الروح والبدن، وفي ظل عدم وجود حضارة ترتقي بأخلاقهم . إنهم قبائل فوضوية بدائية تفتقد إلى الروح المدنية والإسهامِ الحضاري الراقي . وليس في قلوبهم نورٌ يهديهم إلى الحق ، والتفاعلِ الإنساني الإيجابي .

قال اللهُ تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفُلْك دَعَوُا اللهَ مُخلِصين له الدِّين فلمَّا نجَّاهم إلى البَر إذا هُم يُشركون ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

فهؤلاء المشركون حينما يَركبون في السُّفن، ويخافون الغرقَ، ويَشعرون بالخطر، فإنهم يلجأون إلى الله تعالى بقلوب خالصة من شوائب الشِّرك . فحينما يخشون الغرق ، ويستشعرون بقرب النهاية ، فإنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء بكل إخلاص ، لعِلْمهم أن الله _ وَحْدَه _ هو القادر على

إنقاذهم . وهم بذلك يَعودون إلى فِطرة التوحيد. وعندما يَصِلون إلى بَر الأمان ويزول الخطر، فإنهم يعودون إلى شِركهم ،كأن شيئاً لم يكن. وهذا مردُّه إلى قلوبهم الفاسدة، وأخلاقهم اللئيمة، وسوء نظرهم في الأمور.

وفي تفسير البغوي (١/ ٢٥٥) : ((قال عكرمة: كان أهلُ الجاهلية إذا رَكبوا البحرَ حملوا معهم الأصنام ، فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر ، وقالوا : يا رَب ، يا رَب)) اهـ .

وهذا يدل على عَوْدتهم إلى فِطرة التوحيد (النواة الأساسية) التي لم تتلوَّث بالإفرازات الاجتماعية ، والتأثيراتِ الفكرية المنحرِفة . ففي لحظة الشِّدة ، عادوا إلى التوحيد ، وتخلَّصوا من الأصنام ، ودَعَوا اللهَ وَحْدَه لا شريك له . فلمَّا أنقذهم اللهُ من الغرق ، عادوا إلى الشِّرك ،كأن شيئاً لم يَكُن . وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٢٣) عن شِرْكهم : ((أي : يَدْعون معه غيره ، وما لم يُنَزِّل به سُلطاناً . وقيل : إشراكهم أن يقول قائلهم: لَوْلا الله والرئيس أو الملاح لغرقنا)) اهـ . وكما أن الشِّرك متغلغل في النسق الفكري الجاهلي، فإن الرياء متجذر في الفكر العربي الوثني. فالعربيُّ لا يؤمن بالبعث بعد الموت ، وبالتالي لا يؤمن بالجزاء في الآخرة . وهذا جعل تفكيرَه مُنْصَبَّاً _ بشكل كامل_ على الدنيا ، وتحصيل أقصى ما يمكن تحصيله منها ، مثل : المال، والنساء، والأولاد ، والجاه ، وحُب السُّمعة، وانتشار الصِّيت. فالدنيا هي مَبْلغُ عِلم الجاهليِّ ، ومُنتهى أحلامه . والدنيا _ بالنسبة إليه _ هي البدايةُ والنهاية ، والحدُّ الأقصى الذي لا يُوجَد بَعْده شيء .

قال اللهُ تعالى : ﴿كُتب عليكم إذا حَضر أَحَدَكم الموتُ إن تَرك خيراً الوصيةُ للوالدَيْن والأقربين بالمعروف حَقاً على المتقين﴾ [البقرة : ١٨٠] .

قال الواحدي في الوجيز (ص ١٤٨) : ((كان أهلُ الجاهلية يُوصون بمالهم للبُعداء رياءً وسُمعة ، ويتركون أقاربهم فقراء ، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية)) اهـ .

إن الرياء يُوَجِّه أفعالَ أهل الجاهلية. فهم يستخدمون أموالهم من أجل نشر صِيتهم بين الناس ، ولكي تصل شهرتهم إلى أقصى حد ممكن . وذلك خضوعاً لهوى النَّفْس وحظوظها ، ومحاولة لنيل الوجاهة والسُّمعة ، مما يؤدي إلى تكوين صورة براقة للمرائين في قبائل العرب المعتمدين على المدح والتفاخر... إلخ .

معَ ضرورة الانتباه إلى أن الآية مُتنازَع في نَسْخها بين أهل العِلْم . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ٨٨) : ((وهذه الآية منسوخة عند الجمهور)) اهـ .

لا يخفى أن النسق الجاهلي يستمد شرعيةَ وجوده الوهمية من بُنية أسطورية تَحمل سماتٍ دينية ترتدي قناعَ الحضارة والمدنية والتقدم . فالطبيعةُ الجاهلية الضاغطة على مسار الأحداث الإنسانية تُحيل الأطرَ الخرافية إلى شريعةً لازمة ومُلزِمة للآخرين . ولا يخفى _ أيضاً _ أن إنكار البعث هو أحد أهم ركائز العقيدة الجاهلية . فأهلُ الجاهلية يَنسبون الإحياء والإماتة إلى الدَّهر ، فهم يَعتقدون أن الحياة الدنيا هي البداية والنهاية ، فلا يوجد في قلوبهم إيمانٌ بيوم القيامة ، أو حسابٌ يُفضي إلى الجنة أو النار . وهذه العقيدة الباطلة موجودة في كل العصور ، وهي تنتشر في أوساط الدَّهريين وكثير من الفلاسفة .

والجدير بالذِّكر أن أهلَ الجاهلية قومٌ بلا كتاب ، على عكس اليهود الذين لديهم التوراة، والنصارى الذين لديهم الإنجيل . لذلك فإن العقائد الجاهلية هي خليطٌ غير متجانس خاضع للأهواءِ، والمصالحِ المادية الضيقة، وأفكارِ الأمم الأخرى. فالعربُ في الجاهلية كانوا مُقلِّدين لا هوية ذاتية لهم ، تتلاعبُ بهم الأمم ، وتتقاذفهم أهواءُ النَّفْس والنَّزعاتُ الشيطانية . وقد كان العربُ يَشعرون بدونيتهم أمام اليهود والنصارى ، لأنهم لَيْسوا أهل كتابٍ . وهذا أدى إلى غرقهم في عبادة الأوثان واختراع العقائد التي ما أنزل اللهُ بها من سُلطان . فكانت الأصنامُ حول الكعبة هي كتابهم المقدَّس الذي اخترعوه، وكانت الوثنيةُ هي دِينهم بين باقي الأمم، وهذا الدِّين الخرافي كان يُخلِّصهم من عُقدة النقص _ كما يتوهمون _ .

وعن ابن عُيَيْنة قال : كان أهلُ الجاهلية يقولون : إن الدَّهر هو الذي يُهلِكنا ، هو الذي يُميتنا ويُحيينا ، فردَّ اللهُ عليهم قولهم . قال الزهري : عن سعيد بن المسيِّب عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ((يقول اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : يُؤذيني ابنُ آدم ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، و أنا الدهر ، أُقلِّب لَيْلَه ونهارَه ، فإذا شئتُ قبضتُهما)) . وتلا سفيان _ ابن عيينة _ هذه الآية : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : ٢٤] [4].

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩١) برقم (٣٦٩٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩٢) : ((وقد غلط ابنُ حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عَدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث)) .

إن أهل الجاهلية قد اعتبروا الدهرَ هو الفاعل في هذا الكون ، والذي بيده الحياة والموت ، فلم يَنظروا إلى عظمة الله تعالى وقدرته . وإنما حَصروا تفكيرهم في إطار مادي زمني محدود ، ونَسبوا إليه القدرةَ على التصرف بالخلائق إحياءً وإماتة . لكنَّ الله تعالى رَدَّ عليهم ، وكشف لهم زَيغَ دعواهم ، واعتقادهم الباطل .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٢) : ((قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة ... : كانت العرب في جاهليتهم إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خَيْبة الدهر ، فينسبون تلك الأفعال إلى الدهر ويَسُبُّونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم إنما سَبُّوا اللهَ _ عز وجل _ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سَبِّ الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال)) اهـ .

فأهلُ الجاهلية قد حَشروا أنفسهم في حياة روتينية مملة بدون هدف راقٍ (الأكل والشراب / النوم / الزواج / الموت). وهذه الحياة القاتلة لمعنى الحياة تخلو من القيم السامية، وصناعةِ التاريخ، والإخلاصِ لله تعالى ، ونيل جنَّته الخالدة . لذا فإن جنة المشركين هي في حياتهم الدنيا المحشورة في زاوية الضيق والضنك وغياب الطمأنينة النفسية . وهم ينسبون الموتَ إلى الدهر ، ويعتقدون أن نهاية الإنسان مرحلةٌ طبيعية خاضعة للمبادئ الزمنية ، والقواعدِ الحسابية الخاصة بالشهور والسنوات ، وهذا مرجعه إلى عدم الإيمان بالغيبيات (ما وراء المحسوس) . فمشركو الجاهلية محصورون في إطار الحياة المادية الملموسة . لذا فإن عقولهم القاصرة لا تَقدر على استيعاب وجود حياة أخرى بعد الموت بسبب تحركهم في فوضى عَقَدية تعتمد على إدراكات الحواس فقط . وهذه المتاهة تتجذر بكل شراسة بسبب غياب الهداية الرَّبانية والتوجيهِ السماوي .

ولم يتوقف الانهيار الجاهلي عند العقيدة ، بل استمر وصولاً إلى الطبيعة العلاقاتية في المجتمع ، وبنيةِ الأخلاق الاجتماعية . فالفكرُ الجاهلي يعتمد على مبدأ ثابت ، وهو ربط القيم الصالحة بالقيم الفاسدة . فمثلاً ، تعظيمُ بيت الله الحرام قيمة صالحة ، ولكنْ تمت إحاطته بالأصنام وبناءِ وعي جمعي يدفع الأفرادَ إلى عبادة الأصنام وإلصاقها بالله تعالى وبَيْته العظيم . وتربيةُ الأنعام والاستفادة منها قيمة طيبة ، ولكنها أُحيطت بعقائد باطلة مثل ذبحها لغير الله تعالى ... إلخ . وهذا الانحراف متواصل ، ومنتشر في أجزاء المجتمع ، وشامل لكل مناحي الحياة. فأهلُ الجاهلية أَخضعوا المظاهرَ الروحية والمادية لمنظومة عبثية من التقديس والغبش الأخلاقي . وهذا يتجلى في ربط مظاهر الحياة الاقتصادية بالانحراف الفكري . فالزراعةُ وما تنتجه الأرض من

أهم أركان الحياة الاقتصادية للمجتمعات ، لكنها قد أُحطيت بهالة جاهلية تُقدِّم الجانبَ السلبي على الإيجابي . وهذا يتضح في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : عن النبي ﷺ قال : ((لا تُسَمُّوا العنبَ الكَرْمَ))[5].

فالعنبُ محصولٌ زراعي طَيِّب ذو فوائد جمة ، لكنه ارتبط في الذهن الجاهلي بالخمر ، فصار العنبُ والخمرُ وجهين لعملة واحدة ، متلازِمَيْن لا ينفصلان . ولم يقف الأمرُ عند هذا الحد ، بل إن العربَ كانوا يُطلقون على العنب " الكَرْم " من أجل ربط الخمر المستخرجة من العنب بصفات الكرم والجود والبذل والعطاء . وهذا الاقترانُ الخطير بين الخمر والكرم يشير إلى الانهيار الأخلاقي في الفكر الجاهلي وبيئته ، وفلسفةِ تحويل القيم الإيجابية الأساسية إلى قيم سلبية .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ٤و٥) : ((قال العلماء : سبب كراهة ذلك أن لفظة الكَرْم كانت العرب تطلقها على شجر العنب ، وعلى العنب ، وعلى الخمر المتخذة من العنب . سَمُّوها كرماً لكونها متخذة منه ، ولأنها تحمل على الكرم والسخاء، فكره الشرعُ إطلاقَ هذه اللفظة على العنب وشجره ، لأنهم إذا سمعوا اللفظة ربما تذكروا بها الخمرَ ، وهيجت نفوسهم إليها فوقعوا فيها ، أو قاربوا ذلك)) اهـ .

وفي واقع الأمر ، إن البيئة الجاهلية رغم انهيارها لم تكن سوداء بالكامل . بل كان فيها قيم أخلاقية فاضلة ، ومبادئ سامية . ولكنْ حتى هذه القيم الفاضلة تتحول إلى قيم كارثية شديدة السُّوء بسبب التلوث الذي أصاب المرجعيةَ التي تنطلق منها هذه القيم . فالقيمُ الفاضلة مثل الكرم والجود والفروسية وإغاثة الملهوف ... إلخ ، تتحول إلى مفاهيم دُنيوية مُجرَّدة هلامية ، لأنها تفتقد إلى الإخلاصِ لله تعالى . فهذه الأخلاقُ الكريمة تنطلق من ثقافة البيئة ، والفكرِ القَبَلي ، والتحسين العقلي ، وارتفاع السُّمعة والصِّيت بين القبائل، دون النظر إلى إخلاص النية لله تعالى ، ونيل الرضا الإلهي . ففي صحيح مسلم (١/ ١٩٦) : عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قلتُ : يا رسول الله ، ابن جُدْعان كان في الجاهلية يَصل الرَّحِمَ ، ويُطعِم المسكينَ ، فهل ذاك نافعه ؟، قال : ((لا يَنفعه ، إنه لم يَقل يوماً رَبِّ اغفِرْ لي خطيئتي يوم الدِّين)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٨٧) : ((قال العلماء : وكان ابنُ جدعان كثيرَ الإطعام ، وكان اتخذ للضيفان جَفنةً يُرقَى إليها بِسُلَّم، وكان من بني تميم بن مُرَّة أقرباء عائشة

(٥) متفق عليه . البخاري (٥/٢٢٨٦) برقم (٥٨٢٨) ، ومسلم (٤/ ١٧٦٣) برقم (٢٢٤٧) .

ـ رضي الله عنها ـ ، وكان من رؤساء قُرَيْش ، واسمه عبد الله)) اهـ . فالكفرُ هو المرجعية القاتلة التي تنطلق منها عقائدُ أهل الجاهلية وسلوكياتهم الحياتية . لذلك ما بُنِيَ على باطل فهو باطل . وكلُّ شُعاع منعكس عن مرآة مشروخة سيكون شعاعاً وهمياً رغم كَوْنه مضيئاً . فلا يمكن للسلوك البشري أن ينال الشرعيةَ الحقيقية إلا إذا انطلق من مرجعية صحيحة لا ثغرات فيها .

إن عبد الله بن جُدعان ـ وهو من سادة قُرَيْش ـ كان يصل الرَّحمَ ، ويُطعِم المسكين . لكنه لم يقم بهذه الأعمال ابتغاء وجه الله تعالى . فلم تنطلق هذه الأخلاق الحميدة من تعاليم الشريعة السماوية الإلهية ، وإنما هي أخلاق نابعة من إفرازات بيئية ومشاعر إنسانية فقط . وقد أخذ حَظَّه في الدنيا ، حيث الصِّيت الطَّيب وحُسن السيرة . وفي الآخرة لا حَظ له ، لأنه لم يتوجه لخالقه تعالى ، ولم يؤمن بالبعث والجنة والنار . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٨٧) : ((معنى هذا الحديث أن ما كان يفعله من الصِّلة والإطعام ووجوه المكارم لا يَنفعه في الآخرة لكَوْنه كافراً ... لم يكن مُصدِّقاً بالبعث ، ومَن لم يُصدِّق به كافر ، ولا يَنفعه عمل . قال القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ : وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يُثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشد عذاباً من بعض بحسَب جرائمهم)) اهـ .

وعن سلمة بن يزيد الجعفي قال : انطلقتُ أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ ، قال : قُلنا : يا رسول الله ، إن أُمَّنا مليكة ، كانت تَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَقري الضيفَ ، وتفعل وتفعل ، هَلكت في الجاهلية ، فهل ذلك نافعها شيئاً ؟ ، قال : ((لا)) ، قال : قُلنا : فإنها كانت وَأدت أختاً لنا في الجاهلية ، فهل ذلك نافعها شيئاً ؟ ، قال : ((الوائدةُ والموؤدةُ في النار ، إلا أن تُدرِك الوائدةُ الإسلامَ ، فَيَعفوَ اللهُ عنها))[6] . إن هذه الأُم كانت تصلُ الرَّحِمَ ، وتُحسِن إلى الضيف ، وتَقوم بأعمال صالحة ، وقد ماتت في الجاهلية على الشِّرك . لذلك كانت هذه الأعمالُ بلا فائدة ، ولَن تَنتفع بها في الآخرة . وقد وَأدت ابنةً لها (دَفَنَتْهَا وهي حيَّة). وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ بأنهما في النار . فالوائدةُ كانت بالغةً عاقلةً ، ومعَ هذا اختارت الكفرَ فاستحقت النارَ . أمَّا الموؤدةُ فمصيرها النار أيضاً . ولنا معَ الموؤدة وقفة .

---

(٦) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٧٨) . وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣١٧) : ((ورجاله رجال الصحيح)) اهـ . وقال القرطبي في التذكرة (١/ ٥٩١) : ((قال أبو عمرو : هذا الحديث صحيح الإسناد ، إلا أنه يُحتمَل أن يكون خرجَ على جواب السائل في عَيْنٍ مقصودة فكانت الإشارة لها)) .

إن القاعدة الثابتة شَرْعاً وعقلاً أن أطفال المشركين في الجنَّة. قال الله تعالى: ﴿ وإذا الموؤدةُ سُئِلت(٨) بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلت (٩) ﴾ [سُورة التكوير]. وهذا دليلٌ واضح على أنها الموؤدة لا ذَنْب لها. إذن، وَضْعُ الموؤدة في هذا الحديث وَضْعٌ خاص، وواقعة بعَيْنها، لا يَجوز تعميمها . وهذه الخصوصيةُ تَنْبع مِن كَوْن هذه الموؤدة قد بَلَغَتْ سِنَّ التكليف ، وجرى عليها القلمُ ، وبالتالي صارت مُؤاخَذةً بأعمالها ، وتتحمل مسؤوليةَ هذه الأعمال .

قال ابن حزم في الفِصَل في المِلَل (٤/ ٦٢) : ((لأنها قد كانت بَلَغَت الحِنْثَ _ يعني سِن التكليف _ ... . لا يجوز إلا هذا القول ، لأن كلامه عليه السلام لا يتناقض ، ولا يتكاذب ، ولا يُخالف كلامَ رَبِّه _ عز وجل _ ، بل كلامه عليه السلام يُصدِّق بعضُه بعضاً ، ويوافق لِمَا أخبرَ به عز وجل، ومعاذ الله مِن غير ذلك، وقد صَحَّ إخبار النبي ﷺ بأن أطفال المشركين في الجنة)).

وعلى الرغم من أن الحقبة الجاهلية الغارقة في العمى والجهالات تتحرك باتجاه مضاد للدِّين والعقل ، وتُشكِّل نظاماً عبثياً مُغلَقاً يَحجر على التفكير العقلاني ، ويُغلق الأبواب أمام الذين يحاولون إعمال عقولهم ، إلا أن هناك أشخاصاً في قلب الحياة الجاهلية كانوا مقتنعين بانحراف هذه الحياة وفسادها اعتماداً على نداء الفِطرة الصافية وصوتِ العقل المتحرر من قيود السُّلطات الوثنية القمعية .

ومعَ أن الحق واضح إلا أن الطريق إليه محفوف بالأهواء الشخصية ، والمصالحِ الاجتماعية الضاغطة ، وتأثير مراكزِ النفوذ وصناعةِ القرار ... إلخ . وهنا يتجلى الصراعُ في النفس البشرية . إذ إن اعتناق الحق له ضريبة ثقيلة يَدفعها المرءُ في حياته مثل عداوة الآخرين، وفقدانِ الامتيازات ، والتضييق عليه ، وممارسة الضغوط عليه . فمن يَصمد في وجه هذا الإعصار ويُؤْثِر الحقَّ على ما سواه ، فقد نجح في الامتحان ، وسينال السعادةَ في الدارَيْن . ومَن سقط ضحية المؤثِّرات السلبية مُؤْثِراً الباطل على الحق ، فقد خسر مرَّتَيْن ، مَرَّةً في الدنيا ، ومرَّة في الآخرة .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٦٩) : قال عمرو بن عَبَسة السُّلَمي _ رضي الله عنه _ : ((كنتُ وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة ، وأنهم لَيْسوا على شيء وهم يَعبدون الأوثانَ)) .

فهذا التفكير السليم المتوافق مع الفِطرة غير الملوَّثة أدى إلى اكتشاف ضلالة أهل الجاهلية ، ومعرفة أن عبادة الأوثان باطلة ، على الرغم من أن العقل الجمعي غارق في تقديس الأوثان . فالتفكيرُ الهادئ البعيد عن المؤثرات الخارجية هو الخطوة الأُولى لمعرفة الحق . واعتناقُ الحق هو تحركٌ جريء عكس التيار الشرس . وهنا يتجلى الصمود في أبهى صُوَره .

الجهل بأسماء الله وصفاته

مَن يَعرف اللهَ تعالى يَعبده ويُعظِّم أسماءه وصفاته ، والذي يجهلها ينأى بجانبه ويُعرِض عن خالقه تعالى. والجهل المعانِد _ الذي كان أحد أهم سمات الفرد الجاهليِّ _ تسبب في تمركزِ انعدام المعرفة في الفكر ، ونفورِ الإنسان من الله تعالى . فالناسُ أعداءُ ما يَجهلون .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ [الفُرقان : ٦٠]. أي إنهم لا يؤمنون بالرحمن تعالى ، ولا يَعرفونه ، ولا يُقِرُّون به . والاستفهامُ للإنكار، يعني أنهم يرفضون السجود للرحمن . وهذا الطغيان نابع من قسوة قلوبهم ، وعنادهم العبثي ، وجحودهم المركَّب . وهذا التكبرُ على الحق وعدم الرضوخ له من شأنه تدمير النَّفْس البشرية ، وحَشْرها في دائرة التمرد والعصيان ، مما سيعود عليها بالخسارة والحرمان وفقدان القيمة الإنسانية المؤمنة . وفي الدر المنثور (٦/ ٢٦٨) : ((وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قَوْله :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ، قال : قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة . وهُم يَقصدون مُسَيْلمة الكذاب . قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٢) : ((والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنُّت في كُفرهم ، فإنه قد وُجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن)) اهـ . فعلى سبيل المثال ، يقول الشاعر :

عَجِلْتُم عَلَيْنا إذا عَجِلْنا عَلَيْكُم وما يَشَأ الرحمنُ يَعْقِد وَيُطْلِق

فاسمُ الرَّحمن مذكور في بعض أشعار الجاهلية ، مما يشير إلى أن هذا الاسم معروفٌ لديهم وليس غريباً عنهم . ولكنَّ العناد يُسبِّب غشاوةً على البصر والبصيرة ، فَيَحول دون تقبُّل الحق واتِّباعه . وكما قال الشاعر :

قد تُنْكِرُ العَينُ ضوءَ الشمس مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفمُ طَعْمَ الماء مِن سَقَمِ

وفي تفسير القرطبي (١ / ١٢٧) : ((قال ابن العربي : إنما جهلوا الصِّفةَ دون الموصوف ، واستدل على ذلك بقولهم : وما الرحمن ؟ ، ولم يقولوا : ومَن الرحمن ؟ . قال ابن الحصار : وكأنه _ رحمه الله _ لم يقرأ الآية الأخرى : ﴿ وَهُم يَكفرون بالرَّحمن ﴾ [الرَّعد : ٣٠]))[7].

---

(٧) قال القرطبي في تفسيره (١/ ١٢٧) : ((وذهب الجمهور من الناس الى أن الرحمن مشتق من الرحمة، مبني على المبالغة . ومعناه : ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها ، فلذلك لا يُثَنَّى " الرحمن" ولا يُجمَع

وفي قصة صُلح الحديبية يتضح عناد المشركين وجهلهم بأسماء الله تعالى وصفاته. فهم يُنكرون تسمية الله تعالى بالرحمن . ففي صحيح البخاري (٢/ ٩٧٤): قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل ابن عمرو، فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً ، فدعا النبي ﷺ الكاتب ، فقال النبي ﷺ : ((بسم الله الرحمن الرحيم)) . قال سهيل : أمَّا الرحمن ، فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، كما كنتَ تكتب .

فجهلهم مقصود وعن سابق إصرار. وهذا جعلهم يبتعدون عن طريق الله تعالى بالكلية ، لأن الجهل يَحول دون تلقي النفحات الربانية . فخلوُّ العقل من المعرفة الضرورية يصنع نتائج كارثية وواقعاً مشلولاً يفتقد إلى المعاني الأساسية والتشكيلات الضرورية لاستمرار الحياة بصورة إبداعية. واختلاطُ العناصر اللاواعية مع تطبيقاتها المباشرة وغير المباشرة على أرض الواقع، يُفرِز صوراً من الغبش تخدش قدرة الإنسان على الاستمرارية المبدِعة ، فيقع فريسة سهلة للتقليد والاتباع المبني على الجهل البسيط والمركَّب والمعانِد. ورفض اسم الرَّحمن محاولةٌ يائسة للتمويه والتلبيس ، وإطلاق أحكام مستعجلة لا تستند إلى عقلانية أو منهجية تفكير. كما أن أهل الجاهلية لم يعترفوا بجهلهم، ولم يطلبوا العِلم ، لذلك كانت معارفهم المتوارثة عن آبائهم ، وشرائعِ قبائلهم ، هي أقصى ما يمكن تحصيله من العلوم والمعارف بالنسبة إليهم ، خصوصاً أنهم كانوا غير مستعدين لاكتشاف العلوم الجديدة ، فاختاروا العزلة الشاملة التي تمنعهم من النظر إلى مدى أبعد وأوسع .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٨٠٧) : عن عبد الرحمن بن عوف ــ رضي الله عنه ــ قال : ((كاتبتُ أُمَيَّةَ بن خلف كتاباً ، بأن يَحفظني في صَاغيتي بمكة ، وأحفظه في صاغيته بالمدينة ، فلمَّا ذكرتُ الرحمنَ ، قال : لا أعرف الرحمن . كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية))[8] .

)) اهـ . قلتُ : وفي مستدرك الحاكم (٤/ ١٧٤) وصححه الذهبي : أن النبي ﷺ قال : ((قال الله ــ عز وجل ــ : أنا الله ، وأنا الرحمن ، خَلقتُ الرَّحِم ، وشَققتُ لها من اسمي ، فَمَن وَصَلها وَصَلْتُه ، وَمَن قَطَعَها قَطعتُه)) . وفي تفسير القرطبي (١/ ١٢٧) أن ابن الحصار قال : ((وهذا نص في الاشتقاق ، فلا معنى للمخالفة والشقاق ، وإنكار العرب له لجهلهم بالله ، وبما وَجب له)) اهـ .

(٨) واسم عبد الرحمن بن عوف ــ رضي الله عنه ــ في الجاهلية هو : عبد عمرو . وفي تفسير القرطبي (١٠/ ٣٢٦) : ((قال الأصمعي : صاغية الرَّجل ، الذين يميلون إليه ويأتونه ... وكل مائل إلى الشيء أو معه فقد صغا إليه وأصغى)) اهـ .

إن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قد عاهدَ أمية بن خلف (أحد سادة المشركين في الجاهلية) أن يَحفظ صاغيته في مكة. والصاغيةُ خاصةُ الرَّجل ، وتُطلَق على الأهل والمال ، مقابل أن يحفظ عبدُ الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ ما يخص أمية بن خلف في المدينة . لكن صفاتِ التكبر والعناد والغطرسة تأبى أن تفارق أمية بن خلف الذي يُصر على الجحود والإنكار ، فقد أخذته العزةُ بالإثم ، وأبى الخضوعَ للحق والإذعان له. وهذا هو طبعُ الجاهلية القاسي، حيث رفضُ الحقيقة خضوعاً لسُلطة الهوى ، وتقليدِ الآباء ، والالتزامِ بنهج القبيلة سواءٌ كان صالحاً أم فاسداً .

وقال الحافظ في الفتح(٤/ ٤٨٠):((قَوْله: لا أَعْرف الرحمن، أي لا أعترف بتوحيده)) اهـ.

وقد كان التوحيدُ ثقيلاً جداً على قلوبهم، لأنه يَنسف تاريخهم الوثني ، ويُزلزال عروشَهم القائمة على جماجم العبيد والمسحوقين ، ويُلغي قداسةَ آبائهم الوهمية ، ويُفقدهم نفوذَهم بين القبائل . فمشركو الجاهلية ينظرون إلى التوحيد على أنه أكبر خطر على مكانتهم الاجتماعية ، لأنه جاء بالحق والمساواة والعدالة الاجتماعية .

وهذا الجهلُ الشنيع العنيد يَقود إلى توليد ضبابية مُطبقة على العلاقة بين الخالق والمخلوق، واستنتاجات مغلوطة تزيد الكائن بعداً عن خالقه تعالى . والجاهل عديم الْحُجَّة ، إذ إنه لو امتلكها لَمَا صار جاهلاً . فأُسس البرهان في إنسانيته المنقوصة مُهدَّمة ، فلا منهجٌ يَسير عليه للحُكم على الأمور ، ولا عِلْمٌ يَنهل منه لكي يعرف طبيعة الدرب الذي يمشي فيه . إذن، الجاهل صورةٌ لجماعات متخلفة تظن نفسها مجتمعاً متجانساً مُوَحَّداً .

إن أشكال العلاقات الاجتماعية تتباين بشدة ، والعِلْمُ ـ الذي هو ضد الجهل ـ له مفعول السِّحر في تنسيق العلاقات المتباينة . والتجمعُ الجاهلي يُجسِّد طموحاتِ كائنات بدائية المعرفة ذات مدلولات خام مجبولة بشُح المعارف . وانعدامُ المعرفة قد يُوضَع في نفْس الدرجة مع المعرفة البدائية الخام ، والتي تكون الاستفادةُ منها معدومة أو محصورة في مجالات ضيقة لا تَمْلك التأثير أو التغيير . ولا يَخفَى أن الرَّقْم القريب من الصِّفر ، يُعتبَر ـ في كثير الأحيان ـ بمثابة الصفر.

والتنوعُ السالبي الجاهل يُعيد تشكيل البُنى المؤسِّسة لمعمارية الجماعة، لذا تغدو الأعمال والثقافات نتاجاً لانفعالات وقتية غير مبنية على تخطيط واع . فالمؤسسة السُّلطوية في الجاهلية لا تخدم المجموع لأنها موظَّفة لخدمة الطبقة الحاكمة المكوَّنة من رؤساء القبائل والأغنياء عن طريق استغلال تجارة العبيد ، واحتكار السيطرة على الكعبة ، وجعلها مشروعاً استثمارياً يُدِرُّ أموالاً طائلة

في جيوب المتنفذين . ولم تكن الأصنام إلا تجارة رائجة بعيداً عن الاعتقاد السليم ومحبة الله تعالى وخدمة بيته .

والظاهرة الجاهلية لم تكن يوماً من الأيام متماسكة ، لأنها تجسيد للاستغلال الطبقي ، وظهور طبقة على حساب سحق أُخرى . فعوامل هدمها في داخلها بسبب كَون الأدوات المستخدمة لترجمة الأحلام الشعبية إلى واقع محسوس كابوساً سرعان ما يلتهم آمال الجمهور المسحوق تحت سياط النبلاء . وهذا الجهل المركَّب المتعمد أدى إلى سوء توزيع للثروة ، وغياب الثقة بين الرئيس والمرؤوس داخل متاهة ذات تعاليم قاسية تسمى القبيلة الجاهلية ، وهذه القبيلة لم تحقق ما تريده العامة والدهماء، بل على العكس فإنها طوَّعت العوامَ ليذوبوا في نفوذ الخاصة . فلا هي نالت ثقة العامة ، ولا حصلت على احترام الخاصة . وعلى الرغم من فشل القبيلة _ في أحيان كثيرة _ في النهوض بمستوى أفرادها ، إلا أنها خيار وحيد لا بديل عنه ينضوي تحته المستفيد وغير المستفيد .

ولو أردنا أن نحصيَ الأفراد الذين ينتمون إلى القبيلة قسراً لوجدناهم كثيرين. وقد يتساءل أحدهم فيقول: ما علاقة هذا بالجهل بأسماء الله تعالى وصفاته ؟!. فنقول له : إن المرجعية القَبلية باعتبارها مرجعيةً وحيدةً متفردة داخل الجماعات الجاهلية صارت كالغول الذي يطل على غابة من الأقزام . وما ذلك إلا بسبب غياب المرجعية السماوية الحقيقية عن أذهان الأفراد ، فحلَّت القبيلة في مكانة الإله الذي لا يُعصى. وهي تُعذِّب من تشاء وترحم من تشاء، ولا تُسأل عن أفعالها بالمرة. فالجهل المتسبب في غياب المرجعية السماوية عن البشر، جعل منهم عبيداً للمرجعية الأرضية المتمثلة في سُلطة القبيلة الفَوقية المتعالية . ولا بُد من القول إن الإنسان هو عَبْدٌ _ شاء أَم أبى _ ، ولا يُمكنه الإفلات من العبودية. وإن لم يكن عبداً للخالق الواحد ، فهو عبدٌ للمخلوقات المتعددة.

إن عبادةَ القبيلة (مَصدر التشريع) ، وعبادةَ الأصنام (مَصدر البركات والغفران _ حسب الاعتقاد الجاهلي _ والواسطة الوثنية بين المخلوق والخالق) ، قد جاءتا بعد إرهاصات ومقدمات متمثلة في تأليه القبيلة ، الأمر الذي أدى إلى عبادة غير الله تعالى . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾ [يُونُس : ١٨].

أي إنهم يَعتقدون أن الأصنام تَشْفع لهم في أمور دنياهم ومعيشتهم ، إذ إنهم لا يؤمنون بحياة بعد الموت. وهذه الأصنام لا تملك لنفْسها ضراً ولا نفعاً ، فكيف ستنفع أولئك الوثنيين ؟! .

قال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٩١) : ((وهذه غاية الجهالة منهم ، حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال)) اهـ .

إنهم يؤمنون بشفاعة الأصنام في المستقبل ، مع أنها عاجزة عن نفعهم وضَرِّهم في الحاضر المعاش. وهذه العقيدة المتهاوية هي رئة المادية التجسيمية . فالمشروع الجاهلي في المنطقة العربية يجسد طموحاتِ الكائن الوثني في إعادة تشكيل خارطة القيم الحياتية ، عن طريق صياغة مصطلحات جديدة ذات مدلولات جديدة . فمثلاً مصطلح " الواسطة الصَّنمية بين المخلوق والخالق " ظهر بصورة دراماتيكية ليُعبِّر عن آمال الإنسان في تلك المرحلة الزمنية . وهذا التحول المرعب ذو أهداف غير بريئة تهدف إلى سلخ الإنسان عن قوته الجغرافية_التاريخية، وإبعاده عن المرجعية السماوية . وبالتالي الحصول على كائن ضائع الهوية ، يفتش عن هوية في المكان الخاطئ .

لكن السؤال الذي يطرح نفسه بشدة : ماذا تستفيد القوى المتنفذة الوثنية من هذا الطرح ؟. الجواب متشعب بشكل مريع . فرؤوس القوم الذين يُقدِّمون أنفسهم على أنهم حُماة المقدَّسات وخدم لبيت الله الحرام ، يدركون أنهم لن يقدروا على تنفيذ مشاريعهم التوسعية الهادفة إلى السيطرة على البشر ، وتوليد مناطق نفوذ لهم ولقبائلهم ، إلا عن طريق زلزلة الكيان الإنساني للعربي الوثني، وقيادته إلى التشكيك بانتمائه . وعندما يُسلَخ الإنسان عن محيطه الطبيعي ، ويُنْزَع من دائرته الانتمائية الخاضعة لقوة مُطْلَقة هي قوة الله تعالى ، يبدأ يلهث نحو انتماء جديد ، وسيرضى لا محالة بما يُقدَّم له من وجبات صنمية سريعة مطبوخة على نار الهوية المضادة لهويته وفِطْرته . وهكذا انبثق مشروع يُدعى " الشفاعة " . والعنوان الخطير يوحي بأن هناك هدفاً نبيلاً يُشفع من أجله. ولكن لماذا تركزت الشفاعة في يد الأصنام ؟. الجواب : حتى يدخل الإنسان العربي قبل الرسالة المحمدية الإسلامية في فلك الخضوع لسُلطة المتنفذين ، ويُقحَم في خارطة الوضع السائد ، وسياسة الأمر الواقع . وينال قبولاً شعبياً على مساحة الجغرافيا والتاريخ المختصَرَيْن في القبيلة . فالفلسفة الجاهلية في هذا الموضوع عبارة عن ترويج المشروع الاستعبادي ليَصير بُنية اجتماعية غير شاذة عن المسار الحضاري العربي .

صحيحٌ أن شيوخ القبائل قد نالوا اعتراف السواد الأعظم من الناس الذين صاروا أتباعاً . لكنك إن نظرتَ إليهم بوصفهم حالةً معزولة ، وجسداً دخيلاً على منطقة الأحلام الممتدة في طموحات الأتباع، أدركتَ أن الترسانة البشرية المتمثلة في المال والسيف لن تمنحك تاريخاً ، وأن

التاريخ لا يكتبه المنتصر على الورق ، المهزوم في الواقع ، لأن هناك عُزلةً رهيبة مفروضة على هذا الكيان المصطنَع (القبيلة المبنية على سياسة العصا والجزرة) . وفاقدُ الشيء لا يُعطيه .

وقد بدأ عِلْية القوم الذين اتخذوا الناس عبيداً لهم دون وجه حق ، يستفيدون من تأريخ المواثيق والعهود ، وإعادة نسخها وصياغة النسخة القَبلية منها ، وفرضها على الجزيرة العربية. فالمدلولات السياسية المادية بحاجة إلى غطاء إنساني معنوي حتى تنجح . وها هي الإدارة الجاهلية التي تُروِّج لمشروعها الوثني الوهمي ، تلعب أمام العالَم بالبيضة والحجر_كما يقولون _ ، من أجل توليد حالة سياسية وغطاء إنساني لحربها غير المعلَنة على الجغرافيا والتاريخ. إذن ، نحن أمام وضع يستند إلى فرض البنى الاجتماعية المصنوعة خصيصاً للمنطقة العربية ، فرضها عن طريق نسف مقومات الهوية، وإحلالِ مكانها المصلحة النفعية . فطبيعة الهيمنة تستند إلى تكوين بؤر اجتماعية دخيلة على حياة الجاهلي، تعبث بقدرة الإنسان العربي على المواجهة : مواجهةِ الأنماط الثقافية والاجتماعية والتاريخية المستحدَثة، والمخالِفة لاتجاه تدفق الهوية العربية . والقيمُ السالبة للحضارة ، تؤدي في حال اعتمادها منهجاً إلى انفجار ظواهر التبعية والتخلف . ولم تكن الأصنام في يوم من الأيام جزءاً من حضارتنا ، لأنها _ أي الأصنام _ حالة شاذة لكائنات غير منتمية إلا للبطن والفَرْج والمال .

ويمكننا تلخيص فلسفة القبيلة البدائية الوثنية في عدة نقاط : ١_ رفض الخريطة الجيوسياسية، وإعادة رسم خارطة المنطقة من منظور وَحدة الرؤية الوثنية ، وحصر الجغرافيا والتاريخ واللغة في خانة المصلحة النفعية لا الوجودية ، مع طمس الفِطرة السليمة لتوحيد الله تعالى . ٢_ إيجاد تعريف جديد للانتماء ، حيث يتم اعتباره حالة مَصْلحية زائلة ، لا علاقة لها بالوجود الإنساني المؤثِّر . ٣_ عدم الاكتفاء بالقبول الرسمي _ الممثَّل في عِلْية القوم _ للكيان القَبَلي، بل السعي لتوليد قبول شعبي يتغلغل في تركيبة المجتمعات العربية . ٤_ إخضاع المنطقة بالكامل لسُلطة الهيمنة الداخلية المتمثلة في رؤوس القبائل ، عبر وسائل وإغراءات تمس طبيعة الوجود العربي في المنطقة .

وجاء تبكيتهم على عبادة الأصنام ، فقال اللهُ تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى ﴾ [سورة النجم : ١٩_ ٢١] .

فهذا خطابٌ شديد ، وتقريع بليغ لأولئك الذين يُلصقون بالله تعالى البنات ، ويستأثرون بالذكور . فردَّ اللهُ تعالى عليهم ونسف هذه القِسْمة الباطلة نسفاً . فالعقلية الوثنية هي القائدة

للمسار الفكري الجاهلي ، وبالتالي فإن كل الإفرازات الاجتماعية والثقافية لا بد أن تكون منطلقةً من الوهم الأيديولوجي الصَّنمي ، وما يتفرع عنه من عقائد دينية، وسلوكيات اجتماعية ، ومعاملات تجارية ، وفكر ثقافي. وهذا يدل على أن الجاهلية منظومة عَقَدية وثقافية واجتماعية شديدة الانغلاق والتحجر، والتقوقع على الذات. وهذا الانكماشُ مرجعه إلى فقدان الحُجَّة ، والخوف من المواجَهة .

والجسمُ الجاهلي كيانٌ هزيل مَسْخ يخاف من النور ، لذلك يختبئ في كهوف الظلام ، لأنه يفتقد إلى الحجَّة الدامغة والمرجعية الصائبة . تماماً كالخفافيش التي لا تقوى على رؤية النور ، فتبني حياتها بالكامل في الظلام .

وفي تفسير الطبري (١١/ ٥٢١) : ((وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللات والعزى ومناة الثالثة أصنام من حجارة كانت في جَوْف الكعبة يعبدونها)) .

وما وجود الأصنام في جوف الكعبة وحَوْلها إلا مؤشر على مركزية الثقافة الوثنية في الحياة الدينية عند أهل الجاهلية . فهم لم يَكتفوا بتلويث الكعبة ، بل اعتبروها مركزاً للحركة الوثنية تدور حولها الأصنام . وهذه الأصنام تُعتبَر مصدراً للشريعة الوثنية بكل جهالاتها ، وانحرافها، واستغلالها للآخرين ، والسيطرة عليهم .

وفي تفسير القرطبي (١٧/ ٨٩) : ((وكانت اللات لثقيف ، والعُزَّى لقُرَيْش وبني كِنانة ، ومَناة لبني هلال . وقال هشام : فكانت مَناة لِهُذَيْل وخُزاعة ، فبعث رسولُ الله ﷺ علياً _رضي الله عنه_ فهدمها عام الفتح. ثم اتخذوا اللات بالطائف ، وهي أحدث من مناة ، وكانت صخرة مربعة، وكان سدنتها من ثقيف. وكانوا قد بنوا عليها بناءً ، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها . وبها كانت العرب تُسمِّي زيد اللات، وتَيْم اللات . وكانت في مَوْضع منارة مسجد الطائف اليسرى ، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف ، فبعث رسولُ الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها ، وحرقها بالنار ، ثم اتخذوا العُزى ، وهي أحدث من اللات ، اتخذها ظالم بن أسعد ، وكانت بوادي نخلة الشامية فوق ذات عِرْق ، فَبَنَوا عليها بيتاً)) اهـ . وقال الأبشيهي في المستطرف (٢/ ١٧٤) : ((وكانت بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنماً من حَيْس ، فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه)) اهـ . وهكذا نرى أن الأصنام كانت ذات مركزية صارمة ومتماهية مع مكانة القبائل المتفاخرة بأصنامها والمنتمية إلى ثقافتها الوثنية . وكأن القبائل قد اتفقت على اقتسام الآلهة فيما بينها ، وتوزيعها بصورة تأخذ بعين الاعتبار مكانة القبيلة ، ونفوذها السياسي ، وثقلها

الاجتماعي . كما يَبرز تأثير الفكر الصَّنمي في الحياة المجتمعية ، حيث يتم تسمية الأشخاص بشكل يعكس العقيدة الوثنية ، مثل : زيد اللات وتيم اللات . وإضافةُ أسماء الناس إلى الأصنام تُعتبر نوعاً من الانتماء والولاء لثقافة القبيلة المتهاوية وتاريخها التَّعبُّدي ، وتكريساً لامتداد الفكر الصَّنمي في أدق تفاصيل الواقع الإنساني المعاش .

وفي هذا السياق يتضح المنهج الإسلامي في هدم الأصنام وإزالتها من الواقع والذهنِ معاً لكي يتحرر الفردُ والجماعة من سطوة الخرافة ونفوذِ الأبعاد الأسطورية المتراكمة عبر الأزمنة والأجيال. وهذه العمليةُ التنظيفية والتصحيحية من شأنها إراحة المجتمع من الانكسار الحضاري وأعباءِ الوهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٧١و٧٢) : ((وكانوا يشتقون لأصنامهم من أسماء الله تعالى ، فقالوا من الله اللات ، ومن العزيز العُزَّى . قال أبو سليمان الخطابي : كان المشركون يَتعاطَوْن الله اسماً لبعض أصنامهم فصرفه اللهُ إلى اللات صِيانة لهذا الاسم وذَبّاً عنه)) اهـ .

وفي هذا دلالةٌ واضحة على جهل المشركين بأسماء الله تعالى وصفاته العليا ، واعتمادهم على بُنية أسطورية عَقَدية . فالفكرُ الوثني متغلغل في أوصال البنى الذهنية والواقعية . وَهُمْ يَعتبرون الأصنام ذات ارتباط وثيق بالله تعالى ، حيث يشتقون من أسماء الله تعالى أسماءً لأصنامهم . مما يدل على عقيدتهم الواهية التي تَعتبر اللهَ تعالى والأصنامَ كياناً شديد الترابط لا يَنفصل . وهذا الجهلُ بالصفاتِ الإلهية العظيمة أوقعهم في الشِّرك . إذ إنهم غير مقتنعين بِتَنْزيه الخالق عَمَّا لا يَليق به ، لذلك سَقطوا في عقائد التجسيم، والتجسيدِ، وربطِ المخلوق بالخالق ، وتشبيه الخالق بالمخلوقات ، وإعطاءِ صفات الألوهية للأحجار الجامدة ، والصخورِ الصَّماء . وهذا يشير إلى الثقافة البدائية المتخلفة والمحصورة في سِجن الجزيرة العربية المعزولة عن الحضارة . فهذه الثقافة الدُّونية تَعتمد على عقول ناقصة من أجل اختراع الشرائع والطقوس ، وتستند إلى خليط عبثي من الأهواء والعقائد لصناعة دِين للعرب يمكن أن يُفاخروا به بين باقي الأمم خصوصاً أهل الكتاب ــ كما يتوهَّمون ــ. وفي صحيح البخاري (٤/ ١٨٤١) : قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ((كان اللاتُ رَجلاً يَلُتُّ سُوَيْقَ الحاج))[9] .

---

(٩) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٦١٢) : ((قال الإسماعيلي : هذا التفسير على قراءة من قرأ اللات بتشديد التاء . قلتُ ــ أي ابن حجر ــ : وليس ذلك بلازم بل يُحتمل أن يكون هذا أصله ، وخُفِّف

فاللاتُ كان رَجلاً يُعِدُّ طعاماً للحاج . فلمَّا مات أُحيط بهالة من القداسة ، وصار معبوداً لأهل الجاهلية ، لأنهم نظروا إليه على أنه بلغ غاية الصلاح والمجد والسُّمو ، فاستحق أن يكون من ضمن الآلهة .

وتقديس الأشخاص أدى إلى اتخاذهم أصناماً معبودة ، وما ذاك إلا لغياب الهداية الربانية عنهم بسبب فساد قلوبهم ، وتمركز الجهل والعمى فيها . فالمادة المجسَّمة والمتمثلة في الأصنام تؤسس للأيديولوجية الجاهلية التي تتخذ من الأبعاد التجسيمية أساساً لها .

ونحن نحتاج _ لبيان محرِّكات هذا الانهيار _ إلى إلقاء الضوء على الأسس التي قامت عليها عبادةُ الأصنام ، والتعرية الدَّورية للدوافع المؤدية إلى المشي في هذا الطريق المعتم . فالأسس تتركز _ بشكل أساسي _حول القابلية النفسية لطمس الفطرة السليمة ، وحاجة الفرد إلى قوة خارجة عن ذاته تكون مُطْلَقة ولانهائية، واندفاع الشخص نحو تقديس شيء محسوس . ولا يَخفى أن عرب الجاهلية كانت لديهم نوايا حسنة اندفعت في طريق بناء منظومة الأصنام وتقديسها وتجذيرها كشريعة تربط الأرضَ بالسماء وتُقرِّب الناس من خالقهم _ حسب التصور الجاهلي _ . ولكنَّ النية الصالحة لا تُصلِح العملَ الفاسد. وكَم مِن مُريد للخير يجد نفسه في قلب الشر !. وكما يقال: إن الطريق إلى جهنم مُعبَّد بالنوايا الحسنة ! .

وهذه الأيديولوجية المستندة إلى التقديس الأعمى ناتجة عن إفرازات متعمدة سالبة ، تؤدي بالضرورة إلى تغييب العقل بصورة فجة. لذا فالبنية التعبدية الخاضعة للوثن تحاول تأسيس مشروعية خاصة بها ، إلا أنها تفشل بامتياز . فالمشروعية تتشكل من نص سماوي مقدَّس نهائي وقاطع وحاسم، وهذا ما تفتقده عبادة الأصنام .

لكن الجاهليَّ يعمل على صياغة خطوات عملية وتأثيرات فكرية لكي يدعم فكرته القاصرة، ويساند مشروعه المنقوص. فخطابه التوسعي الاستبعادي الإقصائي الذي يسعى للمحافظة عليه

لكثرة الاستعمال. والجمهور على القراءة بالتخفيف ، وقد رُوي التشديد عن قراءة ابن عباس وجماعة من أتباعه . ورُوِيَت عن ابن كثير أيضاً، والمشهور عنه التخفيف كالجمهور ... واختلف في اسم هذا الرَّجل. فروى الفاكهي من طريق مجاهد قال: كان رَجل في الجاهلية على صخرة بالطائف ، وعليها له غنم فكان يسلو من رَسلها، ويأخذ من زبيب الطائف والأقط ، فيجعل منه حَيْساً ، ويُطعِم من يمر به من الناس ، فلمَّا مات عبدوه . ... [و] عمرو بن لحي هو الذي حمل العرب على عبادة الأصنام)) .

بشتى الوسائل يَسقط فوراً إذا ما قورن بالشريعة السماوية . فالآليات البدائية المعتمدة من قبل حماة الوثنية أكثر تأثيراً في التجمعات الغائبة عن القدرات العقلية ، لا سيما وأنها_ أي التجمعات_ إرهاصات عاصفة وتشكيلات لا منطقية ، وهذا يدفع باتجاه مكتسبات مصلحية ومنافع شخصية تتمحور حول المال ومناطق النفوذ .

فلو جئنا إلى الإنتاجات الجاهلية لوجدناها ذات دلالات عنيفة تتجمع بفعل تلازم المال والسُلطة والتقاليد المتوارثة . فهي اختيارات انتقائية غير موفَّقة ، تقطع العلاقةَ بين الروح والمادة بشكل حازم . فالتجمع البشري غير متماسك . وحتى لو وصلَ إلى مرحلة الكيان المصطنَع في بعض الأحيان فلا يمكن أن يستمر ، لأن تفككه حتمي ، وهذا التفككُ يلعب دور مِعْوَل الهدم في قلب الظواهر الاجتماعية .

إن الأنوية القَبَلية تلجأ إلى تكريس التراكيب الوهمية ، من أجل تثبيت مركزية القبيلة في أحاسيس الجماعات البشرية التي لا ترقى إلى درجة المجتمع . والاحتقانُ الاجتماعي الهدام يتجلى في أبشع صوره من أجل تركيب الأنساق المتعارضة على شكل مجتمع متجانس خيالي . فالتردد العبثي الواضح الذي يَضرب قلبَ العلاقة غير الطبيعية بين الوثني وامتداده الجغرافي التاريخي ، لا بد أن يُوضَع له حد ويتبخر سريعاً .

أمَّا الانقطاعات في تأريخ الفكر السائد وصهره في وعاء الاستبداد وعقليةِ التبعية لصاحب الصولجان ، فهي لا تعدو عن كَوْنها إطاراً جامعاً مكثِّفاً للتخلف الدائم غير المرحلي، وشكلاً للتلقين الذي يُزرَع في أذهان الأتباع عقيدةً لا خلاص منها . وهذه العقيدة البدائية المفضوحة تتطلب استعادة المشاركات الإنسانية في قالب جماعي يخدم أصحاب النفوذ ، ضمن عملية " قَوْلبة الإنسان" [(10)]. وانعدامُ التوافق بين الفرد المتكوِّر على ذاته والجماعةِ السُلطوية المالكة لحق الخلاص والتخليص ، يقود إلى إجماع شعبي مفروض على الجماعة فرضاً ، وغير قادم من نتاج إفرازي طبيعي وحقيقي. والجدير بالذِّكر أن الجاهلية عبارة عن تراكم محدِّدات استبدادية يتم تكوينها نتيجة الانغماس في الشهوة، والكبتِ الجماعي الصارم، والسلوكياتِ الخارجة على الفِطرة

---

(١٠) قَوْلبة الإنسان تعني صهره وتكثيفه في إطار مسيطر عليه مسبقاً ، ومُوجَّه إلى وجهة خارجة عن إرادة الإنسان ، أي إنها مفروضة عليه ، ولكنه يسير معها لتحقيق منافع ذاتية مؤقتة خاضعة لمنافع الطبقة المتنفذة .

البشرية النقية. وهكذا تغدو المفردات التأسيسية للحالة الجمعية في البيئة الجاهلية وضعاً هلامياً هشاً . ولكي نحدد طبيعةَ هذه المفردات لا بد لنا من تعميم تقنيات مناسبة للحالة المعاشة ، وبالتالي نربأ بأنفسنا عن إصدار قرارات بديهية تتخذ من التعميم اللامدروس أساساً لها ، ونبتعد عن إطلاق أحكام مستعجلة قادمة من الإحساس اللامبني على الدراسة الواعية . فالعلاقات المشتركة في البيئة المتدنية فكرياً ليس لها قدرة على امتلاك الشعور المؤسَّس على أرضية صلبة . وإننا نرى أن الصياغات الوظيفية ذات الانطباع الأولي لا تُقدِّم سوى مزيد من الحيرة في دراسة الحالة الاجتماعية الدنيا ، لأن الوقائع لم تُدرس بالشكل السليم الفعال . وهذا يقود إلى غياب التعليل المناسب ، وتغييب التحليل الذي يعتمد على المنهج العلمي .

وعندما تتشابك المعطيات الذهنية المستندة إلى الجهل ، مع الروابط الناتجة عن علاقات مخلخَلة في الجماعة النواة في الوضع الجاهلي ، فإننا نحصل على تأملات واستنتاجات مغلوطة لا تمتاز بالموضوعية . فالتركز حول فكرة المعرفة الكلية الصنمية هو انحراف عن الصراط المستقيم ، وهذا الانحراف ليس محايداً ، بمعنى أن القيم الجمعية يتم حرفها عن الطريق لغاية محددة مسبقاً . إذ إن المعايير التي تُستخدم لكشف حقيقة الوقائع باتت مغيَّبة من أجل توليد انتماء جديد يُمثِّل _ في حقيقة الأمر _ اللاانتماء في التشكيلات النفسية والاجتماعية الأولية .

إن الدخول في صراع النماذج الاجتماعية يُصاغ لمصلحة القوى الرسمية (القبيلة ممثلة بالشيخ وحاشيته) . فالقوة العليا تُصدر أحكاماً جازمة وقاطعة بحق أولئك الأتباع الذين لا يملكون إلا الانصياع من أجل البروز في مظهر اجتماعي لائق غير شاذ عن المسار العام .

وبالتأكيد تصير القيمُ غامضةً ، والقانونُ العُرفي سَيفاً مُصلتاً على عوام الناس دون خاصتهم . واستنباط تعاليم لا علمية مخادعة هو الذي يقود إلى تشكيل هدنة اجتماعية ظاهرية ، أو عَقْد اجتماعي مهزوز بين كل القوى . لكن السؤال الحيوي هو لماذا تكون المعلومات والتعاليم إجماليةً في هذا الخضم الشرس ؟ . الجواب ذو شقين ، الأول : بسبب اعتماد طبقة اجتماعية صغيرة مُمثِّلة لكلِّ التجمع البشري ، وهكذا نخسر جهود معظم الناس الذين لا يُعبأ بهم . والثاني : بسبب عدم فاعلية المنحى الفكري ، أي عدم وضوح الرؤية والعَرَض والجوهر . فالحفاظ على السُّلطة غايةٌ مقدَّسة تداس من أجلها كل الحقوق والواجبات ، وتنهار أنوية التجمع الإنساني . وعلى الرغم من هذا الانهيار ، تظل القبيلة محتفظة بسُلطتها ، لأن الأتباع لا يريدون الثورة ، بل لا يفكرون بها إلا بشكل عابر وخجول. وهكذا يظل الإنسان الجاهلي سائراً في ظل سُلطته القمعية .

والشُّبه التي يحتج بها الجاهليُّ المشرِك لتأسيس مشروعيته المتساقطة عبارة عن وهم مركَّب، عدا عن أنها تعكس مدى ضحالة الفكر والثقافة .

وقد كان أهلُ الجاهلية لا يفهمون ماهيةَ القضاء والقَدَر بالصورة الصحيحة ، وهذا أدخلهم في إشكاليات كثيرة انعكست سلباً على طريقة تفكيرهم ونمطِ حياتهم. قال الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

فقد علَّقوا شِركهم على مشيئة الله تعالى جهلاً منهم ، وجعلوا الشركَ إنما تم بمشيئته تعالى وإرادته وفق منظورهم الرامي إلى تخليص أنفسهم من أية مسؤولية مترتبة على اختياراتهم . وهم بهذا يهدفون إلى تقديم أنفسهم كعِباد مأمورين مُجبَرين على اعتناق العقائد الشِّركية ، وبالتالي لا يتحملون تبعات أقوالهم وأعمالهم .

فنظرتهم العَقَدية متمركزة حول فكرة جَبرية ، وأنهم واقعون تحت مشيئة الله تعالى التي أجبرتهم على الأفعال السيئة _ وفق عقيدتهم الباطلة _ . فهم يجهلون أن الخير والشر ، والإيمان والكفر ، يكتسبه الإنسان بِملك إرادته، وأن القَدَر لا يُعارِض تحملَ الإنسان لمسؤولياته كاملة غير منقوصة . فالله تعالى أحاط بكل شيء علماً ، لكنه لم يجبر الإنسان على سلوك طريق محدد . فالإجبارُ يتعارض كلياً مع عقيدة الثواب والعقاب في الآخرة ، ومن ثم الجنة والنار .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أنه سمع رَجلاً يقول : الشر ليس بقَدَر ، فقال ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : ((بيننا وبين أهل القَدَر : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ ... . قال ابن عباس: والعَجْز والكَيْس من القَدَر))[11].

وأهلُ القَدَر هم نُفاة القَدَر ، فهم يُنكرونه . والآية القرآنية توضِّح إيمان المشركين بالقَدَر، ولكنْ من منظور مغلوط. فهم يعتقدون أن القَدَر سالبٌ لحريتهم، وأن شِركهم خاضعٌ لمشيئة الله تعالى دون أية علاقة لهم . وهذا يتنافى مع الإيمان . صحيحٌ أن كل شيء خاضع للمشيئة الإلهية، لكنَّ الله تعالى أعطى العبدَ القدرةَ على اختيار طريقه ، إمَّا الإيمان أو الكفر . والعبدُ يتحمل مسؤوليةَ اختياره الحر .

وإنني في هذا المقام أنقل كلاماً نفيساً للحافظ ابن حجر، لأني رأيتُ فيه تلخيصاً لمسائل شديدة الحساسية، حيث يقول في الفتح(١٣/ ٤٤٩): ((وأمَّا قَوْله في الأنعام : ﴿ سَيَقُولُ

---

(١١)رواه الحاكم في المستدرك(٢/ ٣٤٧)برقم(٣٢٣٧) وصححه، ووافقه الذهبي.

الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ الآية . فقد تمسَّك بها المعتزلة ، وقالوا إن فيها رداً على أهل السُّنة . والجواب أن أهل السُّنة تمسكوا بأصل قامت عليه البراهين وهو أن الله خالق كل مخلوق، ويستحيل أن يخلق المخلوق شيئاً، والإرادةُ شرط في الخلق ويستحيل ثبوت المشروط بدون شرطه . فلما عاند المشركون المعقول وكذَّبوا المنقول الذي جاءتهم به الرُّسل وأُلزموا الحجَّة بذلك ، تمسكوا بالمشيئة والقَدَر السابق، وهي حُجَّة مردودة لأن القَدَر لا تبطل به الشريعة ، وجريان الأحكام على العباد بأكسابهم)) اهـ .

إن الناس لا يَملكون من أمرهم شيئاً ، فهُم مخلوقات عاجزة لم تحدِّد موعدَ الولادة ، ولا تَقدر على تحديد موعد الوفاة . ومَن كان هذا شأنه فهو غارق في عَجْزه . ولو اجتمعت الأمة على نفعِ أحدٍ ما ، لم يَقدروا على فعل ذلك إلا إذا كان مكتوباً عند الله تعالى . فما أراده اللهُ كان ، وما لم يُرِدْه لم يَكُن . والناس يتحركون في عالَم الأسباب والمسبِّبات . لكنَّ المسيطِر على السبب والمسبِّب هو اللهُ تعالى ، ولا يَقع في مُلكه إلا ما شاء . ولو اجتمعت الأُمة على جلب ضر لأحدٍ لم يَقدروا على فعل ذلك إلا إذا كان مكتوباً عند الله تعالى . فالنافعُ والضار هو الله وَحْدَه .

وقَوْلُ النبي ﷺ : ((رُفعت الأقلامُ ، وجَفَّت الصُّحف)) [سيأتي تخريجه] ، تأكيدٌ باهر على أن ما تَمَّ قد تَمَّ ، ولا تبديل لما سَبق ، ولا يكون خِلاف ذلك ، وأن الأمر قد كَمُل بلا زيادة ولا نقصان ، وانتهى الموضوع ، وقُضِيَ الأمرُ .

إن الجهل بصفات الخالق رسمَ ملامح الشخصية البدوية الصَّنمية ، وساهم _ بشكل كبير _ في حشر المعرفة الشخصانية للفرد الجاهلي في زاوية الخضوع للوثن . فهذا الخضوع هو المصيدة الحرجة التي وقع فيها العربي الوثني بسبب انعزاله عن محيطات معرفة أسماء الله تعالى وصفاته .

فالابتعاد عن الإله تعالى قاد إلى اختراع آلهة مصنوعة على أيدي البشر تضطلع بأدوار وهمية متعلقة بالتشريع والسيادة على حياة البشر بكل تفاصيلها. وهذا التكريس الميثولوجي قَتل الإنسانَ في الإنسان ، وأحال الشخصيةَ البشرية إلى خليط من الأضداد القاتمة .

ونتيجة هذا الخلط المرعب صارت القدرات العقلية البشرية جزءاً من منظومة ردود الأفعال الارتجالية غير المستندة إلى التحليل العلمي ، وأضحت الذكرياتُ البشرية حالةً من التمرد على الذاكرة . فصارت صورة الفرد انعكاساً ضبابياً للتمرد العبثي على الفطرة الذاتية ، فغرقت المعرفةُ الإنسانية في مستنقع التقليد والتبعية والاضطراب الروحي والتمزقِ الجسدي . ولا يخفى أن

الجهل الضارب جذوره في أعماق النفس البشرية الصحراوية المعزولة عن مسارات الفكر الإنساني الخلاق قد تفشى ، وبرز _ بشكل مَرَضي _ على صورة متواليات فلسفية وثنية تنتهج أسلوب التقليد والمحاكاة .

خصوصاً أن العرب البدائيين في ثقافة الصحراء مصابون بعقدة النقص أمام أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ، لأن العرب _ قبل البعثة المحمدية الإسلامية _ أُمة أُمية ليس لديها كتاب سماوي ، في حين أن اليهود لديهم التوراة ، والنصارى لديهم الإنجيل . وعلى الرغم من تحريفهما إلا أنهما يُمثِّلان مركزية تشريعية عليا أمام العرب الأميين الذين يستندون إلى شرعية الوثن المزعومة دون أي ارتباط بالسماء .

وهذا الشعور بالنقص والدونية تكاثرَ على صورة فطريات فلسفية ساهمت _ بقوة _ في الاستثمار في سياسة إقامة الأصنام بكثرة في محاولة لاختراع هالة دينية متخيَّلة تحفظ ماء وجه العرب _ حسب التفكير الجاهلي _ أمام أهل الكتاب الموجودين في المنطقة. لذلك ظهرت الأصنام كمحاولة لسد الفراغ الروحي والخواء الوجداني ، وإنشاء فكر تعويضي في أذهان العرب لأنهم يفتقدون إلى مرجعية الكتاب السماوي المتفوق على الفكر البشري القاصر .

والجهل العربي البدائي المركَّب يأخذ صفةً انسحابية طبقية ، بمعنى أن الانكسار الروحي يضرب رأس القبيلة (مصدر التشريع البشري) ثم ينطلق إلى أبناء القبيلة ، ثم أتباعها . وهذا الانكسار الذي ينسحب عبر القبيلة (الدولة الجاهلية) من رأس الهرم السياسي حتى القاعدة ، ينتشر على شكل صيغ حياتية اجتماعية تحيط بثقافة الأصنام الفوضوية باعتبار أن الصنم هو مصدر التشريع الحجري المتخيَّل .

وخطورة الجهل تتفشى في الأبعاد الرمزية لأبجدية انتحار الذات الحالمة ، فحركة المجتمعات الجاهلية الشكلانية (الوهمية) محدودة ضمن إطار شكلاني ظواهري لا علاقة له بالجوهر التأصيلي. وهذا مرجعه إلى كَون العقل الجاهلي الصَّنمي يفتقد إلى بنية تحليل الخطاب العقلاني ، فغاب المنهج العِلمي الحاكم على السياقات العقلانية ، ومع غيابه تفشى انكسار الروح في الأطر الاجتماعية العامة .

إن مفهوم الانكسار في السياقات الرمزية المحمولة على لغة الخطاب العربي البدائي اكتسب أبعاداً صحراوية خاضعة للبيئة القاتلة ، وهذا أفرز سياقاً تاريخياً بالغ التشويش ضغط على طبيعة العلاقة بين الفرد الأولي والعقل الأولي . فصار المستوى التفكيري جزءاً من العصبية القَبَلية ،

وأضحت المستويات العقلانية خارج إطار الوعي التاريخي الحاسم ، ففقدَ الرمزُ اللغوي قدرته على كشف ماورائيات النص الاجتماعي الصحراوي . لذلك تظل الأحاسيس المجتمعية في تلك البيئة العربية المعزولة مجرد تاريخ هلامي فاقد للسيادة، وعاجز عن صنع سيادة من أي نوع سوى سيادة الأبعاد الأسطورية على المستويات الحياتية الغارقة في فوضى التقديس والتكديس ، تقديس الرموز الخيالية المنبثقة من اللغة الوثنية المعاشة لحظةً بلحظة ، وتكديس الوعي المجتمعي كَبُعد ميثولوجي (أسطوري) لا يملك نظريةً منهجية متوازنة . وهذا ليس غريباً ، إذ إن الفرد الجاهلي عاجز تماماً عن التغريد خارج السرب في مجالات العقل النقدي . وإذا افتقد المستوى البشري العقلاني إلى حاسة النقد فإن الكيانات البشرية سوف تدخل _ حتماً_ في ثقافة القطيع المحصور في الحظيرة ، والذي لا يعرف أبعد من جدران سجنه. لذا يصبح السجن الروحي _في زحمة الشظايا الإنسانية _ هو الوعي الكلي الذي يختصر أبعاد المسافات العقلية ، ويختزل قيمة الإنسان بالكامل ، لأن الغريق لن يرى أبعد من الماء المحيط به .

وقد تكرس جهل العرب البدائيين بصفات الخالق تعالى على شكل عِلم منهجي تطبيقي متخيَّل، لأن الجاهل العاجز عن بناء منظومة علمية متوازنة سوف ينظر إلى جهله على أنه مركزية المعرفة ، وهكذا يغدو الوهمُ ذاتاً حقيقية ، ويصير البعدُ الأسطوري المخترَع شكلاً من أشكال المعرفة المحاطة بالقداسة المخيالية التي لا تقبل المساس .

وهذه المتواليات المنهارة شكلٌ طبيعي للحالة العربية الأولية الفاقدة لكل معطيات العمل الفكري التأصيلي الحاسم . لكن الخطورة المركزية في تكريس الوهم كحقيقة تكمن في إحالة الشعور الإنساني الحقيقي إلى كابوس متصوَّر ذهنياً ، لأن تجذير بناء الأساطير يأخذ شكلاً ثنائياً ارتدادياً ، بمعنى أن تشييد الأسطورة كحقيقة واقعية يُقابَل بتشييد الحقيقة كخيال وهمي ، لأن اختلاط المفاهيم المركزية الفاصلة بين البعد الأسطوري لأبجدية اللغة الاجتماعية الوثنية وبين الحياة العربية المعاشة ، يؤدي إلى تبادلية في الأدوار ، فتغدو الأساطير والحقائق جزءاً من فوضى معرفية حرجة تتصارع على رقعة الجسد البشري ، فتنكسر الروح ، ويتشظى الجسد . وهذا يَدفع باتجاه توليد إشكاليات عقلية تظهر على صورة اضطرابات نَفسية ، وغربة عنيفة بين الفرد وذاته ، وهكذا تتكون شخصية المنفَى في جسد المنفيِّ ، ويصبح الإنسانُ كتلةَ متناقضات ، وساحةَ حرب يتصارع عليها قوى خارجية .

وقد كان الفرد الجاهلي _ في كل أطوار وجوده _ ضحية الصراع الخارجي بين الفلسفة التشريعية للقبيلة ، وأهواءِ عِلية القوم الذين يحتكرون علاقة الإنسان بالأصنام الآلهة ضمن أبعاد ميثولوجية نابعة من جهل العرب الذي يبتعدون عن الخالق تعالى ، ويخترعون سلالة عبثية من الآلهة المعبودين بغير حق .

والعرب في الجاهلية كانوا ينظرون إلى الأصنام وفق منظور عشائري متأثرين بضغط جهلهم المركَّب ، وضغطِ حياتهم الاجتماعية المنثورة عبر هرم السُّلطة من رأس القبيلة حتى القاعدة . فهم يتعاملون مع شرعية الصنم المزعومة باعتباره جزءاً من الثقافة العشائرية، فكل قبيلة كان لها صنم مميَّز يحاط بالتبجيل والقداسة ، وهذا الصنم بما لديه من وجود مركزي حاسم يصبح بؤرة الاستقطاب وتجميع الجهود وتوحيد الكلمة .

وأدى التنافس بين القبائل من أجل النفوذ والسيطرة واحتكار المقدَّسات المخيالية إلى اختراع متوالية من التنافس بين الأصنام ، لذا فقد انتقل التفاوت الطبقي بين القبائل إلى تفاوت طبقي بين الأصنام . فالأصنام (هُبَل ، اللات ، العُزى) لها صدارة المشهد الديني باعتبارها آلهة مزعومة من الدرجة الأولى ، وتأتي بعدها أصنام أقل شأناً ضمن متوالية تسلسلية طبقية متأثرة بالتسلسل الطبقي لقبائل العرب التي تتصدرها قُرَيْش .

والعقائد العربية الوثنية التي تنظر إلى تعدد الآلهة على أنه نظام ديني اجتماعي متفوق، لم تتجذر بهذه القوة في بيئة الجزيرة العربية إلا نتيجة غياب صفات الله تعالى عن أذهان العرب ، وجهلهم المريع بحق الخالق على العبيد ، وواجبات العبيد نحو خالقهم . والناسُ أعداء ما يَجهلون .

وبما أن الْحُكْم على الشيء فرعٌ عن تصوره ، جاءت أحكام الجاهليين مشوَّشة ومتخلفة تبعاً للتصور الفاسد حول الذات الإلهية والعلاقاتِ الباطلة بين الأصنام والله تعالى . حيث تم اتخاذ الأصنام كواسطة بين المخلوق والخالق ، ووسيلة تقرُّب يعتمدها الفرد ليزداد قُرباً إلى الله تعالى . وهذا يعكس حجم الانهيار العقائدي في الذهن العربي الأولي الخام .

إن المجتمع الجاهلي غارقٌ في الأسباب المادية الدنيوية دون النظر إلى صانع هذه الأسباب . فالجاهليُّ قلبُه متعلق بالأسباب وغافلٌ عن المسبِّب. لذلك نراه يستعين بالمخلوقات من أجل حمايته ، وينسى أنها مخلوقات عاجزة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضَرَّاً . فاللهُ تعالى هو النافع والضار . لكنَّ مادية الحياة الجاهلية تفرض على الفرد أنساقاً فوضوية محصورة في العلاقات المحسوسة ، ولا تنظر إلى ما وراء الأمور . وهذا نتيجة متوقَّعة في مجتمع يعتبر الدنيا هي البداية والنهاية ، ولا يؤمن بالغيبيات، لأن عالَم الشَّهادة منتهى عِلمه وعمله. وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن النبي ﷺ قال : ((وَاعْلَمْ أن الأُمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفعت الأقلامُ ، وجَفَّت الصُّحف))[12].

وهذا اليقينُ كان غائباً تماماً عن العقل الجاهلي الذي لا يؤمن بالقضاء والقَدَر . فهو يعزو النفع والضر إلى المخلوق بشكل استقلالي . أي إن المخلوق يملك الخيرَ والشر ، ويتصرف بهما من تلقاء نفْسه ، ولا شيء وراء ذلك .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يا مَعشرَ الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس رَبَّنا استمتع بعضُنا ببعض ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

فالجنُّ قد ساهموا بشكل بالغ في إغواء الإنس ، وجَعْلهم ينحرفون عن الصراط المستقيم . وقد كان الاستمتاعُ بين الإنس والجن متبادلاً . فاستمتاعُ الإنس بالجن يتجلى في الاستعاذة بالجن ، إذ إنه يُنظَر إليهم على أنهم قادرون على جلب النفع ودفع الضر ، وأيضاً قبول المعاصي بكل صدر رحب والغرق فيها والتلذذ بها . أمَّا استمتاع الجن بالإنس فيتجلى في إلقاء الكهانة والسِّحر وكافة الأباطيل . وهذا الضياعُ المتبادل يَعكس مدى انحراف المجتمع الجاهلي ، وتحركه بدون بوصلة . وفي تفسير الجلالين (١/ ١٨٤) : ((انتفع الإنس بتزيين الجن لهم الشهوات ، والجن بطاعة الإنس لهم)) اهـ .

---

(١٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٩٣) برقم (٢٦٦٩) ، والترمذي في سُننه (٤/ ٦٦٧) برقم (٢٥١٦) ، وقال : ((حسن صحيح)) .

وهذه المصلحة المتبادلة قادت الطرفين إلى الانهيار العَقَدي ، والفسادِ الأخلاقي، لأنها مصلحة نفعية وَقْتية قائمة على بُنية غريزية شهوانية لتحقيق متعة رخيصة .

وفي الدر المنثور (٣/ ٣٥٨) عن ابن جُرَيج قال : ((كان الرَّجلُ في الجاهلية يَنْزل بالأرض ، فيقول : أعوذ بكبير هذا الوادي . فذلك استمتاعهم)) اهـ .

وهنا تبرز الاستعاذةُ بغير الله تعالى . حيث إن الجاهلي يُسنِد المنفعةَ والمضرة إلى المخلوقات . فحينما يخاف أمراً ما فإنه يتوجه إلى المخلوق طالباً منه العون والمساعدة والحماية ، ولا يتوجه إلى الله تعالى ، بسبب تفكيره المادي المحشور في المحسوسات . والمقصود بكبير هذا الوادي هو كبير الجن . وقال اللهُ تعالى : ﴿ وأنه كان رِجالٌ من الإنس يَعوذون بِرِجال من الجن فزادوهم رَهَقاً ﴾ [الجن : ٦] .

وقد كان هناك رِجالٌ من الإنس في أسفارهم وتنقلاتهم يستجيرون برجال من الجن ، ويحتمون بهم ، من أجل منحهم الأمان والرعاية . فالفكرةُ المسيطرة على أذهان هؤلاء الرجال من الإنس هي أن الجن قادرون _ بما أُوتوا من قدرات خارقة _ على تقديم الحماية والنجدة . والجنُّ كانوا يَعتبرون أنفسهم أرفع مكانةً من الإنس ، لأن الإنس يلجأون إليهم ويستعيذون بهم . وبلا شك فإن الإنسان لا يستعيذ إلا بمن هو أسمى منه رُتبةً ، وأعلى مَنْزلة . وقد كان عربُ الجاهلية يضعون الجن في مقام رفيع ، وينظرون إليهم على أنهم القوة المخلِّصة من الشرور ، والقادرة على توفير الحماية وجلب المنفعة. والاستعاذةُ بالجن تنطلق من عقلية بدوية قَبَلية . فقد كان العرب يستجيرون بشيوخ القبائل ووجهاء الناس حينما تحل بهم مصيبة أو تَنْزل بهم فاقة . وقد طَبَّقوا هذا النموذج على علاقتهم بالجن .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٥٠) : ((أي : كُنَّا نرى أن لنا فَضلاً على الإنس لأنهم كانوا يَعوذون بنا إذا نزلوا وادياً، أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها كما كانت عادة العرب في جاهليتها ، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جِوار رَجل كبير وذمامه وخفارته ، فلمَّا رأت الجن أن الإنس يَعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً ، أي خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوُّذاً بهم)) اهـ .

لقد استغل الجنُّ نقطةَ ضَعف الإنس ، وقاموا بتكريسها والبناء عليها ، من أجل استمرار نفوذهم على الفكر البشري ، وضمان سيطرتهم على السلوك الإنساني . وهكذا خَضع الإنسُ

بالكُلِّية لِسَطْوة الجن ، ليس بسبب قوة الجن ، ولكن بسبب ضَعف مَوْقف الإنس ، وخَوْفهم ، وخضوعهم غير المبرَّر .

وفي الدر المنثور (٨/ ٢٩٨و٢٩٩) : ((عن كَرْدَم بن أبي السائب الأنصاري ــ رضي الله عنه ــ قال : خرجتُ مع أبي إلى المدينة في حاجة ، وذلك أوَّل ما ذُكر رسولُ الله ﷺ بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلمَّا انتصف الليلُ جاء ذئبٌ فأخذ حَمَلاً من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي ، أنا جارُ دارك ، فنادى منادٍ : لا تراه يا سِرحان أرسله ، فأتى الحمَلُ يشتد حتى دخل في الغنم ، وأنزل الله على رسوله بمكة : ﴿ وأنه كان رِجالٌ من الإنس يَعوذون بِرِجال من الجن ﴾ الآية)) اهـ .

وهذا نموذج تطبيقي للعلاقة بين أهل الجاهلية والجن . فهذا الراعي بثقافته البسيطة الضحلة المستمدة من العادات والتقاليد الشعبية المتغلغلة في المكان والزمان ، لم يجد ــ حين فقد أعز ما يملك (حَمَلاً من الغنم) ــ سوى الاستغاثة بالجن . وهذا الأمرُ إنما هو بتأثير ثقافة البيئة الجاهلية المستندة إلى عقول الناس القاصرة ، وأهوائهم المتضاربة .

*

حاكمية الطاغوت

الحاكمية تعني إسناد الْحُكْم إلى أحد ما . وفي الإسلام يتم إسناد الحُكم إلى الله وَحْدَه ، لقوله تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلا للهِ ﴾[الأنعام : ٥٧] .

فالْحُكم إنما يكون لله تعالى وَحْدَه ، فلا يشاركه أحد كائناً من كان . ولأن هذا المفهوم يغيب بالكلية عن التجمع الجاهلي، انبثقت حاكمية الطاغوت (كل معبود من دون الله تعالى) كنتاج لحالة التخلف العاصف الذي يؤطر لمرحلة من الهلوسة الواعية ، والانهيارِ الأخلاقي ضمن الفجوة بين أنسجة التجمع ، وتمردِ العبد على المعبود ، وتأسيسِ أيديولوجية مستندة إلى تعاليم منقطعة عن السماء . وتكرَّست الحاكميةُ الوثنية كعقيدة لازمة لأهل الجاهلية .

وقد نعى اللهُ على أولئك الذي يريدون استلهام الحاكمية الجاهلية وإعادتها، فجاء الخطاب القرآني مُوَبِّخاً ومُستنكِراً لفِعلهم : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

إن الله تعالى يُنكر على الرافضين للحُكم الإلهي العادل، ويريدون حُكم الجاهلية الغارق في الفوضى والظلم . فالحُكم الإلهي معصومٌ وكاملٌ ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتسلل إليه الظلم والرِّشوة والمجامَلة والخطأ... إلخ. أما حُكم الجاهلية فهو قرارٌ بشري قاصر يعتريه النقصُ والأهواء والظلم . ولا يمكن لعاقل أن يُساويَ بين حُكم سماوي مُقدَّس وبين حُكمٍ وَضعي مُدنَّس . كما أن الحُكم الإلهي يسري على الجميع بلا تمييز ، أمَّا حُكم الجاهلية فيعتمد على التفرقة بين الشريف والوضيع . تماماً كما كان يفعل اليهود حيث يُطبِّقون الحدود على الفقراء والضعفاء، ولا يُطبِّقونها على السادة والأقوياء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((يُنكِر تعالى على مَن خرج عن حُكم الله المحكَم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعَدَلَ إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم)) اهـ .

أمَّا عن سبب النُّزول ، فقد قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ((كانت قُرَيْظة والنَّضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قَتل رَجلٌ من قريظة رَجلاً من النضير قُتل به ، وإذا قَتل رَجلٌ من النضير رَجلاً من قريظة قالوا : ادفعوه إلينا نقتله . فقالوا : بيننا وبينكم النبي ﷺ فَأَتَوْه،

فنزلت: ﴿ وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقِسط إن الله يحب المقسطين ﴾ [المائدة: ٤٢]...ثم نزلت : ﴿ أفحُكم الجاهلية يبغون ﴾))[13].

فحُكمُ الجاهلية يستمد وجوده من التمييز بين الناس ، والتفرقةِ العنصرية ، وتفصيل العدالة على مقاس المكانة الاجتماعية . والأحكامُ الجاهلية قائمة على أساس انعدام المساواة بين الناس وتكريسِ الفروقات الطبقية . فهناك أحكام خاصة بالأشراف والأغنياء ، وأحكام أخرى خاصة بأصحاب المرتبة الدونية في المجتمع كالفقراء والضعفاء . وهذا الشَّطَطُ يُغذِّي الحقدَ الاجتماعي ويُنشئ مجتمعَ الكراهية ، ويُوغر صدور الناس ، ويجعلهم أعداء متنافرين في مجتمع ممزَّق وغير متجانس . وهذا المجتمع لا يمكنه بناء حضارة أو نشر قيم الحرية والتنمية والرفاهية.

وقال الله تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذين يزعُمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليكَ وما أُنزل من قبلكَ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقدْ أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطانُ أن يُضِلَّهم ضلالاً بعيداً﴾ [النساء : ٦٠] .

فالتحاكمُ إلى الطاغوت تجسيدٌ واضح لانحراف أهل الجاهلية . فإذا غاب الحُكمُ الإلهي ، سوف يتجذر حُكمُ الجاهلية وحاكميةُ الطاغوت . ولا يمكن لِحُكم الله تعالى أن يجتمع مع حُكم الجاهلية في المجتمع . فمن المحال أن يجتمع النهارُ والليلُ .

وهذا إنكار من الله تعالى على هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان بما أُنزل على محمد ﷺ والأنبياء السابقين _ عليهم الصلاة والسلام _ . ومع هذا لم يرضوا بحُكم الكتاب والسُّنة . بل يريدون التحاكم إلى غيرهما . أمَّا سبب نزول الآيات السابقة . فعن الشعبي قال : ((كان بين رَجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة ، فدعا اليهوديُّ المنافقَ إلى النبي ﷺ لأنه علم أنه لا يقبل الرِّشوة ، ودعا المنافقُ اليهوديَّ إلى حكامهم لأنه علم أنهم يأخذونها))[14].

وهكذا نرى أن المنافقين _ الذين يُجسِّدون فلسفةَ الجاهلية _ ينتهجون الأساليب الملتوية ، فلا يحبون أن يسلكوا الصراطَ المستقيم لأنه يتعارض مع مصالحهم الآنية الدنيوية الزائلة ، فتراهم يسلكون كل السُّبل المنحرفة التي من شأنها أن تحقِّق أطماعهم ، وتوفِّر لهم شرعيةً مُصطنَعة

---

(١٣) رواه الحاكم (٤/ ٤٠٧) برقم (٨٠٩٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(١٤) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧) : رواه إسحاق بن راهويه في تفسيره بسند صحيح.

للحفاظ على مكاسبهم المادية ومكانتهم الاجتماعية . وهم دائمو التحرك بفِعل أهوائهم ومصالحهم الشخصية بغض النظر عن موقف الشريعة منها .

والطاغوتُ _ بشكل عام _ هو كل معبود من دون الله تعالى. والمقصود به في الآية على قولَيْن: الأول_ أنه حاكم اليهود أبو برزة الأسلمي قبل أن يُسلِم ويصحب (يصبح صحابياً)[15]. والثاني _ أنه كعب بن الأشرف [16]. وهو من أكابر سادة اليهود . وقد سُمِّيَ بالطاغوت لشدة طغيانه وعداوته للنبي ﷺ .

وقد أُمروا بأن يكفروا بالطاغوت، ويؤمنوا بالله تعالى، ويتحاكموا إلى الكتاب والسُّنة وحدهما. لكنهم رفضوا ذلك اتباعاً للهوى والمصلحة الشخصية ، وساروا في طريق الشيطان الذي يريد إضلالهم وإغواءهم ، وقيادتهم إلى طريق الجحيم . وهذا هو منهج أهل الجاهلية في كل العصور .

وانقسامات التجمع الجاهلي كلها تصبُّ في خانة حاكمية الطاغوت (القبيلة ، عِلْية القوم ، الأصنام) . فالتحليل الواعي لهذا المعطيات يُبرِز لنا مدى تغلغل هذه العقائد الفاسدة في النفوس. ولأن التجمع الجاهلي طبقيٌّ ظالم، استغل وجهاء القوم حاكمية الأصنام لمص دم الفقراء والمحتاجين، والسيطرة على العوام. فالطرق المستخلَصة من التصورات البدائية حول مفهوم الحاكمية والألوهية أدَّت إلى جرف التجمعات الإنسانية بواسطة سَيْل العقائد الوثنية ، وتوجيهِ الفكر الاجتماعي نحو التنازل عن الحقوق الفردية لمصلحة الموروث الوثني الذي يُعاد استحضاره لتحقيق أهداف ونفوذ عِلية القوم بشكل حاسم يستند إلى مرجعية أرضية منقطعة عن السماء .

والإنسان الجاهلي يَعْلم في قرارة نفْسه أن الأصنام جماد لا تضر ولا تنفع ، ولكنه مشى في هذا الطريق لكي يحصل على مكتسبات آنية يوجهها الزعماء القبليون لتعميق الهوة بين فئات التجمع البشري ، وبالتالي علو فئة على حساب سحق فئة أخرى .

والدِّين الحق لم يكن يشغل بال الجاهليين كثيراً ، فهو تحصيل حاصل . لكن الذي يشغل بالهم هو كيفية الحصول على أكبر قدر ممكن من المكتسبات الوقتية عن طريق اختراع ديانة وثنية ترتكز إلى أصنام مُعظَّمة في نفوس البسطاء . أمَّا بالنسبة للخاصة الذين يُعظِّمون الأصنام ، فهذا التعظيم ناتج عن تقليد للآباء ، يستند إلى تحقيق أهداف استغلالية لطبقة العبيد. لذا نحن أمام

---

(١٥) قال ابن حجر : رواه الطبري بسند صحيح عن ابن عباس [المرجع السابق نفس الصفحة].

(١٦) قال ابن حجر : رواه الطبري بسند صحيح إلى مجاهد [المرجع السابق نفس الصفحة] .

حالة احتيال كبرى يشارك فيها رؤساء القوم من أجل توليد جيل خاضع لا يثور على الظلم ، ومن هنا نفهم كيفية نشأة حاكمية الطاغوت .

إن هيكلية الأنماط الجاهلية تهدف في الأصل إلى تخدير الناس العاديين، وإخضاعهم لحكومة عُرفية موجودة ومُعلَنة بكل إصرار . وهذه الحكومة التي تُفَصِّل الحاكميةَ على مقاس الطواغيت ليست بأكثر من أداة في أيدي المتنفذين. وللأسف فإن نمو الحركة الشعبية يتم على المحور السالب. والدليل على ذلك هو كَون المخرَجات الناتجة من عملية تلاقح العقائد الوضعية سالبةً هدامة . والأصنام التي أُسند إليها الْحُكْمُ النهائي القطعي ، هي مجال حيوي وفعال بالنسبة لأولئك المتاجرين بالعقائد. فوجود مؤسسة الأوثان يُفرِز مدلولاتٍ نفسية عبثية تخترق الوضع الاجتماعي الانتكاسي.

إن النفوذ الصنمي في الأوساط الشعبية يرتكز بشكل أساسي إلى انهيار النظام الأخلاقي على الصعيدين : الرسمي المتمثل في الصولجان المذهَّب ، والشعبي المتمثل في طبقة العبيد . وهكذا تخرج أفكار البنى الفوضوية لترى النور . ولأن المقدمات كانت فجةً وعبثية جاءت التحركات الاندفاعية فجةً . إننا أمام وضعية صورية لا منطقية تستلهم مواد الدستور الوثني غير المدوَّن (العُرفي) . لذلك كان لزاماً تحطيم هذه الوضعية الهلامية الساقطة ، والتي تتواجد في النفوس أكثر مما تتواجد على أرض الواقع . وتمسُّكُ الجاهليِّ بهذا الازدواج المتشظي يجعل منه ذاتاً غير متماسكة ومنضبطة. فالتعاليم التي يتلقاها من محيطه تدفعه إلى تحويل وجهته نحو مزيد من انعدام الانسجام مع ذاته. وهكذا تتم أدلجةُ الكائن بشكل صارخ، وتحويله إلى مجرد متلقي تعاليم يعتقدها عُليا وساميةً . وفي النهاية نحصل على كائن تم تدجينه لخدمة مصالح أسياده الذين لا يَشبعون .

والنواحي الاجتماعية المفكَّكة في هذا الخضم تحدد معالِمَ النزيف الفكري . فالتيارات المتحاربة التي يأكل بعضها البعض تنبئ عن وجود دول داخل الدول . وإذا كان الإنسان يريد الحق فلا بد أن يسلك طريق الصراع، وقبل ذلك عليه أن يُجهِّز أسلحته لخوض حرب لا هوادة فيها. فالحق يُنتزَع انتزاعاً ولا يؤخذ أخذاً . وإننا لَنَخْلُص إلى حتمية وجود الحاكمية للهِ تعالى وحده . فكل تجمع بشري لا بد وأن تتواجد فيه حاكمية ، فإن لم تكن لله تعالى فإنها ستكون لغيره من الكائنات التي لا تضر ولا تنفع. فالحاكميةُ من أهم خصائص أي تجمع إنساني. وأنت لن تجد_ مهما بحثتَ _ تجمعاً إنسانياً خالياً من الحاكمية . وهكذا ، فإن الإنسان خاضع بطبعه لقوة عليا

مُطْلَقة حسب اعتقاده ، فإمَّا أن تكون إلهية أو بشرية . ولنتذكر أن الأصنام هي صورة بشرية ، أي إنها انعكاس لشوق المخلوق إلى تقديس شيء مادي ملموس .

والجاهلية مذبحٌ كبير للقتل البطيء، قتلِ الإنسان والبيئة باسم الآلهة . فالأنظمة المتخلفة داخل السياق الاجتماعي العام هي ألفاظٌ مجردة من المعاني ، لأن الأنساق البدائية لم تُعْطِ هذا الكائنَ البدائي الموضوع في صحراء مُطبِقة شكلاً لأشواقه وطموحاته وحاجاته النفسية ، ولم تُقدِّم ما يشفي غليل ذلك الكائن المتعطش بالفِطْرة إلى فهم الهدف من وجوده في هذه الحياة الدنيا ، ومآل حياته بعد الموت . فكان إنكارُ البعث البصمةَ الجاهلية الدامغة لعقول الجاهليين على الرغم من وجود بعض المؤشرات عند البعض والتي تدل _ ولو بشكل غير مباشر _ على أن هناك إيماناً بوجود حياة بعد الموت ، كما ورد في أشعار بعض العرب .

إن الإفرازات البنائية للصور الازدواجية العابثة ، توصل إلى بيانات من الغبش المتمركز في أدمغة الإنسان . وإنها لنتيجة طبيعية لكثافة الرموز التعبوية التحريضية (القبيلة ، الشرف ، الفروسية ، تقاليد الآباء ، ...) . وتغدو الرموزُ أيديولوجياتٍ وإرهاصات لحياة جماعية مكثَّفة ، ومساراً متشعباً يتحدد وفق الرأي العام السائد ضمن جدلية " الجمهور الجاهلي ". فالتأصيل مفقود بالكلية، بسبب انبعاث تكتيكات قَبَلية تعتمد على مبادئ الوحشية التفكيرية والوَحشة الذهنية. حتى إنك تشعر وكأنك أمام بؤرة توسعية مؤدلَجة تقوم على نفي الآخر، أو بالأحرى نفي ثقافة القبيلة المقابِلة من خلال توليد حروب مستمرة ومناوشات تهدف أساساً إلى وحدة الرموز وصهرها في رمز واحد هو شرف القبيلة ، والذي ينضوي تحته شرف الأفراد شاؤوا أم أبَوا، وبالتأكيد هم لا يملكون خَياراً آخر ، وإلا فسوف يفقدون امتيازاتهم .

إذن ، لامنطقيةُ القوة هي الدافع المحرِّك للتشكيلات العَقدية الجاهلية . والإيقاعاتُ المبعثَرة التي تحفر في وجدان البيئة طرقاتٍ متشعبة ، هي ذاتها التي تُحوِّل الفردَ إلى مجرد وسيلة مؤطرة ضمن برواز العشيرة ، حيث يُلغى الفرد لصالح الجماعة بعد أن تُمارَس عليه الوصاية بكل فظاظة . فالموجوداتُ الزمكانية (الزمانية _ المكانية) تُحاصره من كل الجهات. والعقائدُ البدائية لَيست بأكثر من أنوية هادمة وصادمة ، هدفها نسفُ الكَيْنونة البشرية المستقلة والمضادة للهوية الشاذة ، ومحوُ تضاريس الشخصية المشكِّلة للوجود البشري .

وهذه البيئةُ الذهنية هي التربة الخصبة لنشوء ثقافة انتظار الحلول السحرية . فمن الواضح أن تزاحم الأفكار المسبقة عن الأشياء ، أدى إلى تكوينات نمطية استباقية فظة لا تؤثر على القوى

الجماعية فَحَسْب ، بل يتعدى تأثيرها إلى الأنساق والمسارات الفكرية التي تحترف الانحرافَ . فمسارُ الإنسان الجاهلي يمتد من اعتناق الأيديولوجية إلى الثورة عليها إذا تعارضت مع شهواته وميوله . ومن هنا نفهم هلامية مبدأ " حاكمية الطاغوت " ، وأنه ليس بأكثر من تعبير فضفاض يتم استخدامه لتحقيق نفوذ أوسع ، وترقيع الثقوب في جسد العلاقات الإنسانية .

والتجمع النواةُ في العصر الجاهلي شديد المركزية . ورغم الهالة الإعلامية المتمثلة في شاعر القبيلة الرسمي ، والهادفة إلى تلميع صورة العشيرة ، وتوزيع أوسمة الانتماء القَبَلي ، إلا أننا لا نستطيع تغطية الشمس بغِربال ، أو تزوير وجه القمر السافر . لذلك أقول إن القبيلة الصنمية أبادت أتباعها حتى وإن ظلوا يمشون . وهذا يرجع إلى بناءات الكبت العاطفي والقمع السياسي الفظيع في الأطر الاجتماعية . فممارسة السياسة الوثنية كانت محصورة في سلالات العائلات العريقة ذات المال والنفوذ .

لكن التنويعات الازدواجية في صميم البنية الجدلية للبيئة الجاهلية تبقى حاضرة بصورة فجة ، لأن القيم الجمالية غائبة تماماً عن الوجود البشري . وهذا يؤدي إلى تحميل المفردات الحياتية فوق ما تحتمل. بَيْدَ أن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو لماذا يتم إعادة بلورة المصطلحات القِيَمية في التواجد الرسمي للإنسان البدائي ؟. الجواب بحاجة إلى فحص صبغة الحياة اليومية تمهيداً لاسترجاع صورة الكائن الأولية . لكننا نستطيع القول إن إعادة البلورة خطة متفق عليها من أجل التمويه والتلبيس على الأتباع الذين أعطوا عقولهم إجازةً مفتوحة بلا نهاية . أما الوجود الرسمي المستند إلى جدلية العلاقات المهلهَلة المؤدية إلى تجسيد الحاكمية لغير الله تعالى ، فهو وجود مشوَّش وغير فعال لكَونه يفتقد إلى التحركات الفكرية البناءة والعادلة .

فانعدام العدالة الاجتماعية في هذا المحيط الطارد للإبداع أدى إلى توليد قيم سالبة ترمي إلى إيجاد مرجعيات إنسانية مصابة بالقصور والنقص . فظهرت حاكمية الطاغوت ضمن بحث الإنسان المتواصل وحاجته إلى مرجعية يخضع لها . لكنه ضل طريقه في كثير من الأحيان فخضع لبشر مثله لا يزيدون عنه ولا يختلفون عنه . وتجسيداً لهذا الجنون الشعبي والرسمي قامت السُّلطة المتنفذة بقمع أتباعها فكرياً وتدجينهم كخطوة استباقية هادفة إلى منع الآخرين من إعمال عقولهم والتفكير في مقاومة هذا الاضطهاد .

والعناصرُ الذاتية في عملية البناء العبثي لا تعدو عن كَونها ضياعاً للوقت ، وقَتلاً للجهود الرامية إلى حقن الأنساق الاجتماعية بالمضمون الثوري ، وقيادةِ المجتمع إلى التغيير الصاعق . معَ

العِلم أن التجمع الجاهلي لا يمكن الثورة عليه بالفكر وحده ، بل نحن بحاجة إلى السيف أيضاً . فالتغيير السِّلمي في البيئة القاتلة مجرد حُلم بعيد المنال . فيجب أن تمشيَ الثورة البيضاء والثورة الدموية جنباً إلى جنب إذا أردنا إخراج هؤلاء الرَّعاع فكرياً من مستنقع الجهل والوثنية، وصولاً إلى حالة من الاستقرار المتحرك نحو التغيير ، وقلبِ أنظمة الحُكم المتشعبة كخيوط العنكبوت في أجساد بشرية مُفرغة من المحتوى الذهني والعاطفي والإنساني ، وخالية إلا من الشهوات الآنية المركَّبة تركيباً همجياً .

والمكوِّناتُ الزمكانية قادرة على نسف المشروعية الواهمة التي تسيطر على المحتويات الثورية في البيئة المنكمشة والمغلَقة. إذ إن التواجد الشعبي تحت أقدام عِلْية القوم أدى بالضرورة إلى نزيف فكري هادر باتجاهات سلبية بعيدة عن حتمية التغيير والتثوير من أجل الخروج من هذا المأزق الذي تجسده حضارة ثنائية العبيد والسادة المتهاوية. وما البيئة الجاهلية إلا تأسيس لحاكمية الطاغوت القائمة على أنقاض الدهماء الذين يكبتون أسئلتهم الثورية في دواخلهم خوفاً من القمع الاجتماعي والسياسي. إذن، نحن أمام وضعية متشابكة قائمة_ أصلاً_ على التمييز العنصري، والظلمِ الطبقي، وتفضيلِ الأفراد حسب طبقاتهم الدنيوية المتمثلة في القوة الشرائية والإنفاق ، وهذا يضاد تصنيف الإسلام للناس حَسَبَ التقوى .

لكن الذي يدعو إلى التفكر هو كيفية انبعاث القوى الظلامية من ركام الفرضيات التي قُدِّمت على أنها حقائق ثابتة . وهذا كله مرجعه إلى تذبذب واضح في طبيعة المصطلحات الإنسانية يُفضي إلى تلوين الحطام بألوان زاهية . فالحطامُ الفكري والناتجُ الاجتماعي التالف ، يعملان على إيجاد كائن مُدَجَّن ، تم تدجينه بواسطة مفاهيم عبثية قائمة _ بالأساس _ على سحق الوجود البشري واضطهاده ونفيه .

فالحُكْم المسنَد إلى رؤوس القوم يحفر آباراً عميقة وهمجية في الكَينونة الفردية التي تنهار لصالح تجمع إنساني منهار بطبيعة الحال . والفردية المتقوقعة على خيبتها والمتمثلة في الأنا العليا، لا تستطيع تقديمَ مشروع خلاصي يضمن الخلاص لهذا الفرد الذي يعمل ويعمل دون هدف أُخْرَوِي . أمَّا التكوينات الفلسفية المتفشية في تعليمات القبيلة وسدنتها وعبيدها ، فتهدف إلى سلخ الإنسان عن امتداده الوجودي في الواقع المعاش الذي يحياه في الذل والعار الدائمَيْن ، بسبب غيابِ المرجعية السماوية ، وتكريسِ المرجعية القَبَلية كأساسٍ للتشريع وسَن القوانين واختراع العقوبات الجزائية .

ويمكن القول إن تقنين العبودية والخضوع للنص الأرضي الذي يتخذ صفة الحزم والنهائية ، قادا إلى توليد جيل مسخٍ يحذف بوادرَ الثورة من أبجديته كلما ظهرت في الأفق . فالتشكيلات الفردية البدائية لا تختلف كثيراً عن التجمعات النواة. إذ إنه لا دور واضحاً للفرد والجماعة في هذا الجنون الرسمي. وإننا لنجد أفراداً شكلوا قبائل داخل القبيلة، فصار هناك دول داخل الدولة، تتبع مصلحة الأنا المتحدة بنفْسها . ولكن من سيدفع ثمن هذا الغُثاء ؟ . إنهم بالتأكيد الفقراء الذين لا يجدون سُلطة تحميهم من جشع عِلْية القوم . والأمر يتعدى ذلك ، حيث تصير السُّلطة سيفاً مُصْلَتاً على رقاب العبيد والفقراء ، تمتصهم حتى آخر قطرة ، وتفترسهم وهم يُصفِّقون لها .

ومن خلال المنظومة الفلسفية لحاكمية الطاغوت ، تتضح أبعاد العلاقة الإنسانية الطبقية بين السادة والعبيد . إذ إن الحاكمية في ماهيتها الأيديولوجية عبارة عن تيار سُلْطوي حاكم على إفرازات العقل والمعقولياتِ الثقافية . فكل تيار ثقافي متمتع بصفة عقلانية يتم تكريسه كنطاق تابع للحاكمية الفوضوية . الأمر الذي يؤدي إلى صناعة وعي ضد الوعي ، فتصبح الثقافة المنتشرة في أوساط الجماعة الجاهلية عبارة عن ثقافات متناحرة لا تجانسية .

ومبدأ اللاتجانس من أهم مبادئ الانهيار المجتمعي الناتج بفعل تأصيل حاكمية الطاغوت ، لأن خضوع القوى العقلية البشرية المبدِعة للسُّلطة الصنمية يدفع باتجاه نقض المستويات العقلية ، وتأسيسِ وعي سلبي غير قادر على معالجة قضايا الفرد الوجودية وأزماته الرُّوحية .

وعَبْرَ توظيف قيمة الانهيار الفكري الذي يجعل من المعرفة عبئاً على الفرد لا خلاصاً للفرد ، تتمركز الإشكاليات الإنسانية الحرجة في فلسفة التراكم ، وتصديرِ الأزمات ، وترحيلِ الملفات العالقة ، ودفنِ النار تحت الرماد . وكل هذه العمليات تشكل هروباً من حل المشكلة ، ومحاولة لرش السُّكَّر على الموت، لكن لحظة الانفجار ستكون كارثية ماسحة ، لأن الضغط يُولِّد الانفجار. ولا أحد يستطيع توقع لحظةَ الانفجار ، وعنصرُ المفاجأة هو القاتل .

وفكرة الحاكمية الطاغوتية هي تأسيس عبثية الهروب من حل الأزمات ، لأن الفرد المسحوق الذي يعتقد أن الأصنام آلهته التي ستنقذه من مشاكله الحياتية ، ويعتقد كذلك أن القبيلة بكل مستوياتها الهرمية السُّلْطوية هي خلاصه الأبدي الوحيد في الحياة والممات ، إنما هو فردٌ خاضع لغيبوبة عقائدية صادرت قواه الفكرية لصالح خلاص افتراضي يمتلك الحلول السحرية _ وَفْقَ الاعتقاد الجاهلي _ .

وهذا الهروب من الواقع يُمثِّل تعاطياً للمخدَّرات الدينية والسياسية ، حيث يتضافر الدِّين الوثني وسياسة القبيلة في منظورها البدوي الصحراوي ضمن جدلية عابثة لتغييب العقل ، واحتكارِ مستويات صناعة الوعي الإنساني القادر على اتخاذ المبادرة وخلقِ الفعل الواعي المضاد للهيمنة الأسطورية . ومنظومةُ الاحتكارِ القَبَلي قائمة على رُكنَيْن : احتكار العرش ، واحتكار الصَّوْلجان .

واللعبةُ المتبادلة بين دوائر المستويات الوثنية تخلق زواجاً عُرفياً بين الدِّين والسياسة في العقل الجاهلي ، فتصبح الوثنية دِيناً رسمياً للقبيلة للسيطرة على أكبر عدد من الأتباع ، وقمعِ الانشقاق ، ونفي الخارجين على قانون القبيلة . لذا يترسخ الدِّين كمحكمة تفتيش واقعية وخيالية من أجل تكريس سُلطة الأمر الواقع المعتمدة على الولاء العشائري . وفي نفْس الوقت تصبح السياسة البدوية انعكاساً حضارياً للوثنية الأيديولوجية ــ وَفْقَ المنظور الميثولوجي البدائي ــ .

ومع مرور الوقت يتحول الزواج العُرفي بين الدِّين والسياسة إلى زواج متعة هادف إلى نشر الدِّين الوثني محمولاً على الطموحات السياسية ، وتعزيزِ هيمنة السياسة الدائرة حول محور شيخ القبيلة عبر توظيف الدِّين لخدمة مصالح عِلْية القوم المعنوية والمادية . وهذه الإرهاصات الإدراكية تأخذ ــ فيما بعد ــ شكل زواج السُّلطة بالثروة ، وهذا يُفسِّر كَوْن القبائل المتنفذة والمتصارعة على اقتسام الكعكة في المجتمع العربي الجاهلي، هي قبائل قوية (كثيرة العدد) وفاحشة الثراء ، اتخذت المالَ السياسي سُلَّماً للوصول إلى عرش التشريع السياسي الوثني .

ووفق هذه الأجواء تصبح الحاكمية شكلاً للصولجان العشائري الحاكم . لذا لا يمكن فصل ماهية الحاكمية عن المسار الوثني السياسي المحمول على الثروة المادية البدائية، لأن الجماعة البشرية السجينة في صحراء الجزيرة العربية لا تتمتع بمبادئ معرفية في العلوم الاجتماعية والمعارفِ السياسية ، وليس لديها أدنى خبرة بتقاليد العمل السياسي ، وفي هذا الوضع لا يمكن أن تتحرر مقاليدُ الحُكم ومؤسساتُ الدولة العشائرية الذهنية من مغناطيس المال السياسي . ففي كل التجمعات الإنسانية البدائية يصبح المالُ هو شرعيةَ العمل السياسي، والقوةَ الدافعة لفكر الأحزاب الحاكمة المتصارعة (القبائل) .

وحريٌّ بنا أن نستوعبَ الدور المحوري لمفهوم الحاكمية في إعادة رسم خارطة الإفرازات العقلية ، لأن العقل الجاهلي يتم تأطيره في مساحة ضيقة محكومة بأنساق فلسفية تراثية تقليدية معلَّبة ، وبالتالي يصبح العقلُ البدائي مجرد ردة فعل للإملاءات العشائرية ، والشروطِ الاستباقية المفروضة من قبل أنظمة الهيمنة السُّلطوية على تقاطعات العلاقة بين الفرد وذاته من جهة ،

والعلاقة بين الفرد وبيئته من جهة أخرى. وفي هذه الظروف ، يصبح من المستحيل أن يتحرر العقلُ البدوي الجاهلي من شروط الولاء للقبيلة المحكومة بالسياسة الدينية الوثنية ، والحاكمةِ على سياقات الحراك الاجتماعي ، والتحركاتِ البشرية في المحيطات الحياتية الأفقية والعمودية .

ومهما يكن من أمر ، فإن طبيعة المدلول الديني تَنْزع إلى إشكاليات متكاثرة توليدية ، تساهم في إنتاج بؤر بشرية مضطربة تنفِّذ الإملاءات العشائرية حرفياً ضمن منظومة الولاء للتاريخ الوثني الأسطوري ، والانتماءِ إلى تقاليد الآباء السابقين حَمَلةِ المشروعية العائلية المزعومة .

لذا يبرز عقل الحاكمية كولاء تاريخي للآباء المؤسِّسين ، وهذا الولاء الميثولوجي الخاضع لثقل الإحساس التاريخي والعائلي ، يأخذ شرعيةً دينية صابونية (هلامية) ، ومن ثم يتشظى إلى مستويات أكثر شراسة في التعامل مع الذات البشرية ، حيث يتم وأد الطموحات الشخصية ، وتحويل الفرد إلى بوق لمدح القبيلة وإنجازاتها ، أو اختراع إنجازات وهمية وتكريسها كواقع حياتي معاش . والفردُ يقوم بهذه اللعبة _ رغم علمه بها _ بسبب خضوعه للسيف العائلي المسلَّط عليه ، وعدمِ قدرته على مجابهة العقل الجمعي البدائي النابع من رابطة الدم خوفاً من نَفْيه ، أو تصنيفه كمنشق خائن لتراث الآباء والعائلة ، أو تكريسه كمنبوذ لا ظَهْر يسنده في مجتمع بدوي جاهلي متوحش ، وقائم على العصبية القَبَلية ، وماهياتِ الثأر ، والصراعاتِ الطائفية والعشائرية من أجل اقتسام السِّيادة والنفوذ والسُّلطة الشمولية ، وفق تيار أخلاقي مضطرب ، حيث اختلاط قيم الشرف والفروسية والكرم بالتخلف العقائدي والظلم والصراع الطبقي العشائري وهضم حقوق الضعفاء (خصوصاً النساء والأطفال) . وهذا يشير إلى اضطراب المصطلَح الوظيفي في النسغ المجتمعي الجاهلي الأولي .

وحين تنهار المعاني في الجماعة البشرية تَؤول التحولات البشرية إلى جوهر هلامي عاجز عن تقديم الحلول لإشكاليات البنى العقائدية ، لأن العقيدة الجاهلية بكل إرهاصاتها عبارة عن ردود أفعال مختلطة منعكسة عن الطبيعة الصحراوية المحدودة . لذا تصبح البنية الفكرية ضيقة بشكل لا يسمح لها بتقديم نفْسها ، وهذا العجز ناتج عن غياب الخلفية المعرفية المتماسكة عن المشروع الجاهلي الإقطاعي المتفشي في مفاهيم السلوك العقائدي .

ومن أجل توليد طبيعة لغوية للقيمة الدينية الأسطورية في التجمع الجاهلي ، تحاط ماهية الحاكمية الطاغوتية بإفرازات اجتماعية حرجة ، من شأنها رسم هلامية شرعية حول كيانات الترابط الديني . أي عملية اختراع شرعية من أي نوع تحيط بالفكر العشائري الإنساني الذي يتم تقديمه

كمبادئ دينية سامية ذات طبيعة أبوية عليا ، تحفظ الإرثَ التاريخي لمجتمع الأصنام ، وكلَّ ما يتعلق به من بدائية الفكر الديني ، وإشكالياتِ المفاهيم الاجتماعية .

ومن هذا المنطلق تتحدد الصيغة الفكرية لماهية الحاكمية الدينية استناداً إلى ميثولوجيا إقطاعية حسب المنظور السياسي ، وعقيدةٍ طبقية احتكارية وفق المنظور الديني . وبذلك يكون مفهوم " الحاكمية " هو الجنين غير الشرعي لزواج السُّلطة بالثروة . وكلما اتجهت الماهياتُ المنبثقة عن الفكر الطاغوتي الحاكم على فراغ الإفرازات الروحية نحو تفعيل المستويات العقائدية الخشنة التي تعرِّي الإنسان أمام ذاته ، ازداد حجمُ الضغط الفكري على أبعاد العلاقات الاجتماعية . فيصبح المجتمع الجاهلي تياراً فردياً أنانياً يعتمد على الخلاص الذاتي ، فكل فرد يريد النجاة بنفْسه مستغلاً المكتسبات التي يَقْدر على امتصاصها من الوحشية القَبَلية العنيفة . لذلك أضحت القبيلة _ باعتبارها مركز التشريع الوثني البدائي المستند إلى حاكمية العائلة العقائدية_ مجرد شقة مفروشة سرعان ما يغادرها الفرد ، أو سفينة تغرق يحاول الجميع القفز منها للنجاة بأنفسهم ، أو بقرة حلوب يُؤخذ حليبها ثم يتم إهمالها .

وهذا يعكس الدلالاتِ السلبية لموقف الحاكمية من حرية الفرد وطموحاته الشخصانية . فمع تحول العقيدة إلى شكل هلامي أسطوري ازداد غرق الإنسان في مشاكله الوجودية ، مما أدى إلى انتقال المعنى الفِطري للطبيعة البشرية إلى إشكاليات متوازية مع المأزق البشري العمومي .

وفي ظل متواليات الانكسار المعرفي الصادم ، والعلاقاتِ المجتمعية المتضاربة ، دخل الفردُ الجاهلي في نزاع مع نفْسه ضمن هواجس الاضطراب والقلق والاغتراب، وانعدامِ الأمن الروحي ، وغيابِ الطبيعة الأخلاقية للجسد الإنساني. فصار الفردُ الجاهلي يخوض حرباً داخل نفْسه مما أفقده الشعور بالسلام الداخلي ، وصار هذا الفردُ مُحَاصَرَاً بماهية الصراع المتشظي : الصراع الداخلي والصراع الخارجي . وبعبارة أخرى ، صراع في الذات ، وصراع على الذات . وهذا أدى إلى غياب فرص الإبداع والتحرر من تبعية العقائد الأسطورية المسيَّسة ، فالعقلُ لا يمكن أن يفكر بحرية إلا إذا تحرر من خوفه ، وهذا متعذر في الجماعة البشرية الجاهلية المحكومة بالقوانينِ العُرفية التي أفرزتها السُّلطة العشائرية ، وأحكامِ الطوارئ غير المدوَّنة التي تسري بحُكم قوة رابطة الدم، والولاءِ للموروث التاريخي ، وتقاليدِ الآباء المؤسِّسين .

ومن أجل توليد حركة نقدية قادرة على تفتيت ميثولوجيا مشروع " الحاكمية " إلى بنى فلسفية ، ينبغي تأطير الوعي الذهني المحدود في حركة اجتماعية عامة كاسرة للحدود ، وعابرة للمأزق

الإنساني الصارم . وعلى الرغم من أن الإنسان الجاهلي صيغة خيالية لوهم تكراري ، إلا أن الأنساق البشرية قادرة بما أُوتيت من وعي داخلي على كشف أبعاد المعطيات الدينية التي تَنْزع إلى إرهاصات سياسية ، لكن الفرد _ غالباً _ يُؤْثر الصمتَ الذي يأتي بالسلامة على الكلام الذي قد يأتي بالمشكلات والمضايَقات . وهذه هي النقطة القاتلة في كل التجمعات البشرية عبر أطوارها المختلفة .

إن الجاهلية نظام لا نظامي ، ولكنْ يتم تقديمها كمنظومة فكرية متكاملة وشاملة ونهائية ، تستوعب طموحاتِ الذوات البشرية ، وتستطيع تقديمَ الحلول المطْلقة لا النسبية ، وتَقْدر على بعث الروح الحضارية في الأفق الإنسان على مستوى القيم الجمالية ، والبيئة المادية .

وهذه الدعاية المفرطة تغدو فوضى لا نظامية ، بسبب عجزها عن إقناع الآخرين بمشروعها ، أو مشروعيتها الوهمية . وعليه تصبح الأنظمة الاجتماعية شكلاً لانعدام النظام ، بل يصبح النظام _ بحد ذاته_ هو اللانظام ، فما بُنِيَ على شرعية افتراضية ذهنية لا قواعد شعبية لها ، لا بد أن ينهار أمام لحظة المساءلة الفكرية الحاسمة .

وعلى الرغم من أن ثقافة مستويات الأسئلة كانت مُطارَدة من قِبَل إفرازات السُّلطة الصحراوية البوليسية المحصورة ، إلا أن هناك محاولاتٍ جريئة لطرح الأسئلة على التداعيات العقائدية في مناهج العقلية الجاهلية ، فلم تكن الجماعاتُ العربية البدائية قطيعَ غنم يسير إلى الذبح ولا يُفكِّر بِقَدْر ما كانت تياراً محصوراً في وجهة نظر أحادية وأوَّلية خام .

ففكر الجاهليين كان ضحلاً للغاية، بحيث يختلط مفهوم المسار مع ماهية المصير ، ويتزاوج الخضوعُ لسُلطة السيف العائلي مع قيم الرجولة والفروسية والانتماء . لذا فقد أخذ الفكرُ صيغةً رمزية للوهم المطبِق نتيجة حجم ضغط الأنساق المجتمعية على الوعي الفردي ، وحجمِ نفوذ الإملاءات الخارجية الآتية من القبيلةِ والعائلةِ والتاريخِ والهويةِ . وهذه الإملاءاتُ تضغط على ذاتية الفرد العاجز عن المقاوَمة ، وتَفتح عدة جبهات مُتعلِّقة بقيم الولاء والانتماء . والعقلُ الجمعي الضاغط كان شرساً للغاية ، بحيث لم يسمح للعقل الفردي الشخصاني بأن يأخذ زمام المبادرة ، أو يتخذ الخطوة الأولى الحاسمة على مسار حرية الفكر ، والتحررِ من ميراث التبعية .

وتستمر أدلجة إفرازات المفاهيم العقائدية بشكل يَقود إلى تعميق حاكمية الطاغوت كمبدأ ديني ينحو منحىً سياسياً . لذا فالخطورة لا تكمن في إرهاصات انتحار الوعي الديني بِقَدْر ما تكمن في التوظيف السياسي الواقعي لماهية الاحتكام إلى الوثن كمسار مجتمعي لا محيد عنه .

فالعقيدة الجاهلية ذات الصبغة القابلة للتشظي في السياقات الاجتماعية لن تؤثر في طبيعة مسار الوعي الإنساني الحياتي إذا بقيت محصورةً في الذهن الداخلي للأفراد، والوعي الكلي للجماعة البشرية .

ولكن التأثير يبدأ حينما ينتقل الوعي الكلماتي الديني من حيز الإيمان الداخلي إلى واقعية التطبيق العملي . وهنا تبرز عدة إشكاليات مشتملة على بنية الصدامات البشرية ، وعلاقةِ انكسار الحلم الجماعي بالطموحات الشخصية للأفراد .

ففي التجمع الوثني البدائي تتراجع البنى الداخلية للأفراد إلى زاوية قتل الحلم ، بُغية ترسيخ العقل الجمعي ، لأن البيئة البدوية البدائية التي تَنْزع إلى إشكاليات وثنية دينية هي محيط جماعي ، يتم فيه تحييد الإبداعات الشخصية ، والمواهبِ الذاتية . وهذا عائد إلى كَوْن التقاطعات الجاهلية البشرية تياراً كلياً قَبَلياً، وصوتاً جماهيرياً دائراً حول مركزية شيخ القبيلة (مركز التشريع البشري)، ومركزيةِ الصنم (مركز التشريع الحجَري). فلا صوت للإبداع الفردي في التجمعات الصحراوية الأولية ، لأن صعوبة العيش تفرض مناهج اتباع الحلول الجماعية لا الفردية ، لذلك يشعر الفردُ بأنه ضائع ، وبعد أن يتعود على ضياعه ، يتم تجذير الضياع كحل وجودي لكل المشاكل الاجتماعية ، فيصبح الإنسانُ ضحيةَ نفْسه وبيئته ، وتتقمص الضحيةُ وجهَ قاتلها ضمن اضطراب نفْسي حرج في الذات الإنسانية ، وحربٍ داخلية في ذات الفرد تبعد عنه السلامَ الداخلي ، والمصالحةَ الجوانية الضرورية . وبالطبع فإن مراكز التشريع الجاهلي متعددة وهلامية وفوضوية ، بسبب كثرة الأيادي الرامية إلى تكريس الوهم كأيديولوجية حاكمة . وأيضاً بسبب التوظيف السياسي للعلاقات المجتمعية التي تخترع مراكز تشريعية لسيطرة عِلْية القوم على الجماعات البشرية غير المتجانسة ، فتصبح إفرازات عبثية الأصنام الآلهة محاولةً يائسة لاختراع حالة تجانس بين القبائل المتناحرة ، ورابطةً توحيدية لكل الجهود العشائرية الرامية إلى تكريس سُلطة القبيلة ، وسيادةِ أبنائها بين العرب . فالحجارةُ هي جماد لا تنفع ولا تضر، ولكنْ بحُكم التوظيف البشري للأيديولوجيات الافتراضية التي يتم تكريسها حول الحجر كمرجعية نهائية حاسمة ، تأخذ الجمادات صفةً بشرية حاكمة على الإفرازات المجتمعية تنتقل إلى صفات آلهة مسيَّسة لا تملك من أمرها شيئاً ، لكنها تملك أمرَ الناس بحُكم سياسة الأمر الواقع ، وقوةِ السُّلطة البشرية التي تَسوق الجماعةَ الإنسانية _ كالقطيع _ نحو تقديس الميثولوجيا حفاظاً على تقاليد الآباء ، ومكانةِ سُلطات النفوذ الأبوية ، وهَيْبةِ القبيلة .

الحَمِيَّة

تُعْتَبَـرُ الحَمِيَّـةُ من أُسـس الثقافـة العربيـة فـي الجاهليـة . والحَمِيَّـةُ منظومـةٌ فلسـفية واجتماعيـة أفرزها العقلُ العربي الجمعي ، من أجل تأسيس التكبر والاستعلاء والفخر في الواقع المعاش . ولا يخفَى أن الحَمِيَّة مرتبطة _ بشكل وثيق _ بثقافة الحَسَب والنَّسَب .

قال اللهُ تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح : ٢٦].

والحميَّة ههنا تعني العِزَّة بالإثم والتكبر والرِّفعة الممقوتة . وهي إحدى الخِصال الرئيسية لحقبة الجاهلية . فهذه الخِصلةُ المذمومة هي حِجاب يمنع وصول نور الحقيقة إلى القلب ، وبالتالي فإن المرء يَسقط في مستنقع الهوى والعصبية والتشنج ، فيتحول من كائن عاقل ناضج ، إلى كائن غريزي هائج، لا يضع الأمورَ في نصابها الصحيح ، ولا يُدرك أهمية العقل في تصحيح المسار الواقعي .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٩٧٤): ((وكانت حَمِيَّتهم أنهم لم يُقِرُّوا أنه نبي الله _ أي النبي محمد ﷺ _، ولم يُقروا ببسم الله الرحمن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيت)) .

فهذه الغطرسةُ ، والتكبر على الحق ، ورفض الإيمان عناداً وعنجهيةً ، كلها قيم جاهلية شَكَّلتْ فلسفةَ المشركين في التعامل مع المؤمنين . وتتجلى خطورةُ الحميَّة في كَوْنها مانعاً يَحول بين الحق والقلوبِ ، مما يؤدي إلى انحراف الناس عن المنهج الإيماني القويم ، والركون إلى تطرفهم العقائدي ، وسوءِ أخلاقهم ، وعدمِ موازنتهم للأمور . فبسبب اعتدادهم الأعمى بأنفسهم ، وتقديسهم لبيئتهم الوثنية ، وتعظيمهم لتاريخهم الأسود يَرفضون طوقَ النجاة، ويواصلون الغرقَ ، غير شاعرين بالكارثة التي يَرتعون فيها .

قال سيد قطب في الظلال (٢٦/ ١١٥): ((وهذه الحميَّة إنما هي حميةُ الكِبْر والفخر والبَطَر والتعنت ، الحميَّة الجاهلية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ والمؤمنين ، يمنعونهم من المسجد الحرام،ويحبسون الهدي الذي ساقوه أن يبلغ مَحِلَّه الذي يُنحر فيه،مخالفين بذلك كل عُرف وكل عقيدة، كي لا تقول العربُ : إن محمداً دخلها عليهم عُنوة . ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عُرف ودين ، وينتهكون حُرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته ، وينتهكون حُرمة الأشهر الحرم التي لم تُنتهك في جاهلية ولا إسلام)) اهـ .

إن هذه الحمية الآثمة وُلدت من رحم الاستكبار وازدراء الحق ، وولَّدت جيلاً غارقاً في رفض الحقيقة الحاسمة . إذ إن العُلُوَّ بغير الحق ، واحتقارَ العقولِ الإنسانيةِ والسلوكياتِ البشريةِ ، أدَّيا إلى توليد قيم مضادة للحق المطْلق . والسلوكُ المنحرف اخترق الوجودَ الإنساني من كل الجهات، فجعله هشاً قابلاً للتمزق . وهكذا ، صار التمزقُ هو مصير الإنسانية المحتوم .

وقد كان المشركون غارقين في حمية الجاهلية، وعقلية رفض الحق ، وعدم تقبله. فلم يتعودوا على الاعتراف بالذنب أو الخطأ، والرجوع إلى الصواب، لأن تربيتهم قائمة على العناد والمكابَرة ، وتقديمِ الأهواء الشخصية على الحقيقة بدون وجود منهج عقلاني مستقيم يتعامل مع طبيعة السلوك الاجتماعي بكل حالاته الإيجابية والسلبية .

وفي يوم أُحُد اتضحت _ عند المشركين _ معالم حمية الجاهلية ، والتكبر ، ورفض الإذعان للحق المتجسد في الرسالة النبوية . وقد بدا ذلك واضحاً على سَيِّد قريش ، وزعيم المشركين _ آنذاك _ ، أبي سفيان بن حرب .

فإذا أبو سفيان يَصيح في أسفل الجبل: أُعْلُ هُبَل، أُعْلُ هُبل، يعني : آلهته. أين ابن أبي كبشة ؟، أين ابن أبي قحافة ؟ ، أين ابن الخطاب ؟، فقال عمر: يا رسول الله ألا أجيبه ؟ ، قال : ((بلى)) ، فلمَّا قال : أُعْل هُبَل ، قال عمر : الله أعلى وأَجَلُّ ، فقال أبو سفيان : يا ابن الخطاب ، إنه يوم الصمت. فعاد فقال : أين ابن أبي كبشة ؟، أين ابن أبي قحافة ؟ ، أين ابن الخطاب ؟، فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ ، وهذا أبو بكر ، و ها أنا ذا عمر ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، الأيام دُوَل ، والحرب سِجال ، فقال عمر : لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار ، قال : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خِبنا إذن وخسرنا ، ثم قال أبو سفيان : أمَا أنكم سوف تجدون في قتلاكم مُثلة ، ولم يكن ذلك عن رأي سُراتنا ، ثم أدركته حَمِيَّةُ الجاهلية ، فقال : أمَا إنه إذا كان ذلك لم نَكْرَهْه [17].

---

(١٧) رواه الحاكم في المستدرك(٢/ ٣٢٤)برقم (٣١٦٣)وصححه،ووافقه الذهبي.

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٥٢): ((قال ابن إسحاق حدثني صالح بن كيسان قال: خرجت هند والنسوة معها يُمَثِّلْنَ بالقتلى ، يَجْدَعْنَ الآذان والأنف ، حتى اتخذت هند من ذلك خُزماً وقلائد ، وأعطت حزمها وقلائدها أي اللاتي كُنَّ عليها لوحشي جزاء له على قتل حمزة، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتْها)) .

وكان المشركون يُسَمُّون النبيَّ ﷺ ابنَ أبي كبشة. وأبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ مِن قِبَل أُمِّه. والعربُ إذا أرادوا انتقاصَ أحد ، فإنهم ينسبونه إلى جَد غامض . وقد كان المشركون يُطلِقون على النبي ﷺ هذا الاسم عداوةً له ، وانتقاصاً من قَدْره الشريف . فقد نَسَبوه إلى نَسَب له غير نَسَبه المشهور ، فهُم لا يستطيعون الطعن في نَسبه المعروف ، وهو الشريفُ القرشي الهاشمي .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١١٠) عن أبي كبشة : ((فقيل : هو رَجل مِن خُزاعة كان يعبد الشِّعرى ، ولم يوافقه أحد من العرب في عبادتها ، فَشَبَّهوا النبيَّ ﷺ به لمخالفته إياهم في دِينهم ، كما خالفهم أبو كبشة)) اهـ .

وتتجلى الحَمِيَّةُ الجاهلية في عقلية أبي سفيان حينما رفض الاعتذار عن التمثيل بجثث قتلى المسلمين ، فقد أخبر أن هناك مُثلةً ، لكنها لم تصدر عن رأي سُراة المشركين ــ أشرافهم ــ ، ومع هذا فلن يكره المشركون عملية التمثيل بالجثث، وهذا انعكاس للحمية، حيث أخذته العزة بالإثم ، وساند قومَه في إثمهم تعصباً للشِّرك والقبيلة والعقلية الجاهلية ، ولم يعتذر عن فعل ذلك .

والإفرازاتُ السلبية المنضوية تحت عناوين التكبر الممقوت ، هي تشكيل يرمي إلى تقطيع أوصال الجماعة ، عن طريق توليد تصنيف يقسم الناس إلى عبيد وسادة . ويصبح السادة يفكرون ويتخذون القرار نيابةً عن العبيد الذين لا وزن لهم . ومهما اقترف السادة من آثام فإنها مُبرَّرة ومُصانة ، لأنهم يتمتعون بحصانة جمعية . أمَّا العبيد فهم الذين يدفعون الثمن في كل الأحوال .

وهكذا كان أعداءُ الدعوة الإسلامية من عِلْية القوم ، لأنهم خافوا على امتيازاتهم الظالمة ، ونفوذهم المبني على ظهور العبيد المشقَّقة من أثر السِّياط . أمَّا العبيد فلم يكن لهم دور سوى الاتباع والرضوخ لأمر صاحب السَّوْط . وهذا لا يُعفي العبيد من المسؤولية ، فقد كان عليهم أن يثوروا من أجل الحق ، وأن يكسروا السَّوْط . وبالطبع ، فقد كان هناك ثائرون امتلكوا الشجاعة لرفض الباطل واعتناق الحق ، ودفعوا الثمنَ غالياً . وهذه التضحية لم تذهب أدراجَ الرياح ، بل زادتهم إيماناً ورِفعةً في الحياة الدنيا والآخرةِ . وعلى مدار التاريخ لا تكون المواقف المشرِّفة مجانية، بل لها ضريبة كبيرة ، لا يدفعها إلا الرِّجال الحقيقيون .

وهذه الحمية ــ حمية الكِبْر والتعنت ــ جعلتهم يعتقدون أن بيت الله الحرام مُلكٌ شخصي ، أو عَقار يشترك في مُلكيته القبائل المتنفذة . ويا له من اعتقاد فاسد أوردهم المهالك ، وجعلهم يتصرفون بكل وقاحة وعنجهية . فقد منعوا المؤمنين الصالحين من المسجد الحرام ، وحبسوا

الهديَ أن يَبلغ مَحِلَّه . وإنه لتصرف أخرق موغل في التعنت وغير مسبوق . فلم يكن أحد يجرؤ على اقتراف هذا الفعل الدنيء المخالف لعقائد الجاهلية وعقائدِ الإسلام . ولا يخفَى أن الإسلام يَسْمح للمخالِفين عَقدياً بممارسة شعائرهم بكل حرية ضمن الضوابط الشرعية التي ما جاءت للتقييد على

الناس ، بل لتنظيم أعمالهم .

إن الفعل الجاهلي يجسد الطموح التوسعي لكسب مزيد من الامتيازات ، ومزيد من السيطرة على الأماكن المقدَّسة . وليس أدل على ذلك من حادثة وضع الحجر الأسود الذي كادت القبائل أن تتقاتل على وضعه ، وتنشب بينها حروب ، لولا حِكمة النبي محمد ﷺ .

قال ابن إسحاق : إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها . كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال لعقة الدم، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب ابن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسُموا لعقة الدم ، فمكث قريش أربع ليال أو خمساً . وجاء الرأي من أحدهم أن اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه. فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلمَّا رأوه قالوا : هذا الأمين رَضينا [18] .

فتعظيمهم للكعبة المقدَّسة مشوب بتحقيق نفوذ أوسع ومكاسب قَبَلية ذاتية ، وتحقيق سُمعة ومجد ورِفعة بين القبائل . فالكائن الجاهلي كان هاجسه تحقيق الرفعة والمجد لكي يتيه فخراً على أقرانه، وهكذا كانت القبائل تتعامل مع المقدَّسات .

وطريقةُ التعامل الجاهلي مع المقدَّس مبنيةٌ على أساس باطل من الفخر الدنيوي . وهذه الطريقةُ تختصر كلَّ طموحات الإنسان الجاهلي الخام غير المصقولة والمهذبة . والتنويعات الفلسفية تبزغ من جديد في رحم تُفرِز فلسفةً جديدة قائمة على النفعية .

ولا يَهُمُّ ــ حَسَبَ التصور الجاهلي ــ كيف جاءت المنفعة . المهم أنها جاءت وانتهى الأمر. لأن الثقافة الوثنية المشوَّشة ليس لها قواعد أخلاقية شرعية تكون دستوراً لحياة الفرد .فالغاية تُبرِّر

(١٨) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٨و١٩)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٢٦).

الوسيلةَ ، مذهبٌ جاهلي صِرْف ، تم إفرازه كنتيجة طبيعية للظلم واضطهاد الآخر، وتم تطبيقه قبل مجيء ميكافيللي[19] بقرون طويلة .

والتوظيفُ التأسيسي للعقيدة الجاهلية في المجالات الحياتية ، يُعَدُّ النواةَ المكوِّنة للتشكيلات الوجودية المتعلقة بالفرد والقبيلة . إن الفرد الجاهلي يطرح أسئلته الوجودية بينه وبين نفسه دون أن يجهر بها مخافة بطش السُّلطة الحاكمة، لكنه_للأسف_ لا يجد غير الشك والريبة اللذين يتلاعبان به ويوجهانه في الطريق الخاطئ ، وبما أنه قد استمرأ المشي في هذه الطريق المظلم ، فلن يشعر بقيمة النور ، لأن المحجوب عن ضوء الشمس يظن كلَّ من حَوله خفافيش .

إن الأيديولوجية النفعية المكرَّسة التي يتم إعادة بلورتها كلما استجدَّت الظروفُ ، تقوم بدور حيوي وهام من أجل تعميق الفجوة السياسية والاجتماعية داخل القبيلة الواحدة . فالوجود القمعي ذو الصبغة الفلسفية في السياسة الجاهلية ليس بأكثر من محاولة حثيثة لتكريسِ التخلف ، وتغييبِ المعاني الثورية ، وقتلِ تثوير المعنى . فالحياة في التجمع الطارد للإبداع ما هي إلا صورةٌ قاتمة لحالة الانحسار المعرفي الذي يتفاقم أو يُراد له أن يتفاقم . وهكذا يتجسد الوصول إلى المعرفة في صورة موغلة في القمع والاضطهاد .

ونفي المعاني السامية هو الخطوة الأولى في طريق مقاومة التطور الاجتماعي ، والأمر لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى تأسيس صيغ متخلفة وتقديمها كأساس متجذر غير دخيل في القيم السلوكية المسيَّسة. وهذا الإرباك الأيديولوجي نتاج طبيعي وثمرة متوقعة للارتباك في البُنى المؤسَّسة على اللايقين العملي والنظري . وهذا يدعونا إلى البحث عن نشأة القوى المؤدلَجة الخاصة بالتيارات المضادة للمسيرة الجماعية في قلب التجمع القَبَلي الذي تحدد قيمَه الروحية تشكيلاتٌ من القوى المادية ، لذا فإن الاقتصاد الجاهلي المتركز في أيدي حفنة قليلة من المتنفذين هو الذي يُسيِّر طبيعةَ العلاقات الاجتماعية، لأن المجتمع بدائي ومتخلف وغارق في الوثنية العمياء. وبالتالي فإن المادية المطبقة والمتغلغلة في العبادات والمعاملات تفرض كلمتها فرضاً رهيباً في اتجاه سَير الجماعة البشرية .

---

(١٩) نقولا ميكافيللي (١٤٦٩م _ ١٥٢٧م) . ركَّز تعاليمه على مبدأ " الغاية تبرِّر الوسيلة " وفيه ينصح الحكامَ والأمراءَ بأن يلجأوا إلى أية وسيلة للحفاظ على سُلطتهم ، ولو كانت هذه الوسيلة مؤذية . من أبرز أعماله كتاب " الأمير " .

صحيحٌ أن هناك قيماً أخلاقية ومكتسبات قِيَمِيَّة سامية ، إلا أنها مجرد معاملات عابرة ذات أهداف دنيوية بحتة ناتجة عن توارث العادات والتقاليد ، وهيمنةِ الاعتيادية على السلوك الإنساني. أي إنها غير منتمية إلى شريعة سماوية عليا . وهكذا تتحول الجماعة إلى شكل آخر للانسحاب الاجتماعي المؤطَّر داخل براويز ذهبية خالية من المعنى والمفهوم البشري . لكن المنظور البنائي القائم _ أصلاً _ على تفكيك المدلولات السُّلطوية لا يمتاز بالقسرية والإجبارية فَحَسْب ، بل يتعدى ذلك وصولاً إلى حالة من الاختلال الوظيفي ، حيث يغدو كل فرد نافياً للفرد الآخر ومضاداً له في طبيعة المعرفة الوظيفية بسبب استغلال الكائن بحثاً عن تمايز خلاق غير موجود إلا في الأذهان . وكلُّ ما بُنِيَ على الخيال المرَضِيِّ ، لن يجد له مَنفذاً إلى النور الواقعي .

إن الحمِيَّة انعكاس لإشكاليات الوهم المرحلي المتجذر في طبيعة السلوك الإنساني السلبي ، الذي يفرض على القيم البشرية انتهاجَ طريق مناوئ للعدالة والحق والعقلانية . وبالتالي تختفي الحقيقة في زحمة إرهاصات التعصب الأعمى ، والخضوعِ للمعطيات الجاهزة المفروضة على السياق الإنساني بحُكم قوة رابطة الدم ، لأن الحَمية _ كمفهوم سلوكي وبنية معرفية _ هي تجسيد لقوة الرابطة العائلية التي تتكرس كمبدأ وجودي حاسم بغض النظر عن الشرعية المنطقية أو عدمها .

ووفق هذه المعقوليات الذهنية المعادية للمعقوليات الواقعية ، تحال قيم العدالة والشرف والحق إلى مبادئ فضفاضة محكومة بالولاء الديني للتيارات الوثنية ذات الصبغة السياسية المجتمعية .

أي إن السلوكيات الأخلاقية تغدو مفردات نسبية لا مُطْلقة ، فتكتسب القيمةُ الأخلاقية معناها من اتجاه القبيلة وعنصريتها وكيانها الذاتي دون اعتبار للحقيقة. لذا تصبح " الحقيقة " مادةً إعلانية دعائية تأخذ معناها وحدودها من رؤية الجماعة البشرية القاصرة . وهذه المسألة بالغة الخطورة ، لأنها تنتج منظومةً أخلاقية فوضوية نِسبية ، محكومة بالأهواء الشخصية والاعتباراتِ السياسية المصلحية .

فالمبدأ الأساسي الذي يحفظ تماسكَ المجتمعات ، ينبع من التمحور حول الأخلاق كقيم مُطْلقة ذات معنى ذاتي مستقل عن الأنساق البشرية الاستهلاكية . فلا يمكن تصور الكيانات الأخلاقية مثل : الحق ، العدالة ، الحب ، الكرم ، الشرف .. إلخ ، تتغير معانيها حسب الأهواء

السياسية ، أو تنتقل ماهيتها من الموجب إلى السالب أو العكس وفق رؤية شيخ القبيلة وما ينبثق عنها .

وإذا تحكَّمت المصلحةُ الشخصانية بالقيم السلوكية التي تملك تاريخاً شرعياً ومصداقيةً في الذوات البشرية ، فإن قيمَ الولاء والانتماء والإخلاص سَوْف تنتحر ، لأن الفرد _ حينئذ _ سيؤمن أن شمس الحق صارت عدوة له، وتقوم بعملية حرق منهجي ، وعندها سيقاومها بكل قوة . فاختلاط المفاهيم وأدلجتها بشكل مصلحي نفعي سيحرق المجتمعَ ، لأن المخلِص يصبح خائناً ، ويصبح الخائنُ مُخلِصاً . مما يؤدي _ بالضرورة _ إلى إنتاج جيل لا يؤمن بأية مرجعية إلا مرجعية الهوى ، وهذه المبدأ نجده بكثرة في سياقات الحياة الجاهلية ذات الإفرازات الطبقية متعددة المستويات. والإنسانُ عندما يقتنع بأن وجوده كعدمه، والقاضي هو جلاده ، وقبيلته هي سِجنه ، وأصدقاءه هم اللصوص الذين يسرقونه ، سوف ينسحب من الحياة لفقدانه الثقة بكل الأنساق الوجودية المحيطة به ، وهكذا يتكرس مجتمعُ العزلة ، وتزداد الحواجزُ الذهنية والواقعية بين أفراد البيئة الواحدة .

والْحَمِيَّةُ تجسيد طبقي يَنْزع إلى سلوكيات بالغة التعصب ، كما أن الماهيات الدينية والسياسية المنبثقة عن الحمية قد تداخلت مع الإشكاليات النسبية ، بحيث صار السلوك الإنساني يستمد شرعيته المفترَضة من سياسة الأمر الواقع ، ورؤيةِ عِلْية القوم ، لا القيمة المعنوية السامية .

إن تجذر المبادئ النسبية الفضفاضة المتَّسعة للفعل ورد الفعل ، والفكرةِ ونقيضها ، أدى إلى تفشي الأضداد في المبادئ الأخلاقية ، فصار الذهن الفكري مشوَّشاً ، وعاجزاً عن صياغة منظومة قِيَمِية. الأمر الذي أفرز تياراتٍ سالبية معتمدة على الارتجالِ في تحليل الفكرة ، والعصبيةِ للذات العشائرية المهزوزة . لذلك تأتي الحمية تتويجاً لانكسار الفرد الجاهلي أمام شراسة العناصر المجتمعية المسيَّسة من أجل تعزيز مكانة الأسطورة في الأنساق الحياتية المعاشة .

والأساطيرُ _ في كثير من الأحيان _ تخلق نوعاً من الحماية للأنظمة الطاغوتية ، وتوفِّر شرعيةً افتراضية للنظام السياسي القائم بحُكم الأمر الواقع . ووفق هذه المعاني يقوم النظام السياسي الصحراوي في الجزيرة العربية بابتكار متواليات هندسية متكاثرة من الأساطير والميثولوجيا البدوية بُغية تعميق سيادة عِلْية القوم على العامة ، مما يضمن استمرار السُّلطة المالكة لأمور الناس في سُدَّة الحُكم ، وعدم تهديد مصالح الطبقة الحاكمة .

وتأتي الحَميةُ كاختراع بوليسي لإحاطة الإفرازات السياسية بالحماية ضد المناوئين ، وتشييدِ أنظمة الردع ضد الخارجين على قانون القبيلة . وبما أن الحمية الجاهلية هي إشكالية التعصب المبني على الانتماء الأيديولوجي شديد التكثيف والعدمية ، فإن ماهية الانتماء إلى السُّلطات الأبوية الحاكمة سوف تنتقل إلى فكر إقصائي يثبِّت الأنا كمركز ، وينبذ الأطراف بعد أن يتم تهميشها استناداً إلى سيف العادات والتقاليد . ومواصلةُ تسييس القيم الأخلاقية الذاتية ، ومحاولةُ توجيهها نحو نفي الهويات عن الكيانات الإنسانية ، وتأطيرِها في نسغ يكرِّس الخديعة كبؤرة مركزية حياتية استقطابية . كل ذلك من شأنه نسف البناء المنطقي للموضوع الفكري التاريخي ، فيصبح الفردُ الجاهلي رجع صدى لتاريخ واهم يُولَد من تكثيف الخديعة ، انطلاقاً من تجذير البنى الأسطورية كرَحِم قادرة على صناعة أجنة الانكسار المعرفي الشامل.

فليست الْحَمِيَّةُ ردة فِعل عابرة . إنها ماهية إستراتيجية مستندة إلى خلفية أيديولوجية شرسة للغاية . وهذه الخلفية منقوعة في التكثيف اللاأخلاقي للسلوك الإنساني ، وحصرِ طاقة حركة الاندفاع البشري في خانة تمجيد الأصنام البشرية والحجرية ، وتأطيرِ الدافعية الإبداعية للأفراد في دائرة التبعية ، والتشييدِ الوهمي على تقاليد الآباء دون السماح بطرح الأسئلة على هذه التقاليد المتوارَثة ، أو مُساءلةِ الموروث ، أو نقدِ أفعال حُرَّاس الموروث الجاهلي .

إذن ، لا تتوقف فكرة الحمية عند سلوك بشري روتيني حسن النية ، بل هي منطلقة من فوضى حاكمة على شكل نظام حاكم . وهذه السياسات العابثة تنتج عصابةً حاكمة ، لذا فإن الطبقة الحاكمة في التجمعات الجاهلية الصحراوية عبارة عن مافيا إقطاعية وثنية ، ومجموعةٍ من العرَّابين الطامحين إلى حفظ ماء وجوههم ، وحمايةِ امتيازاتهم الشخصية ، والحفاظِ على نفوذ عائلاتهم وحاشيتهم .

ومن أجل ابتكار سياج حارس محيط بالمكتسبات الشخصية لتجار العقائد الجاهلية ، تم توظيف الحمية في قالب التناحر القَبَلي ، والصراعاتِ الدائمة بين سادة العرب ، بُغية توسيع دائرة السيطرة والنفوذ . وقد ساهمت ثقافة الصراع في توجيه المفردات الإنسانية السلوكية نحو تكثيف الأبعاد الاجتماعية للمعاني الفكرية. فلم يعد الفكرُ ممارسةً ذهنية مُجرَّدة، بل أضحى فِعلاً معاشاً ، وخطوةً أساسية بُغية تطبيق الثقل المعرفي على أرض الواقع .

فعلى سبيل المثال لا الحصر ، إن الفروسية لا يمكن حصرها في دائرة سلوك الرجال الأحرار الشجعان ، لأنها _ كمفهوم أيديولوجي مجتمعي _ انتقلت إلى فكرة ردع الأعداء ، وإعلاءِ صوت

القبيلة بين القبائل عبر إظهار قوة الرجال الصناديد حُماةِ شرف القبيلة . والكَرَمُ لا ينحصر في مفهوم الضيافة وحسن الاستقبال ، لأنه _ أي الكرم _ انتقل إلى مفهوم إعلاء شأن الفرد والقبيلة أمام الضيوف ، والقادمين من المجهول ، وذلك لكي يتكرس الرِّياءُ والسُّمعة بين كل القبائل ، ويزداد الفردُ شُهْرةً ومجداً ، وتُصبَغ القبيلة بصفة الكرم . والخطابةُ لا تنحصر في دائرة الاعتناء اللغوي بالمعاني والألفاظ ، بل تنتقل إلى وسيلة قتالية لردع القبائل المنافسة وتعريتها من كل الفضائل ضمن ثقافة " البقاء للأقوى " . فيتم توظيف اللغة في الحرب الكلامية بين القبائل التي قد تنتهي بحرب فِعلية، أو قد تكون الحرب الكلامية تمهيداً لحرب حقيقية، فتصير اللغةُ وسيلةً للردع ، وبث الرعب في نفوس الأعداء ، وإعلاء صوت القبيلة على الأنداد .

والحَميةُ الجاهلية هي ثقافة ملوَّثة تتجذر كَسُورٍ واقٍ ضد الأعداء ، وسياجٍ وقائي يحمي الإنجازاتِ العشائرية ، ويُعلي من أمرها . فتغدو القيم الأخلاقية _ الإيجابية والسلبية _ أسلحةَ ردع شامل تُوظَّف لخدمة المسار العقائدي للقبيلة سياسياً واجتماعياً وثقافياً .

والإسلامُ عندما جاء ، هَدَمَ عُبِّيةَ الجاهلية (كِبْرها) ، فانتزع الأحقادَ من النفوس ، وبثَّ روحَ التعاون والتواضع بين أفراد المجتمع ، ولم يَترك للحميَّة البائسة فرصةً للظهور بين الناس والتكاثر كالفِطر السام . وبالطبع ، لا تَظهر هذه الحميَّة إلا في المجتمعات التي يختفي فيها نورُ الشريعة ، فتُصبح تقاليد الآباء والعادات المتوارَثة هي الشريعة التي لا يمكن الاعتراض عليها أو مجابهتها . وهذه الفلسفةُ الجاهلية تظهر بأشكال مختلفة في أزمنة متعددة ، وأمكنة عديدة .

وعن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ أن النبي ﷺ قال : ((أمَّا بعد أيها الناس ، فإن الله قد أذهب عنكم عُبِّيةَ الجاهلية _ يعني كِبْرها _))[20].

فالكِبْرُ لم يكن مستشرياً في المجتمع الجاهلي فَحَسْب ، بل كان أحد أعمدة الثقافة الجاهلية السائدة . وفي واقع الأمر ، لا معنى للكِبْر والفخر بالآباء والنخوة المذمومة ، لأن الجميع من

---

(٢٠) رواه ابن حبان في صحيحه(٩/ ١٣٧)برقم (٣٨٢٨). وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٥٢٧): ((ورجاله ثقات)) اهـ . وقال ابن الأثير في كتابه النهاية في غريب الأثر (٣/ ٣٦٩) عن عبارة " عُبِّية الجاهلية " : ((يعني الكِبْر وتُضَم عينُها وتُكسَر . وهي فُعُّولة فُعِّيلة ، فإن كانت فُعُّولة فهي من التَّعْبِية ، لأن المتَكبر ذُو تكلُّف وتَعْبِيَة خلاف من يَسْتَرسِل على سَجِيَّتِه . وإن كانت فُعِّيلة ، فهي من عُبَاب الماء وهو أولُه وارتفَاعُه)) .

أصل واحد (التراب) ، والكلُّ إخوة . أمَّا باقي العناصر مثل الغِنى والنَّسَب الرفيع ، فهي أعراض طارئة . فالإنسانُ الذي أوَّله نُطفة مَذِرة ، وآخره جِيفة قَذرة ، وبين يدي ذلك يَحمل العَذِرة (الغائط) ، لا ينبغي له أن يتكبر أو تأخذه العِزَّةُ بالإثم . ومقياسُ التفاضل بين الناس قائم على التقوى . فالتقيُّ هو الشريف ، والعاصي هو الوضيع ، بغض النظر عن المستوى العِلمي أو الطبقة الاجتماعية . وقد أحسنَ القائلُ :

ارْحَم الناسَ جميعاً فَهُم أبناءُ جِنْسِكَ ابْغِ للناس مِن الخير كما تَبغي لِنَفْسِكَ

ومن وصية أبي بكر الصِّديق ليزيد بن أبي سفيان_ رضي الله عنهما _ حين وَجَّهه لفتح الشام : ((فَإِيَّاكَ وَعُبِّيَةَ الجاهلية ، فإن الله يُبغِضها ويُبغِض أهلَها))[21].

وهذا يدل على خطورة " عُبِّية الجاهلية " ، وضرورة التحذير منها . فخليفةُ رسول الله ﷺ ذَكَرها في وصيته لقائد عسكري متوجِّه لفتح الشام. مما يشير إلى خطورة الكِبْر والعنجهية الجاهلية وتأثيرها الكارثي على مجريات الأمور ، ومسارِ الأحداث العسكرية ، ومعنوياتِ الجند ، والعلاقةِ بين الراعي والرَّعية . ولو لم تكن هذه القضية شديدة الخطورة لَمَا تم التحذير منها في هذا الظرف الحساس (ذهاب الجيش لفتح الشام) . وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٦) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((... ومن قاتل تحت راية عُمِّية ، يغضب لعُصبة ، أو يدعو إلى عُصبة ، أو ينصر عُصبة ، فقُتِل ، فقِتلةٌ جاهلية)) .

فهذا القتالُ نابع من شهوة النَّفْس ، والعصبيةِ البغيضة للقوم والهوى ، والتطرفِ الأعمى . وليس قتالاً نابعاً من الحق سائراً على هدى وبصيرة . فالذي يُقاتِل بهذه الصورة العمياء إنما غضب لنفْسه ، ولم يغضب من أجل الله تعالى . وكلُّ هذه التضحيات وَبالٌ على صاحبها ، لأنها كانت في سبيل الشيطان .

وهذا التصويرُ النبوي للأحداث هو تلخيص للحالة الجاهلية التي كانت سائدةً بين العرب الذين يبذلون أرواحَهم من أجل نُصرةِ القبيلة ، وأهواءِ النَّفْس ، والرِّياءِ والشُّهرة ، والحفاظِ على ميراث الآباء ، دون أدنى اهتمام بمعرفة طريق الحق والالتزام به .

---

(٢١) جمهرة خطب العرب (١/ ١٩٧و١٩٨) .

التأثر باليهودية والنصرانية

اليهودية والنصرانية هما ديانتان أرضيتان لا سماويتان ، أسَّسهما فرزٌ تاريخي هُلامي. إذ إن الإسلام وحده هو الدِّين السماوي . قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

وهكذا يتبين لنا أن هاتين الديانتين الوضعيتين مجرد أضغاث أحلام متبخرة . والنصارى مستمرون في تسمية ديانتهم الباطلة بالمسيحية ، أي إسنادها إلى السَّيد المسيح ﷺ ليكتسبوا الشرعية والمصداقية ، إلا أن هذه الحيلة لم تنطلِ إلا على السُّذج . وها هم يعملون جاهدين على ترويج هذه الخرافة في كل المحافل . لكنهم كلما سَعَوا أكثر نُكسوا على رؤوسهم ، لأنه في واقع الأمر لا يوجد شيء اسمه المسيحية . إذ إنه لا يجوز أن ننسب عقائد كفرية إلى السَّيد المسيح ﷺ . ومن هنا نعلم خطورة هذه اللفظة الكفرية، وعلينا ألا نخضع للآلة الإعلامية الإنجيلية التالفة . وعلى الرغم من أن عقيدة الصليب التي يحملها النصارى غير مبنية على أسس سليمة، إلا أنها ما زالت الملهِمة لبعض الناس. وقِسْ عليها العقائد المضادة للتوحيد في التوراة المحرَّفة .

والتجمع الجاهلي بحُكم كَونه غارقاً في البدائية والتخلف والوثنية ، تأثر جزء منه في فترة من الفترات بالأطروحات اليهودية والنصرانية . فالجماعات البشرية التي كانت تُنَصِّب إلهاً من تمر وتأكله إذا جاعت ، أو تقيم إلهاً من حَجَر لا يستطيع الدفاع عن نفْسه ، وجدتْ كثيراً من التشابه بينها وبين العقائد الوثنية عند أهل الكتاب ، فمالت إلى اعتناقها. فمثلاً عقيدة الإله المتجسِّد في صورة إنسان لقيت هوى في نفوس عبدة الأصنام . فالنصراني يعبد إلهاً من لحم ودم ذا طبيعة إنسانية ، والجاهلي يعبد إلهاً من حجر أو غيره متجسداً ماثلاً للعيان . وهكذا نجد عاملاً مشتركاً بين العقيدتين النصرانية والوثنية. فثنائية الإله الإنسان (اللاهوت والناسوت) التكاملية _ حَسَبَ التصور الوثني النصراني _ أسستْ لمرحلة الهذيان الأيديولوجي التي تتوافق مع بدائية الوثنيين في الجزيرة العربية ، وانحصارِ تفكيرهم في إله مادي ملموس. كما أن ضعف الإله الذي يخضع لأهواء عبيده عقيدة راسخة في عقول الجاهليين . وهكذا لا نستغرب اقترابهم من المفهوم النصراني للإله الذي يُحكَم عليه بالموت ، ويُسلَّم إلى الناس ، ويُسخَر منه ، ويُبصَق عليه ، ويُجلَد ، ويُقتَل . وهذا هو المطلوب بالنسبة للإنسان العربي المنسي في الصحاري ، والذي يتحرك باتجاه مضاد للحضارة الإنسانية ، ولا يعرف _ أصلاً _ أي شيء عن الحضارة .

والمفهوم البدائي المتخلف للإله هو أنه كيان مادي ملموس وماثل للعيان ، يجري عليه ما يجري على الناس ، وتؤثر فيه عوامل الحت والتعرية إن كان حجراً ، أمَّا إن كان إنساناً _ كما في النصرانية _ فيتأثر بالجوع والعطش والحزن، وهو مُعرَّض للموت في أية لحظة . وهذا المفهوم الشاذ استساغه الإنسان البدائي المنبوذ في رمال الصحاري ، والذي لا يعرف من الحياة سوى شهوتي البطن والفَرْج .

وإليك بعض النصوص الإنجيلية التي توضح ما ذهبنا إليه : ((فابن الإنسان هو رب السبت أيضاً !)) [مرقس ٢: ٢٨] . يعني أن الإنسان صار إلهاً يخضع له الزمانُ والمكان . فهو المتحكِّم بالوقت يتصرف فيه كيفما يشاء . ((لكي تعلموا أن لابن الإنسان على الأرض سُلطة غفران الخطايا)) [مَتَّى ٩: ٦]. ووفق هذا المنظور النصراني صار ابنُ الإنسان (الكائن البشري) يمتلك سُلطة غفران ذنوب البشر ، والتجاوز عن سيئاتهم . وإرسال الناس إلى الجنة أو النار وفق رؤيته الشخصية . وهذا النَّصُّ المتطرف يعني أن الإنسان صار هو الإله المتحكم في مصائر العباد ، وكأن الله تعالى تنازل عن سُلطاته وقدرته لصالح أحد عبيده . وهذا الفهمُ البدائي في الميثولوجيا النصرانية يدل على وجود ترابط بين الوثنية النصرانية والوثنية الجاهلية . ((يُرسل ابنُ الإنسانِ ملائكتَه)) [متى ١٣: ٤١] . فابنُ الإنسان صار حاكماً على الملائكة يُرسلهم إلى الوُجهة التي يريدها ، ولا يملكون إلا إطاعته ، لأنهم مُلْكٌ له _ حسب الرؤية النصرانية _. ((ها نحن صاعدون إلى أُورُشَليم وسوف يُسلَّم ابنُ الإنسان إلى رؤساء الكهنة وإلى الكتبة فيحكمون عليه بالموت ويُسلِّمونه إلى أيدي الأُمم فَيَسخرون منه ويَبصقون عليه ويجلدونه ويقتلونه)) [مرقس ١٠: ٣٣و٣٤] .

فالسَّيد المسيح ﷺ الذي أَلَّهه النصارى ، قد جاء موعدُ نهايته _ حسب النَّص الإنجيلي _ . فَسَيَخضع للموت وتلقِّي السخرية والإهانة من أجل فداء البشر من الخطيئة . فهذا الإلهُ _ وفق العقيدة النصرانية _ لا يَقدر أن يُدافع عن نفْسه، فكيف سيدافع عن عبيده ؟! . وهذه الرؤية الوثنية تتماهى تماماً مع فلسفة عبادة الأصنام عند مشركي الجاهلية . فالأصنامُ عاجزة عن الدفاع عن نفسها لأنها حجارة صَمَّاء لا حول لها ولا قوة ، فكيف ستُدافِع عن المؤمنين بها ؟! .

والنصارى يُشبِّهون المخلوق بالخالق _ كما اتضح لك من النصوص السابقة وهي غيض من فيض _ . واليهود يُشبِّهون الخالق بالمخلوق . وإليك بعض النصوص من التوراة : ورد في تكوين ٦: ٦: ((فحزنَ الربُّ أنه عمل الإنسانَ في الأرضِ. وتأَسَّفَ في قلبه)) . فالربُّ _ وفق التصور

الأسطوري التوراتي _ قد حزن لأنه عمل الإنسانَ في الأرض، واعتراه الأسف الذي أحرقَ قلبَه. وهذا الصورة المتخلفة تشير إلى بدائية العقل اليهودي في التعامل مع الشرائع الدينية . فهم يَعتبرون أن الإله مثل الإنسان الضعيف خاضع للمشاعر والأحاسيس. فيُصاب بالحزن، ويَخضع للأسف. وورد في مزمور ١٠٦: ٤٥: ((ونَدِمَ _ أي الله _ حَسَبَ كثرة رحمته)).

ولم تقف الأمور عند الحزن والأسف، بل إن الله تعالى _ حَسَبَ المنهج التوراتي _ قد ندم . وبالطبع لا يكون الندم إلا بعد إصدار قرار يتبيَّن عدم صوابه فيما بعد. فاللهُ تعالى _ حَسَبَ العقلية اليهودية السطحية _ لم يكن يَعرف أبعادَ القضايا التي قَرَّرها ، لذلك ندم على سوء تقديره _ حاشاه _ . لكنه كَفَّر عن خطئه بإعلانه الندم والحزن على ما فات ! .

إذن ، تتضح لنا عقائد أهل الكتاب التالفة والتي لاقت صدى في بعض التجمعات الجاهلية ، بسبب وجود نقاط تشابه بين عبدة الصليب (النصارى) وعبدة الأهواء (اليهود) وعبدة الأصنام (أهل الجاهلية) . وكما يقال : الطيور على أشكالها تقع .

ما سبق كان توضيحاً لعقلية أولئك الذين اعتنقوا عقائد أهل الكتاب،وهم _في كل الأحوال_ محدودون ، وعددهم قليل. وبالتالي كانت عقائد أهل الكتاب محدودة التأثير في الأوساط الجاهلية . والذين رفضوها _ وهم الغالبية الساحقة _ كانوا يدركون أنها عقائد متخلفة لا تلبي طموحاتِ الإنسان الجاهلي الطامح إلى الانعتاق والتحرر من ثقل الهواجس والشكوك .

والتخلف اليهودي _ النصراني يظهر جلياً في إضافة ابن إلى الله إضافة بُنُوَّة حقيقية لا مجازية . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]. والأناجيل تزعم أن المسيح ابن الله تعالى . وإليك النص التالي على سبيل المثال لا الحصر : ((فأجاب سِمعانُ بطرسُ قائلاً : أنتَ هو المسيحُ ابن اللهِ الحيِّ !)) [متَّى ١٦: ١٦] .

ويبدو أن هذه اللوثة قد وصلت إلى أهل الجاهلية . فاليهود والنصارى جعلوا المخلوق ابناً لله تعالى ، أمَّا أهلُ الجاهلية فجعلوا المخلوقات بناتٍ لله تعالى ! . وهذه الانتكاسة المريعة تعكس التخلفَ العَقَدي عند أهل الكتاب وأهل الجاهلية ، وأوْجه التشابه بينهم .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ﴾ [النحل : ٥٧] .

فأهلُ الجاهلية جعلوا الملائكة بناتٍ وأَلحقوهنَّ بالله تعالى . وهذا الفهمُ القاصر يدل على الانهيار الفكري في منظومة العقائد الجاهلية في ظل غياب الهداية الربانية . قال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٠٣): ((نزلت في خُزاعة وكِنانة ، فإنهم زعموا أن الملائكةَ بناتُ الله)) اهـ .

إن اليهودية والنصرانية تُحمِّلان الإنسانَ مسؤولية الخطيَّة التي عَمَّت المخلوقات _ حَسَبَ التصور الديني عند أهل الكتاب_، وهكذا يصبح كل إنسان مُذنِباً منذ ولادته وحتى مماته. وتصبح الإنسانيةُ بحد ذاتها ذَنْباً كبيراً يحمله المؤمن بهذه الترهات (العقائد الإنجيلية التوراتية) على كاهله ، ولا يدري كيف يتخلص منه . وهكذا صار الدِّينُ مشكلةً في حياة اليهود والنصارى، وليس حَلاً . وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٩١) : عن ابن عمر : أن زيد بن عمرو بن نُفَيْل خرج إلى الشأم ، يَسأل عن الدِّين ويتبعه ، فلقيَ عالِماً من اليهود ، فسأله عن دِينهم ، فقال : إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني ، فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، قال زيد : ما أَفِرُّ إلا من غضب الله ، ولا أَحمل من غضب الله شيئاً أبداً ، وأنَّى أستطيعه ؟ ، فهل تدلني على غيره ؟ ، قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً ، قال زيد : وما الحنيف ؟ ، قال : دِين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد فلقيَ عالِماً من النصارى، فذكر مِثْلَه، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ، قال : ما أفرُّ إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأنى أستطيع ؟ ، فهل تدلني على غيره ؟، قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال : وما الحنيف ؟ ، قال : دِين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله. فلمَّا رأى زيد قَوْلهم في إبراهيم _ عليه السلام_خرج ، فلمَّا برزَ رفعَ يديه فقال : اللهم إني أشهد أني على دِين إبراهيم)) .

إن اليهودية والنصرانية حَوَّلتا النصوصَ الدينية إلى كوابيس تطارد أصحابَها ، وأحالت الإنسانيةَ إلى لعنة وعبء ثقيل في هذا الوجود . وما تفشي التعقيد وغياب الطمأنينة في فكر أهل الكتاب إلا انعكاس لتحريف الكلام الإلهي . مما أدى إلى تحول اليهودية والنصرانية إلى حِمْل ثقيل وكُتل إسمنتية تضغط على أكتاف حامليها ، وتُحيل أيامهم إلى كَوْمة أضداد ، ومنظومةِ تناقضات شرسة ، لا مكان للراحة النفسية فيها . أضف إلى هذا أن اليهودية والنصرانية ديانتان كهنوتيتان مغلقتان، تسيران ضد المنطق وفِطرةِ الفرد وطبيعةِ الأشياء، وتحثان على الإرهاب المنظَّم . إضافة إلى أنهما تمتلئان بالأسرار والطلاسم والعقائد اللامنطقية وغير المفهومة . وكل هذه العقائد التالفة تصير ألعوبة بأيدي رجال الدِّين المسيطرين على أماكن العبادة التي تُعتبَر مُساندةً للقمع الفكري والاجتماعي ومناوئة للعقل. وتصبح المتاجرة بهذه العقائد وسيلة لتحقيقِ الربح السريع، واستغلالِ الأتباع وابتزازهم ، وإخضاعهم لسُلطةِ الكنيس والكنيسة ، والحصولِ على مكاسب مادية لقاء التلاعب بالكلام الإلهي ، وتأويله بحيث يدعم عِلْيةَ القوم على حساب أصحاب المكانة

الاجتماعية المتدنية . قال اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً منَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [التوبة : ٣٤].

فالكثير من الأحبار (علماء اليهود) والرُّهبان (عُبَّاد النصارى) ، يأكلون أموال الناس بالحرام ، وذلك باسم البِيَع والكنائس ، وفرض الضرائب على الأتباع ، وخداعهم بأن يقولوا لهم إن هذه الأموال قُربة إلى الله تعالى، وتُستعمَل للإنفاق على دور العبادة ودعمِ المؤمنين . وهذه الحِيَل موجودة في كل زمان ومكان . وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٥٧) : ((يا أيها الذين صَدَّقوا اللهَ ورسوله وأقرُّوا بوحدانية ربهم ، إن كثيراً من العلماء والقُرَّاء من بين إسرائيل من اليهود والنصارى ... يأخذون الرِّشى في أحكامهم ، ويُحرِّفون كتاب الله ، ويكتبون بأيديهم ثم يقولون : (هذه من عند الله) ، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم ...ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام الدخول فيه بنهيهم إياهم عنه)).

ولا تزال " صُكوكُ الغفران " عالقةً في الأذهان، وهي مثال واضح على أكل أموال الناس بالوسائل المحرَّمة ، واستعمالِ الكذب والخداع وطرق الاستغلال . فهم يأكلون الدنيا بالدِّين مستغلين مناصبهم وسُلطاتهم ومكانتهم الاجتماعية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦١) : ((وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدِّين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك ، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم ، فلمَّا بعث اللهُ رسولَه ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات ، فأطفأها اللهُ بنور النُّبوة ، وسلبهم إياها وعَوَّضهم الذلَّ والصَّغار ، وباؤوا بغضب من الله تعالى)) اهـ .

واليهودية ليست أحسن حالاً من (النصرانية) في الانهيار الذاتي. فعشق الوثنية متغلغل في نفوس اليهود ، وهذا العشق انعكس على توراتهم التي حُرِّفت وبُدِّلت . فالطامحون إلى الوثنية الصنمية وصلوا إلى عبادة العجل ، حيث إنهم كانوا يسعون إلى إله مادي مُتجسِّد يرونه أمامهم .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لهم قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[الأعراف : ١٣٨].

فبعد كُل الحُجَج البَيِّنات التي عاينوها بأبصارهم، وإنقاذهم من الطاغية فِرْعَوْن ، ما زال عشق التجسيم والوثنية يمتلكهم ، ويُبعدهم عن معرفة الخالق تعالى . فما زال الجهلُ متغلغلاً في نفوسهم، وهذا ينعكس على سلوكهم ذي الطابع الوثني ، جَرَّاء تأثرهم بأفكار منحرِفة متجذرة في

قلوبهم المتهاوية . ومن الواضح أنهم استحسنوا اتخاذ صنمٍ للتقرُّب إلى الله تعالى . ومن المستبعَد أنهم طَلبوا من موسى ﷺ اتخاذ صنم لإفراده بالعبادة. وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٥٠): ((وقَوْله سُبحانه : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ بحر القُلْزُم _عند خليج السويس _، ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ ﴾، قيل : هُم الكنعانيون ، وقيل : هم من لَخْم وجُذَام ، والقوم في كلام العرب هم الرجال خاصة . ﴿ يَعْكُفُونَ ﴾ العكوف الملازمة على أصنام لهم)) اهـ .

وفي الدر المنثور (٣/ ٥٣٣) : ((عن ابن أبي جُرَيْج في قَوْله : ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لهم ﴾، قال: تماثيل بقر من نحاس، فَلَمَّا كان عِجْل السامري شُبِّه لهم أنه من تلك البقر ، فذلك كان أوَّل شأن العِجْل لتكون لله عليهم حُجَّةٌ ، فينتقم منهم بعد ذلك)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥١] . لقد أنقذهم اللهُ تعالى من فِرْعَوْن ، ونجَّاهم من البحر . ومعَ هذا ، فقد اتخذوا العِجْلَ إلهاً مِن بعد موسى ﷺ . وهذ الشِّرك هو منتهى الظُّلم ، ظُلْم الإنسان لنفْسه ، وذلك بوَضْعه العبادة في غير مَوْضعها ، والتوجهِ إلى إلهٍ وهمي ، ونسيانِ الله الذي لا إلهَ غَيْرُه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٣) : ((لَمَّا عادوا إلى مِصْر بعد هلاك فِرْعَوْن ، وعدَ اللهُ موسى أن يُعطيَه التوراة ، وضربَ له مِيقاتاً ذا القِعْدة وعَشْر ذي الحِجَّة ، وعَبَّر عنها بالليالي ، لأنها غُرَر الشُّهور)) اهـ .

إن أهل الكتاب غاطسون في جاهليتهم الخاصة التي تتماهى مع الجاهلية العربية ، فهاتان الجاهليتان تدوران حول الوثن باعتباره إلهاً مُقدَّساً ، وتنبعان من مركز تشريع واحد وهو الحجَر الذي لا يَنْفع ولا يَضُر .

ومن القصص التي تدل على تأثير ديانة أهل الكتاب في الحياة العامة، تلك القصة التي حدثت مع النبي ﷺ وزوجته السيدة خديجة _ عليها السلام _ من جهة، ووَرَقة بن نوفل بن عم خديجة من جهة ثانية . وإليك ملخص القصة : ((ثم انطلقت به خديجة _ أي بالنبي ﷺ _ حتى أتتْ به وَرَقة بن نَوْفَل بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصي ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ، وكان امرأ تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب))[22].

(٢٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري (٦/٢٥٦١) برقم (٦٥٨١). ومسلم (١/ ١٣٩) برقم(١٦٠).

إن ورقة بن نوفل قد أُصيب بلَوْثة النصرانية ، وتصرَّف وفق ديانته الجديدة . فقد خرج من الوثنية العربية ودخل في الوثنية النصرانية . وهذا يدل على أن النصرانية كان لها وجود مؤثر في بعض الأوساط لا كلها . فالنصرانيةُ في التجمع الجاهلي العربي كانت محدودة التأثير ، لعدم تلبيتها لطموحات الإنسان وأشواقه الروحية وتفاصيل حياته المادية . ولَيت شِعري كيف سَتُلَبِّي النصرانيةُ الأشواقَ الروحية للفرد وهي قاتلةٌ للروح ونافيةٌ للجسد ومؤسِّسةٌ للوثنية ؟! . وما يهمنا في هذا السياق معرفة الجهود الجبارة التي يبذلها رجالُ الكنيسة والمنصِّرون [23] في سبيل ترويج تلك البضاعة الكاسدة الْمُسَمَّاة بالنصرانية .

والدعوةُ إلى النصرانية و"التبشير" بها من أُسس الدِّيانة النصرانية ، ومن أركان الإنجيل المحرَّف. ورِجالُ الدِّين يستندون في عملهم التنصيري إلى عدة نصوص إنجيلية . نكتفي بذِكْر واحد منها وهو : ((وفيما أنتم ذاهبون بَشِّروا قائلين : قد اقترب ملكوتُ السماوات)) [متَّى ١٠: ٧] . هذا النص الذي استخدمه علماء النصارى لترويج عقائد التثليث والدعوة إليها ، تم إخراجه من سياقه،وذلك بأن وُظِّف كغطاء سياسي لإرهاب البشر والجماعات الإنسانية واضطهادها ، كما حدث في محاكم التفتيش المترامية الأطراف ، والتي انتشرت في أماكن كثيرة من العالم. ومن الضروري أن نعرف أن هناك محاكم تفتيش في العصر الجاهلي ، لكنها من نوع مختلف .

ولتوضيح هذه الفكرة التي قد يراها البعض غريبة ، نقول : إن محاكم التفتيش هي لُب النصرانية التي انتشرت بالسَّيف. فهي تمارس الإرهاب الفكري الموجَّه ضد الفِطْرة الإنسانية على كافة الأصعدة ، وفي كل المحافل . والمؤسسة الدينية اليهودية ليست أحسن حالاً من المؤسسة النصرانية الكهنوتية ، فالتوظيف السياسي لعقائد التوراة والإنجيل المصابة بالتحريف والانحراف ، قد أدى إلى بعث حالة من القمع الفكري الموجَّه ضد الحقيقة أولاً وأخيراً . والأحبار والرُّهبان مارسوا دورهم التعتيمي النابذ للتنوير بكل حرفية ومكر ، ساعين إلى ابتزاز السُّذج والمغفلين كي تزداد أرباحهم المادية المتمثلة في الذهب والفضة ، وأرباحهم المعنوية المتمثلة في تحقيق مكاسب شخصية،والحصول على مزايا ومراكز نفوذ.وهكذا يتضح أننا أمام مؤسسة رهيبة موغلة في رسم الخطط الهادفة إلى تسويق العقائد الزائفة،من أجل الحفاظ على المكتسبات غير الشرعية ،

---

(٢٣) من الخطأ تسمية المنصِّرين بالمبشِّرين . فهم لا يملكون شيئاً يُبشِّرون به سوى الخلود في جهنم ، إن كان هذا بُشرى ! .

وتفعيلها ، وزيادتها ، وحراستها من الثائرين على الباطل . والجدير بالذِّكر أن النصرانية أصبحت منظَّمة، لها في (نجران) أسقفها وكنيستها، وهي مُتَّصلة بالكنيسة الشرقية اليونانية ، واليهودية تنمو في الحجاز ، في يثرب _ المدينة _ وخَيْبر وغيرهما . وهكذا نجد أن الإرهاب اليهونصراني [24] راح يُنظِّم قواعده وأماكن نفوذه . وقد تأثرَ بعض الشعراء الجاهليين الوثنيين بعقائد أهل الكتاب ، فنجد_ مثلاً _ زهير بن أبي سُلمى[25] يقول :

فلا تَكتمنَّ اللهَ ما في نفوسكم ليَخفى و مهما يُكتَم اللهُ يَعلمِ[26]

---

(٢٤) هي العلاقة العبثية بين اليهودية والنصرانية واتفاقهما _ رغم التناقضات الحادة بينهما والعداوة المتفشية _ على معاداة الحق المطْلق الوحيد والمتمثل في الإسلام . ومن التناقضات الصارخة بينهما ، وأسباب العداوة المستحكِمة أن اليهود اتهموا السيدة العذراء مريم _ عليه السلام _ بالزِّنا . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ [النساء : ١٥٦] . قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦٢) : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني أنهم رَمَوْها بالزنا ، وكذلك قال السُّدي وجويبر ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو ظاهر من الآية أنهم رَمَوْها وابنها بالعظائم وجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك زاد بعضهم وهي حائض، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة)) اهـ. كما أن اليهود يتبجحون ويزعمون أنهم قتلوا السَّيد المسيح ﷺ . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً (١٥٧) بَل رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيمَاً (١٥٨) ﴾ [سورة النِّساء] . وينبغي تذكُّر قول اليهود الذي يدل على الوقاحة البالغة : ((ليكن دمُه علينا وعلى أولادنا !)) [متَّى ٢٧: ٢٥] .

(٢٥) هو زهير بن أبي سُلمى بن ربيعة بن رياح (٥٣٠ م _ ٦٢٧ م) ، شاعر جاهلي من الثلاثة المقدَّمين (امرؤ القيس وزهير والنابغة الذبياني) ، من بني (مزينة) ولكنه أقام عند بني غطفان لأنه تزوج امرأة منهم ، كما يقال أنه غادر قومه لخلاف وقع بينه وبينهم فتركهم ، ونزل في أرض غطفان في محل من نجد يقال له (الحاجز) .

(٢٦) هذا البيتُ يشتمل على موعظة دينية وأخلاقية في آنٍ معاً . والشاعرُ يُطالِب بعدم إضمار الغدر ونقض العهد ، وتبييتِ نية الخيانة . وهذا الإضمارُ _ إن حَصَلَ _ فإن الله يَعْلمه، لأنه عالِم بالسرائر ، وكاشفٌ لضمائر العباد. والشاعرُ يُثبِت صِفة العِلْم لله تعالى. ولا شكَّ أنه وصل إلى هذه العقيدة عن =

يُؤخَّر فيُوضع في كتاب فيُدَّخَر ليوم الحساب أو يُعَجَّل فيُنقَمِ[27]

=طريق اختلاطه بأهل الكتاب. ففي الجاهلية ذات الصبغة الوثنية لم يكن الناسُ معنيين بمعرفة الصفات الإلهية، ولم يهتموا_ بالأساس_ بهذه المباحث.وهي بالتأكيد كانت ضمن عقائد أهل الكتاب التي اطَّلع عليها الشاعرُ،واعتنقها،وبثَّها في شِعره.[انظرْ فلسفة المعلَّقات العشر، إبراهيم أبو عواد ، ص ١٣و١٤].

(٢٧) لم يكتفِ زهير بإثبات صفة العِلم لله ، بل أيضاً نراه يتحدث عن عقائد مرتبطة باليوم الآخِر الذي يُعتبَر الإيمانُ به ناسفاً للعقائد الوثنية في البيئة العربية . فالعربُ يَعتبرون الموتَ هو النهاية التي لا شيء بعدها ، لذلك لا يؤمنون باليوم الآخر والبعث والنشور والحساب . وشعارُهم في هذه القضية " أرحامٌ تَدفع وأرضٌ تَبلع " ، وانتهى الموضوعُ . أمَّا زُهير بن أبي سُلمى _ وهو ابن البيئة الجاهلية الوثنية _ فقد خالفَ إفرازاتِ العقلية العربية ، وخرجَ عن المسار الوثني بشكل كامل ، مخالِفاً تقاليد الآباء المتوارَثة . فهو يؤمن بأن الله يُؤخِّر العِقابَ ويُؤجِّله ، فهو يُمهِل ولا يُهمِل . والأعمالُ تُوضَع في كتاب ، وتُسجَّل فيه بكل دقة. ويُدَّخر ليوم الحساب ، أو يتم تعجيل العقوبة في الدنيا ، فَيُنْتَقَم من المسيء . وهذا معناه أن العقوبة قادمة لا محالة _ آجلاً أو عاجلاً _ ، ولا مهرب منها . وهذا اعترافٌ واضح من الشاعر بوجود الله تعالى ، وعِلْمه بالجزئيات والكليات . وأيضاً ، الإيمان باليوم الآخر ، والبعث ، والحساب ، وكتابة أعمال العِباد في الصُّحف . إن زهيراً يَكشف عقيدته المضادة لتاريخ قَوْمه ، والمخالِفة للتراث الوثني المنتشر في البيئة العربية التي نشأ فيها، وعاشَ فيها . ولا يَخفى أنه شاعرٌ جاهلي ماتَ قبل البعثة المحمَّدية الإسلامية. فمن أينَ استقى هذه العقائد الغَيْبية التي كانت بعيدةً كلَّ البُعد عن الذهن العربي ؟. لقد استقاها _ حتماً_ من أهل الكتاب المؤمنين بالله واليوم الآخِر والبعث والحساب. وهذا يشير إلى مخالطته لأهل الكتاب ، والاستماع إليهم، والاطلاع على عقائدهم . كما يدل على حُب زهير للمعرفة والاطلاع وبحثه عن الحقيقة، وعدم أخذ عقائد قَوْمه الوثنيين كمسلَّمات. فهو دائمُ البحث للوصول إلى الحق لكي يَحصل على الطمأنينة ، ويَتخلص من القلق الرهيب الذي كان يتلاعب به ضمن النسق الجاهلي . فعدمُ الاطمئنان إلى عقائد آبائه وقَوْمه العائشين في بيئته جعله قَلِقاً ، كثيرَ التفكير . وهذا أدى إلى بحثه عن عقيدة جديدة تشعره بالأمان الروحي ، والسَّكينة العاطفية ، والراحة الجسدية. وبالطبع، لم يَجد أفضلَ من أهل الكتاب الذين يُقدِّمون أنفسهم كحاملين للإرث النبوي ، إرث موسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ ، وكأصحاب رسالة سماوية تتجلى في التوراة والإنجيل ، وليس رسالة أرضية وضعية . وبالتأكيد ، لقد نَظر زهير إلى أهل الكتاب باعتبارهم المثل الأعلى ، والقُدوة السامية ، وحاملي

والعجيب أننا نجد زهير بن أبي سُلمى ــ وهو الشاعر البدائي الوثني الجاهلي ــ يتحدث عن عِلْم الله الْمُطْلَق الذي أحاط بالسِّر والعَلَن . كما يتحدث عن اليوم الآخِر يوم الحساب الذي تتم فيه محاسبة العباد . وهذه العقيدة إنما وصلته من عقائد أهل الكتاب في اليوم الآخر والبعث بعد الموت . وهكذا يتَّضح التأثيرُ الدِّيني الذي أحدثته اليهوديةُ والنصرانية في البيئة العربية الجاهلية ، ويتبين لنا أن الأحبار والرُّهبان لم يكونوا نائمين في أماكن عبادتهم ، بل كانوا يسعون بكل ما أُوتوا من طاقة إلى توظيف النصوص المحرَّفة بشكل سياسي ، كَي ينالوا شرعيةً خالية من المعارِضين ، وسُلطةً أكثر إرهاباً للمخالِفين ، وقَمْعاً للحريات الشخصية والعامة، واضطهاداً للمناوئين الرافضين لخرافات التوراة والإنجيل المضادةِ للعقل الجمعي . وهذا يدل ــ بشكل واضح ــ على أن رِجال الدِّين كانوا يُسيطرون على العقول والأجسام مُستخدِمين سُلطةً وهمية باسم الرَّب ، يقومون من خلالها بزرع الأوهام في البشرِ السُّذج ، والبيئةِ البدائية ، والأنساقِ الثقافية الضَّحلة .

والتأثير الأيديولوجي اليهونصراني يتم تركيزه على الجوانب الاجتماعية والدينية في حياة الفرد الجاهلي . وجاهليةُ التوراة والإنجيل قريبة من جاهلية العرب في أرض الجزيرة. إذ إن التشابه يتركز بشكل أساسي حول القيم البدائية والتفكير الضحل . وبما أن الجاهلية ظاهرة اجتماعية مرحلية تحيط بتفاصيل الحياة التي يعيشها الأفراد ذوو الأفكار الوضعية والتقاليد المتوارَثة بشكل أعمى ، فإن وجودها ــ أي الجاهلية ــ لا يقتصر على الواقع المادي الملموس ، بل يتعداه إلى الأذهان وطريقة التفكير والتحليل . فالنواة الجاهلية تُجسِّد مركزيةَ التعامل مع العناصر المحيطة . وهذه العناصر تتمثل في اليهودية والنصرانية اللتين كانتا على تماس مباشر مع حياة الجاهلي ، مما جعلهما منبعاً للأفكار الخاطئة ، والعقائدِ الباطلة، واختلاطِ القيم السلبية ، ضمن دائرة فوضوية من التأثر والتأثير . وهذه العلاقة الجدلية تُوظَّف لصالح طبقة رجال الدِّين عند أهل الكتاب ، وعِلْيةِ القوم من العرب الوثنيين الذين لا يدركون جدلية هذه العلاقة ومتطلباتها الوثنية وخطورتها .

إن طبع صورة الدولة الجاهلية المشتَّتة في أذهان العوام ، يُهيمن على طبيعة التحليل الفكري الذي يغدو لامنطقياً ، بسبب التشبث بمقاليد الحُكم الاستبدادي . فالتمسك بدفة القيادة اللاواعية أو ذات اللاوعي المصطنَع، يُكرِّس عناصرَ الواقع المتخيَّل لخدمة طبقةٍ قليلة، وفئةٍ

الوحي الإلهي . وهذا جعله ينضم إليهم روحياً وعَقدياً على الرغم من بقاء جسمه مع أبناء جِلْدته في بيئته العربية الجاهلية الوثنية . [فلسفة المعلَّقات العشر ، إبراهيم أبو عواد ، ص ١٤و١٥] .

مُتحكِّمة في رقاب الكثيرين . وهذه الطبقة تصير جزءاً من قانون بوليسي عُرفي تؤخذ مواده من التوراة والإنجيل ، وتنعكس حيثياته على حياة بعض الجاهليين الذين وجدوا في اعتناق اليهودية أو النصرانية مُتَنَفَّساً ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن ذلك الاعتناق إنما هو مهزلة حقيقية لا تشفي غليلاً ، لأن اليهودية والنصرانية مُنْتَجَان هُلاميان أنتجتهما ظروف تاريخية انقرضت . حتى العقائد الصحيحة كالبعث واليوم الآخِر ، يتم صهرهما في قالب من العشوائيات والهذيان والعقائد الوثنية في كل من اليهودية والنصرانية . وليس أدل على كلامي من قول زهير بن أبي سُلْمى الذي تحدثنا عنه آنفاً :

رأيتُ المنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِبْ تُمِتْهُ وَمَنْ تُخطِئْ يُعَمَّر فيهرَمِ [28]

---

(٢٨) يُمثِّل الموتُ صدمةً فكرية في المجتمع الجاهلي الوثني . والكثيرون لا يَقدرون على تحمُّل هذه الصدمة الشديدة، وهذا قادهم إلى اعتبار الموت مجرد عملية عبثية ، ولعبة صبيانية، لا طائل من ورائها. وهذه نظرةٌ نابعة من صميم العقيدة الوثنية التي لا تؤمن بالحياة بعد الموت . وأصحابُ هذه العقيدة الفاسدة يَضعون وجودَهم تحت شعار" أرحامٌ تَدفع وأرضٌ تَبلع ". فالموتُ ــ عندهم ــ هو نهاية المطاف ولا شيء بعده . والشاعرُ يَعتبر الموتَ مُقامرةً غير محسوبة ، متأرجحةً بين النجاح والفشل . والموتُ ــ في نظر الشاعر ــ سهمٌ قد يُصيب الهدفَ ، وقد يُخطئه . وهو بذلك لا يَرى أيةَ قوة محرِّكة للموت ومُسيطِرة عليه . وإنما يَنظر إليه باعتباره فِعلاً ميكانيكياً غامضاً ونابعاً من ذاته ، ومتذبذباً بين إصابة الهدف وعدم إصابته . والموتُ في هذا المنظور كالقطار الذي قد يَلتزم بالسكة فيصل إلى وجهته، وقد يَنحرف عنها فلا يصل إلى المحطة المقصودة . والشاعرُ عاشَ لمدة طويلة ، وامتدَّت به الحياة حتى قاربَ المئة أو كاد. وقد سئمَ من حياته الطويلة ، واشتاقَ إلى الموت لأنه اعتبره راحةً من الملل والسآمة والروتين . ولم يَجد تفسيراً لطول عُمره وبلوغه مرحلة الهرم إلا اعتقاد أن الموتَ أخطأه ، وأن سهمَه طاشَ هذه المرة . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مقدار القرف الذي وصلَ إليه الشاعرُ ، وجعله يستعجل الموتَ ، ويتمنى قدومَه بأسرع وقت . ولا شك أن زُهيراً ــ بسبب طول عُمره ــ قد رأى الكثيرين من الأقارب والأصدقاء والأعداء قد ماتوا. إنهم يَتساقطون واحداً تلو الآخر على مرأى منه ومسمع . لذلك عندما يقول : ((رَأيتُ المنايا)) ، فهذا يدل على خبرة تراكمية . ولكنَّ هذه الخبرة لم تزده إلا انحرافاً وضلالاً وسآمةً . فهو يَعتبر أن المنايا تصيب الناسَ على غير نسق وترتيب وبصيرة كما أن الناقة تطأ على غير بصيرة. والعشواءُ هي الناقة التي لا تُبصِر ليلاً . ثم قال : مَن أصابته المنايا أَهْلَكَتْهُ وَمَن أخطأته أبقته فبلغ الهرم . إذن ،

فها هو يُقرِّر أن الموت يُصيب الناس بشكل فوضوي عبثي ، وهذه عقيدة تضاد العقيدة الصحيحة وهي أن الله تعالى يقبض أرواحَ الأشخاص الذين انتهت أعمارُهم . وهذه الرِّدة في التفكير نابعة من عَجْز اليهوديةِ والنصرانيةِ عن تقديم الطمأنينة والسُّمو الروحي الإيماني .

ولا يمكن أن يتأتى تحليل المدلولات الفكرية للحقبة الجاهلية بدون المرور على التأثيرات المركزية للمؤسسة الدينية اليهونصرانية ، وما خلَّفته من عقائد زائغة ومفاهيم شابها الكثير من التناقض والاضطراب. فهاتان الدِّيانتان عاجزتان عن تقديم الإجابات الشافية عن الأسئلة الوجودية الحتمية التي تختمر في ذهن الفرد ، وتنعكس ــ شاء أم أبى ــ على حياته الذهنية والواقعية . كما أن التوظيف التعبيري لطريقة سياسة الناس متأثر بالتناقضات الفلسفية التي دخلت في عقائد أهل الكتاب . وبالطبع ، فإن العقلية الوهمية المتفشية في سياقات التوراة والإنجيل ، ما هي إلا انعكاس للحتمية الضبابية في مستويات العقيدة المضادة للطموح البشري في التحرر والتحرير .

وهكذا تصبح العلاقةُ الفَوضوية بين التوراة والإنجيل أساساً فلسفياً لتحريفِ الألفاظِ والمعاني ، وأساساً معرفياً للتناقض الاجتماعي ، وأساساً روحياً للعقائد الوهمية المهزوزة ، وأساساً اجتماعياً للتطبيقات الإنسانية العبثية ، وأساساً حياتياً لاختلال النظام الفكري الموزَّع بين الذهن والواقع . وهذا يؤدي إلى خلق نظام فَوْضوي [29] ، يقوم على التداعيات النفسية الواقعة على الجماعة البشرية ، والانسحاباتِ المؤدلَجة ذات القيم السلوكية العبثية .

إن الاتجاهات الفكرية للأنظمة الفوضوية ذات مدلولات إرهاصية ، تتعلق ــ بشكل أو بآخَر ــ بالنواحي الدينية والاجتماعية داخل المحيط الإنساني الذي يُكوِّن فلسفته الخاصة القائمة على

فالموت ــ وفق هذه الرؤية ــ نسقٌ عابث ، وعملية عشوائية تفتقد إلى البصيرة، ولا تتمتع بدقة الإصابة. ولا قوةٌ مسيطرة على الموت، ولا منطقٌ يَحْكمه . والعمليةُ برمتها تُشبه لعبة القِمار ، قد يفوز فيها الشخصُ وقد يَخسر .

(٢٩) النظام الفَوْضوي : تشكيل ذهني منعكس عن واقع يعتمد على الفوضى التامة في الحياة ، وهذه الفوضى تصير بحد ذاتها نظاماً ، إذ تصبح الوسيلة والهدف . ومن أبرز الأمثلة على الأنظمة الفوضوية التوراة والإنجيل الواقعان في دائرة التحريف والاختلال . وينتج عن هذا الأمر تناقض وظائف الإنسان الروحية والمادية، واختلال علاقته بمحيطه الذي يصبح منفياً ضمن أفلاك من الفوضى المنظَّمة التي تؤدي إلى تعميق الفجوة بين الإنسان وذاته .

الانتقائية الفجة ، من أجل السيطرة على عقول العوام ، وتوجيهها نحو خدمة أصحاب النفوذ والسَّطوة . وهنا ، تبرز أهمية الانتباه إلى أنواع الصراعات المستفحِلة داخل الأوساط الدينية في المؤسسة اليهونصرانية . فهناك صراع رجال الدِّين مع النَّص الذي يظنونه مقدَّساً ، وصراع رجال الدِّين مع السُّلطة الدِّينية العليا (الكنيس أو الكنيسة) . وصراع الأصوليين مع المجدِّدين ، والصراع على احتكار النص ، وتأويله بما يَخدم مصلحة الطبقات المتنفِّذة في المجتمع .

وهذه السياسات الدينية المتطرفة ، إنما تسير وفق منظومة استبدادية تحتكر ما تعتقده حقاً مُطْلَقاً . وإذا فهمنا هذه النقطة نستطيع فهم سبب مُقاومة اليهود والنصارى للرسالة المحمدية الإسلامية. إذ إنهم كانوا يعتقدون أنهم على الحق المطْلق ، وغيرهم على الباطل المطْلق [30] ، وهذا بحد ذاته إرهاب فكري مارسه أهل الكتاب الذين حَرَّفوا كتبهم ، وشَوَّهوا تعاليم أنبيائهم ــ عليهم الصلاة والسلام ــ . إنهم حرَّفوا التعاليم السماوية من أجل المحافظة على نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، مؤثرين الحياة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، وهذا سوء نظر في الأمور ، واستدلال ممتلئ بالأخطاء والأفكار الواهية التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

وتأثير أهل الكتاب في أهل الجاهلية كان وبالاً عليهم جميعاً . وهذا التأثير مرجعه إلى خضوع أهل الجاهلية لمراوَغة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ، وقدرتهم على التلاعب بالنصوص الدينية التي لديهم ، وتأويلها بما يضمن استمرارَ نفوذهم . كما أن أهل الجاهلية كانوا ينظرون إلى اليهود والنصارى على أنهم أصحاب مكانة سامية متقدمة على الجاهلية الدونية بسبب وجود التوراة والإنجيل بين أيديهم . وهذه النقطةُ استغلها أهلُ الكتاب من أجل تحقيق أرباح شخصية على حساب جهل المشركين ، وتوسيعِ نفوذهم ، والحصولِ على مكانة اجتماعية عُليا . وهكذا تتجلى فلسفة أهل الكتاب في المتاجرة بنصوصهم الدِّينية التي يُقدِّسونها ظاهرياً ، ويَتلاعبون بِها باطنياً .

---

(٣٠) المسلمون وَحْدَهم على الحق المطْلق ، وغيرهم على الباطل المطْلق . وهذا ليس تعنتاً أو استكباراً بغير الحق . والسبب في ذلك أنهم يستندون إلى الدِّين السماوي الأوحد (الإسلام) ، والكتاب السماوي الوحيد السالم من التحريف . وبالتالي فَهُم ــ وحدهم ــ مرتبطون بالسماء ، وما عداهم ما زالوا يرزحون تحت وطأة الديانات الأرضية الشيطانية التي أسَّسها الشيطان لعباده . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥].

قال اللهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ [النِّساء : ٥١] .

وسبب النُّزول يُبيِّنه الحديث التالي : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : لَمَّا قَدِمَ كَعْب ابن الأشرف مكة أَتَوْه، فقالوا : نحن أهل السِّقاية والسِّدانة ، وأنت سَيِّد أهل يثرب، فنحن خَيْرٌ أم هذا الصُّنَيْبير الْمُنْبَتِر من قَوْمه ــ يَقصدون النبي ﷺ ــ يَزعم أنه خير مِنَّا، فقال: أنتم خير منه [31].

فالطاغوت (كعب بن الأشرف) الذي كان من زعماء اليهود استغل مكانته وعِلْمه ــ بوَصْفه من أهل الكتاب ــ للتدليس والتلبيس على أهل الجاهلية الوثنيين البدائيين ، فكانت النتيجة أن قام بهذه الخيانة الشنيعة مُفضِّلاً عبدة الأصنام على إمام الموحِّدين الأنقياء النبي محمد ﷺ .

وبسبب عداوته الشديدة للنبي ﷺ ، وإعلانه الحرب على الإسلام والمسلمين ، فقد هُدر دمُه بسبب خيانته العظمى . مع العِلْم أن الإسلام لا يُحارِب الناسَ بسبب معتقداتهم . فهم أحرارٌ في اعتناق ما يَرَوْنه مناسباً. ولكنْ إذا تعرَّض الإسلامُ لهجوم وحرب مُستعِرة ، فعندئذٍ سَيُدافع المسلمون عن دِينهم ووجودهم . وعلى الطرف الآخر تحمُّل المسؤولية كاملةً .

وهذا الكلامُ ليس غريباً . فكلُّ دول العالَم تضع قوانين لحماية وجودها ومواطنيها، وتَعتقل أو تَقتل كلَّ الذين يهددون مصالحها. والمنهجُ الإسلامي واضح في عدم الاعتداء على أحد ، ولكنه بالطبع يُميِّز بين المسالِمين والمحارِبين . وكلُّ عقيدة لا بُدَّ لها من قوة تحميها ، وكلُّ قوةٍ لا بد لها من عقيدة تُوَجِّهها . وعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن لكَعب بن الأشرف ؟ ، فإنه قد آذى اللهَ ورسولَه)) ، فقام محمد بن مسلمة ، فقال : يا رسول الله، أتحب أن أقتله ؟ ، قال: ((نعم)) ، قال: فائذن لي أن أقول شيئاً ، قال : ((قُلْ)) ... فلمَّا استمكنَ منه ، قال : دُونكم ، فقتلوه ، ثم أَتَوا النبيَّ ﷺ فأخبروه [32].

---

(٣١)رواه ابن حبان في صحيحه(١٤/٥٣٤).وفي تفسير ابن كثير(٤/ ٥٦٠): رواه البزار بسند صحيح .

(٣٢) رواه البخاري (٤/ ١٤٨١) واللفظ له ، ومسلم (٣/ ١٤٢٥). ولقراءة الحديث بِطُوله ارجع إلى مصادره . ويُفهَم من هذا الحديث الشريف ما يلي : أ ــ جواز استخدام الحِيلة والكذب في الحرب تصريحاً أو تلميحاً. وهذا يُفهم من قول محمد بن مسلمة: ((فائذن لي أن أقول شيئاً)) وموافقة النبي ﷺ . ب ــ جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة ، ولكن يُستحب إنذارهم . أمَّا الذين لم تبلغهم الدعوة فلا يجوز الإغارة عليهم .

والبيئة الجاهلية المتشظية إلى مناخات وثنيةٍ: عربية ويهودية ونصرانية، تؤسس احتكارَ ما يُعتقَد أنه حق . وتعميقاً لهذه الفكرة السائدة في الأوساط الصنمية ، تقوم القوى المؤثرة داخل العقيدة الجاهلية بإضفاء صفة العِصمة على الممارسات البشرية الدُّونية التي تتَّخذ شكلَ العِباداتِ الدينية ، والطقوسِ الفكرية، والشعائرِ التَّعبدية، والسُّلوكياتِ الاجتماعية، والهواجسِ الذهنية، والطموحاتِ المستقبلية . وكلُّ هذه العناصر تؤدي إلى بناء منظومة انتحار تدريجي للمعاني والقِيَم . وللأسف ، فإن القيم الميْتة تُصبَغ بهالة القداسة والكمال والعِصمة.ولا شَكَّ أن اليهودية والنصرانية غارقتان في الأُطر الوثنية. فهاتان الدِّيانتان قائمتان على تشبيه الخالق بالمخلوق،والمخلوق بالخالق.وأيضاً،قائمتان على التجسيم (اعتقاد أن اللهَ جِسْم) . والْمُجَسِّمُ يَعبد صنماً ماثلاً في فِكْره المريض . وللأسف ، فإن مُؤسِّسي التجسيم هُم أهل الكتاب (اليهود والنصارى) [(33)].

وإياك أن تفهم من هذا الحديث الشريف أن الإسلام يدعو إلى قتل الكفار واغتيالهم دون وجه حق. فكعب بن الأشرف كان عدواً محارِباً لأنه نقض العهد وأعان على حرب النبي ﷺ وهجاه . أمَّا الكافر غير المحارِب فله حقوقه كاملة ، ويُعرَض عليه الإسلام عَرْضاً يجيب عن كافة الأسئلة ، ويُفنِّد كلَّ الشكوك والهواجس. فإن أبى فالجِزْية نظير حمايته تحت ظل الدولة الإسلامية ورعايته والاعتناء به ، وصيانة ماله وعِرْضه ، والدفاع عنه ضد الأعداء _ حتى إن المسلم يموت في سبيل الدفاع عنه _ ، وتوفير فرص العمل له ولأبنائه، وإعطائه من مال بيت المسلمين في حالة احتياجه، وتأمين العيش الكريم له ولعائلته ، فإن أبى فالقتل . والرافض لهذا يصير مُحارِباً يجب التصدي له ، وخائناً خيانة عظمى . وانظرْ إلى الدُّول التي تتشدق بحقوق الإنسان تحكم بالموت أو السِّجن مدى الحياة على الخونة والعملاء لكي تحميَ نظامها المتهالك . ومن حق الإسلام أن يُشرِّع الأنظمة التي تحمي وجوده وأتباعه، وهذا منتهى العدالة الاجتماعية ، والتي عَرَضت كلَّ الخيارات أمام الشخص عَرْضاً كريماً طيباً يحترم إنسانيته. وبالتالي ، فلا فائدة من ترويج الإشاعات الفارغة والأكاذيب التي تتهم الإسلام بالإرهاب وعدم احترام حقوق الإنسان . وهذه الأكاذيبُ يَخترعها المستشرقون من بنات أفكارهم ، ثُمَّ يتلقَّفها صبيانهم من أبناء جِلْدتنا. ولا يخفَى أن المغلوب مُولَع بتقليد الغالب ، وأن عُقدة الخواجة لها تأثير واضح في الأنساق الفكرية. وقارِنْ بين الرحمة الإسلامية وبين الإرهاب اليهونصراني الذي تنادي به التوراة والإنجيل . [للمقارَنة: رَاجِعْ كِتابَيْنا: صورة اليهود في القرآن والسنة والأناجيل، والتناقض في التوراة والأناجيل].

(٣٣) لمعرفة عقائد التجسيم والتشبيه عند أهل الكتاب، راجع كتابنا : التناقض في التوراة والأناجيل .

وسبب ذلك هو عشقهم لإله متجسِّد مادي يماثلهم في الصفات والأفعال والخصائص . وينتج عن مثل هذا التفكير صراع حاد بين مكوِّنات البيئة البدائية التوراتية والإنجيلية ، ويتكرس الصراعُ كنمطٍ مصبوغ بالعدمية والعبثية ، ثُمَّ يُنظَر إليه كَدِينٍ مُقدَّس في الثقافة الوثنية ذات الأجهزة البوليسية .

وإذا أنعمنا النظر في الحالة الوهمية الْمُسَمَّاة " صَلْب المسيح " [34] ، التي ابتكرها أصحاب الأناجيل ، نجدها نتيجة طبيعية لاحتكار رجال الدِّين لتأويل النص الديني الوثني، واستيلائهم على الألفاظ والمعاني ومدلولاتها ، مما مَكَّنهم من فرض سيطرتهم على الموروث الديني العابث، وتوجيهه نحو تعزيز القيم الرافضة للآخر، وتفعيلِ الأدوار غير الأخلاقية ، وبناءِ منظومات بعيدة كل البعد عن احترام إنسانية الإنسان . وبنائيةُ الأفعال الذهنية الشاذة عن المسار الحضاري الفاعل تُنتِج حركاتٍ نفسية واجتماعية انتكاسية تنحت أخاديد مرفوضة منطقياً في سلسلة اللاوعي الانسحابي. ويظل التناحرُ داخل النسق التحطيمي الباعثَ على احتقار كَينونة الفرد ، وهضمِ حقوقه في قلب بيئة رافضة للتقدم ، ونابذة لكل فكر خلاق ، لأن الفكر الخلاق _ من وجهة نظر العلاقات المبنية على الوثنية _ يهدد نظامَ الحُكم سواءٌ كان فكرياً أم واقعياً ، فردياً أم جماعياً . ولَيْست الحرية في هذا الصراع المتفشي سوى تفريغ للشهوة الممزوجة بالجموح المسعور ، الذي يتمُّ توجيهه إلى أنساق بشرية مُعقَّدة ، لا تَعرف طُرقَ التعامل مع ثنائية الشهوة وتفريغها .

والأجهزةُ المسيطِرة على بُنى التحركات الفلسفية في سياق الوثنية ، تعمل ليلاً نهاراً للوصول إلى كائن منفصل عن السماء . وللأسف فإن اليهونصرانية تساعد على ذلك ، أي إنها تعمل لسلخ الإنسان عن خضوعه لله تعالى، بسبب كَونها قاصرةً عن توفير المتعة والأمان الروحِيَّيْن . ولنضرب مثالاً على فشل اليهودية في قيادة الحيارى إلى الخلاص ، علماً بأن النصرانية غارقة في الفشل كما اليهودية. فنقول إن أرسطو[35]ظهر بعد النبي موسى وقبل النبي عيسى_عليهما الصلاة والسلام_لكن العقائد الزائغة التي وصلته من اليهودية المنسوبة_كذباً وزوراً _ إلى النبي موسى ﷺ

---

(٣٤) بيَّن القرآنُ الكريم أن المسيح لم يُصْلَبْ ، وهذه المسألة معلومةٌ من الدِّين بالضرورة، بحيث إن مُنكِرها يخرج من الإسلام . قال تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النِّساء : ١٥٧].

(٣٥) أرسطو طاليس (٣٨٤ ق.م. _ ٣٢٢ ق.م.) . فيلسوف وثني عنصري يجسِّد الجاهلية اليونانية بكل طغيانها وجهلها . كانت المجتمعات اليونانية في عصره تتكون من طبقتين هما : السادة والعبيد .

كانت مشوَّشة وعدمية . وليس أدل على ذلك من عقيدة أرسطو المتعلقة بالإله . إذ إنه يعتقد أن الإله لا عمل له ولا إرادة ، وسبب هذا الزعم هو اعتقاده بأن العمل طلب لشيء ، والله غني عن كل طلب ، وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال، فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ، ولا بين فاضل ومفضول . هذه هي شُبه أرسطو . وللرد على هذا العُقم الفلسفي العشوائي العدمي، نقول إن الله تعالى فَعَّالٌ لِمَا يريد ، يعمل ما يشاء . وأعمال الإنسان هي طلب لشيء لكَون الإنسان داخلاً في عداد الأجسام، لكن أفعال الإله وأعماله ليست طلباً لشيء ، إذ إنه ليس كمِثْله شيء ولا هو مِثْل شيء ، وهو مخالف للحوادث والأجسام والأعراض والجواهر. وأعمال الله تعالى إنما هي بعِلْم قديم أزلي لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال ، لا بعِلْم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال . أمَّا الإرادة فهي صفة قديمة زائدة على الذات ، قائمة بها تُخصِّص الممكنَ ببعض ما يجوز عليه على وفق العِلْم وهي واحدة . ولَو لم تَجِبْ له الإرادة لكان مُكرَهاً ، ولو كان مُكرَهاً لَمَا وُجد شيء من هذا العالَم ، ولكن العالَم موجود ، فثبتَ كَونه سُبحانه مُتَّصفاً بالإرادة . أمَّا ما ذهب إليه أرسطو إلى أن الإرادة اختيار بين أمرين ، وأن الله تعالى لا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ، لأنه اجتمع عنده الأصلح ، فنقول إن عبارة " غير صالح " تكون نِسْبية حين يستخدمها الإنسان، فقد يظن المرءُ أن أمراً ما غير صالح، لكنه في الحقيقة قد يكون صالحاً له ، لأن عِلْم الإنسان محدود وقاصر . لذا نقول إن هناك الصلاح والأصلح ، ومن الجائز في حقه تعالى فِعْل الصلاح والأصلح وليس من الواجب [36] . ولَو كان واجباً لَمَا وَقعت مِحنة دنيا ولا أخرى ، ولَمَا وقع تكليف بأمر ولا نهي . وهكذا تتساقط مزاعم أرسطو بالكلية .

إن التجارب الأيديولوجية الجاهلية تؤثِّر على روابط المحيط الاجتماعي ، وأفعالِ الكائن البدائي. لذلك فإننا نجزم أن الفوضوية التوراتية الإنجيلية ، قد أثرت على بعض مساحات التفكير داخل الجماعة في أرض الجزيرة العربية، لكن هذا التأثير كان مختلطاً بغبش واضح وضبابية لم

ويكفيه عنصريةً أنه كان يرى أن مهمة العبيد هي العمل البدني وخدمة السادة فقط ، وأنهم لَيسوا مؤهلين لممارسة الفضائل واكتسابها .

(٣٦) قالت المعتزلة بوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى ، وهذا سوء أدب. ويبدو أنهم قد أُصيبوا بلَوْثة الفلسفة ، خصوصاً فلسفة أرسطو .

تُجِب عن أسئلة الفرد ، ولم تُشبع رغباته وشهواته وميوله وتطلعاته . وما الأجزاء العدمية المهيمنة إلا صورة طبق الأصل للمشروع الذهني والواقعي، ونتيجة نوعية لارتباك السُّلطة المحلية وعبثها المتواصل في جوف التحديات المستقبلية . فتعيين المواقع الجيوسياسية في أنوية المحيط الأولي نابع _ بالأساس _ من المصالح الشكلية النفعية المبنية على أرضية غير ثابتة، يتم تأطيرها ضمن الإرهاب اليهونصراني ، وقمعِ التوراة والإنجيل لكل فكر خلاق مُبدِع. وقد استشرى القمع بصورة هستيرية في المحيطات الفلسفية الغارقة في التخلف والتبعية العمياء . وهذه التَّحليلاتُ الفكرية للمؤسَّسة الفوضوية القائمة على قتل المعنى وبناءِ نزيف الفكرة، لا تَعْدو عن كَونها إضاءةً في ليل بهيم لا يُعرَف أوله من آخره ، ومحاولةً لتشخيص الحالات التي تُبرِز المأزقَ الوجودي في التجمع البشري الأولي . والانتقالاتُ المضطربة في التأسيسات المعنوية هي نَص دِيني مُنحرف داخل أنساق التوراة والإنجيل . وهذا أدى إلى تغيرات في أشكال المعنى وأبنيةِ اللفظ المسيَّس .

ومحاولةُ بناء النُّظم الاجتماعية الاستبدادية ، كانت الباعثَ على تكريس مركز السُّلطة ومركزيةِ الموروث المتداعي ضمن قواعد عامة تتضمن الفروع المتساقطة والأصول المتداعية . إننا أمام حالة عقيمة من التوترات النفسية المتولدة من عُقْم النص الديني عند أهل الكتاب . والعُقم النَّصي المتوارَث في اليهونصرانية هو المحرِّك الأساسي للفكر الهدَّام في بُنية النُّظم الاجتماعية. وبما أن التوراة والإنجيل نتاج بشري مُؤدلَج ، كان من الطبيعي أن تستند النصوص الدينية إلى الإسهامات البشرية ، والأساطيرِ التاريخية ، والطقوسِ الخيالية . ولأنَّ أهل الكتاب كانوا على صلة وثيقة بالحياة الجاهلية، وجدنا أن دورهم كان يتعاظم شيئاً فشيئاً، ليس بسبب جَودة البضاعة ، وإنما بسبب تحركات المتاجرين بالنص الديني الوهميِّ ، والمؤسَّسِ على قاعدة الخرافة ، والمستندِ إلى خلفية الوهم العابث ذي التشظيات الفلسفية المغرِقة في العدم . وأديانُ العرب في الجاهلية كانت مختلفةً . وهذا الاختلاف يعتمد على إفرازات البيئة الاجتماعية ، فالإنسانُ ابنُ بيئته . وأيضاً ، يعتمد الاختلافُ الديني على الاستعداد النَّفْسي والعقلي لأفراد القبائل . وبالتأكيد ، إن كُلَّ قبيلة كانت تُشكِّل وَحدةً مجتمعيةً خاصة من حيث العقائد الدينية ، والمؤروث الثقافي ، والقدرات المادية ، والتاريخ ، والخصائص الاجتماعية . وقال الأبشيهي في الْمُسْتَطْرَف (٢/ ١٧٤) : ((كانت النصرانيةُ في ربيعة وغسان وبعض قُضاعة. وكانت اليهوديةُ في نُمَيْر وبني كِنانة وبني الحرث بن كعب وكِندة. وكانت المجوسيةُ في بني تميم... ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً . وكانت الزَّندقةُ في قُرَيْش أخذوها من الجزيرة)) .

أثر الجاهلية في الأمة الإسلامية

مِن المؤكد أن الجاهلية كنسق فكري مُعْدٍ تؤثر سلباً في حياتنا ، وذلك بتجذير سلوكيات شاذة دخيلة تخترق بُنية مجتمعاتنا . وهذا الاختراق لَيس وليدَ الساعة ، ولا يمكن اعتباره مُفاجئاً . بل هو اختراق على مَر العصور ، يتغيَّر شَكْلُه بتغيُّر المكان والزمان ، لكنَّ جَوْهَرَه واحد . فالتاريخُ يُعيد نفْسَه بأدوات عَصْرِه. وذلك لأن الزمان والمكان يتحرَّكان في دائرة مُغلَقة . وكما قال الشاعرُ:

مَن سَاءَهُ سَبَبٌ أو هالَهُ عَجَبٌ فلي ثمانونَ عاماً لا أرى عَجَبا
الدَّهْرُ كالدهرِ والأيامُ واحدةٌ والناسُ كالناسِ والدُّنيا لِمَن غَلَبَا

والجاهليةُ تُؤثِّر في أفكارنا وممارساتنا اليومية ، وتزرع عاداتٍ بالية وأفكار ذهنية تنعكس على الواقع المعاش . ومن العادات السيئة التي وَجَّهتها الجاهليةُ نحو مجتمعاتنا العصبيةُ القَبَلية ، والتعصب الأعمى للعشيرة والجماعة التي ينتمي إليها الفرد .

وعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ قال: كُنَّا في غَزاة ، فَكَسَعَ [37] رَجلٌ من المهاجرين رَجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فسمع ذاك رسولُ الله ﷺ فقال : ((ما بَالُ دَعْوى جاهلية ؟!))، قالوا : يا رسول الله، كَسَعَ رَجلٌ من المهاجرين رَجلاً من الأنصار ، فقال : ((دَعوها فإنها مُنْتِنة))[38] .

فدَعوى الجاهلية خبيثة ، لِمَا تنطوي عليه من قيم سلبية تفتُّ في عَضُد المجتمع الإنساني . والعصبيةُ القَبَلية العشائرية تُجسِّد لُبَّ دعوى الجاهلية المستنِدة إلى القبيلة ، ونصْرها ظالمةً أو مظلومة . وهذا المبدأ رفضه الإسلامُ ، وأسَّس بدلاً منه مفهوماً جديداً للعلاقة بين الفرد وأخيه، والفرد وقبيلته .

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر(٢/ ٢٨٠) عن دَعوى الجاهلية: ((هو قَوْلهم : يا آلَ فُلان . كانوا يَدعون بعضهم بعضاً عند الأمرِ الحادث الشديد)) اهـ .

---

(٣٧) كَسَعَ فلاناً ــ كَسْعاً: ضرب مُؤخَّرَه بيده أو بصدر قَدَمِه. [انظر المعجم الوجيز ، ص ٥٣٤] .
(٣٨) متفق عليه ، واللفظ للبخاري (٤/ ١٨٦١) . ومسلم (٤/ ١٩٩٨) .

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسولُ الله ﷺ : ((انصُرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً)) فقال رَجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، فرأيتَ إذا كان ظالماً كيف أنصره ؟ ، قال : ((تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نَصْرُه))[39].

إن هذا المعنى كان غائباً تماماً عن العقلية العربية البدائية ، فلم تكن تدرك أن المنع من الظلم هو نصر للشخص. وهذا مرجعه إلى انحصار التفكير في معاداة الآخر والتفوق عليه وإرغامه على الخضوع والتسليم .

ولَمَّا جاء الإسلام وضع معنى جديداً للنصر يتضمن شِقَّين : الأول ــ نصر المظلوم والمضي معه حتى يحصل على مظلمته ، والثاني ــ منع الظالم من الاستمرار في ظلمه ، والعمل على محو ظلمه بالأساليب البناءة الهادفة ، وبذلك نكون قد نصرناه على نفْسه الأمَّارة بالسُّوء والعاشقة لظلم الآخرين، وأرجعناه إلى جادة الصواب، لكي لا يستمر في حصد السيئات والتعرض للعقاب الدنيوي والأخروي ، وهذا بحد ذاته نصر واضح للفرد . وهكذا يكون الإسلام قد سَنَّ معنى جديداً لأتباعه ، لكي يظلوا متصلين بالنصوص الشرعية وملتزمين بها .

وفي الجاهلية كانت عِبارة " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " تؤخذ على ظاهرها . وفي مجمع الأمثال للميداني (٢/ ٣٣٤) : ((قال أبو عُبَيْد : أمَّا الحديث فهكذا ، وأمَّا العرب فكان مذهبها في المثل نصرته على كل حال. قال المفضَّل : أوَّل من قَالَ ذلك جُنْدُب بن العَنْبَر)) .

ويستمر تأثير الجاهلية في البنى الاجتماعية داخل الأمة الإسلامية . ففي صحيح مسلم (٢/ ٦٤٤) : عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال : ((أربع في أُمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنِّياحة)) .

وهذه الخِصال الذميمة متغلغلة في ثقافة الجاهلية . ولم يقف تأثير هذه الصفات في النسق الجاهلي، بل تعداه إلى التغلغل في حياة الأمة في كل مراحلها . أي إن تأثير الجاهلية مستمر في حياتنا .

والفخرُ في الأحساب سِمةٌ جاهلية بامتياز . والأحسابُ جمع حسب ، وهو ما يَعُدُّه المرءُ من مفاخر له أو لآبائه مثل الشجاعة والكرم . وهذا جهلٌ مُطبِق ، لأن الفخر إنما يكون في التقوى والطاعة .

---

(٣٩) رواه البخاري (٦/ ٢٥٥٠) واللفظ له ، ومسلم (٤/ ١٩٩٨) .

والطعن في الأنساب ، هو القدح في نسَب أحد من الناس ، وهذا انتقاص للآخرين ، وتشويه لسُمعتهم . فالأنسابُ لا تُعرَف إلا من أهلها .

والاستسقاء بالنجوم ، هو ربط نزول المطر ببعض الظواهر ، وهو شِركٌ . فالفاعلُ الحقيقي في الكَوْن هو الله تعالى . ولا تأثير للنجوم أو غيرها على نزول المطر .

والنِّياحة ، هو رفعُ الصوت بالنَّدْب على الميْت ، وإظهار الجزع . وهو _ بلا شك _ سَخط على الإرادة الإلهية ، وعدم الرضا بالقضاء والقَدَر .

وقال العيني في عمدة القاري (٨/ ٨٤): ((وكان أهل الجاهلية يُمزِّقْنَ الثيابَ، ويخدشن الوجوهَ ، ويقطعن الشُّعورَ ، ويَدعون بالثبور _ الويل _)) اهـ .

وهذا الحديثُ من معجزات النبي ﷺ ، فقد أُخبِرَ بما سيكون مستقبلاً . والأُمَّةُ _ رغم معرفتها بُحرمة هذه الخِصال _ ، إلا أنها متمسكة بها ، فقد ورثتها عن الجاهلية ، ولن تتركها أبداً .

وهكذا نجد أن تأثير الجاهلية يضرب بشراسة في تفاصيل المجتمع الإسلامي . وهذا التأثير يؤخذ بعين الاعتبار في مجالات كثيرة ، وحالات عديدة . وأبرز مثال على ذلك هو عدول النبي ﷺ عن تغيير معالم البيت الحرام (الكعبة) ، لكَوْن الناس حديثي عهد بالجاهلية .

وعن السيدة عائشة _ عليها السلام _ أن النبي ﷺ قال لها : ((ولَوْلا أن قَوْمك حديث عهدهم بالجاهلية ، فأخاف أن تُنكِر قلوبهم أن أُدخل الْجُدُرَ في البَيت ، وأن أُلصق بابه بالأرض))[40].

إن هذا الحديث يؤسس لفقه الواقع وفقه المآلات، ويأخذ بعين الاعتبار الحالة النفسية للأفراد. فالنبي ﷺ وازن الأمور ، وأخذ بعين الاعتبار الحالة السائدة بأن القوم حديثو عهد بالجاهلية (قريب زمن تركهم للكفر) ، وتصرَّفَ وَفْقها وحَسَبَ ما تمليه . وهذا درس شريف من النبي ﷺ ، ودعوة سامية لتقدير الأمور بقَدْرها ، والعدول عن فعل الأمر الذي يترتب عليه عواقب وخيمة ، ومفاسد كثيرة. وفي بعض الأحيان تكون المصلحة في ترك المصلحة ، وقد يجلب تنفيذ المصلحة ضرراً أكبر ، وعندها على المرء أن يمتنع عن فِعلها ، لِمَا قد تؤدي إليه من مفاسد أكبر . فتظهر قاعدة وجوب ارتكاب أخف الضررين. ومهما فعلنا سوف تظل بعض آثار الجاهلية فِينا، بسبب ضعفنا البشري ، وسوء إدارتنا للأمور والأزمات التي نتعرض لها . لكن الواجب علينا أن

---

(٤٠) متفق عليه، واللفظ للبخاري(٢/ ٥٧٣) . ومسلم (٢/ ٩٦٨) .

نمحوَ آثار الجاهلية في سلوكنا قَدْر المستطاع، وذلك بالالتزام بالمنهج الإسلامي في التعامل مع المؤثرات الخارجية ، ومقاومةِ هيمنة القوى الظلامية الداخلية والخارجية على مسار حياتنا ، ورفضِ سَطوة المفاهيم المشوَّشة ذات الانتقالات المتشعِّبة ، وتعزيزِ القدرة الإنسانية في مجال الصلاح والإصلاح ، وتوليدِ تكتلات فكرية تعتمد على منهجية المقاوَمة والتحدي .

إن مركزية القوة السُّلطوية في مجتمعاتنا تُكرِّس حالةَ التخلف والتبعية الجاهلية ، وهي تقوم بهذا العمل غير الشريف تعميقاً لحفرة التخلف التي نحن واقعون فيها، ولكي تضمن وجود أتباع فارغين غير معنيين بقضايا الوجود البشري . فالإدارةُ والسُّلطة ، وإدارة السُّلطة ، وسُلطة الإدارة، هي مفاهيم تستخدمها القوى المجتمعية في حياتنا المعاصرة بشكل فج، لإنتاج أفكار استهلاكية بعيدة كل البعد عن الاعتناء بمشكلاتنا وأزماتنا المعاصِرة . والقوى الرسمية والشعبية في مجتمعاتنا تفرض عبثَ الانتقالات الذهنية الملموسة وغير الملموسة ، وتؤسس لمراحل تغييب الوعي بالكامل لصالح بروز طبقة حاكمة توظِّف بعضَ تفاصيل الحياة الجاهلية في حياتنا، لتظل محتفظةً بالسُّلطة، وبالطرق المؤدية إليها ، لتضمن أن لا ينازعها أحد .

وبما أننا تركْنا قضايانا الوجودية ، ومَثَّلْنا دَورَ الجاهل بحذافيره ، وصلنا إلى جاهلية جديدة من نوع خاص ، جاهلية تتشابه في كثير من حيثياتها مع الجاهلية العربية قبل مجيء الرسالة المحمَّدية الإسلامية . ولم يقف تأثيرُ الجاهلية عند حَد معين ، بل تعدَّى كلَّ الحدود وصولاً إلى تأسيس جاهلية جديدة تتناسب مع عصر المادة والذَّرة الذي نحياه ونحن غائبون عن مجرياته ، وحاضرون في مدارات اللاوعي أو الوعي السالب ، وأحلاهما مُر . وبما أن التأثيرات الجاهلية كانت الأساس لنشوء جاهلية معاصرة تتمتع بالاستقلالية، كان من الطبيعي أن نشعر بأننا مُهمَّشون . والحقيقة أننا هَمَّشْنا دَوْرَنا بأيدينا، فماذا كانت النتيجة ؟. كانت النتيجة أُفول نجمنا في العالَم ، وتصارُع القوى الكبرى علينا ، والسعي إلى احتكارنا ، كأننا بضاعة ذات ماركة مُسجَّلة ، تُعرَض على رفوف مراكز التسوق في البلاد ذات التوجه الاستخرابي [41] . وصار وجودنا تحصيل حاصل ، لأننا ابتعدنا عن

---

(٤١) من الأخطاء الفظيعة إطلاق لفظة " الاستعمار" على قوى الشر الاستكبارية ، لأن هذه الكلمة معناها جميل متعلق بالإعمار. قال الله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١]. ومعنى استعمركم فيها أي جعلكم عُمَّارها. وهذه الدول أبعد ما تكون عن الإعمار ، فالواجب استخدام لفظة " الاستخراب " الآتية من الخراب .

المنهج الرَّباني السماوي ، وحَكَّمْنا القوانينَ الأرضية الشيطانية ، وجعلناها دِيناً لازماً للعباد . وأخشى أن نقول يوم القيامة : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾ [الأحزاب : ٦٧] .

إن جاهلية الأعراب البدائية وصلت إلينا نحن العائشين في القرن الحادي والعشرين . والجاهليةُ المعاصِرة التي نحياها تخنقنا ونحن مستمتعون لأننا مخمورون ، بعد أن شربنا خمرةَ حضارات الخرافة في الشرق والغرب ، وغَرِقْنا في أحلام اليقظة الوهمية التي يُروِّجها الطغاةُ وفقهاؤهم الذي يتلاعبون بالنُّصوص الدِّينية لتكريس الظلم والفقر والتخلف والمرض .

إن الأجهزة الفكرية التي اخترعتها الدولةُ الجاهلية القديمة والمعاصرة لتبرير مشروعيتها الوهمية، تدور في فلك الاستحواذ على إبداع الفرد وتوجيهه نحو تكريس ظُلم الحاكم ، وإضفاء الشرعية والقداسة على أفعاله ، وتسويق ظُلمه على أنه رُوح العدل والتسامح ، ووضع إطار أخلاقي لأفعاله اللاأخلاقية . وكلُّ الأنظمة القمعية في الأنساق الجاهلية تخترع وسائلَ حماية نفْسها عبر تكثيف الأطر الدعائية ، وتشييدِ الأسوار الحامية للمشروعية الوثنية الافتراضية .

لذا فإن ((كل نظامٍ سياسي فاشلٍ يتكون من عنصرين : قاتلٌ يرتكب الجريمة ، وكاتبٌ يُبرِّرها ويؤسس لها بروازاً أخلاقياً))[42] . وهكذا يَصير الفردُ ضحيةَ نظامٍ قمعي مُغلَق ، وظيفته سرقة ثروات الشعب الرُّوحية والمادية، والسيطرة على التفكير، وتوجيهه نحو حافة الانهيار ، أو بالأحرى رمي التفكير الإبداعي في قلب الانهيار الأكيد .

وبعد هذا وذاك يتم تسويق الانهيار على أنه روح الإبداع الخلاق ، ضمن جدلية عبثية ، وانتقالاتٍ نسبية ، وتسوياتٍ لا معنى لها ، تهدف إلى تنويع التكوينات اللاأخلاقية في النسق الاجتماعي المتحرِّرِ من الضوابط الشرعية ، والمصابِ بعقلية الدُّونية وعُقدةِ الشعور بالنقص جَرَّاء الفوارق الشاسعة بين المادية الغربية ، والمادية الشرقية [43] ، التي بَدأت تحل محل السُّمو الروحي والرِّفعة الأخلاقية . لذا فإن عشق الدنيا واستيلاءها على القلوب خَرَقَ في جدران المجتمع

---

(٤٢) صرخة الأزمنة ، إبراهيم أبو عواد ، مخطوط .

(٤٣) نحن لا نُنكِر أهمية المادة في حياة الفرد ، لكن ما نرفضه هو أن تحل محل القيم الروحية والمعنوية . فالإنسان روح ومادة ، وحياته كذلك. إذن ، فلا بُد من إعطاء كل مسار أهميته وخصائصه دون إلغاء المسار الآخر .

الإسلامي خُروقاتٍ كثيرة ، دخلت منها الجاهليةُ القديمة المعاصِرة حاملةً معها التقاليدَ البالية ، والعاداتِ السَّيئة .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : ((فَوَاللهِ ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى أن تُبسَط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَن كان مِن قَبْلِكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتُهلككم كما أَهْلَكَتْهُمْ)) [44] .

إن التكتلات الجمعية تغدو تأريخاً لمراحل القمع الوجودي الذي يتبناه الكائن في معركته مع ذاته ، فالكتل الذهنية عبارة عن طبقات تراثية تكونت من التقاليد والأعراف غير المعصومة، ولكنها في كثير من الأحيان يعتقدها الإنسان دِيناً واجباً وشريعة كاملة ومعصومة لا مناص منها . وهذه التقاليد القادمة من فكر السابقين وأطروحاتهم وآمالهم ورغباتهم وأنماط معيشتهم ، أصابها كثير من دعاوى الجاهلية ومفرداتها وقيمها السلبية المتخلفة . وبسبب ضَعف الإيمان ، تسلَّلت الجاهلية إلى حياتنا، وصارت تغزونا من كل الجهات . وللأسف فهذه الجهات مفتوحة أمام رِيح الجاهلية، بسبب ضَعف التحصيناتِ ، وانهيارِ خطوط الدفاع . وكل مسلم على ثغرة من ثغور هذا الدِّين، فالواجب عليه أن لا يُؤتَى مِن قِبَله ، وكلُّ فردٍ ينبغي ألا يَكونَ الحلقة الأضعف . وللأسف، فواقعُ المسلمين شديد السُّوء . وهذا الواقع نتاج أفعالنا المخجلة ، وتقصيرنا اللامحدود ، وضعفنا في وجه ريح الاستخراب الذي تقوده قوى الهيمنة والاستكبار العالمية. ولكن هذه الأوبئة التي تقضم جسد الأمة شيئاً فشيئاً لا يجب أن تدعونا إلى التشاؤم أو التخاذل . إذ إن في زوايا الزنازين الضيقة ضوءاً ثورياً شاملاً متأججاً سوف نُغيِّر بواسطته العالَمَ ، مُستندين إلى المرجعية السماوية : الكتاب والسُّنة . وهكذا نفهم أن الدائرة تدور بكامل حيثياتها ومنحنياتها ، وأن الله تعالى سوف سَوْف يَرفع رايةَ الإسلام ، ويُعِزُّ المسلمين ليصبحوا سادةَ العالَم كما كانوا . فَهُم ـ وَحْدَهم ـ يَحملون كلمةَ اللهِ تعالى . ولن يتخلف الوعد الإلهي .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ [النُّور: ٥٥] .

أمَّا سببُ نزول هذه الآية ، فعن أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال : لَمَّا قَدِمَ رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة . كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح

---

(٤٤)متفق عليه ، واللفظ للبخاري(٤/ ١٤٧٣) . ومسلم (٤/ ٢٢٧٣) .

ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: تَرَوْنَ أنَّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟، فَنَزلتْ : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ ، الآية [45] .

إن جيل الصحابة _ رضوان الله عليهم _ قد طهَّروا أنفسهم من عبثية الجاهلية ، فماذا كانت النتيجة ؟ . لقد استخلفهم اللهُ تعالى في الأرض ، ومكَّن لهم دِينهم ، وأورثهم أرضه ، وأعانهم على فتح البلادِ وقلوبِ العِباد بالْحُجَّة والمنطق والتسامح ، وجَعَلَهم أئمةً يهدون بأمر الله تعالى لَمَّا صبروا ، ومنحهم التمكين والثبات والعلو، وأعلى ذِكْرهم في الدارين، فنالوا السعادتين الدنيوية والأخروية .

وهذا الاستخلاف وتوابعه لم يحصلوا عليه إلا عن طريق بذل جهد كبير في تنقية النَّفْس والجسد، والتخلص من أدران الحياة الجاهلية التي هي بمثابة انتحار بطيء . ونحن سوف ننالـه _ أي الاستخلاف _ إذا نظفنا أنفْسنا من بقايا الجاهلية وقيمها وسلوكياتها ، لأن معنى الاستخلاف والخلافة لا يهبط في قلب غير نظيف ، ولا يصير واقعاً ملموساً إلا إذا اجتهدنا في تطهير ذواتنا من كل الأوساخ الفكرية التي وصلتنا من فوضوية المعاني الاجتماعية والأخلاقية الجاهلية .

إذن ، نكتشف أن تلوُّثنا بالصفات الجاهلية يَحول بيننا وبين تلقي الفيوضات الرحمانية الربانية المقدَّسة . وبالتالي نغدو مشتتين ضائعين ، ونزداد بعداً عن مفهوم الاستخلاف الحق . والأمر ليس سهلاً ، إذ إن الجاهلية أنماط استهلاكية عابثة تلغي الروح في الإنسان ، بل إنها تعمل على استهلاك الروح وحرقها بالشهوات الحيوانية ، وإطلاق العنان للغرائز دون رقيب ، ونصب الحواجز بين الإنسان وذاته . وهكذا ينفصل الفرد عن نفْسه ومحيطه وقدراته والغاية المقصودة من مجيئه إلى هذه الأرض، فيكون وجوده على الأرض كعدمه، إذ إنه لم يُحقِّق الهدف المنشود من وجوده ، فيخسر شرف معرفة خالقه تعالى ، ويفقد قدرته على معرفة ذاته ، ويتنكب الصراطَ المستقيم . فيا لها من خسارة فادحة أن يقضيَ الإنسان حياته على هذه البسيطة عبثاً دون معرفة المسار والمصير. وعلى أية حال ، سوف تَؤول الأرض في نهاية المطاف إلى مالكها الحقيقي الله تعالى ، الذي مَلَّكها للإنسان لفترة زمنية مُحدَّدة من أجل إعمارها وتحقيق مفهوم الخلافة ، وسوف يَرِثُ اللهُ تعالى الأرضَ ومَن عليها . قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم : ٤٠] .

---

(٤٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٤) برقم (٣٥١٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وضع المرأة

تُعتبَر المرأةُ في العصر الجاهلي مُجرَّد وسيلةٍ للتكاثر ، وآلة للتفريخ ، وجزءاً من الأثاث المنْزلي _ لا أكثر ولا أقل _ . والتجمعُ الجاهلي ذُكوري قَمعي من الدرجة الأولى . والامتيازات القَبَلية كلها تُمنَح للرَّجل بوصفه السَّيد المطْلق في البيئة البدائية العشائرية المبنية على الظلم والاضطهاد والانغلاق ، والتي تدور حول محور واحد هو الذَّكَر . والأفكار الخاطئة المتوارَثة والمناوِئة للآخر الأنثى ، تجعل للذَّكر الحظوة والمكانة ، وللأنثى العار والمهانة والازدراء . وكل ذلك إنما يرجع إلى الأنساق الفكرية التحطيمية للكيان البشري ، والتي لا تحترم كَينونةَ الفرد ، بل تقمعها وتلغيها لصالح الذَّكر . وهذا امتداد لعقلية التخلف الضاربة جذورها في أعماق الجماعة الجاهلية . قال عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ : ((والله إن كُنَّا في الجاهلية ما نَعُدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهنَّ ما أَنزل وقسم لهن ما قسم))[46].

وهكذا نجد أن طبيعة التفكير البدائي داخل المحيط الوثني تفترض أن المرأة ليست بشيء ، وأنها غير ذات أهمية. فلمَّا جاءت الشريعةُ المحمَّدية الإسلامية بيَّنت أن للنساء حقوقاً، وعليهنَّ واجبات، وأن الله تعالى أنزل فيهن قُرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، لدرجة أن هناك سورة في القرآن الكريم تحمل اسم النساء . أضف إلى هذا ما قسمَ اللهُ لهنَّ كالحقوق المعنوية والمادية في المواريث والوصية والذِّمة المالية المستقلة ، وحق اختيار الزوج ، ومباشرة الأعمال التجارية وغير ذلك ، فقد كانت النساء لا يُوَرَّثْنَ في البيئة الجاهلية ، ولم يَكُنَّ يَجْرُؤْنَ على المطالبة بنصيبهن من الميراث ، خضوعاً للعادات والتقاليد التالفة .

وحينما جاء الإسلامُ أعطى المرأة كامل حقوقها التي تحترم كيانها . فالمرأة في الإسلام لها ذِمَّة مالية مستقلة . ومن حقها ممارسة التجارة ومباشرة الأعمال التجارية كالبيع والشراء دون ضغط من أحد. كما أنها تتحكم في مالها كما تشاء ما دامت عاقلة ، وليس لأحد _ مهما كانت قرابته _ أن يسلبها إياه ، أو أن يُحوِّل مجراه ، أو أن يأخذ منه شيئاً دون طِيب نفْس . وليس للجماعة ولا لِوَلِيِّ الأمر الذي يُمثِّلها أن يتدخل في الشؤون الخاصة للأفراد رجالاً أو نساء ، ما دام أنه لم تُنتهَك حُرْمة أمرٍ دِيني .

---

(٤٦) متفق عليه . البخاري (٤/١٨٦٦) برقم (٤٦٢٩) ، ومسلم (٢/١١٠٥) برقم (١٤٧٩).

وأعفى الإسلامُ المرأةَ من عِبء الإنفاق على بيتها ، وأوجب على الرجل الإنفاق على البيت، فإن أنفقت المرأة فهذا فضل منها ، وإن لم تنفق فلا تثريب عليها . ومن هنا يتبين لنا لماذا لا يجوز للرجل إعطاء الزكاة لامرأته ، إذ إن من الواجب عليه الإنفاق على زوجته . أمَّا الزوجة فيحق لها إعطاء الزكاة لزوجها إذا كان من الأصناف التي تُعطَى لهم الزكاة، لأنها غير مُطالَبة بالإنفاق عليه . ففي صحيح البخاري (٢/ ٥٣١) : عن أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه _ : أن زينب امرأة ابن مسعود قالت : يا نبي الله ، إنكَ أَمرتَ اليوم بالصدقة وكان عندي حُلِيٌّ لي ، فأردتُ أن أتصدق به ، فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق مَن تصدقتُ به عليهم، فقال النبي ﷺ: ((صَدَقَ ابْنُ مسعود، زَوْجك وولدك أحق من تصدقتِ به عليهم)) .

والمرأة عنصر ضعيف في المجتمع ، لا تملك القوةَ لأخذ حقها بيدها أو المطالبة به بشكل واضح ومتماسك . وقد صانت الشريعةُ مكانةَ المرأة وحَفظت حقوقَها لئلا تصبح الأنثى هي الحلقة المسحوقة في زحمة الحياة اليومية ، وضجيجِ اللهاث وراء المادة . لذا ليس غريباً أن يحفظ الإسلامُ أموالَ النساء، ويؤسس تشريعاتٍ خاصة بذلك. فالإسلامُ لا يَقبل الاستغلال ولا يُبرِّره بأي شكل. وهذا يدل على منهجية احترام حقوق المرأة المعنوية والمادية، وصيانتها من عبث العابثين، واستغلالِ الذين يَرَوْنَ في المرأة فريسةً سهلة .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وآتوا النِّساءَ صَدُقاتهنَّ نِحْلةً ﴾ [النساء : ٤] .

قد أوجب اللهُ تعالى على الرجال إعطاءَ النساء مهورهنَّ كاملةً . وجعل _ سبحانه _ هذا الأمرَ فريضةً واجبة لا مجال للتلاعب بها أو الالتفاف حولها .

وقال المطرزي في المُغرب في ترتيب المُعرب (٢/ ٢٩٢) : (((نحَله) كذا : أي أعطاه إيَّاه بِطِيبةٍ من نفْسه من غيرِ عِوَض ... و(النِحْلة) : العَطِيَّة)) اهـ .

وقد كانوا في الجاهلية يستغلون المرأةَ أبشع استغلال ، فلا يُعطونها من المهر شيئاً ، بل يأخذونه كاملاً . وبالطبع فالمرأةُ لا تملك غير الرضوخ للأمر الواقع ، فهي لم تتعود على المطالبة بحقها ، كما أن المجتمع العربي البدائي موغل في الذكورية المناوئة للأنوثة . فالعربُ البدائيون لم يكونوا يقيمون وزناً للمرأة ، فهم يَنظرون إليها على أنها عنصر هامشي يتلقى الأوامرَ ويُنفِّذها ، بلا تفكير أو مُعارَضة .

وفي زاد المسير(٢/ ١٠و١١):((قَوْله تعالى :﴿ وآتوا النِّساءَ صَدُقاتهنَّ نِحْلةً ﴾ اختلفوا فيمن خُوطِب بهذا على قَوْلَيْن : أحدهما _ أنهم الأزواج ، وهو قول الجمهور . واحتجوا بأن

الخطاب للناكحين قد تقدَّم ، وهذا معطوف عليه . وقال مقاتل : كان الرَّجل يتزوج بلا مَهر ، فيقول : أَرِثُكِ وتَرِثيني ، فتقول المرأة : نعم . فَنَزَلتْ هذه الآية ، والثاني : أنه مُتَوَجِّه إلى الأولياء ، ثم فيه قَوْلان : أحدهما أن الرَّجل كان إذا زَوَّج أَيِّمة جاز صداقها دونها، فَنُهوا بهذه الآية ، هذا قول أبي صالح، واختاره الفرَّاء وابن قتيبة . والثاني أن الرَّجل كان يُعطي الرَّجلَ أُخته ويأخذ أُخته مكانها مِن غَيْر مَهر، فَنُهوا عن هذا بهذه الآية، رواه أبو سليمان التيمي عن بعض أشياخه)) اهـ .

وعدمُ الزواج بلا مَهْر هو استغلال للمرأة، ومحاولة التفافية للاستمتاع بها مجاناً، وما رضوخُ المرأة لهذا الأمر إلا تسليمٌ لِحُكْم الأمر الواقع في مجتمع ذُكوري لا يَرْحم ، ولا يُدخِل المرأةَ في حساباته ، ولا يَعترف بالقيمة الإنسانية لها. فهي مُجرَّد جسد جِنسي ، ووعاء للشهوة ، وآلة ميكانيكية للتفريخ .

ويَظهر الاستغلال أيضاً في تزويج الأيِّمة ، وهي التي سبقَ لها الزواج ، فإمَّا أن تكون أرملة أو مُطلَّقة . وقال الحافظ في الفتح (١/ ٨٣) : ((وقِيل : مَن لا زَوْج لها ولو كانت بِكراً)) اهـ .

والمجتمعُ الجاهلي يَنظر إلى الأيِّمة كعِبء زائد ، وحِمل ثقيل ينبغي التخلص منه في أقرب فرصة. فكانَ الرَّجلُ إذا زوَّج هذه المرأةَ المسحوقة استغلها أبشع استغلال ، إذ إن تركيزه مُنصَبٌّ على صَداقها ، والمالِ الذي يُمكن أن يَكْسبه بسببها . وهكذا صارت المرأةُ سِلعةً للبيع ، وسبباً رئيسياً للحصول على الثروة والمنفعة المادية .

وأيضاً ، يُمثِّل إعطاءُ الرَّجل أُخته لِرَجل آخر وأخذ أُخته من غير مَهر ، شكلاً للابتزاز والاستغلال والوصول إلى المتعة بأقل تكلفة ممكنة ، وفي كل الحالات تكون المرأةُ هي الحلقة الأضعف ، والفريسة الخانعة ، والصَّيد السهل ، والشهوة المجانية.

وفي العُجاب في بيان الأسباب (٢/ ٨٢٩) عن الكلبي وجماعة ، قالوا عن الآية السابقة : ((هذا خطاب للأولياء.وذلك أن وَلِيَّ المرأة كان إذا زَوَّجها، فإن كانت معهم في العشيرة لم يُعطها من مَهْرها قليلاً ولا كثيراً ، وإن كان زوجها غريباً حملوها إليه على بعير ولا يُعطونها من مَهْرها غير ذلك، وكذلك كانوا يقولون لمن وُلدت له بنتاً : هنيئاً لك النافحة ، أي يأخذ في مهرها إبلاً يَضُمُّها إلى إبله ، فَيُكَثِّرها بها ، فنهاهم اللهُ عن ذلك ، وأمرَ بأن يُعطَى الحق لأهله)) اهـ .

إن المرأة العربية كانت في مَوْضع الشراء والبيع ، والعَرْض والطلب . فهي سِلْعةٌ يُسعَى لترويجها بُغية جني أكبر قَدْر من الأرباح . وهي لا تَعدو عن كَوْنها مشروعاً تجارياً استثمارياً لزيادة أرصدة أوليائها من الإبل (عصب الاقتصاد العربي) . وهذا يشير إلى المكانة المتدنية للمرأة ،

وأن هناك ثقافةً مجتمعية مسعورة تتمحور حول استغلالها وامتهانها . وقد ألغى الإسلامُ هذه المظاهر اللاإنسانية، وحمى المرأةَ من الذئاب البشرية ، ووضع التشريعاتِ الخالدة لحفظ حقوقها.

ولنُعرِّجْ على مسألة الزواج (النِّكاح) في الجاهلية لنعلم مقدار الظلم الذي لحق بالمرأة . فهي سِلعة رائجة ضمن تجارة رسمية تُوَفِّر المتعةَ للرَّجل بأقل تكلفة .

ففي صحيح البخاري (٥/ ١٩٧٠): عن أم المؤمنين السيدة عائشة_عليها السلام _ قالت : ((إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء ، فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يَخطب الرَّجلُ إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر ، كان الرَّجلُ يقول لامرأته إذا طَهُرت من طَمْثها : أرسلي إلى فلان فاسْتَبْضِعي مِنه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسُّها أبداً ، حتى يتبيَّن حَمْلها من ذلك الرَّجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبيَّن حَمْلُها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر ، يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يُصيبها ، فإذا حَملت ، ووضعت ، ومَرَّ عليها ليالٍ بعد أن تضع حَمْلها أرسلتْ إليهم ، فلم يستطع رَجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد وَلدتُ ، فهو ابنك يا فلان ، تُسمِّي من أحبَّت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرَّجل ، ونكاح رابع ، يَجتمع الناسُ الكثير فيدخلون على المرأة ، لا تمتنع مِمَّن جاءها ، وَهُنَّ البغايا ، كُنَّ يَنْصُبْنَ على أبوابهنَّ راياتٍ تكون عَلَماً، فمن أرادهنَّ دخل عليهنَّ ، فإذا حَملت إحداهنَّ ، ووَضعت حَملها ، جَمعوا لها ، ودَعَوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يَرَوْنَ ، فالتاطَ بِه ودُعِيَ ابنه ، لا يمتنع من ذلك . فلمَّا بُعث محمد ﷺ بالحق ، هَدَمَ نِكاحَ الجاهلية كُلَّهُ ، إلا نِكاح الناس اليوم)) .

إذن ، كانت الفلسفةُ الاجتماعية في الجاهلية تتمحور حول موضوع النِّكاح (الزواج) . وهذا غير مُستغرَب ، لأن الزواج هو العنصر الأشد تأثيراً في الحراك الاجتماعي . كما أن مركزية الزواج تدور حول المرأة ، وهي الموضوع الأكثر حضوراً في سياسة القمع الجاهلية ، باعتبار أن المرأة هي نقطة الضعف ، والكائن المكسور مهيض الجناح ، والذي يَسهل قهره واستعباده .

والنَّوْعُ الأول من النِّكاح ، هو المعروف لدى جميع الناس . فهم يَسْعَوْنَ إلى تكوين أُسر ، وإشباع الرغبة الجنسية ، وأن يُخلِّدوا ذِكْرَهم عبر التكاثر وإنجاب الأبناء والأحفاد . وهذه حاجة نفْسية إنسانية في كل العصور ، منتشرة بلا نكير أو اعتراض .

والنوعُ الثاني هو نِكاح الاسْتِبْضاع . فَيَطلب الرَّجلُ من زوجته أن تذهب إلى رَجل ما لكي يُجامعها طمعاً في قدوم ولد فاضل نفيس يتمتع بصفات النَّجابة . وهذا التصرف يبدو غريباً ، وذلك لأن المجتمع الجاهلي يتحلى بقيم الفروسية والشرف والتفاخر بالآباء وسِيادة القبيلة... إلخ . ولكنْ ينبغي رؤية الجانب الآخر من الحياة العربية في الجاهلية . حيث ارتكاب الكوارث على كل الأصعدة، وانتشار مفهوم الدِّياثة (عدم الغَيْرة) في بعض الأوساط الشَّعبية ، لدرجة أن يطلب الرَّجلُ من زوجته الذهاب إلى رَجل آخر لكي يمارس معها الجنس . وكلُّ هذه الأمور عاديةٌ جداً في ظِل غياب الهداية الرَّبانية ، وانقطاعِ الواقع عن تعاليم السماء .

وقال العيني في عمدة القاري (٢٠/ ١٢٢) : ((فاسْتَبْضِعي ، أي اطلبي منه الْمُبَاضَعة أي الْمُجَامَعة ، وهي مُشتقة من البُضْع وهو الفَرْج ... وكانوا يطلبون ذلك اكتساباً من ماء الفحل ، وكانوا يطلبونه من أشرافهم ورؤسائهم وأكابرهم)) اهـ .

والنوعُ الثالث، يجتمع ما دون العشرة رِجال ، فَيَدخلون على المرأة فيُجامعونها، وبعد أن تَحبل وتلد ، تطلب هؤلاء الرِّجال، وتنسب الولدَ إلى الرَّجل الذي تحبُّه، فلا يَقدر الرَّجل على التهرب ، والولدُ يُلحَق به . وهذا العِشق الغريزي الفوضوي يَعكس انتكاسةَ أهل الجاهلية على مستوى العاطفة وترجمتها إلى فِعل جنسي .

والنوعُ الرابع ، حيث يجتمع الرِّجالُ فيدخلون على الزواني أصحابِ الرايات التي تُعلَّق على الأبواب كإشارة إلى ممارسة الزنا. وهذا النوعُ هو تقنين للزنا وإعلان رسمي للبِغاء دون نكير . إنها تجارة بالرقيق الأبيض في وضح النهار . وفي هذا دلالةٌ على التطرف الجنسي في المجتمع الجاهلي ، ونظرةِ الاحتقار الموجَّهة للمرأة .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١٨٥) : ((القافة جمع قائف ... وهو الذي يَعرف شَبَهَ الولد بالوالد بالآثار الخفية...قَوْله فالتاطته أي استلحقته به، وأصل اللوط بفتح اللام ، اللصوق)) اهـ.

إن الجاهلية قد لَعبت بالمرأة ، وحَوَّلتها إلى كَومة غرائز ملقاة في أيدي الرِّجال. حتى إن النكاح في الجاهلية كان عدة أنواع ، وهذا التنوع إنما هو لاستغلال المرأة واللعب بعواطفها ، واستغلال كيانها البشري أبشع استغلال . وفي نِكاح الاسْتِبْضاع وَصَلَ الزَّوْجُ إلى الدَّرْكِ الأسفل من الإنسانية، فهو يأمر زوجته أن تذهب إلى شخص ما ليستمتع بها ويضاجعها ، متناسياً كل عادات النخوة والشهامة والغَيْرة على العِرْض ، حتى قبل مجيء الرسالة المحمَّدية الإسلامية. وإنما يفعل ذلك طمعاً في نجابة الولد . ودخول الرهط من الرجال على المرأة ، كلهم يصيبونها ، فهذا قمة

القذارة والانحطاط المادي والمعنوي . وما تفعله الزواني من نَصْب الرايات لاصطياد الرجال يُعتبَر الغاية في استغلال المرأة والمتاجرة بالطاقة الجنسية [47] ، تلك النعمة العظيمة التي منحنا إيَّاها اللهُ تعالى لبقاء النوع الإنساني وإعمارِ الأرض .

وقد ألغت الشريعةُ الإسلامية نِكاحَ الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم . وأعطى الإسلامُ للمرأة حق تزويج نفْسها لمن تشاء دون وَلِيٍّ . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٢]. وقال اللهُ تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٠] .

ففي هاتين الآيتين إسناد الزواج إلى المرأة ، والأصل في الإسناد أن يكون إلى الفاعل الحقيقي[48].

وهكذا نرى أن الإسلام تصدى للهلوسات الجاهلية والتخريف والمهزلة الوثنية في العلاقات الاجتماعية . ومن أهم العلاقات الاجتماعية الزواج[49]، لذلك حرص الإسلامُ على إلغاء كل ما يمس المرأة بسوء ، أو يخدش كرامتها وإنسانيتها ، فألغى نِكاحَ الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم تأسيساً لمرحلة جديدة من التعامل مع الإنسان من منطلق احترام كَيْنونته ، وانتشالاً للأفراد من مستنقع الجاهلية الآسِن ، ومنظومةِ العادات البالية والتقاليد السَّيئة والانحرافات الوثنية .

---

(٤٧) الأصل في الطاقة الجنسية أنها نِعمة عظيمة ، أودعها اللهُ تعالى في جسد الإنسان لاستبقاء النوع والتكاثر وإعمار الأرض . وهناك مَن يُوجِّهها في الطريق الخاطئ ، فهؤلاء هم الذين أساؤوا وتنكبوا الصراط المستقيم ، وليس الذَّنْب ذَنْب الطاقة الجنسية.

(٤٨) كما أن المرأة تستقل بعَقْد البيع وغيره من العقود ، فمن حقها أن تستقل بعقد زواجها ، إذ لا فرق بين عقد وعقد . وقال جمهور الأحناف : ((وأحاديث اشتراط الولاية في الزواج تُحمَل على ناقصة الأهلية ، كأن تكون صغيرةً ، أو مجنونة .. وتخصيص العام ، وقصره على بعض أفراده بالقياس جائز عند كثير من أهل الأصول)) [فقه السُّنة للسيد سابق (٢/ ٢٠٠)] .

(٤٩) اعتبر الإسلامُ أن الزواج رِبَاط مقدَّس يُشكِّل أهم العلاقات الاجتماعية على الإطلاق ، واعتبره آية باهرة من آيات الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم من أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرُّوم : ٢١] . أضف إلى هذا أن علماء الاجتماع يعتبرون الزواج العنصر الأكثر فاعلية في الحراك الاجتماعي .

لقد أعلنَ الإسلامُ حرباً مفتوحةً على التقاليد الجاهلية التي تَضطهد الأنثى ، وتَنظر إليها كلُقمة سائغة ، وفريسة سهلة ، ووضعَ الشرائعَ لحماية وجودها وحقوقها . وهذا واضحٌ في نصوص القرآن والسُّنة. ومِن العناصر الضعيفة في المجتمع اليتيمةُ ، فهي أنثى مكسورة ، تَجد نَفْسَها وحيدةً في غابة الرجال الذين يتربصون بها ، ويَنتظرون الفرصةَ المناسبة للانقضاض عليها ، أو الاستحواذ على مالها . والإسلامُ لم يَتْركها تُواجِه مصيرها بنفْسها ، بل أحاطها بسياج من الحماية .

قال اللهُ تعالى : ﴿ ويَستفتونك في النِّساء قُل اللهُ يُفتيكم فيهنَّ وما يُتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهنَّ ما كُتب لهنَّ وترغبون أن تنكحوهنَّ ﴾[النساء : ١٢٧] .

يُوضِّح اللهُ تعالى للمؤمنين قضيةَ اليتيماتِ اللواتي يُرغَب في نكاحهنَّ لجمالهنَّ أو مالهنَّ ، ولا يتم دَفْعُ مهورهنَّ ، وذلك بسبب ضعفهنَّ ، واستغلالاً لوضعهنَّ الاجتماعي . وقد نهى اللهُ تعالى عن هذا الفعل الشنيع الذي يدل على الابتزاز ، واستغلالِ نقاط ضعف الآخرين .

وعن السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ : في قَوْله تعالى : ﴿ وما يُتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهنَّ ما كُتب لهنَّ وترغبون أن تنكحوهنَّ ﴾. قالت : ((هذا في اليتيمة التي تكون عند الرَّجل ، لعلها أن تكون شريكته في ماله وهو أَوْلى بها ، فيرغب عنها أن يَنكحها فَيَعْضِلها لمالها ، ولا يُنكحها غَيْرَه كراهية أن يُشركه أحد في مالها))[50].

إن هذا الرَّجل يُركِّز بشكلٍ كامل على مال اليتيمة ، فهو ليس مَعْنياً بوجودها الإنساني ، أو مشاعرها ، أو أحلامها ، وإنما هو معنيٌّ بالسيطرة على مالها بكل الوسائل . وإذا لم يَرغب أن يتزوجها، وذلك لقُبحها، أو عدم حُبِّه لها، فإنه يَمنعها من الزواج بشخص آخر لئلا يُسيطر زَوْجُها على مالها ، فيصبح له شريكاً ، مما قد يُؤدي إلى خسارة مالية جسيمة .

وفي الدر المنثور (٢/ ٧٠٩) : ((وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : كان الرَّجل في الجاهلية تكون عِنده اليتيمة ، فَيُلقي عليها ثَوْبَه ، فإذا فَعل ذلك لم يَقْدر أحدٌ أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهَوِيَها ، تزوَّجها وأكلَ مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت وَرِثها، فحرَّم اللهُ ذلك ونهى عنه، وكانوا لا يُورِّثون الصغار ولا البنات ، وذلك قَوْله : ﴿ لا تؤتونهنَّ ما كُتب لهنَّ ﴾ ، فنهى الله عنه ، وبَيَّن لكل ذي سهم سَهْمه ، صغيراً كان ، أو كبيراً)) اهـ .

---

(٥٠) رواه البخاري (٥/ ١٩٧١) واللفظ له ، ومسلم (٤/ ٢٣١٣) .

إن إلقاء الثوب على اليتيمة مؤشرٌ واضح على اعتبار المرأة بضاعةً ومِلْكاً شخصياً ، دون أي اعتبار لشخصيتها الاعتبارية ، أو كيانها الأنثوي ، أو مشاعرها الإنسانية . وهذا الفِعل (إلقاء الثوب) بمثابة حَجْز المرأة وسَجنها ، لمنع الآخرين من الاقتراب منها ، أو التفكيرِ بالزواج منها .

وإذا كانت اليتيمة جميلةً ، وأحبَّها الرَّجل ، فعندئذ يتزوجها لتحقيق مصلحته الشخصية ، فيَستمتع بها ، ويأكل مالَها . أمَّا إذا كانت قبيحةً ، فيمنعها من الزواج لئلا يستحوذ زوجُها على مالها ، وهذا المنع يستمر حتى موتها، فإذا ماتت وَرِثَها . وهكذا تكون الأنثى قد عاشت في عذاب لانهائي، وقَضت حياتها سجينةً ، ومحكومةً بالأشغال الشاقة المؤبَّدة .

كما أنهم لم يكونوا يُورِّثون الصِّغارَ ولا البنات ، باعتبار أن هاتَيْن الفئتين لا وَزن لهما في المجتمع، فهما الحلقة الأضعف التي يَسهل كَسْرها، واستغلالها، ولا تَقْدر على الدفاع عن وجودها. وقد أزالَ اللهُ تعالى هذا الظلمَ ، ووضَّح حقوقَ كُلِّ طَرَف ، سواءٌ كان صغيراً أَم كبيراً .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : في قَوْله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وما يُتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء ﴾ ، قال : ((كانوا لا يُورِّثون صَبِيًّا حتى يَحْتلم))[51].

وهذا يُشير إلى دكتاتورية أنساق الجاهلية ، فهم يَعتبرون الصَّبي مهيضَ الجناح ، ولا قيمة له ، ولا دَوْر له في المجتمع ، لذلك حَرَموه من الميراث مستغلِّين ضَعْفَه . وهذا يدل على أن مجتمع الجاهلية هو مجتمع الغاب ، حيث يأكلُ القويُّ الضعيفَ ، ويتكبرُ الشريفُ على الوضيع ، ويحتقرُ الرَّجلُ المرأةَ . وللأسف ، ففي كل مجتمع ظالم ، سَيَشْعر كُلُّ فردٍ أنه مظلوم ، حتى الظالم نفْسه .

وفي زاد المسير (٢/ ٢١٥) : ((وفي ﴿ يتامى النساء ﴾ قَوْلان: أحدهما أنهن النساء اليتامى فأضيفت الصِّفة إلى الاسم كما تقول يوم الْجُمُعة . والثاني : أنهن أمهات اليتامى فأضيف إليهن أولادهن اليتامى)) اهـ . والمرأةُ في الجاهلية كانت تُوَرَّث كما يُوَرَّث المتاع أو الدابة . قال اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً ﴾[النِّساء: ١٩].

فلا يَجوز وراثة المرأة بعد موت زوجها كالمال ، ونقلها إلى رَجل آخر كما يُنقَل المتاع . فهذه إهانة عُظمى للمرأة ، ونقطة سوداء في تاريخ المجتمع ، ووصمة عار في جبين الإنسانية . والمقصودُ رفعُ الظلم عن المرأة ، وإعادة الاعتبار لها ، وحفظ كرامتها من الخدش ، وصيانة عِرْضها من الدَّنس .

---

(٥١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٧) برقم (٣٢٠٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

إذن ، فالمرأة كانت سلعةً في معرض البيع والشراء . وهي تُوَرَّث مثل أي جزء من البيت. وهذا يشير إلى عدم الاعتراف بكيانها الإنساني ، وصفتها الأنثوية ، ومكانتها المجتمعية . وهذه الفلسفة هي تلخيص لمبدأ التعامل مع المرأة في الجاهلية ، الذي يَعتمد على نظرة ذكورية قمعية تَحشر المرأةَ في الزاوية ، لكي تظل خاضعةً لشهوة الرَّجل ورأيه .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٧٠) : أن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((كانوا إذا مات الرَّجلُ كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوَّجها، وإن شاؤوا زَوَّجوها ، وإن شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحق بها من أهلها)) .

وهذا يشير إلى أن تجذُّر النظرة الدونية للمرأة في المجتمع الجاهلي. فهي مجرد أداة تتقاذفها أيدي الرجال وفق أمزجتهم ، ولا تملك غير الانصياع للسُّلطة الذكورية العليا . إنها تتحرك بلا تاريخ ولا مستقبل ، لأنها مجرد ردة فعل لأفعال الرِّجال الحاكمين عليها. إنها عبدةٌ ذليلة تقول كما يُقال ، ولا تجرؤ على رفع رأسها في وجه أسيادها .

ولم يكتفِ أهلُ الجاهلية باعتبار المرأة ميراثاً تتناقله الأيدي ، بل كانوا يَحرمون المرأةَ من الميراث . فلا حق لها في مال أبيها أو أمها بعد وفاتهما . فهي كائنٌ وضيع على الهامش ، مُنْزوية في البيت مثل الأثاث ، والرِّجالُ هم المتحدثون باسمها ، وهم الذين يُقرِّرون مصيرَها ، يُطعمونها ويُسقونها متى شاؤوا ، ويَحرمونها من الميراث وفق مزاجهم ، ... إلخ .

قال الله تعالى : ﴿ للرِّجالِ نصيبٌ ممَّا ترك الوالدان والأقربون وللنساءِ نصيبٌ ممَّا ترك الوالدان والأقربون ممَّا قَلَّ منه أو كَثُر نصيباً مفروضاً ﴾ [النِّساء : ٧] .

للأولاد والأقارب نصيبٌ من الميراث (تَرِكة الميْت) ، وأيضاً للبنات نصيب من هذه التَّرِكة ، فالأولاد والبناتُ يَشتركون في الميراث مع اختلاف القَدْر (الحِصَّة) ، سواءٌ كان الميراث قليلاً أَم كثيراً . وهذا الأمرُ قد فَرضه اللهُ تعالى حِفظاً لحقوق الناس عامةً ، والنساء خاصةً ، فأهلُ الجاهلية لم يَكونوا يُورِّثون النساءَ . وهذا الحُكم الإلهي العادل لا مجال للتلاعب فيه أو تغييره ، وهو صالِحٌ لكل زمان ومكان ، وصالِحٌ ــ كذلك ــ لكل الطبقات الاجتماعية . والشريعةُ الإسلامية حَفِظَتْ حقوقَ الناس ومصالحهم دون تمييز ، أو مُحابَاة ، أو مُجامَلة .

قال الطبري في تفسيره (٣/ ٦٠٤) : ((للذكور من أولاد الرَّجل الميْت حِصة من ميراثه ، وللإناث منهم حِصة منه ، من قليل ما خَلَّف بعده وكثيره ، حصة مفروضة واجبة معلومة مؤقَّتة ، وذُكِر أن هذه الآية نَزلت من أجل أن أهل الجاهلية كانوا يُوَرِّثون الذكورَ دون الإناث)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٨): ((سبب نزولها أن أوس بن ثابت الأنصاري توفِّي وترك ثلاث بنات وامرأة ، فقام رَجُلان من بني عَمِّه يقال لهما قتادة وعرفطة ، فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً ، فجاءت امرأته إلى النبي ﷺ فَذَكَرت له ذلك ، وشكت الفقرَ ، فَنَزلت هذه الآية . قاله ابن عباس)) اهـ .

إن هذا الحُكم الإلهي العادل ﴿ للنساء نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ ، قد أبطل عادةَ أهل الجاهلية الذين كانوا يُورِّثون الرجالَ دون النساءِ والأطفالِ . وقد أثبتت الشريعةُ أن للنساء حظاً من تركة الميْت، ونصيباً من الميراث لا يمكن إنكاره، أو الاستيلاء عليه تحت أية ذريعة .

وحِرمانُ الأنثى من الميراث كان ثقافةً جاهلية سائدة لها غطاء اجتماعي لا يمكن اختراقه . فالأمرُ مفروغ منه ، وهو مُسلَّمة غير قابلة للنقاش ، فلا الرجال يُناقشون في هذا الأمر ، ولا النساء يمتلكن حقَّ الاعتراض .

وكان أهلُ الجاهلية يقولون إنما يَرِثُ مَن يُحارِب ويذبُّ عن الْحَوْزة . أي إنهم كانوا يَنظرون إلى المرأة كعنصر هامشي لا دور له في الحياة سوى خدمة الرجال ، وبالتالي فهي ــ من وجهة نظرهم ــ لا تستحق الميراث لأنها لا تقوم بأعباء الحرب ، ولا تدافع عن القبيلة . وهذه السياسة الجاهلية تشير إلى بدائية العقل العربي في التعامل مع المرأة ، وحصرِ الإنجازات البشرية بالحرب والقتال ، دون أدنى اعتبار للقيمِ الإنسانية ، والمسؤوليةِ الاجتماعية ، والدَّوْرِ الحضاري .

وحينما جاء الإسلامُ أعطى كلَّ ذي حق حقه ، وأنصفَ الفئاتِ الضعيفة المنبوذة في المجتمع كالنساء . فصارت المرأةُ تمتلك الجرأةَ للمطالبة بحقها ، والسعي وراء تحصيله من مُغتصبيه . وهذا ما كان ليحصل لَوْلا التشريع الإسلامي الذي رفع مكانةَ المرأة ، وأعطاها حقوقها المعنوية والمادية . لذلك من العبث اتهامُ الإسلام باضطهاد المرأة ، أو النَّظر إليها نظرة دُونية . فهذا الاتهامُ باطل ومُضاد للحقائق الدِّينية والتاريخية . والإسلامُ لا يَتحمَّلُ مسؤوليةَ أفعال الناس . لأن الإسلامَ حُجَّةٌ على الناس ، والناسُ لَيسوا حُجَّةً على الإسلام .

وتَظهر المنْزلةُ الدونية للمرأة الجاهلية في تمركزها ضمن ثنائية (الجنس / عدم تقدير المشاعر الأنثوية) . فهي وسيلةُ للتكاثر ، ووعاء لاحتضان شهوة الرَّجل ، لا حقوق لها ، ولم تُفكِّر هي أصلاً في اكتشاف حقوقها والمطالبة بها. فهي قد عَوَّدت الرَّجلَ على أكلها،لذلك انتكست مرتبتها، وصارت عبدةً تتلقى الأوامرَ العليا من سَيِّدها، ولا تملك إلا التنفيذ فوراً، وبلا تفكير. وكما قِيل : مَن عَوَّدْتَهُ على أكْلِكَ ، كُلما نظرَ إليكَ جاعَ .

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((أسلمَ غَيْلان بن سَلَمة الثقفي، وتحته عشر نِسْوة في الجاهلية ، وأَسْلَمْنَ معه ، فأمرَه النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً))[52].

ومن الملاحَظ تجذُّر فوضى الزواج والجنس في المجتمع الجاهلي.فالرَّجلُ حين يتزوج عشر نساء، فهذا يدل على خلل في النظرة إلى الزواج ، وعدم تقدير لأبعاد منظومة الحقوق والواجبات ، مما يؤدي إلى الوقوع في الظلم ، وعدمِ العدالة ، وغياب الوقت المخصَّص لتربية الأبناء ، وعدم القدرة على تكوين أُسر سَوِيَّة وصالحة في المجتمع . ولكن النظرة الجاهلية كانت تعتمد على الكَم وليس النوع . فالمهمُّ أن تكون القبيلةُ كثيرة العدد بغض النظر عن مستوى أفرادها الفكري والبدني . وهذه هي فلسفةُ العقل العربي البدائي ، حيث تجميع أكبر عدد ممكن دون الاعتناء بالكَيْفية . وكلُّ قبيلة كانت تَفخر بكثرة عددها ، وتعتز بضخامة حَجْمها . وفي المقابل ، كان نقصُ العددِ منقصةً ، ويُعَدُّ عَيْباً يستوجب الخزي بين العرب .

وكما قال الشاعر :

تُعَيِّرُنَا أنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ

إن غَيْلان بن سَلَمة كان من رؤساء قومه ، لذلك كان يريد تكوين أُسر عديدة ، وإنجاب أبناء كُثر ، لكي تتكرس زعامته وقوته ، ويزداد هَيْبةً بين العرب ، ويتفاخر بأبنائه بين الأُسر والقبائل .

والإسلامُ لم يأتِ بتعدد الزوجات ــ كما يتوهم البعض ــ ، بل جاء بتقييد التعدد ، من أجل السيطرةِ على الأُسرة ، وتربيةِ الأبناء بالشكل الصحيح ، وتحقيقِ العدالة بين الزوجات، وعلاجِ مشكلات اجتماعية مُزْمِنة لا يمكن حلُّها إلا بالتعدد ، خصوصاً في المجتمعات التي تعاني من انتشار الفقر والجهل والمرض والبطالة والعنوسة .

---

(٥٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٨٣) برقم (٥٥٥٨) ، وابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٦٣) برقم (٤١٥٦) ، والترمذي في سُننه (٣/ ٤٣٥) برقم (١١٢٨) ، وقال : ((والعمل على حديث غَيْلان ابن سَلَمة عند أصحابنا منهم الشافعي ، وأحمد ، وإسحق)) اهـ . وذكرَ الشوكاني في الدراري المضية (١/ ٢٦٣) : أن هذا الحديث أخرجه أحمد وابن ماجة والترمذي والشافعي والحاكم وصَحَّحه عن ابن عمر)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٣٣٥) : ((وغَيْلان هو ابن سَلَمة بن معتب ... وكان من رؤساء ثقيف ، وعاش إلى أواخر خلافة عمر ــ رضي الله عنه ــ)) .

وعن الضحاك بن فيروز الديلمي عن أبيه قال : قلتُ: يا رسول الله !، أسلمتُ وتحتي أُختان ، قال : ((اخترْ أيتهما شِئْتَ))[53].

وهنا تتجلى فوضى الزواج وعدم مراعاة مشاعر النساء . وبالطبع ، فلا مكان للحديث عن المشاعر والأحاسيس في المجتمع الجاهلي .

والجمعُ بين الأُختين سيؤدي _ حتماً _ إلى الكراهية بينهما ، وتمزيق الأُسرة ، وبث الحقد في الصدور ، مما ينعكس سلباً على الحياة العائلية ونفسية الأبناء ، لذلك كان الإسلامُ واضحاً في تحريم الجمع بين الأُختين ، وذلك لضمان تماسك العائلة ، ومنع الكراهية من التسلل إلى الصدور . فالبيتُ المبني على الكراهية سينهار _ لا محالة _ ، وإن تظاهرَ بالتماسك. ولا يمكن أن تختفيَ الغَيرةُ بين الضرتين ، وهو سيؤدي إلى القطيعة بين الأختين ، وتشتيت شمل العائلة .

قال الله تعالى : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ﴾ [النساء :٢٣] .

فالجمعُ بين الأختين حرامٌ شرعاً ، أمَّا ما مضى في الجاهلية فهو معفوٌّ عنه .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١٦٠) : ((والجمعُ بين الأختين في التزويج حرام بالإجماع ، سواء كانتا شقيقتين ، أَم مِن أَب ، أَم مِن أُم ، وسواء النَّسَب والرَّضاع . واختلف فيما إذا كانتا بِمُلْك اليمين ، فأجازه بعض السلف ، وهو رواية عن أحمد، والجمهور وفقهاء الأمصار على المنع ، ونظيره الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، وحكاه الثوري عن الشيعة)) اهـ .

وكان أهلُ الجاهلية يَغرقون في فوضى جنسية عارمة ، وانحراف أخلاقي شرس. فقد كانوا يتزوجون نساءَ آبائهم .

قال الله تعالى: ﴿ ولا تَنكحوا ما نَكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلف ﴾ [النساء : ٢٢].

أي : لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء . وما مضى قد عفا اللهُ عنه . والآيةُ تُحرِّم زوجاتِ الآباء على الأبناء تشريفاً لهنَّ ، وصَوْناً لمكانتهن ، وحفظاً لصورة المرأة أن توطأ مِن قِبَل ابن زوجها.

و((أخرج ابن أبي حاتم من طريق أشعث بن سوار عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال : تُوفِّي أبو قيس بن الأسلت ، وكان من صالحي الأنصار ، فخطب ابنُه قيس امرأةَ أبيه ،

---

(٥٣)رواه الترمذي في سُننه(٣/ ٤٣٦)برقم(١١٣٠)وحَسَّنه.والبيهقي في سُننه الكبرى (٧/ ١٨٤) برقم (١٣٨٣٦)، وقال الزيلعي في نصب الراية (٣/ ١٧٢) : ((ورواه البيهقي وصَحَّح إسناده)) .

فقالت : إني أَعُدُّكَ ولداً ، ولكن آتي رسولَ الله أستأمره ، فأتته فأخبرته فأُنزلت هذه الآية))[54].

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره (١/ ٦١٧) الإجماع على حُرمة المرأة على ابن زوجها بمجرد العَقْد عليها .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٦١٧) : ((عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يُحرِّمون ما حَرَّمَ اللهُ إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين)) اهـ .

وهذا الفِعلُ الجاهلي لا يُقيم وزناً لأحاسيس المرأة ، ولا يهتم بصورتها الاجتماعية ، وحالتها النَّفسية والعاطفية . فالزواجُ مِن امرأة الأب التي هي بمثابة الأُم ، يدل على نظرة شهوانية مصلحية مغلَّفة بغطاء اجتماعي ، وتخلو من قيمة احترام المرأة . فعِندما يُجامِعُ الابنُ المرأةَ التي كان يُجامِعها والدُه ، لا بد أن تبرز مشاعر سيئة للغاية ، منها تلطيخ صورة زوجة الأب ، وإهانة لكرامتها ، وعدم احترام للأب الراحل ، وتفاصيلِ حياته . كما أن الجمعَ بين الأُختين يَقود إلى العداوة والبغضاء، وهذا يُمزِّق رابطةَ الدم ، ويَقضي على العلاقات الأُسرية ، ويُفتِّت القيمَ العائلية .

وقال الشهرستاني في المِلَل والنِّحل (٢/ ٢٤٤) : ((وكان أقبح ما يصنعون أن يَجمع الرَّجلُ بين الأختين ، أو يختلف على امرأة أبيه ، وكانوا يُسَمُّون مَن فعل ذلك الضَّيْزن . قال أوس ابن حجر التميمي يُعيِّر قوماً من بني قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم ثلاثة ، واحداً بعد الآخر :

والفارسيةُ فِيكم غَيْر مُنكَرة ... وكُلُّكم لأبيه ضَيْزن سَلِفُ ... وكان أوَّل مَن جمع بين الأختين من قريش أبو أحيحة سعد بن العاص، جمع بين هند وصفية ابنتي المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. قال : وكان الرَّجلُ إذا مات عن المرأة أو طلَّقها قام أكبر بَنِيه ، فإن كان له فيها حاجة طَرح ثَوْبَه عليها ، وإن لم يكن له فيها حاجة ، تزوَّجها بعض إخوته بمهر جديد)) اهـ .

لقد شَبَّهَهُم بالمَجوسِ يتزوَّج الرَّجلُ مِنهم امرأةَ أبيه ، وامرأةَ ابنه . والضَّيْزَنُ : النَّخاسُ .

وقد كان الرَّجلُ من المجوس يتزوج من أُختِه، أو ابنته، أو أُمِّه، بلا نكير . وهذه ثقافة اجتماعية منتشرة ، وواضحة ، ومشهورة ، ولَيست بحاجة إلى شواهد تاريخية . فجميعُ الباحثين يَعرفون هذه الحقيقة ، ولا أحد يُنكِرها ، حتى في الأوساط الفارسية الإيرانية .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٩٩) : ((وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرَّجل على امرأة أبيه. وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع

---

(٥٤) العُجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٢/ ٨٥١) ، ولُباب النقول للسيوطي (١/ ٦٤) .

التراضي ألا ترى أن عمرو بن أمية خَلَفَ على امرأة أبيه بعد موته فَوَلَدَت له مسافراً وأبا معيط ، وكان لها من أمية أبو العيص وغيره ، فكان بنو أمية أخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهم . ومن ذلك صفوان ابن أمية بن خلف تزوج بعد أبيه امرأته فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد ، وكان أُمية قُتل عنها . ومن ذلك منظور بن زبان خَلَفَ على مليكة بنت خارجة ، وكانت تحت أبيه زبان بن سيار. ومن ذلك حصن بن أبي قيس تزوج امرأة أبيه كبيشة بنت معن ، والأسود بن خلف تزوج امرأةَ أبيه)) اهـ .

ومن القضايا الكارثية في المجتمع الجاهلي ، قضيةُ " تبديل الزوجات " التي تَنْبع من نظرة دونية للمرأة،وتَبرز كانعكاس لعملية التلاعب بالمرأة واحتقارها، وحصرها في دائرة الشهوة والمتعة.

قال اللهُ تعالى مُخاطِباً النبي ﷺ : ﴿ ولا أن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِن أزواج ﴾ [الأحزاب : ٥٢].

لقد حَرَّمَ اللهُ تعالى النساءَ على النبي ﷺ إلا أُمهات المؤمنين ، ونهاه عن تطليقهنَّ ، وعن الاستبدال بهنَّ ، وهذا مكافأة لهنَّ ، لأنهنَّ اخْتَرْنَ اللهَ ورسولَه ﷺ .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤١٠) : ((قَوْله تعالى : ﴿ ولا أن تَبَدَّلَ بِهِنَّ ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن تُطلِّق زوجاتك ، وتَستبدل بهنَّ سِواهنَّ ، قاله الضحاك . والثاني : أن تُبدِّل بالمسلمات المشركات ... . والثالث : أن تُعطيَ الرَّجلَ زوجتك ، وتأخذ زوجته ، وهذه كانت عادة للجاهلية ، قاله أبو هريرة وابن زيد)) اهـ .

ففي الجاهلية ، كان هناك عملية تبديل للزوجات على نطاق محدود ، يقول الرَّجلُ للرجل : بَادِلْني بامرأتك ، وأبادلك بامرأتي ، فيأخذ هذا زوجة هذا ، والعكس .

وفي تفسير الطبري (١٠/ ٣١٦) أن ابن زيد قال : ((كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم ، يُعطي هذا امرأته هذا ، ويأخذ امرأته)) اهـ .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : كان البدلُ في الجاهلية أن يقول الرَّجلُ للرَّجل : تَنْزل عن امرأتك ، وأَنزل لك عن امرأتي وأزيدك . قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا أن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِن أزواج وَلَوْ أعجبكَ حُسْنهنَّ ﴾ . قال : فدخل عُيَيْنة بن حصن الفزاري على رسول الله ﷺ وعِنده عائشة، فَدَخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ : ((يا عيينة ، فأين الاستئذان ؟))، فقال : يا رسول الله،ما استأذنتُ على رَجل مِن مُضَر منذ أدركتُ.قال: مَن هذه الْحُمَيْراء التي إلى جنبك، قال رسول الله ﷺ : ((هذه عائشة أُم المؤمنين)) ، قال : أفلا أَنزل لك عن أحسن الخلق ، فقال : ((يا عُيينة ، إن الله حَرَّم ذلك)) ، قال : فلمَّا أن خرج، قالت عائشة: يا رسول الله، مَن هذا ؟،

قال: ((أحمق مُطاع ، وإنهُ على ما تَرَيْنَ لَسَيِّد قَوْمه))[55].

والطلاقُ [56] في الجاهلية كان أُلعوبةً بيد الرَّجل ، وكان يَقع على المرأة ظُلمٌ كبير ، حيث يتم استخدام الطلاق كورقة ضَغط على المرأة ، من أجل التلاعب بها ، واستغلالها ، واضطهادها .

والجديرُ بالذِّكر أن المرأة كانت تُؤكل حقوقها ، وتُنهَب أموالها ، وتُعضَل (تُمنَع) بعد الطلاق أو وفاة الزَّوْج من أن تَنكح زوجاً ترضاه . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٢].

فإذا انقضت عِدَّةُ المرأة التي تَمَّ تطليقها ، فلا يحقُّ للوَلِيِّ أن يمنعها من العودة إلى زَوْجها السابق بنكاح جديد .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٤٥) : ((عن الحسن : أن أخت معقل بن يسار طَلَّقها زَوْجُها فتركها حتى انقضت عِدَّتها فخطبها ، فأبى معقل . فَنَزَلت : ﴿ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾))[57].

إن العقلية الذكورية متغلغلة في الأنساق الاجتماعية ، لأن الجاهلية هي نسق ذكوري متطرف شديد الانغلاق والتأثير في الفرد والجماعة . فقمعُ المرأة ومنعها من حقوقها كان أمراً عادياً جداً،

---

(٥٥) رواه الدارقطني في سُننه (٣/ ٢١٨) . وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١٨٤) : ((إسناده ضعيف جداً)) اهـ . قلتُ: في سنده إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة. قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٠) : ((وهو متروك)) اهـ . وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٦٦٢) : ((قال البزار : إسحاق بن عبد الله لَيِّن الحديث جداً)) اهـ . وقال الذهبي في الكاشف (١/ ٢٣٧) : ((تركوه)) اهـ . قلتُ: الْحُمَيْراء تصغير حمراء ، والمراد : البيضاء .

(٥٦) قال الحافظ في الفتح (٩/ ٣٤٦) : ((الطلاق في اللغة : حَل الوَثاق . مشتق من الإطلاق وهو الإرسال والترك . وفلان طَلْق اليد بالخير أي كثير البذل ، وفي الشرع : حَل عُقدة التزويج فقط وهو موافق لبعض أفراد مدلوله اللغوي . قال إمام الحرمين : هو لفظ جاهلي وَرد الشرعُ بتقريره)) .

(٥٧) قال القرطبي في تفسيره (٣/ ١٥٠) : ((﴿ تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ معناه تحبسوهن . وحكى الخليل : دجاجة مُعْضِل: قد احتبس بيضها. وقيل: العَضْل التضييق والمنع، وهو راجع إلى معنى الحبس)) اهـ . قلتُ : والْمُعْضِلة هي المشكلة، ومنه قول الشافعي :

إذا الْمُعْضِلاتُ تَصَدَّيْنَ لي كَشفتُ خفاء لها بالنظرِ

بل إنه كان مظهراً من مظاهر الرجولة ، وشدة البأس، وسيادة الرَّجل على المرأة ، وتجذير نفوذ الهرم السُّلطوي القَبَلي في المجتمع ، الذي رَأْسُه الرَّجل الذي يَأمر وينهى دون اعتراض .

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٣٧٠) : ((﴿ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ إمَّا أن يكون للأزواج ، ويكون معنى العَضْل منهم أن يمنعوهن من أن يتزوجن من أَرَدْنَ من الأزواج بعد انقضاء عدتهن لِحَمِيَّة الجاهلية ، كما يقع كثيراً من الخلفاء والسلاطين غَيرة على مَن كُنَّ تحتهم من النساء أن يَصِرْنَ تحت غَيْرهم ...)) اهـ .

وهذا الأمرُ منتشر بكثرة في طبقة عِلْية القوم ، فالواحدُ منهم إذا طَلَّق زوجته ، لا يَسْتسيغ أن يرى طليقته (وقد تكون أُم أولاده) زوجةً لِرَجل آخر ، خصوصاً إذا كان من طبقة متدنِّية اجتماعياً . فهذا الأمرُ يَجرح كبرياءه ، ويَحرق ذكرياته ، ويَطعنه في الصميم . والإنسانُ لا يَعرف قيمةَ النِّعمة إلا بعد أن يَفقدها. وبشكل عام ، إن الإنسانَ لا يَرى الشيء الذي في يده ، وإنما يَرى الشيء الذي في أيدي الآخرين . والكثيرون لا يَعرفون قيمةَ زوجاتهم ، إلا بعد تطليقهنَّ ، ورؤيتهنَّ مع أزواجهنَّ الجدد .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ الطلاقُ مَرَّتان ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

أي : التطليق الرَّجعي اثنان . وقد كان طلاق الجاهلية غير محصور بعدد .

وفي زاد المسير (١/ ٢٦٣) : ((ففي قَوْله تعالى : ﴿ الطلاقُ مَرَّتان ﴾ قَوْلان : أحدهما _ أنه بيان لِسُنَّة الطلاق ، وأن يُوقع في كل قَرْء طَلْقة ، قاله ابن عباس ومجاهد. والثاني: أنه بيان للطلاق الذي يَملك معه الرَّجعة ، قاله عروة وقتادة ...)) اهـ .

وفي الدر المنثور (١/ ٦٦٣) : ((وأخرج عبد الرزاق عن الثوري عن بعض الفقهاء قال : " كان الرَّجلُ في الجاهلية يُطلِّق امرأته ما شاء، لا يكون عليها عِدَّة، فتتزوج من مكانها إن شاءت . فجاء رَجلٌ من أشجع إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني طَلَّقتُ امرأتي ، وأنا أخشى أن تتزوج فيكون الولد لِغَيْري، فأنزل اللهُ: ﴿ الطلاقُ مَرَّتان ﴾، فَنَسَختْ هذه كُلَّ طِلاق في القرآن")) اهـ.

هناك فوضى عارمة في الطلاق عند أهل الجاهلية ، فهُم يُطلِّقون بلا عدد ولا حساب . وهذا يُشير إلى اعتبار المرأة تحصيل حاصل ، وسِلعةً خالية من المشاعر ، ومجرَّد شيء مثل باقي الأشياء . فالطلاقُ بلا عدد انعكاسٌ لحالة عدم احترام المرأة . ولا يخفَى أن المرأة إذا تزوَّجت بعد

طلاقها مِن رَجل آخر ، قد يكون الولدُ لغير زَوْجها الأول، وبالتالي تَضيع الأنساب ، ويَختلط الحابل بالنابل . وهذا بحد ذاته أمرٌ شديد الخطورة ، وذو تأثير سلبي في العلاقات الاجتماعية .

قال القرطبي في تفسيره (٣/ ١٢٠): ((ثَبَتَ أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عَدد)). وروى أبو داود في سُننه (١/ ٦٦٦) عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ قال : ((... وذلك أن الرَّجلَ كان إذا طَلَّق امرأته فهو أحق برَجْعتها وإن طَلَّقها ثلاثاً، فَنُسِخَ ذلك ، وقال : ﴿ الطلاقُ مَرَّتان ﴾ الآية)) .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : ((كان الرَّجل يُطلِّق امرأته ما شاء أن يُطلِّقها ، وإن طَلَّقها مائة أو أكثر إذا ارتجعها قبل أن تنقضيَ عِدَّتها ، حتى قال الرَّجلُ لامرأته : والله لا أُطلِّقكِ فتبيني مِنِّي ، ولا آويكِ إلَيَّ ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال: أُطلِّقكِ ، وكلما قاربتْ عِدَّتُكِ أن تنقضيَ ارتجعتكِ ثم أُطلِّقكِ ، وأفعل ذلك)). فَشَكَت المرأةُ ذلك إلى عائشة ، فَذَكَرَتْ ذلك عائشة لرسول الله ﷺ ، فَسَكَتَ فلم يَقُلْ شيئاً ، حتى نزلَ القرآنُ : ﴿ الطلاقُ مَرَّتان ﴾ [58].

إن إلحاق الأذى بالمرأة من أفعال الجاهلية . فالجاهليةُ هي نسقٌ اجتماعي ضاغط على المرأة باعتبارها الطرف الأضعف المسحوق . لذلك من الطبيعي ، أن يتم اضطهادها ، والإضرار بها ، من أجل السيطرة عليها، وإخضاعها، وتكريسها كعبدة خانعة لسَيِّدها الذي يَمْلكها . ويُعْتَبَر التلاعب بالطلاق سلاحاً فعَّالاً بيد الرَّجل لإذلال المرأة ، وسحق مشاعرها ، وتحويلها إلى كيان مُفْرغ من معناه.وهكذا صار التلاعبُ بالطلاق ورقةَ ضغط على المرأة للهيمنة عليها بشكل كامل .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تُمسكوهنَّ ضِراراً لِتَعْتدوا ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

أي: لا تراجعوهن لإلحاق الضرر بهن، وأنتم لا تحتاجون إليهن . والاعتداءُ هو تطويل العِدَّة .

وقد كان الرَّجلُ يُطلِّق المرأةَ ثم يُراجعها ، ثم يُطلِّقها ، ثُم يُراجعها ، من أجل إلحاق الضرر بها ، وتعذيبها ، وليس لأنه بحاجة إليها . وهذا الفِعلُ وَرِثه بعضُ المسلمين عن الجاهلية ، فجاءَ النهي

---

(٥٨) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٧) وصححه ، وقال : ((ولم يتكلم أحد في يعقوب ابن حميد بِحُجَّة)) اهـ ، وقال الذهبي عَقِبَه : ((قد ضَعَّفه غير واحد)) اهـ . قلتُ : يعقوب بن حميد، قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٦٠٧) : ((صدوق ربما وهم)) اهـ ، وقال الذهبي في الكاشف (٢/ ٣٩٣) : ((قال أبو حاتم : ضعيف . وقال غيره : صاحب مناكير . وقال البخاري : لم تر إلا خيراً، هو في الأصل صدوق)) اهـ.وفي الجرح والتعديل(٩/٢٠٦) أن يحيى بن معين قال عنه : ((ليس بشيء)).

الإلهي عن هذا العمل الخبيث الذي يُلحِق الضرر بالمرأة ، ويَجعلها أُلعوبة بيد الرَّجل . قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٧٨) : ((قال ابن عباس ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد : كان الرَّجل يُطلِّق المرأةَ ، فإذا قاربت انقضاء العِدَّة راجعها ضِراراً لئلا تَذهب إلى غيره ، ثم يُطلِّقها فتعتد)) اهـ .

إن الدوران في هذه الحلقة المفرَغة يَرمي إلى تطويل العِدَّة على المرأة من أجل الإضرار بها ، وتحطيم أعصابها ، وكسر معنوياتها ، وتهشيم أحاسيسها . وهذا بالطبع يؤدي إلى انهيارها .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَحِلُّ لَهُنَّ أن يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللهُ في أرحامهنَّ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

فلا يَجوز أن تكتم المرأةُ أمر الولد أو الحيض لكي تستعجل العِدَّةَ ، أو تُبطِل حَقَّ الرَّجعة .

وفي تفسير الطبري (٢ / ٤٦٢) عن قتادة قال : ((وكان أهل الجاهلية ، كان الرَّجل يُطلِّق امرأته وهي حامل ، فتكتم الولدَ ، وتذهب به إلى غَيْره ، وتكتم مخافة الرَّجعة ، فنهى اللهُ عن ذلك)) اهـ . فالمرأةُ في الجاهلية كانت تكتم أمرَ حَمْلها لئلا يُعيدها زوجها حفاظاً على ابنه القادم . وخُطَّتها تقضي بكتمان الولد للخروج من العِدَّة ، والزواج بِرَجل آخر ، والذهاب بالولد إليه . وهذا يدل على منهجية التلاعب بالأنساب في المجتمع الجاهلي .

وفي تفسير الطبري (٢/ ٤٥٢) عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((لا يَحِلُّ لها إن كانت حائضاً أن تَكتم حَيْضها ، ولا يَحِلُّ لها إن كانت حاملاً أن تَكتم حَمْلها))[59].

فعلى المرأة إذا كانت حائضاً أن تَكشف هذا الأمر ولا تُخفيه . وكذلك إن كانت حاملاً ، فينبغي أن تُظهِر حَمْلها . وهذه القضايا لا مجال للتلاعب بها أو إخفائها ، لأنه يترتب عليها مسائل كثيرة متعلِّقة بإثبات النَّسَب . ومن غرائب أهل الجاهلية ، وضِمن فوضى الطلاق ، أن الرَّجل كان يُطلِّق المرأة قبل الزواج ، أي إنهُ يُطلِّق امرأةً لا سُلطة له عليها . وهذا يُشير إلى مدى الاضطراب في العلاقات الاجتماعية . وذَكَرَ سِبطُ ابن الجوزي في إيثار الإنصاف (ص ١٥٩) أن الزُّهري قال : ((كانت المرأة تُعرَض على الرَّجل في الجاهلية (فإذا لم تعجبه) قال: هي طالق ثلاثاً)) اهـ . وعن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((لا طَلاقَ لِمَن لم يَمْلِكْ))[60].

---

(٥٩) حسَّنه الحافظ في الفتح (١/ ٤٢٥) .

(٦٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٢٢) برقم (٢٨١٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

فالرَّجلُ الذي يُطلِّق امرأةً وهو غير متزوج بها ، إنما هو يتصرف فيما لا يَمْلك . فهذه المرأةُ لَيْست في دائرة نفوذه ، ولا تَرتبط به بأية علاقة ، فكيف يقوم بفك علاقة غير موجودة أصلاً ؟!.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّه _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا طلاق قَبْل النِّكاح))[61].

إن النِّكاحَ عُقدةٌ تُعقَد، والطلاقُ هو حَلٌّ لهذه العُقدة . فلا يُعقَل أن يتم حَل عُقدة قبل عَقْدها.

وفي فتح الباري (٩/ ٤٣٣) : ((وقال الشافعي : سمعتُ مَن أرضَى من أهل العِلم بالقرآن يقول : كان أهلُ الجاهلية يُطلِّقون بثلاث : الظِّهار ، والإيلاء ، والطلاق ، فأقرَّ اللهُ الطلاقَ طلاقاً ، وحَكَمَ في الإيلاء والظِّهار بما بَيَّن في القُرآن)) اهـ .

والظِّهارُ مشتق من الظَّهْر . وهو أن يقول الرَّجلُ لزوجته : أنتِ عليَّ كظَهْر أُمِّي .

قال الحافظ في الفتح (٩/ ٤٣٢) : ((وإنما خُصَّ الظَّهْر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالباً، ولذلك سُمِّيَ المركوب ظَهراً، فَشُبِّهت الزوجةُ بذلك لأنها مَركوب الرَّجل))اهـ.

والظِّهارُ كان يُعتَبَر في الجاهلية طَلاقاً . أمَّا في الإسلام فله وضعٌ خاص . فَيَحْرم إتيان الزوجة حتى يُخرِج الرَّجلُ كَفَّارةَ الظِّهار .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ : ((أن جميلة كانت امرأة أوس بن الصامت ، وكان أوس امرءاً به لَمَم ، فإذا اشتد لممه ظَاهرَ من امرأته ، فأنزلَ اللهُ فيه كَفَّارةَ الظِّهار))[62].

واللممُ هنا بمعنى العصبية أو شِدَّة الغضب أو الحِدَّة . وهذا يدل على أهمية ضبط الأعصاب في العلاقة الزوجية لأن أيَّة كلمة غير محسوبة قد يكون لها آثار وخيمة على الزواج ، وقد تؤدي إلى إنهائه . وكَفَّارةُ الظِّهار هي : تحرير رقبة مؤمنة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكيناً ، وهي على الترتيب لا التخيير. ﴿ فتحريرُ رَقبة مِن قَبْل أن يتماسا ذلكم توعظون بِه واللهُ بما تعملون خبير (٣) فَمَن لم يَجد فصيامُ شهرين متتابعين مِن قَبْل أن يتماسا فَمَن لم يستطع فإطعامُ سِتين مِسكيناً ﴾ [سورة المجادِلة] .

أمَّا الإيلاءُ شَرْعاً فهو حَلْفُ الرَّجلِ بالله تعالى ألا يَطَأَ زوجته مدة تزيد عن أربعة أشهر .

---

(٦١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٢٢) برقم (٢٨٢٠) ، وصحَّحه الذهبي .

(٦٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

قال اللهُ تعالى : ﴿ للذين يُؤْلُون مِن نسائهم تَرَبُّصُ أربعة أشهر ﴾ [البقرة : ٢٢٦] .

الذين يَحلفون على عدم جِماع زوجاتهم . على الواحد منهم الانتظار أربعة أشهر من حِين الحلف . فإذا مَضَت هذه المدَّة ، فإمَّا أن يُطلِّق أو يُجامِع زوجته ، فإن رَفض الأمرَيْن معاً ، قام القاضي بالتطليق .

وقد كان الإيلاءُ في الجاهلية طلاقاً .

وفي العُجاب في بيان الأسباب (١/ ٥٧٩) : ((عن قتادة : كان أهلُ الجاهلية يَعُدُّون الإيلاء طلاقاً ، فَحَدَّ لهم أربعة أشهر ، فإن فاء _ رَجَعَ _ فيها كَفَّر يمينه وكانت امرأته ، وإن مضت أربعة أشهر ، ولم يَفِئْ بها فهي تطليقة . وذكر الثعلبي عن سعيد بن المسيِّب : كان الإيلاء مِن ضِرار أهل الجاهلية ، كان أحدهم لا يُريد المرأة ، ولا يُحب أن يتزوَّجها غَيْره فَيَحْلف أن لا يَقْربها أبداً ، فكان يَتركها كذلك ، لا أيِّماً ، ولا ذات بَعْل)) اهـ .

إن فلسفةَ الإيلاء في الجاهلية مبنيةٌ على الإضرار بالمرأة وإذلالها وتحطيمها . حيث تُتْرَك مثل الشيء البالي ، أو المتاع الْمُهْمَل. فَزَوْجها موجود وغير موجود في حياتها . موجودٌ بمعنى أنه زَوْجها بِحُكم الأعراف والشريعة الجاهلية ، وغير موجود بمعنى أنه لا يقوم بِجِماعها وإحصانها ، وهذا حق شَرعي للمرأة، وبدونه يَفقد الزواجُ مُبرِّرَ وجوده، وتُصاب المرأة بأذى نَفْسي وجسدي في آنٍ معاً.

وفي زاد المسير (١/ ٢٥٦) : ((قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية إذا طَلب الرَّجل من امرأته شيئاً فأبت أن تُعْطِيَه حَلَفَ أن لا يَقْربها السَّنة والسَّنَتَيْن والثلاث)) اهـ .

هذا يدل على أن الإيلاء كان يُسْتَخْدَم كعقوبة للمرأة ، وسيفٍ مُصْلَت على رقبتها ، وأداةٍ لابتزازها وتهديدها . وعندما يَحلف الرَّجلُ إلا يُجامِع زوجته لِسَنة أو أكثر ، فهذا يؤدي قَطْعاً إلى مشكلات أُسرية وأخلاقية لا حَصْرَ لها . والمرأةُ إن لم يُشبِعها زوجها في الفِراش ، فقد تَبحث عن الإشباع مع رِجال آخرين ، وهكذا يَكون بابُ الخيانة الزوجية قد فُتح على مِصْرَاعَيْه .

وقد حَدَّدت الشريعةُ الإسلاميةُ الأجلَ بأربعة أشهر لحماية المرأة من الأذى النَّفْسي والجسدي، ولمعرفة موقف الرَّجل ، هل يُريد تطليق زوجته أَم العَوْدة إليها (جِماعها) .

ونلاحظُ _ في هذا السياق _ أن الإسلامَ قد هَدَمَ عادة أهل الجاهلية في موضوع الظِّهار والإيلاء ، ووَضَعَ أحكاماً شَرعية واضحة لا لَبْسَ فيها ، بهدف حماية المرأة ، وصَوْن كرامتها ، والمحافظةِ على عواطفها ، وحفظِ جسدها ، وتوفير الظروف المناسبة لكي تَقوم بدورها المركزي

كأُم وزوجة ضمن حياة إنسانية كريمة بعيدة عن الكبت العاطفي ، والكبتِ الجنسي ، وضمن ظروف اجتماعية راقية لا مكان فيها للعُقد النَّفْسية .

وفي تفسير القرطبي (٣/ ٩٩) : ((وقد رُوِيَ أن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ كان يطوف ليلة بالمدينة فسمع امرأة تنشد : ألا طَالَ هذا الليلُ واسْوَدَّ جانبه ... وأرَّقني أن لا حبيب أُلاعبه ... فوالله لَوْلا الله لا شيء غَيْره ... لِزُعْزِع مِن هذا السرير جوانبه ... مخافة رَبِّي والحياءُ يَكُفُّني ... وإكرام بَعْلي أن تُنال مراكبه . فلمَّا كان مِن الغد استدعى عُمر بتلك المرأة، وقال لها: أين زوجك ؟، فقالت : بَعثتَ به إلى العراق !، فاستدعى نساء فسألهنَّ عن المرأة : كم مقدار ما تصبر عن زوجها ؟ ، فقلنَ : شهرين ، ويقل صبرها في ثلاثة أشهر ، وينفد صبرها في أربعة أشهر . فجعل عُمر مُدَّة غزو الرَّجل أربعة أشهر ، فإذا مضت أربعة أشهر استرد الغازين ووَجَّه بقوم آخرين ، وهذا والله أعلم يُقوِّي اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر)) اهـ .

ويمكن استخلاص دروس عديدة من هذه القصة :

أ _ إن الحاكم العادل يَحرص على معرفة أخبار شعبه . وهذا لا يعني التجسس عليهم ، وإنما يعني تفقُّد أحوالهم ، والوقوف على مشكلاتهم ، وإيجاد حلول عملية لها . أمَّا النومُ في القصور ، ونسيان أحوال الرَّعية ، وعدم السؤال عنهم ، فهذه صفات الحاكم الظالم .

ب_ إن المرأةَ المتزوِّجة تحتاج إلى إشباع عاطفي، وإشباع جِنسي. وعلى الزَّوْجِ أن يَنتبه إلى هذا الأمر ، ويَحرص على إشباع زوجته، لكي تستمر الأُسرة بلا مشكلات. وأيُّ خللٍ في المنظومة العاطفية والحياةِ الجنسية ، فإن المشكلات ستعصف بالبيت والأُسرة ، وعندئذ يَغرق الأبَوَان مع الأبناء في مستنقع عميق .

ج_ الوَحدةُ قاتلةٌ وتُثير الخواطرَ السَّيئة . وعلى الإنسان أن يَملأ وقتَ فراغه بالأشياء المفيدة ، لأن الفَراغ مفسدة عظيمة، وفاتحة الشرور . والفراغُ هو المحطة الأُولى في طريق الانحراف. وبشكل عام ، إن الفراغَ في حياة المرأة المتزوِّجة سَيَقودها إلى الخيانة الزوجية . فإذا اختفت محبةُ الله من القلب ، سَكَنَ فيه محبةُ المخلوقين . وفي مدارج السالكين (٣/ ١٢٩): ((قال الشافعي _ رضي الله عنه_: صَحِبْتُ الصُّوفيةَ، فما انتفعتُ مِنهم إلا بكلمتين ، سمعتُهم يقولون : الوقتُ سَيْفٌ ، فإن قَطَعْتَه وإلا قَطَعَكَ ، ونَفْسُكَ إن لم تُشغِلها بالحق وإلا شَغَلَتْكَ بالباطل)) اهـ .

د _ المرأةُ الصالحة تَصون نَفْسَها ، وتَصون شَرفَ زوجها ، ولا تستغل فترةَ غيابه لخيانته ، وتلطيخ سُمعته من أجل شهوة مؤقَّتة ودنيئة .

هـ _ الحاكمُ العادلُ يُحقِّق في الأمور للوقوف على طبيعتها، ويَسعى إلى حَل مشكلات رَعِيَّته بكل وسيلة ممكنة ، ولا يُهمِل أيَّةَ مشكلة _ مهما بَدَت صغيرة أو شخصية _ .

و _ سؤال أهل الخِبرة عن الأُمور . فمثلاً ، إن النساء أعْلم بشؤون النساء ، لذلك يتم أخذ رأيهنَّ حول القضايا المتعلِّقة بالمرأة ، خصوصاً القضية الجِنسية .

ز _ المرأةُ كيان من المشاعر والشهوات ، ولَيْست حائطاً. ولها رغبات ينبغي تحقيقها، خصوصاً الرغبة الجِنسية . فالغريزةُ مُركَّبة في الرَّجل والمرأة ، ويجب احترامها ، لأنها مخلوقٌ وضعه اللهُ تعالى في الكيان الإنساني من أجل التكاثر وإعمار الأرض . وهذه الغريزةُ ليست عَيْباً ، أو أمراً قذراً يستدعي الخجلَ، بل هي غريزة محترمة يجب وضعها في سياقها الصحيح (الزواج).

ح _ الحرصُ على تمتين العلاقات الاجتماعية ، وذلك بعدم السماح للرجال بالغياب عن زوجاتهم لفترة طويلة .

ط _ ترجمة الآراء القادمة من أصحاب الخِبرة إلى واقع ملموس ، وتحويل الأقوال إلى أفعال.

وفي مجمع الأمثال للميداني (١/ ٤٤٤) : ((وكان الرَّجلُ في الجاهلية إذ قال لامرأته : " الظِّباءَ على البقر " بَانتْ مِنه ، وكان عندهم طَلاقاً)) اهـ .

و" الظِّباءَ " منصوبٌ على معنى اخترتُ . يعني : اخترتُ الظِّباءَ على البقر ، والبقرُ كنايةٌ عن النساء[63] . والمقصودُ هو بقر الوحش لأنها ترعى مع الظباء . وهذه العِبارةُ كانت في الجاهلية تُعْتَبَر طلاقاً ، مما يدل على الفوضى اللفظية والمعنوية في موضوع الطلاق . فلا يوجد احترام لكرامة المرأة ، ولا تقدير لمشاعرها ، فهي تُطلَّق لأتفه الأسباب .

وفي الجاهلية ، كان الطلاقُ أُلعوبةً بيد الرَّجل ، حيث يتم التلاعب بالطلاق ، وإدخاله في باب المزاح ، مما يدل على احتقار المرأة ، واعتبارها شيئاً تافهاً لا وَزْن له .

قال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَتَّخذوا آياتِ الله هُزُواً ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

وهذا نهيٌ صريح عن التلاعب بآيات الله تعالى ، وعدم احترامها ، والإعراض عنها . فلا يجوز التهاون بأحكام الله تعالى واتخاذها أُلعوبةً، فإنها أحكامٌ شرعية مُقدَّسة . وقد كان الرَّجلُ في الجاهلية يُطلِّق زوجته ، ثم يقول إنني كنتُ لاعباً .

---

(٦٣) قال الميداني في مجمع الأمثال (١/ ١٦٤) : ((جاءَ يَجُرُّ بَقَرَهُ : أي عِيالَه. كَنَّى عن العيال بالبقر لأن النساء محلُّ الحَرْث والزرع كما أن البقر آلة لهما)) اهـ .

قال الواحدي في الوجيز (١/ ١٧١) : ((كان الرَّجلُ يُطلِّق في الجاهلية، ويقول : إنما طَلَّقْتُ وأنا لاعب ، فَيَرْجع فيها)) اهـ .

وفي هذا دلالةٌ واضحة على اتخاذ الطلاق لُعبةً،والنظر إلى المرأة على أنها دُمية للتسلية واللعبِ. وقد وصل هذا الفِعل الجاهلي إلى بعض المسلمين ، وتأثَّروا به لِقُرب عهدهم بالجاهلية . ففي العُجاب في بيان الأسباب (١/ ٥٨٩) : ((أخرج الطبري بسند صحيح عن الزُّهري عن سليمان بن أرقم أن الحسن حَدَّثه أن الناس كانوا في عهد رسول الله يُطلِّق الرَّجلُ أو يُعتِق ، فيقال له : ما صنعتَ، فيقول: كنتُ لاعباً. قال الحسن:وهو قَوْل الله تعالى: ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزواً ﴾)). واللعبُ في موضوع الطلاق مرفوضٌ جُملةً وتفضيلاً ، لأنه يؤدي إلى إلحاق الضرر بالزوجة . ومَن طَلَّقَ زوجته مازحاً أو لاعباً فقد وَقَعَ الطلاقُ . قال القرطبي في تفسيره (٣/ ١٤٧) : ((ولا خلاف بين العلماء أنَّ مَن طَلَّق هازلاً أن الطلاق يَلْزمه)) اهـ .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((ثلاث جِدُّهُنَّ جِدٌّ ، وهَزْلهنَّ جِدٌّ : النِّكاح والطلاق والرَّجعة)) [64].

لقد أبطلَ الإسلامُ أمرَ الجاهلية ، حيث كان الناسُ فيها يتلاعبون بالألفاظ والمعاني ، ويتخذون آيات الله هُزواً ، فيتلاعبون بموضوع الطلاق وغيره . وقرَّر الإسلامُ بكل وضوح أن النكاح والطلاق والرجعة ، أمورٌ واقعة سواءٌ كانت بِنِيَّة الجِد أو الهزْل ، وأن أحكامَها مُلزِمة مهما كان السياق الذي قِيل فيها .

إن الحياةَ الاجتماعية في الجاهلية نسقٌ ضاغط على المرأة باعتبارها الطرف الأضعف ، والحلقة المكسورة . وهذا النسقُ الصحراوي العنيف قد حَصَرَ المرأةَ في دائرة الإغراء والزِّينة

---

(٦٤) رواه الترمذي في سُننه (٣/ ٤٩٠) برقم (١١٨٤) . وقال: ((هذا حديث حسن غريب . والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم))،والحاكمُ في المستدرك (٢/ ٢١٦) برقم (٢٨٠٠) وصححه . اهـ . قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٢١٠) : ((هو من رواية عبد الرحمن بن حبيب بن أردك ، وهو مختلَف فيه ، قال النَّسائي : مُنكَر الحديث ، وَوَثَّقه غيره ، فهو على هذا حسن)) اهـ . قلتُ : أخطأ ابن الجوزي حين اعتقد أن " عطاء " المذكور في سند الحديث هو ابن عجلان ، فقال في التحقيق في أحاديث الخلاف (٢/ ٢٩٤) : ((عطاء هو ابن عجلان متروك الحديث)) اهـ. قلتُ:" عطاء " هذا هو عطاء بن أبي رباح الفقيه المشهور ، مفتي أهل مكَّة في زمانه.

والشهوة . مما أدَّى إلى تبرُّج النساء بشكل أو بآخر . فالبيئةُ الجاهلية أقنعت المرأةَ بأن وجودها مرتبط بما تقدِّمه وتعرضه من جسدها . فَكُلما عَرَضت مساحةً أكبر من لحمها ومفاتنها صارت مطلوبةً أكثر ، يُعجَب بها الرجال ، ويتسابقون لِخَطْبِ وُدِّها . فالجاهليةُ ألغت عقلَ المرأة ، وحشرتها في زاوية الغريزة . فاقتنعت المرأةُ أن لا وجود لها خارج نطاق الشهوة . وللأسف فإن المرأة ككائن حي قد تم اختزاله في الجسد . وهذه نتيجة متوقَّعة لثقافة الجاهلية الاختزالية التي تنظر إلى جوانب مُحدَّدة في البشر ، وعناصرِ الطبيعة ، والشَّعائرِ الدينية . لذا فإن التهميش والاختزال هما من أبرز أركان فلسفة الجاهلية في تعاملها مع الأشياء .

قال الله تعالى : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣][65].

والتبرجُ هو إظهار المرأة لزِينتها ومفاتنها، وهو انعكاس طبيعي لحالة الجماعة البشرية التي سلَّعت المرأةَ (أي جعلتها سِلعة دنيئة)، وأدخلتها في التشيؤ الرخيص (أي جعلتها شيئاً غير ذي قيمة). فأضحت المرأة تضحِّي بجسدها وتعرضه على العامة مقابل أن تلقى الاهتمام والإشباع الذاتي ، ولكي تُقنِع نَفْسَها أنها قادرة على الإغراء وجذب الرجال[66]. **والمرأةُ في الجاهلية كانت حريصةً على إظهار زِينتها ، وكشفِ مفاتنها ، لإغراء الرجال ، والاستحواذ على اهتمامهم ، فكانت المرأةُ تمشي بين الرِّجال ، كما أن مِشْيتها فيها تكسُّر وتغنُّج وتَبَخْتُر .**

وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ أنه تلا هذه الآية: ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾، قال : ((كانت فيما بين نوح وإدريس ألف سنة ، وأن بَطْنَيْن مِن وَلَد آدم كان أحدهما يَسكن السهل ، والآخر يَسكن الجبلَ ، وكان رِجالُ الجبل صِباحاً_ يعني جَمِيلين مُشرِقين _ ، وفي النساء دَمامة _ يعني قُبْحاً _ ، وكانت نساء السهل صِباحاً ، وفي الرجال دَمامة ، وأن إبليس أتى رَجلاً من أهل السهل في صورة غلام ، فجاء فيه بصوت لم يَسْمع الناسُ مِثْلَه، فاتخذوا عِيداً يَجتمعون إليه في السَّنة، وأن رَجلاً من أهل الجبل هجم عليهم، وهُم في عيدهم ذلك ، فرأى

---

(٦٥) يقال : تَبَرَّجت السماءُ ، أي تزيَّنت بالكواكب. وتبرَّجت المرأةُ ، أي أظهرت زينتها ومحاسنها . [انظر المعجم الوجيز ، ص ٤٣] .

(٦٦) المرأة تشعر بالانهيار حين تفقد القدرةَ على الإغراء، أو حين تشعر أنها غير مرغوب فيها. لذا يجب توجيه الإغراء وتفعيله داخل الحياة الزوجية لئلا تبحث المرأة عَمَّن تغريه خارج نطاق الزواج.

النساء وصَباحتهنَّ ، فأتى أصحابه ، فأخبرهم بذلك فتحوَّلوا إليهنَّ ، ونَزلوا معهنَّ ، فَظَهَرَت الفاحشةُ فِيهنَّ ، فذلك قَوْل الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾))[67].

إن السلاحَ الفعَّال للشيطان هو الشَّهْوة ، فهو يتلاعب بالإنسان عبر تهييج شهوته ، وتحريكِ الفِعل الغريزي . فهؤلاء الرِّجالُ الصِّباح رَكضوا وراء شهوتهم وغريزتهم ، فَسَقطوا أمامَ النساء الجميلات ، ولم يَصْمدوا أمام هذا الامتحان القاسي ، فصارت الشهوةُ وسيلةً للفجور والفاحشة . وهذا الانحراف قد تَمَّ بسبب تحريك الشيطان للشهوة الكامنة ، وتزيينه للمعصية .

ولا يخفَى أن النساءَ حبائلُ الشيطان ، يعني أنهنَّ شِباك الشيطان التي يَنْصبها للصَّيْدِ ، صَيْدِ الرجال ، وذلك لحاجة الرِّجال الشديدة إليهنَّ ، وكَوْنهن مَحل شهوة الرجال ، والأكثر قُدرة على الإغواء والإغراء . ولَوْلا الشَّهوة المركَّبة في الرَّجل لَمَا كان للمرأة أيةُ سُلطة عليه. وكلُّ شخص لا يَقْدر الشيطانُ على اختراقه ، سَيُحاوِل اختراقه عن طريق النساء . فالمرأةُ هي زِينةٌ قائمة بذاتها .

وعن أسامة بن زيد _ رضي الله عنهما_: عن النبي ﷺ قال : ((مَا تَركتُ بَعْدي فِتْنةً أضرَّ على الرِّجال مِن النِّساء))[68]. الرَّجلُ مَجبولٌ على حُب المرأة ، والميل إليها . وهذا الأمرُ قد يَدْفعه إلى انتهاك المحرَّمات للظفر بها ، وتحقيق رغباتها . وفي المستطرف (٢/ ٤٩٣) : ((وقال حَكيم : النساء شَرٌّ كُلهنَّ ، وشَرُّ ما فيهنَّ قِلة الاستغناء عنهنَّ)) اهـ .

فالمرأةُ شَرٌّ إذا كانت فاسدةً ، وهي خَيْرٌ إذا كانت صالحةً . وفي واقع الأمر ، إن النساء الصالحات قليلاتٌ جِداً مقارنةً مع النساء الفاسدات .

وفي المستطرف (٢/ ٤٩٢) : ((في حِكمة داود _ عليه الصلاة والسلام _ : وَجَدْتُ في الرِّجال واحداً في ألف ، ولم أجد واحدة في جميع النساء)) اهـ .

وإذا صَحَّ هذا عن النبي داود ﷺ ، فهو يعني أن نِسبة الصالحين في الرِّجال أعلى مِن نِسبة الصالحات في النساء ، وأن الفسادَ في عالَم النساء أكثر من الفساد في عالَم الرِّجال .

و" الجاهليةُ الأُولى " مُصْطَلَح يُعبِّر عن مرحلة زمنية مُحدَّدة . فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كانت الجاهليةُ الأُولى ألفَ سَنة فيما بين نوح وإدريس))[69].

---

(٦٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٨) برقم (٤٠١٣) ، وسكت عنه الذهبي .

(٦٨) متفق عليه. البخاري (٥/ ١٩٥٩) برقم (٤٨٠٨) ، ومسلم (٤/ ٢٠٩٧) برقم (٢٧٤٠) .

(٦٩) ذَكَرَه الحافظ في الفتح (٨/ ٥٢٠) ، وقال : ((إسناده قوي)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٥٨) : [واختلف الناس في (الجاهلية الأولى) ، فقيل : هي الزمن الذي وُلد فيه إبراهيم _ عليه السلام _ : كانت المرأة تلبس الدِّرْعَ من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفْسَها على الرِّجال . وقال الحكم بن عُيَيْنة : ((ما بين آدم ونوح ، وهي ثمانمائة سنة ، وَحُكِيَت لهم سِيَر ذميمة)) . وقال ابن عباس : ((ما بين نوح وإدريس)) . الكلبي : ((ما بين نوح وإبراهيم)) ، قِيل : ((إن المرأة كانت تلبس الدِّرْعَ من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين ، وتلبس الثياب الرِّقاق ، ولا تواري بدنها)). وقالت فِرْقة : ((ما بين موسى وعيسى)) . الشعبي : ((ما بين عيسى ومحمد ﷺ)) . أبو العالية : ((هي زمان داود وسليمان ، كان فيه للمرأة قميص من الدُّر غير مخيط الجانبين)) . وقال أبو العباس المبرد : ((والجاهلية الأولى ، كما تقول الجاهلية الجهلاء)) ، قال : ((وكان النساء في الجاهلية الجهلاء يُظْهِرْنَ ما يَقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زَوْجها وخِلِّها ، فينفرد خِلُّها بما فوق الإزار إلى الأعلى ، وينفرد زَوْجها بما دون الإزار إلى الأسفل ، وربما سألَ أحدهما صاحبه البدل))] اهـ .

وهذا الانهيارُ الشاملُ يتمحور حول العُري والتَّعري والإغراء ، حيث كانت المرأةُ تخترع وسائل إغراء لجذب أنظار الرِّجال، ونَيْلِ اهتمامهم ، والسيطرةِ على مشاعرهم ، وتهييجِ شهواتهم، وبالتالي تصبح المتعةُ منظومةً مشتركة بين الرَّجل والمرأة ، ويشترك الاثنان في الاستمتاع المحرَّم .

وكانوا في الجاهلية يَرَوْنَ للزوج النصف الأسفل، وللعشيق النصف الأعلى. كما قال أحدُهم:

فللحِبِّ ما ضَمَّتْ عليه نِقابها ... وللبَعْلِ ما ضَمَّتْ عليه المآزرُ

وكانوا _ أيضاً _ يَخترعون ممارَساتٍ مُعيَّنة تتعلق بالْحُبِّ ، والعلاقةِ بين الرَّجل والمرأة ، ويُرتِّبون على هذه الممارَسات أفكاراً باطلة ، يَلتزمون بها ، وهي ليست بلازمةٍ . مِثل : شَقُّ الرِّداء والبُرْقُع لدوام المحبة . حيث إنهم يَزعمون أن المرأة إذا أحبَّتْ رَجلاً أو أحبها ، ولم تشق عليه رداءه ويشق عليها بُرْقعها ، فَسَدَ حُبُّهما . قال الشاعر :

إذا شق برد شق بالبرد بُرقع ... دَوَالَيْكَ حتى كلنا غَيْر لابسِ

فَكَم قد شَقَقْنا مِن رِداء مُحبر ... ومن بُرقع عن طفلة غَير عانسِ

ومن الممارَسات الاجتماعية المتعلقة بالعلاقة بين الرَّجل والمرأة ، والتي اخترعها العقلُ الجاهلي المريض : عَقْد الرَّتَم ، وهو نبْت معروف . كان الرَّجلُ إذا أراد سَفَراً عَمِدَ إلى رَتَم ، فَعَقَدَه ، فإن رَجَعَ ورآه معقوداً ، اعتقد أن امرأته لم تَخُنْه ، وإن رآه محلولاً اعتقد أنها خانته . قال الشاعر :

خانته لَمَّا رأتْ شَيباً بمفرقه وغَرَّه حَلْفُها والعَقْد للرَّتَمِ

وفي الدر المنثور (٦/ ٦٠١):[وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ سأله ، فقال : ((أرأيتَ قَوْلَ الله تعالى لأزواج النبي ﷺ : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ ، هل كانت الجاهلية غير واحدة ؟))، فقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ((مَا سَمعتُ بأُولى إلا ولها آخِرة))] اهـ.

والمنْطقُ يقول إن مفهوم " الجاهلية الأُولى " يدل على وجود جاهلية ثانية أو أكثر .

ويمكن اعتبار الجاهلية الأُولى هي جاهلية الكفر قبل البعثة المحمَّدية الإسلامية ، والجاهليةُ الثانية هي جاهلية الفِسق والمعاصي في الإسلام . ويُؤيِّد هذا قَوْلُ النبي ﷺ لأبي ذَر ــ رضي الله عنه ــ : ((إنَّكَ امرؤ فِيكَ جَاهلية))[70].

وهذا لا يعني أن أبا ذَر كافر خَرَجَ من الإسلام وعاد إلى الجاهلية . فلا يمكن جحد مكانة أبي ذَر العالية. وإنما يعني أن فِيه خِصْلة من خِصال أهل الجاهلية ، ينبغي تركها لمخالفتها للشرع.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّه ، قال : جاءت أُميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام ، فقال : ((أُبايعكِ على أن لا تشركي بالله شيئاً ، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي وَلدك، ولا تأتي بِبُهْتان تفترينه بين يَدَيْكِ ورِجْلَيْكِ ، ولا تنوحي ، ولا تبرَّجي تبرج الجاهلية الأُولى))[71]. إن شروط البَيْعة لَيْست شروطاً خيالية أو إنشائية . فهذه الصفاتُ القبيحة كانت منتشرةً بكثرة في الجاهلية ، فأرادَ النبيُّ ﷺ أن يُطهِّر المجتمعَ من هذه العيوب تمهيداً لزرع الخير فيها . وبالتأكيد، إن دَرْءَ المفاسد مُقدَّم على جَلْب المصالح، كما أن الصفات الحسنة تتطلب بيئةً نظيفةً طاهرةً ، فلا بد من إجراء عملية تنظيف للقلوب والبيئةِ الاجتماعية قبل عملية زرع الفضائل ، لكي يتم الحصول على نتائج جيِّدة ، وثمار مفيدة .

والشِّركُ بالله تعالى هو أساس الثقافة الجاهلية ، كما أن السرقة والزِّنا كانا في قلب الحياة العربية البدائية. وأيضاً قتل الولد (وأد البنت) كان شِعاراً رئيسياً في الحياة الجاهلية . أمَّا

---

(٧٠) متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٢٤٨) برقم (٥٧٠٣)، ومسلم (٣/ ١٢٨٢) برقم (١٦٦١) .

(٧١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٩٦) برقم (٦٨٥٠). وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٤١): ((رواه الطبراني ، ورجاله ثقات)) .

البُهْتان، فقد كانت المرأةُ في الجاهلية تلتقط المَوْلودَ ، فتقول لزوجها : هذا ولدي مِنك . وبالنسبة للنِّياحة فهي رَفع الصوت بالنَّدْب على الميْت ، وهذه الصِّفة كانت ملتصقةً بالمرأة الجاهلية . أمَّا التَّبَرُّجُ ، فقد كانت المرأة في الجاهلية تُبرز مفاتنها وتمشي في الأسواق مُتعطِّرة متكشِّفة مُتَبَخْتِرة لِلَفْتِ انتباه الرجال ، وجذبهم إليها .

وقد وضَّح الإسلامُ مخاطرَ التبرج ، وآثاره المدمرة في الحياة الاجتماعية للأفراد، وألغاها بصورة حاسمة قاطعة . والإسلام لا يُغلق درباً محرَّماً إلا ويفتح بدلاً منه مئات الدروب المشروعة . فحثَّ على الزواج ، ودعا إلى أن تتزين المرأةُ لزوجها ، وأن يتزين الزَّوْجُ لامرأته ، لكي يحصل الإشباع العاطفي النَّفْسي والجِنسي داخل نطاق الأسرة ، ولكي يحصل الاكتفاء الذاتي ، فلا يبحث كل طرف عن الإشباع خارج نطاق الزوجية،وهكذا سَدَّ الإسلامُ الذرائعَ الموصلة إلى كل مفسدة. وفي الدر المنثور (١/ ٦٦١) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((إني لأحبُّ أن أتزين للمرأة كما أُحِبُّ أن تتزين المرأة لي)) .

وهذا الأمرُ يدل على فِقه ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ وبُعْدِ نظره . فهو يَعلم أن منظومة الزواج مبنية على ثنائية (الحقوق / الواجبات) . كما أن العلاقة الجسدية بين الزوجين مبنية على الإشباع الروحي (العاطفي) والمادي (الجِنسي) . وكما أن الرَّجل يحب أن تتزيَّن له زوجته ، لكي يَشعر بالأُلفة والاستمتاع والسعادة ، فكذلك المرأة تحب أن ترى زَوْجَها في أجمل صورة ، وتَفوح مِنه أجمل رائحة . فالمرأةُ كيان قائم بذاته ، وقائم على المشاعر . وهذا التوازنُ بين الزَّوْجَيْن يؤدي إلى تكوين أُسرة صالحة خالية من الأمراضِ الروحية، والعُقدِ النَّفسية. وهذا الجَمالُ الجسدي للزوج والزَّوجة ، هو المفتاح السِّحري لباب السعادة الزوجية . وإذا لم يَحصل إشباع على الصعيد الغريزي الجِنسي ، فإن الأسرة ستنهار حتماً ، وتصبح أثَراً إثْرَ عَيْن .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَضْرِبْنَ بِأرجلهنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِين مِن زِينتهنَّ ﴾ [النُّور : ٣١] .

أي : لا تَضرب المرأةُ بِرِجْلها إذا مشت في الطريق ليسمعَ الرجالُ صوتَ خَلْخالها ، فهذا الصوتُ المغري يُعْتَبَر من إظهار الزِّينة ، كما أنه يُحرِّك الشهوةَ ، وهو مُحرَّم . وفي أحيانٍ كثيرة يَكون الصوتُ أشدَّ تأثيراً من النظر . يقولُ بشار بن بُرْد (وهو شاعر أعمى) :

يا قَوْمُ أُذني لبعض الحيِّ عاشقة ... والأُذن تَعشَق قبل العَين أحيانا
قالوا بمن لا تَرى تَهذِي فقلتُ لهم ... الأذن كالعَين تُوفي القلب ما كانا

وهذا يدلُّ على أهمية حاسَّة السمع في مجال العِشق ، وأن سماع صوت المرأة _ أو أي صوت يَصْدر مِنها _ ذو تأثير بالغ في قلوب الرجال . فلا ينبغي الاستهانة بالأصوات ، خصوصاً إذا كانت ناعمةً ومليئة بالغنج والتَّكسُّر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٧٨) : ((كانت المرأة في الجاهلية ، إذا كانت تمشي في الطريق ، وفي رِجلها خَلْخال صامت ، لا يُعلَم صوته ، ضَربت بِرِجْلها الأرض ، فَيَعْلم الرجالُ طَنينه)) اهـ .

وقد أشارَ الشاعرُ الجاهلي عمرو بن كلثوم إلى هذا المعنى بِقَوْله : يَرِنُّ خَشاشُ حَلْيِهما رَنينا .

أي: تَرِنُّ خلاخيل الساقَيْن (حَلْيِهما). فهذه الخلاخيلُ المغرِيةُ لها خَشْخشةٌ (صَوْت / رنين). وهذا الرنينُ العذبُ يَنبعث من عالَم الإغراء والشهوة ، ويَقْرع قلوبَ السامعين بلا رحمة .

وهذه السياسة الإغرائية نتاج متوقع للبيئة الجاهلية التي حَشرت المرأةَ في زاوية الجنس والمتعة الجسدية والإغراء . ولأن العقل الجاهلي الجمعي يمارس سُلطاتِه بقسوة على الكيان الأنثوي ، فقد اقتنعت المرأة بأن شرعية وجودها مستندة إلى قدرتها على الإغراء وجذب الرجال ، فأضحت كالسلعة التي يراد تسويقها بشتى الوسائل لئلا تصبح بضاعةً كاسدة .

ولم يتوقف الأمرُ في المجتمع الجاهلي عند فلسفة الإغراء واللعبِ بقلوب الرجال . بل أيضاً تكرَّست فلسفةُ العُري في السلوك الاجتماعي ، والشعائرِ الدينية الوثنية عند المرأة الجاهلية التي كانت تطوف حول الكعبة المشرَّفة عاريةً تماماً راميةً شرف المرأة وراء ظَهْرها ، ودون أن تعبأ بأدب الأنوثةِ وشرفِ القبيلة. وهذا الانهيار الصادم في بنية التركيبة المجتمعية مرجعه إلى الثقافة الفوضوية في البيئة الجاهلية المعزولة عن العِلم وإعمال العقل .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٣٢٠) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كانت المرأة تطوفُ بالبيت وهي عُرْيانة ، فتقول : مَن يُعيرني تَطْوافاً [72] ؟ ، تجعله على فَرْجها، وتقول : اليومَ يَبْدو بَعْضُه أو كُلُّه ... فما بدا مِنه فلا أُحِلُّه . فَنَزلت هذه الآية : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾)) .

---

(٧٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ١٦٢): ((وهو ثوب تلبسه المرأة تطوف به. وكان أهل الجاهلية يطوفون عُراة، ويرمون ثيابهم، ويتركونها ملقاة على الأرض ، ولايأخذونها أبداً ، ويتركونها تداس بالأرجل)) .

قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٦٥) : ((ونقل ابن حزم الاتفاق على أن المراد سَتْر العَوْرة)).

وهكذا نجد أن المرأةَ في الجاهلية كانت تَرْتع في مأزق العُري وكشف العَوْرات ، خصوصاً في البيت الحرام. وهذا يدل على الجهل بالله تعالى ، وفسادِ العقائد المختلطة بالهوى والجهل والكفر. فأراد اللهُ تعالى أن يرشدهم إلى الأخلاق العالية ، وستر العورات ، والالتزام بالهيئة الحسنة البعيدة كل البعد عن العري ، والانحراف الأخلاقي . فالحرص على الزينة عند الصلاة والطواف من شأنه أن يرتقيَ بإنسانية الإنسان ، وينتشلها من مستنقع الرذيلة والتعري .

والعُري الجاهليُّ المقزِّزُ يعكس المرتبةَ المتدنية للمرأة . حيث يتم تعريتها باسم الدِّين ، وتصبح لوحةً عارية أمام الناظرين . وللأسف فقد ارتبط هذا العُري بالطواف حول الكعبة المشرَّفة . مِمَّا يُشير إلى فلسفة اختراع الشرائع والطقوس من بنات أفكار أهل الجاهلية ، الذين جعلوا عقولَهم مصدراً للتشريع والتحليل والتحريم، وهم يعتقدون أنهم على الصراط المستقيم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٩) : ((وأكثر ما كان النساء يَطُفْنَ عُراةً بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فِعل آبائهم مُستنِد إلى أمر مِن الله وشرع)) اهـ .

والطقوسُ الخرافية التي ابتدعها الوثنيون هي مؤشر على سعيهم الدؤوب لتكوين دِين ذي قواعد وفروع لئلا يَشعروا بالنقص أمام أصحاب الأديان كاليهود والنصارى . فالعربُ في الجاهلية كانوا حريصين على تكوين شريعة لهم تعكس ثقافتهم خصوصاً أنهم ليسوا أهلَ كتاب . فأرادوا أن تكون سلوكياتهم الصَّنمية هي الكتاب الشفوي المقدَّس مقابل التوراة والإنجيل .

وبالطبع ، فإن غياب الهداية الإلهية في حياتهم ، وعدم وجود تشريع سماوي بين أيديهم ، وتخلفهم الصحراوي المتوارَث، جعلهم يَنظرون إلى تقاليد آبائهم وأهوائهم وعقولهم القاصرة على أنها مصدر التشريع ، والشريعة اللازمة للفرد والجماعة . وهذا أشعرهم ــ إلى حد ما ــ بالتقارب مع اليهود والنصارى الذي كانوا يَفخرون على العرب بأنهم أهل كتاب . وطبعاً، كان عربُ الجاهلية يَشعرون بنقصهم (عُقدة النَّقْص) ورُتبتهم المتدنية أمام اليهود والنصارى لأنهم ليس لديهم كتاب كالتوراة أو الإنجيل .

والمرأةُ في الجاهلية كانت محل الانتقاص والتعيير ، فهي الحلقةُ الأضعف في المجتمع ، والطائرُ ذو الجناح المكسور. وقد نَسجت عقليةُ الجاهليةِ البدائيةُ ألاعيبها حول المرأة، وكرَّست العبثَ بالكيان الأُنثوي ، وجذَّرت احتقارَ إنسانية المرأة ، فصارت المرأةُ عُرضةً للسخرية والشتم .

فعن أبي ذَر ــ رضي الله عنه ــ قال : كان بَيْني وبين رَجل كلام ، وكانت أُمُّه أعجمية ، فَنِلْتُ منها، فَذَكَرَني إلى النبي ﷺ، فقال لي: ((أسابيتَ فلاناً))، قلتُ: نعم، قال : ((أفنلتَ من أُمِّه ؟))، قلتُ : نعم ، قال : ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[73].

فالأم ككيان أنثوي ــ حسب المنظور الجاهلي ــ عُرضة للسب ومحل لكل منقصة . فلا هي ذات مكانة ولا هي تنجو من عبث العابثين . وهذا مرده إلى الصورة السلبية للمرأة في النسق الجاهلي غير الأخلاقي . فهي لا تعدو عن كونها سِلعةً رخيصةً ، ومتعة مؤقتة ، ودمية متبرجة في أكف الرجال . وهذا الحديثُ لا يَنفي المكانةَ السامية لأبي ذَر رضي الله عنه،ولكنه يُصحِّح خطأً هذا الصحابي. فالتعييرُ من أخلاق الجاهلية ، ويجب على المسْلم أن يُطهِّر نَفْسَه من كل شوائب الجاهلية التي كَثُر فيها تنقيص الآباء والأُمهات بدافع العصبية القَبَلية ، والتمييز على أساس العِرْق والجِنس واللون . ولا يمكن تجاهل عملية "وأْد البنات" في البيئة الجاهلية، فهذه عقيدةٌ راسخة، وسلوكٌ اجتماعي ثابت . وهذه الجريمة فِعل طبيعي في مجتمع يُصنِّف الأنثى كوصمة عارٍ ينبغي مَحْوها من الوجود .

لقد تجلَّى احتقارُ المرأة (الأنثى) في شريعة "وأْد البنات" التي رَفضت منح حق الحياة للأنثى باعتبارها رمزاً للعار والذل والفقر . فوأدُ البنات هو تلخيص لفلسفة المجتمع الجاهلي المتطرف في ذكوريته ، الوحشي في تعامله مع الأنثى، والذي لا يتورع عن تصفيتها جسدياً . فلا يوجد احترام لحياة الإنسان ، ولا يوجد رحمة في التعامل مع الأنثى ، ذلك الكائن الضعيف المهمَّش .

قال الله تعالى : ﴿ قد خسر الذين قَتلوا أولادَهم سفهاً بغير عِلْم وحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على الله ﴾[الأنعام : ١٤٠] .

((نَزلت في ربيعة ومضر وبعض العرب من غيرهم، كانوا يدفنون البناتِ أحياء مخافة السَّبي والفقر))[74].

أي إن هؤلاء الجهلة الذين قتلوا أولادَهم (وأدوا بناتهم) بكل طيش وسَفهٍ وقِلة عقل ، وحرَّموا طيباتِ ما أحل اللهُ لهم من الأنعام كالبَحيرة والسائبة كذباً على الله تعالى، واعتداءً على شريعته ، قد باؤوا بالخسران في الحياة الدنيا(قتلوا أولادهم وضيَّقوا على أنفسهم وحَرَموها من

---

(٧٣) رواه البخاري (٥/ ٢٢٤٨) واللفظ له ، ومسلم (٣/ ١٢٨٢) .

(٧٤) تفسير البغوي (١/ ١٩٤) ، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٨٠) .

الاستمتاع بالحلال)، وخسروا الآخرةَ أيضاً حينما يُعذَّبون في الجحيم. فقد جعلوا عقولَهم الناقصة مصدرَ التشريع ، وراحوا يخترعون أحكاماً ما أنزل اللهُ بها من سلطان وألزموا أنفسهم بها جهلاً وعدواناً . وهذا الأمر يعكس جهلَ العرب الذين كانوا يئدون بناتهم ، ويَحرمون أنفسهم من الأولاد زينةِ الحياة الدنيا ، ويُدمِّرون حياتهم بأيديهم .

والمضحك المبكي أن عرب الجاهلية كانوا يئدون بناتهم ، في حين أنهم يَعتنون بأنعامهم ، ويُوفِّرون لها الحياة الهانئة. وهذا يدل على الرُّتبة المتدنية للإنسان وعدم احترام كيانه ووجوده .

وفي زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ١٣٤) : ((وقال قتادة : كان أهلُ الجاهلية يَقتل أحدُهم بِنْتَه مخافة السَّبي والفاقة ، ويغذو كلبَه)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٩٧) : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : إذا سَرَّكَ أن تعلم جهلَ العرب ، فاقرأْ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قَتلوا أولادَهم سفهاً بغير عِلْم ﴾ إلى قَوْله : ﴿ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وإذا الموؤدةُ سُئِلت (٨) بأيِّ ذَنبٍ قُتِلت (٩) ﴾[التكوير] .

فالموؤدةُ (المدفونة حيةً مخافة العار أو الحاجة) تُسأل يوم القيامة عن أي ذَنْب قُتلت وهي المظلومة، وهذا تهديدٌ لقاتلها الظالم . وسُمِّيت الموؤدة بهذا الاسم لأنه حينما يُطرَح عليها التراب فيؤودها ، أي يثقلها حتى تموت .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٠٢) : ((وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتَيْن ، إحداهما: كانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به . والثانية : إمَّا مخافة الحاجة الإملاق ، وإمَّا خوفاً من السَّبْي والاسترقاق ... وقال ابن عباس : كانت المرأة في الجاهلية إذا حَملت حَفرت حُفرة ، وتمخضت على رأسها ، فإن وَلدت جارية رَمت بها في الحفرة ، وردَّت التراب عليها، وإن وَلدت غلاماً حَبَسَتْهُ)) اهـ .

والوأدُ مرتبطٌ بالإناث ، لأن الذكور يُنظَر إليهم كقوة مستقبلية ، وسندٍ عائلي ، وطاقةٍ قادرة على الاكتساب وتحصيلِ الأموال ، وتدبُّر أمورهم في كل الأوضاع. فالمجتمعُ الجاهلي يمارس سُلطته الذكورية بكل تطرف . وحينما يتجذر التطرف فإن الضغط سوف يتركز على الطرف الأضعف ، لذلك كانت الأنثى هي الخاسرة الأُولى في هذه اللعبة القاتلة .

قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٠٦) : ((ويقال إن أول من فعل ذلك ــ يعني وأد البنات ــ قيس بن عاصم التميمي ، وكان بعض أعدائه أغار عليه فأسر بِنته فاتخذها لنفْسه ، ثم حصل بينهم

صلحٌ ، فَخَيَّر ابنته فاختارت زوجَها ، فآلى قيس على نفْسه أن لا تولد له بنت إلا دفنها حَيَّةً ، فتبعه العرب في ذلك)) اهـ .

وهذا الفِعل الطائش الذي وُلد في ساعة غضب تحوَّل إلى شريعة مُلزِمة للعرب جميعاً ، الذين يَسيرون على غير هُدى ، والذين يَتبعون كلَّ دعوى هدَّامة تحت ضغط العصبية القَبَلية والأهواء الشخصية دون تفكير في الأمور. وهذا هو الجهل بِعَيْنه،وأقصى درجات التطرف والتقليد الأعمى.

وعن عمر بن الخطاب في قَوْل الله _ تبارك وتعالى _: ﴿ وإذا الموؤدةُ سُئِلت ﴾ ، قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إني وَأدتُ بَناتٍ لي في الجاهلية ، فقال : ((أعْتِقْ عن كل واحدة منهنَّ رَقبة)) ، قال : يا رسول الله ، إني صاحبُ إبل ، قال : ((فانْحَرْ عن كل واحدة منهنَّ بَدَنة))[75].

سعى هذا الصحابي الجليل إلى تطهير نفْسه ، مع أن الإسلام يَجُبُّ ما قَبْله . وهذه الجرائم الشنيعة التي ارتكبها في الجاهلية تشير إلى حجم الانهيار الدِّيني والأخلاقي والإنساني . فقد وَأَدَ بناته بلا رحمة ، ودفنهنَّ وهُنَّ على قيد الحياة بلا شفقة . وقد كان هذا السلوك الإجرامي فِعلاً عادياً لا يَدعو إلى القلق ، ولا يُثير في المجتمع أيةَ مشكلات . فالعقلُ الجمعي في البيئة الجاهلية مبنيٌّ على معاداة الأنثى ، وتصنيفها ككائن غير مرغوب فيه ، وينبغي التخلص منه بأسرع وقت .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٩٢) : عن أسماء بنت أبي بكر _ رضي الله عنهما _ قالت : ((رأيتُ زَيْد بن عَمرو بن نُفَيْل[76] قائماً مُسنِداً ظَهْره إلى الكعبة ، يقول : يا معاشر قريش ، والله ما مِنكم على دِين إبراهيم غَيْري . وكان يُحيي الموءودةَ ، يقول للرَّجل إذا أراد أن يَقتل ابنته : لا تقتلها ، أنا أَكْفِيكها مؤونتها فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئتَ دفعتُها إليك وإن شئتَ كَفَيْتُكَ مؤونتها)) .

---

(٧٥) رواه البزار في مسنده (١/ ٣٥٥) برقم (٢٣٨) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٨٣) : ((رواه البزار والطبراني ، ورجال البزار رجال الصحيح غير حسين بن مهدي الأيلي وهو ثقة)) .

(٧٦) قال ابن حجر في تهذيب التهذيب(٣/ ٣٦٣):((زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، ابن عم عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين، ووالد سعيد بن زيد أحد العشرة))اهـ. قلتُ: وقد تُوفِّي زيد على التوحيد قبل بعثة النبي ﷺ . وقد ذَكَره النبي ﷺ فقال : ((يُبعَث يوم القيامة أُمَّةً وَحْدَه بَيْني وبَيْن عيسى)) [سُنن النَّسائي الكبرى (٥/ ٥٤)] . وقال العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٢٣٦) : سنده جَيِّد .

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مكارم الأخلاق الجليلة المنبثقة من دِين التوحيد (دِين إبراهيم ﷺ) . فزيد بن عمرو بن نفيل على الرغم من حياته وموته في الحقبة الجاهلية (قبل البعثة المحمَّدية الإسلامية) إلا أن كان متمسكاً بالحنيفية (الميل عن الباطل إلى الحق) . ومع أن الجاهلية كانت تعج بالمغريات والانحلال الأخلاقي وعبادة الأوثان ، إلا أنه اختطَّ لنفْسه مساراً مخالفاً لبني قومه مُؤْثراً الآخرة على الدنيا . وهذا جعله يعارض وَأْدَ البنات ، بل ذهب أبعد من هذا حينما كان يعرض على الأب أن يتكفل بمؤونة ابنته خوفاً من قتلها . وكل هذا الإصرار على الحق في محيط مريض بالكفر والفساد جعل منه قدوةً في الصلاح والإصلاح ، لذلك يُبعَث يوم القيامة أُمَّةً لوحده ، ومصيره إلى الجنة لأنه قضى حياته مَشعلاً للنور والهداية ونشر الفضيلة ، ومات على التوحيد الخالص دون أن يتلوَّث بالشِّرك وسوءِ الأخلاق .

إن وَأْدَ البنات كان ثقافةً اجتماعية سائدة . وهي تعكس السقوطَ العقائدي ، والانتكاسة الأخلاقية ، وضغط الحياة المادية الفجة على سلوك الأفراد . الأمر الذي جعلهم محصورين في دائرة رد الفعل دون أن يُفكِّروا في تغيير أوضاعهم ، أو تنظيم حياتهم بما يتناسب مع إمكانياتهم .

وقد أكرم اللهُ تعالى المرأةَ _ أُمَّاً وبنتاً _ ، ورفع من شأنها ، ومنع الإساءةَ إليها . فعن المغيرة ابن شعبة _ رضي الله عنه_ قال : قال النبي ﷺ : ((إن الله حَرَّم عليكم عُقوقَ الأمهات ، ووأْدَ البنات))[77].

وقد خُصَّ بالذِّكْر الأمهات ، لأن العقوق مرتبط بهن بسبب ضعفهن ، كما أن بِر الأم مُقدَّم على بِر الأب، وحُرْمتها أعظم من حُرْمة الأب. وعقوقُ الأمهات من الكبائر _ بإجماع العلماء _ .

ووأدُ البنات من الكبائر المهلِكة لأنه قتلٌ للنَّفْس التي حرَّم اللهُ قتلَها ، وقطعٌ للرَّحم ، ويعكس عدم الرضا بقضاء الله وقَدَره . لذلك كان التحريمُ مشدَّداً في كلا الحالتَيْن : عقوق الأمهات ووأد البنات . ومن الأهمية بمكان توضيح كراهية التجمع الجاهلي للأنثى ، وتفضيل الذَّكر على الأنثى دون وجه حق. ولم يقف الأمر عند التفضيل، بل تعدَّاه إلى وأد البنات وقتلهن شر قِتلة . وقد كان الوأد مستعملاً في قبائل العرب قاطبة . وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد البنات ، فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغَيرة ، ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن ، ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شَيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤماً منهم بهذه

---

(٧٧) متفق عليه . البخاري(٨٤٨/٢) . ومسلم (٣/ ١٣٤٠) .

الصفات ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر ، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب، فكان يشتريهم بعض سُراة العرب وأشرافهم، ومنهم من كان يَنذر_ إذا بلغ بنوه عشرة _ نَحْرَ واحداً منهم كما فعل عبد المطلب ، ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله _ سبحانه وتعالى _ فألحقوا البنات به تعالى، فهو عز وجل أحق بهن _ على حد زعمهم _ . [انظر بلوغ الأرب في أحوال العرب للآلوسي] .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم ما يَشْتَهُونَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النَّحل : ٥٧_ ٥٩] .

إن أهل الجاهلية متخبطون في قضية البنات . فَهُم يَعتبرون البنات هَمَّاً وشُؤماً وخِزْياً وعاراً ، ويَحْرصون على التخلص منهنَّ في أسرع وقت ممكن . وفي نفْس الوقت ، نراهم يَنْسبون البنات إلى الله تعالى ، فَيَرْتضون البناتِ لله تعالى ، ولا يَرتضونهن لأنفسهم ! . يَجْعلون لله البنات سُبحانه ، وهُم يَشتهون البنين.وقد كانت خُزاعة وكِنانة يَقولون إن الملائكة بنات الله_تعالى الله عُلُوَّاً كبيراً_. وهذه الآيات الكريمة تُوضِّح صورةَ الإنسان الذي يُبَشَّر بالأنثى. فوجهه يغدو أسْود ، وتسيطر على ملامحه الكآبة والهم والحزن ، وهو كظيم ، أي يَكْظم حنقه وغضبه وحزنه . وبعد كل هذا يختفي عن الأنظار ، ويحرص على ألا يراه أحد ، ثم يفكر أيمسك الأنثى أم يئدها ، وكيف ستكون طريقة الوأد . فهو متردد بين إبقاء البنت حَيَّةً أو دفنها في التراب . وإن أبقاها على قَيْد الحياة،لم يُورِّثها ، وأهملها ، واحتقرها ، وجعلها في مَنْزلة دُونية . ففي كلا الحالتَين هي ميتة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٠٤): ((﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ﴾ أي أُخبِر أحدهم بولادة بنت ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أي متغيراً ، وليس يريد السواد الذي هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غَمِّه بالبنت. والعربُ تقول لكل من لقي مكروهاً: قد اسْوَدَّ وجهُه غَمَّاً وحزناً ، قاله الزجاج. وحكى الماوردي أن المراد سواد اللون، قال: وهو قول الجمهور)) اهـ.وقال الأبشيهي في المستطرَف (٢/ ١٧٣): ((وبمكة جبل يقال له أبو دلامة ، كانت قُرَيْش تئد فيه البنات . وقيل إن صعصعة جَد الفرزدق كان يشتري البنات ويفديهنَّ من القتل،كل بنت بناقتين عشراوَيْن وجمل، وفاخرَ الفرزدقُ رَجلاً عند بعض خلفاء بني أمية، فقال: أنا ابن مُحي الموتى ، فأنكر الرَّجلُ ذلك ، فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً ﴾ [المائدة : ٣٢])) اهـ .

إن الذي يَصون النَّفْس البشرية من القتل ، قد ساهمَ في إعمار الأرض ، وحفظِ البشرية من الأذى ، وبالتالي فكأنه أحيا الناسَ جميعاً ، وحماهم من كل سوء . فالبشريةُ كُلٌّ لا يتجزأ ، فهي موجودة في مَرْكب واحد ، وأيُّ تهديد للفرد هو _ بالضرورة _ تهديد للجماعة ، والوجودِ البشري بأكمله . وهذه الحقيقةُ ليست شعاراً للاستهلاك ، أو فكرة أخلاقية خيالية . بل هي قاعدة أساسية نابعة من وَحْدة المصير الإنساني رغم اختلافات البشر والأمم .

[وعن صعصعة بن ناجية المجاشعي: وهو جَد الفرزدق بن غالب، قال: قَدمتُ على النبي ﷺ ، فعرضَ عليَّ الإسلام فأسلمتُ ، وعلَّمني آيات من القرآن ، فقلتُ : يا رسول الله ، إني عملتُ أعمالاً في الجاهلية ، فهل لي فيها من أجر ؟ ، قال : ((وما عَملتَ ؟)) ، فقلتُ : ضَلَّت ناقتان لي عشراوان فخرجتُ أتبعهما على جمل لي ، فرُفع لي بيتان في فضاء من الأرض ، فقصدت قصدهما ، فوجدتُ في أحدهما شيخاً كبيراً ، فقلتُ : أحسستم ناقتين عشراوين فأناديهما ؟ ، فقال مقسم ابن دارم : أصبنا ناقتيك وبِعناهما ، وقد نَعَشَ اللهُ بهما أهل بيتَين من قومك من العرب من مُضَر، فبينما هو يخاطبني إذ نادته امرأة من البيت الآخر : وَلدتْ وَلدتْ ، قال : وما وَلدتْ ! ، إن كان غلاماً فقد شركنا في قومنا، وإن كانت جارية فادفنيها، فقالت: جارية ، فقلت: وما هذه المولودة ؟ قال : ابنة لي ، فقلتُ : إني أشتريها منك، فقال : يا أخا بني تميم أتبيع ابنتك وإني رَجل من العرب من مُضَر ؟ ، فقلت : إني لا أشتري مِنك رَقبتها ، بل إنما أشتري منك روحها أن لا تقتلها ، قال : بِمَ تشتريها ؟ ، فقلتُ : بناقتَي هاتَيْن وولدهما ، قال : وتزيدني بعيرك هذا ؟ ، قلت: نعم على أن ترسل معي رسولاً ، فإذا بلغتُ إلى أهلي رَددتُ إليه البعير ، فلمَّا كان في بعض الليل فكرتُ في نفْسي أن هذه مكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب، وظَهَرَ الإسلام، وقد أَحْيَيْتُ ثلاثمائة وستين من الموؤودة، أشتري كل واحدة منهن بناقتين عشراوين وجمل ، فهل لي في ذلك من أجر ؟، فقال النبي ﷺ : ((تَمَّ لك أجره إذ مَنَّ اللهُ عليك بالإسلام)). قال عباد: ومِصْداق قول صعصعة،قول الفرزدق: وجَدِّي الذي مَنَعَ الوائدات فأحيا الوئيد فلم يُؤد] [78].

---

(٧٨) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٠٧) برقم (٦٥٦٢) ، وسكت عنه الذهبي .

قلتُ : وفي سنده الطُّفَيْل بن عَمرو. قال ابن حجر في لسان الميزان (٣/ ٢٠٩) : ((الطفيل بن عمرو التميمي عن صعصعة بن ناجية لا يُعرَف ، وقال العقيلي : لا يُتابَع على حديثه ، وقال البخاري : لا يصح حديثه ... والطفيل قد ذَكَره ابن حبان في الثقات)) اهـ .

وصعصعة بن ناجية _ رضي الله عنه _ كان من أشراف بني تميم ، وسادةِ بني مُجاشِع . وكان يَفتدي الموؤدات في الجاهلية . وهذا يدل على سُمُوِّ أخلاقه ، ومكانته الاجتماعية الرفيعة، وتقديره للحياة الإنسانية ، وحِرْصه على حماية البنات الضعيفات من القتل البشع . وقد وظَّف أمواله لتحقيق السعادة الإنسانية ، ونشرِ الحياة والمحبة والجَمال في البيئة الجاهلية القاسية . وصار عمله هذا علامةً مضيئة على مَر التاريخ. وقد افتخر بهذا الفِعل حفيده الفرزدق الشاعر المشهور. وكان العربُ يَتفنَّنون في طُرق الوأد ، وكلُّ شخص له أسلوبه الخاص في وأد البنات . قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٠٧) : ((وكانوا في صفة الوأد على طريقين ، أحدهما : أن يأمر امرأته إذا قَـرُبَ وَضْعُها أن تطلق بجانب حفيرة ، فإذا وضعت ذَكَراً أبقته ، وإذا وَضعت أنثى طرحتها في الحفيرة ... ومنهم من كان إذا صارت البنت سداسية قال لأمها طَيِّبيها وزَيِّنيها لأزُور بها أقاربها ، ثم يبعد بها في الصحراء حتى يأتي البئر، فيقول لها: انظري فيها، ويدفعها من خلفها ويَطُمُّها)) اهـ . والجدير بالذِّكْر أن الناس في عصرنا قد أصابهم لوثة كراهية البنات ، والنظر إلى المرأة نظرة دونية ، وأنها فاقدة للمزايا الإنسانية والكرامة البشرية ، وأنها كائن غير مرغوب فيه ، وهذه خصلات جاهلية ذميمة هادفة إلى قتل الروح والحياة السوية في الأنثى . وللأسف فقد تم نقلها إلى واقعنا المعاصر . لذا سَمَّى النبيُّ ﷺ البناتِ بلاء لأن الناس يكرهونهن .

فعن السيدة عائشة _ عليها السلام _ أن النبي ﷺ قال : ((مَن ابْتُلِيَ من البنات بشيء ، فأحسن إليهنَّ ، كُنَّ له سِتراً من النار))[79].

فهذا هَدْي نبوي شريف لتحبيب البنات إلى نفوس الناس . وتسمية البنات بلاءً فيه نوع من الاختبار الإلهي للإنسان ، هل يشكر أم يكفر ؟!. والشريعة أوجدت كل السُّبل لزرع محبة البنات خصوصاً والذرية عموماً في النَّفْس البشرية . فمن أحسن إلى البنات تربيةً وتعليماً كُنَّ له حِجاباً واقياً من النار. وهذه فُرصة كبرى أن يغدوَ الإنسان في طريق المحبة ، واحترام كينونة الإنسان سواءٌ كان ذَكَراً أم أنثى. وإذا وصل الفرد إلى هذه المرحلة فإنه سيقوم بواجب الشكر لله تعالى على نعمائه وعطاياه في كل الأحوال. قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٢٩) : ((وفي الحديث تأكيد حق البنات لما فيهنَّ من الضعف غالباً عن القيام بمصالح أنفسهن ، بخلاف الذُّكور لِمَا فيهم من قوة البدن ، وجزالة الرأي ، وإمكان التصرف في الأمور المحتاج إليها في أكثر الأحوال)) اهـ .

---

(٧٩) متفق عليه. واللفظ لمسلم (٤/ ٢٠٢٧) . البخاري (٢/ ٥١٤) .

والنسق الجاهلي كان تياراً ضاغطاً على المرأة ، فقادها إلى الجهل والعزلة ، لأنه حجبها عن تلقي العِلم ، والاضطلاع بمسؤولية إنشاء جيل متعلم واعٍ . فالمرأة الجاهلية تفتقد إلى المستوى العِلمي السامي ، فهي محصورة في عالم الأوهام وانعدام المعارف نتيجة ضغط البيئة الاجتماعية القاتلة المحيطة بالطبيعة الأنثوية الغارقة في إفرازات الشعوذة ، والتقاليدِ الوثنية البالية ، والتعاليمِ الجاهلية الابتزازية. وفي تفسير الطبري(٣/ ١٥) أن سعيد بن جُبَيْر قال : ((كانت المرأة في الجاهلية تَنذر إن وَلدت ولداً أن تجعله في اليهود تلتمس بذلك طول بقائه)) اهـ .

وهذه الرؤية المتخلفة تدل على حجم الضغط الاجتماعي المسلَّط على المرأة المقتنعة _ بفِعل إفرازات البيئة المحيطة _ أن وجود الولد في اليهود يُطيل بقاءه . مما يشير إلى دور الأوهام والعواطف غير المنطقية في توجيه السلوك المجتمعي نحو عناصر سلبية بفعل الجهل المستشري في الجماعة البشرية ، والذي ينعكس بشكل مرعب على عقلية المرأة (الأم) التي يُفترَض بها أنها صانعة الأجيال .

والمرأةُ الجاهلية كانت محصورةً في رد الفعل لا الفعل ، فهي مجرد ورقة تافهة في مهب الريح . تتحرك باتجاه مضاد لأنوثتها وكيانها ومستقبلها. وما الصفاتُ المرتبطة بالمرأة مثل النياحة وضرب الخدود وشق الجيوب ... إلخ ، إلا دليل أكيد على دورها السلبي في المجتمع ، وأنها تعيش على هامش الحياة بلا وزن ولا معنى . وأن العقل الجمعي الوثني قد حصرها في قالب نمطي ، وجوده كعدمه . لذا فإن حالة الانحطاط الجاهلي العام قد أثَّرت بشكل أكبر في دور المرأة لأنها الحلقة الأضعف .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ : عن النبي ﷺ قال : ((ليس مِنَّا مَن ضربَ الخدودَ ، وَشَقَّ الجيوبَ ، ودعا بدَعوى الجاهلية))[80].

وهذه الأمورُ مرتبطةٌ بالمرأة ارتباطاً وثيقاً. فاللطمُ (ضرب الخدود) فِعل قبيح ، تقوم به بعضُ النساء في لحظات الشِدَّة ، وعند المصائب ، مثل موت شخص عزيز ، وغيره . والجَيْبُ هو فتحة ثوب المرأة من أعلى ، وشقُّها مؤشر واضح على الجزع ، ورفضِ القضاء والقَدَر .

قال الشوكاني في نيل الأوطار (٤/ ١٥٥): ((قَوْله : (مَن ضربَ الخدودَ)، خُصَّ الخد بذلك لكَوْنه الغالب ، وإلا فضرب بقية الوجه مثله. قوله : (وَشَقَّ الجيوبَ) ، جمع جَيْب بالجيم

(٨٠) متفق عليه . البخاري (١/ ٤٣٦) برقم (١٢٣٥) ، ومسلم (١/ ٩٩) برقم (١٠٣) .

، وهو ما يُفتَح من الثوب ليدخل فيه الرأس، والمراد بشقِّه إكمال فتحه إلى آخره ، وهو من علامات السخط. قوله: (ودعا بدعوى الجاهلية)، أي من النياحة ونحوها، وكذا الندبة، كقولهم: واجبلاه، وكذا الدعاء بالويل والثبور)) اهـ . وفي هذا السياق ، يقول الشاعرُ الجاهلي طَرَفة بن العبد :

فإنْ مُتُّ فانعيني بما أنا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَليَّ الجَيْبَ يا ابنةَ معبَدِ

يخاطبُ ابنةَ أخيه، فيقول لها: إذا هلكتُ فأشيعي خبرَ هلاكي بمدحي الذي أستحقه وأستوجبه. كما يُوصيها أيضاً بِشَقِّ الجيْب حزناً عليه .

وهكذا يتضح الدورُ العبثي للمرأة الجاهلية . فهي مجرد بُوق لإيصال رسائل الجزع والسخط والويل . وضعها المجتمعُ في هذه المهنة الدونية ، وهي ارتضتها بلا أدنى اعتراض . فصار اللطمُ والنياحة ... إلخ ، من الصفات الملازِمة للمرأة في الجاهلية . وهذه الخِصالُ القبيحة صارت ماركة مُسجَّلة باسم المرأة، وصارت المرأةُ والسخط وجهَيْن لعُملة واحدة صَكَّها المجتمعُ الجاهلي البدائي . ومن القضايا التي فشلَ أهلُ الجاهلية في التعامل معها قضية " الحيْض " . وهذا يشير إلى أن التعامل مع خصوصية المرأة كان مُشوَّشاً للغاية ، يسير على غير هدى . فأهلُ الجاهلية _ في ظل الفوضى الجنسية _ كانوا يَنفرون من الحائض ، فلا يسكنون معها ، ولا يأكلون معها .

قال الله تعالى : ﴿ ويسألونكَ عن المحيض قُل هو أذى فاعتزِلوا النساءَ في المحيض ولا تَقربوهنَّ حتى يَطْهُرْن ﴾[البقرة : ٢٢٢] . والآيةُ تُحرِّم جِماعَ النساء أثناء الحيض، أمَّا ما دون ذلك من الاستمتاع فليس بِمُحرَّم . ومعنى الاعتزال الوارد في الآية هو اعتزال مَوْضع الحيض وهو الفَرْج ، ولا يتعدى ذلك إلى باقي بدن المرأة [81].

---

(٨١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢٠٤) : ((فاعلمْ أن مُباشَرة الحائض أقسام أحدها ، أن يُباشرها بالجِماع في الفَرْج ، فهذا حرام بإجماع المسلمين بِنَص القرآن العزيز والسُّنة الصحيحة . قال أصحابنا : ولو اعتقد مُسْلم حِل جِماع الحائض في فَرْجها صار كافراً مرتداً ، ولو فَعله إنسان غير مُعتقد حِلَّه ، فإن كان ناسياً أو جاهلاً بوجود الحيض ، أو جاهلاً بتحريمه ، أو مُكرَهاً فلا إثم عليه ولا كفارة ، وإن وطئها عامداً عالِماً بالحيض والتحريم مختاراً ، فقد ارتكب معصية كبيرة، نصَّ الشافعي على أنها كبيرة ، وتجب عليه التوبة)) .

وروى الطبري في تفسيره (٢/ ٣٩٢) عن قتادة قال : ((فكان أهلُ الجاهلية لا تساكنهم حائض في بيت ، ولا تؤاكلهم في إناء)) اهـ .

ومن الواضح أن العرب كانوا يُقلِّدون اليهودَ في هذا الشأن ، ويسيرون على خطاهم بلا بصيرة . وهذا غير مستغرب على عرب الجاهلية الذين كانوا يضعون اليهودَ والنصارى في مرتبة سامية بحُكم أنهم أهل كتاب ، فيَقتدون بهم ، ويَحترمون رأيَهم .

وكما قال الشاعر :

وَمَن يَكن الغرابُ له دليلاً يَمُرُّ به على جِيَفِ الكلابِ

وفي صحيح مسلم (١/ ٢٤٦) : عن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنَّ في البيوت ، فسأل أصحابُ النبي ﷺ النبيَّ ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونكَ عن المحيض قُل هو أذى فاعتزِلوا النساءَ في المحيض ﴾ إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ : ((اصنعوا كل شيء إلا النِّكاح)) ، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا : ما يريد هذا الرَّجلُ أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه .

وقد اعتنقَ العربُ طريقةَ اليهود في التعامل مع المرأة الحائض ، فَتَجَنَّبوا مُؤاكلةَ الحائض ومساكنتها . وهذا من باب التقليد الأعمى بلا دليلٍ دِيني ، ولا برهان عقلي .

والقاعدةُ الفقهية في هذا السياق هي " اصنعوا كل شيء إلا النِّكاح " ، وهذا يعني جَواز مباشرة الحائض فيما عدا الفَرْج . والإسلامُ يُؤسِّس قواعدَه الخاصة دون تقليد لأحدٍ ، فهو نظامٌ متكامل قائم بذاته ، لا يعتمد على التقليد الأعمى ، وإنما يعتمد على الوحي السَّماوي المعصوم .

ومخالفةُ اليهود في هذا الموضوع لم تجئْ بدافع العصبية أو التَّكبُّر ، وإنما جاءت لترسيخ الحق ودحضِ الباطل ، ولو كان اليهودُ يَمْلكون دَليلاً شرعياً على تعاملهم مع الحائض لأقرَّهم الإسلامُ ، ولكنهم يَفتقدون إلى الْحُجَّة والبرهان ، لذلك دحضَ الإسلامُ باطلَهم ، وأرسى قواعدَ الحق ، فالحقُّ أحق أن يُتَّبع . والمشكلةُ أن اليهود يَنظرون إلى القضايا الدينية على أنها قضايا شخصية ، وصراعات فردية ، ونزاعات اجتماعية ، لذلك نجدهم يصبغون القضايا بالتعصب والأهواء الشخصية ، وهُم غير مَعنيِّين بالبحث عن الحق واعتناقه . فأحكامهم قائمة على الأهواءِ والمصالحِ الشخصية ، ولا تَقوم على الْحُجَجِ والبراهين .

التعامل مع الأبناء

إن الجاهلية نسقٌ صحراوي قاسٍ على المستوى الروحي والمادي . وتظهر هذه القسوةُ في التعامل مع الأبناء (جيل المستقبل) . وقد اخترع أهلُ الجاهلية طقوساً للتعامل مع أبنائهم . وبالتأكيد ، فهي طقوس مُتوارَثة مأخوذة من تقاليد الآباء ، وتعكس قسوةَ البيئة الرملية التي عاشوا فيها، فصارت الصحراءُ ثقافةً لهم ، والرمالُ حضارةً لهم .

وعن بُرَيْدة قال : ((كُنَّا في الجاهلية إذا وُلد لنا غلام ، ذَبحنا عنه شاة ، وحلقنا رأسَه، ولطَّخنا رأسَه بدمها، فلمَّا كان الإسلامُ كُنَّا إذا وُلد لنا غلام ذَبحنا عنه شاة ، وحلقنا رأسه ، ولطَّخنا رأسه بزعفران))[82].

والدمُ يَحمل رمزيةً قاسية . وما تلطيخ رأس الغلام به إلا دليل واضح على قسوة طباع الجاهليين ، وأنهم كائنات دموية في مشاعرها وسلوكها . ويريدون توريث هذه الخشونة إلى أبنائهم لكي يَشُبُّوا غِلاظاً شِداداً ، يَفرضون سطوتهم على الآخرين بالعنف والإرهاب . وبالتالي يَحفظون هَيبةَ القبيلة بين القبائل ، وتصبح العائلةُ (الصغيرة والكبيرة) مرهوبة الجانب ، يحمل أخبارَ قسوتها الناسُ في حِلِّهم وترحالهم . وفي مثل هذا المناخ الموبوء ينشأ الأبناءُ وقد تشرَّبوا ثقافةَ العنف ، وتعلَّموا أن يأخذوا حقهم بأيديهم وأسلحة القبيلة . فيختفي منطقُ التسامح نهائياً ، ويصبح مؤشراً على الضعف والذل . فالمجتمعُ الجاهلي هو بيئة صراع مستمر ، لأن الثقافة الصحراوية الرملية هي بيئة نزاع وإقصاء وصراع على الماء والكلأ ، حيث يتم إثبات الوجود عبر نفي وجود الآخرين ، بعكس البيئة النَّهرية _ مَثَلاً _ القائمة على التعاون وتضافر الجهود .

وانظر إلى قول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم (أحد أصحاب المعلَّقات) :

إذا بَلَغَ الفِطامَ لنا صبيٌّ تَخِرُّ له الجبابِرُ ساجِدينا [83]

---

(٨٢) رواه الحاكم في المستدرك(٤/ ٢٦٦)برقم(٧٥٩٤) وصححه ، ووافقه الذهبي.

(٨٣) يقول إبراهيم أبو عواد في فلسفة المعلَّقات العشر (ص ١٩١) : ((يَرسم الشاعرُ صورةً أسطوريةً لقوة عشيرته، وتتجذر الهالةُ الجنونية المحيطة بالقبيلة . لا مكان هنا للمنطق . لا وقت لصوت العقل . القوةُ أوَّلاً، والقوةُ أخيراً.يقولُ : إذا بَلَغَ صِبياننا وقتَ الفِطام سَجدت لهم الجبابرة من القبائل= =الأخرى

فهـذا المنطـق الجـاهلي يشـير ــ بوضـوح ــ إلـى الثقافـة الوحشـية المرتبطـة بتربيـة الأبنـاء ، وإعدادهم لحمل راية القبيلة ، وقهر الآخرين ، واضطهاد باقي القبائل . فلا مكان في المجتمع الجاهلي إلا للذئاب الكاسحة، فإن لم تكن ذئباً أكلتكَ الذئاب. وهذا هو قانون الغاب الذي كان سائداً في الأنساق الجاهلية على كافة الأصعدة .

وقد كانت مُعلَّقة عمرو بن كُلثوم (سَيِّد بني تَغْلِب) مثالاً للفخر والبطش والعِناد واستعراض القوة بلا منطق . وهذه القصيدةُ النارية التي تعتمد على منطق القوة لا قوة المنطق ، كان يَحفظها كِبار القبيلة ، ويُحفِّظونها لأبنائهم الصِّغار ، حتى يتشرَّبوا قيم الشِّدة والبأس والجبروت والقَسوة منذ الطفولة . وبُنو تغلب تُعظِّم هذه القصيدة بشكل جنوني ، ويَعتبرونها نصَّاً مُقدَّساً ، وشريعةً لازمة . حتى هُجوا بذلك . فقال بعض شُعراء بكر بن وائل :

أَلْهَى بني تَغْلِبٍ عن كُلِّ مَكْرُمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ
يَرْوُونها أبداً مُذ كان أوَّلُهم يا للرجالِ لِشِعْرٍ غَيرِ مسؤومِ

وانظر إلى قَوْل الشاعر الجاهلي زُهير بن أبي سُلمى (أحد أصحاب المعلَّقات) :

وَمَن لم يَذُد عن حَوْضه بسلاحه يُهَدَّم وَمَن لا يَظلِم الناسَ يُظْلَمِ (84)

. ولا شَكَّ أن هذه الصورة الممتلئة بالتحدي والفخر والسُّؤدد ، تكشف ماهيةَ الصراع العشائري، وتُبرِز طبيعةَ البيئة العربية الصحراوية القاسية، حيث القبيلة القوية تَسْحق القبيلةَ الضعيفة . وهؤلاء الصِّبيان ــ الذين ليس لهم ناقة ولا جَمل في الصراعات القَبَلية ــ يتم إقحامهم في عالَم شديد الخطورة ، وغير متصالح مع نفْسه . وبمجرَّد بلوغهم وقت الفِطام تتكرَّس زعامتهم وسِيادتهم على باقي القبائل ، حيث يَسْجد لهم الجبابرةُ والفُرسانُ الأشداء والأشراف . والشاعرُ يَرمي إلى إبراز مكانة عشيرته وسِيادتها على باقي القبائل . وإذا كان الصِّبيان في عشيرة الشاعر قد بَسطوا نفوذَهم على جبابرة القبائل ، فما بالك بالشجعان والرِّجال الأشداء في عشيرة الشاعر؟!.وما بالك بالصِّبيان عندما يَكْبرون ويُصبِحون رِجالاً ؟!. لقد أثارَ الشاعرُ هذه الأفكار ضِمنياً ، وأحاطَ عشيرته بهالة القداسة والسِّيادة ، مُؤمناً بأن منطق القوة هو المنطق الوحيد في هذه البيئة القاسية)) اهـ .

(٨٤) يقول الشاعر : ومن لم يحمِ حَوْضَه بالسلاح فإن حَوْضه سَيُهْدَم ، ومن امتنع عن ظلم الناس ، فإنهم سيظلمونه . وانظرْ فلسفة المعلقات العشر ، إبراهيم أبو عواد ، ص ٢٣٢و ٢٣٣ .

وهذه الرؤيةُ تقول إن لم تكن ظالماً فستكون مظلوماً خاضعاً لظلم الآخرين وبطشهم. وهذا الجو الكئيب يدل على صعوبة الحياة العربية البدائية، وشدة بأسها. وهذه المعاني يتم توريثها للأبناء الذين تتم تربيتهم في جو رهيب من العنف والعنف المضاد ، لكي يُصبحوا قادرين على صَوْن أنفسهم، وشرفِ عائلاتهم، وسُمعة قبائلهم، في هذه البيئة الصحراوية الشرسة . إذ إن قانون الغاب هو الشريعةُ الرسمية للحياة الاجتماعية في الجاهلية بكل فروعها .

ومن الدلائل الواضحة على خشونة الحياة الجاهلية تسميةُ الأبناء بأسماء الحيوانات ، مثل كِلاب ، وجحش ، ... إلخ . وقد كان أمراً عادياً لا يدعو للاستغراب . كما كان منتشراً إضافة الأسماء إلى الأصنام مثل عبد العُزَّى وغيرها .

وعن عبد الرحمن بن عوف ــ رضي الله عنه ــ قال : ((كان اسمي في الجاهلية عبد عمرو فَسَمَّاني رسولُ الله ﷺ عبد الرحمن))[85].

وهكذا تتضح المنهجيةُ الإسلامية في تغيير الأسماء . فالعبوديةُ لا تكون إلا لله وَحْدَه . فاسمُ " عبد عمرو " هو تلخيص للحالة الجاهلية في اختراع أسماء ، وإسناد العبودية لغير الله تعالى . فما كان من النبي ﷺ إلا أن قام بتغيير الاسم ليُصبِح مضافاً إلى الرحمن (أحد أسماء الله الحسنى) . والأسماءُ لَيستْ مُجرَّد حروف وكلمات . إنها مؤشر دقيق على الدِّين والثقافة والبُعد الحضاري . لذلك وجدنا أن كُل أُمَّةٍ في الأرض له أسماء خاصة بها ، تحترمها ، وتُطلقها على الأبناء بعد ولادتهم ، وذلك من أجل استمرارِ الحضارة ، ودَيمومةِ الثقافة المجتمعية السائدة ، وتوريثِ القيم الروحية والمادية .

والخشونةُ الجاهلية لم تتوقف عند طقوس الولادة والتَّسمية ، بل امتدت إلى السلوك الاجتماعي الخاص بالتعامل مع الأبناء . حيث غياب المحبة والحنان في التعامل معهم بذريعة أن الحُب ضَعف لا يَليق بالرُّجولة وأخلاقِ الجاهلية .

فعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قَبَّلَ رسولُ الله ﷺ الحسن بن علي ، وعنده الأقرع ابن حابس التميمي جالساً ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ، ما قَبَّلْتُ منهم أحداً ، فنظرَ إليه رسولُ الله ﷺ ثم قال : ((مَن لا يَرحم لا يُرحَم))[86].

---

(٨٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٨) برقم (٧٧٣١) وصححه ، ووافقه الذهبي.

(٨٦) متفق عليه . واللفظ للبخاري (٥/ ٢٢٣٥) . ومسلم (٤/ ١٨٠٨) .

وتقبيلُ النبي ﷺ للحسن ــ رضي الله عنه ــ يدل على المحبة النبوية التي تَشمل الصِّغار والكبار. كما أن الأطفال بحُكم ضَعفهم ، يحتاجون إلى مزيد من الحب والرعاية والحنان والإشباع العاطفي لكي ينشأوا في بيئة صحية خالية من الكراهيةِ والعُقد النفسية .

وقد كان هذا الفِعلُ النبوي الشريف مفاجئاً للأقرع بن حابس الذي ذَكَرَ أن له عشرة أولاد لم يُقَبِّل منهم أحداً . ولم يتأخر الردُّ النبوي ، فَنَبَّه النبيُّ ﷺ على أن الذي لا يَرحم الآخرين لن يَرحمه اللهُ تعالى ، ولن يَرحمه الناسُ .

ولا يمكن لأحد ما مهما بلغ من القوة والمكانة أن يَستغنيَ عن الحب ، لأن النفس البشرية متعطشة للحب ، ومجبولة على حُبِّ من أَحسن إليها . لكنَّ البعض يَعتبرون المشاعر والأحاسيس من الضعف والترف والرفاهية التي لا يُحتاج إليها . وهذا خطأ واضح ، لأن الحب هو مركزية القوة ، وليس ضعفاً . ولكنَّ البيئة القاسية تؤثر سلباً في مفهوم الحب ، مما يؤدي إلى تهميشه ، واعتبار الكلام عنه ترفاً مرفوضاً . كما أن أصحاب الطباع الخشنة لهم تأثير سلبي ، وذلك بما يطرحونه من أفكار متشنجة ، وآراء خشنة تتعارض مع الشعور الإنساني ، وتسير باتجاه مضاد للوجود البشري .

وأخيراً وليس آخِراً ، ينبغي القول إن التعامل مع الأبناء في البيئة الجاهلية كان مُحاطاً بالخرافاتِ والأوهام ، ومِنها ــ على سبيل المثال لا الحصْر ــ رَمْي سِن الصبي الْمُثَّغِر في الشمس . يقولون إن الغلام إذا أَثَّغرَ (سَقطتْ أسنانه) ، فرمى سِنَّه في عَين الشمس بِسَبَّابته وإبهامه ، وقال : أبدليني بها أحسن منها ، أمِنَ على أسنانه العِوَجَ والفَلَجِ (تباعُد ما بين الأسنان) والنَّغَلِ (العَفَن).

وقد قال الشاعرُ في ذلك :

بَدَّلَتْهُ الشمسُ مِن مَنْبته بُرْداً أبيضَ مَصقولَ الأشَرِ

والمعنى أن الشمس قد بَدَّلت سِنَّ الصبي مِن أساسه ، ومَنَحته سِنَّاً جديدةً مصقولةً ، تُشْبِهُ البُرْدَ(الكِساء) الأبيض الجديد . ويُقال : أشَرَ الأسنانَ أشْراً ، يعني حَزَّها ورقَّق أطرافَها .

التَّبَنِّي

لا يخفى أن الفوضى في الجاهلية كانت شاملةً لكل مناحي الحياة . وقد تأثرت الحياةُ الاجتماعية سلباً بالطقوس العربية القديمة . فمثلاً ، نجد أن التبني صار شرعياً بحُكم العادات والتقاليد، ومنظومةً أُسرية بحد ذاته ، تترتب عليه حقوق وواجبات . وهذا يشير إلى أثر العقل الجمعي الجاهلي في التشريع وتقديمِ الغطاء الاجتماعي والأخلاقي للسلوكيات الإنسانية المختلفة. وفي صحيح البخاري (٤/ ١٤٦٩) : عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زَوْجِ النبي ﷺ : أن أبا حُذَيْفة ـ وكان ممن شهد بدراً مع رسول الله ﷺ ـ تَبَنَّى سالماً ، وأنكحه بنت أخيه هند بنت الوليد بن عُتبة ، وهو مَوْلى لامرأة من الأنصار ، كما تَبَنَّى رسولُ الله ﷺ زَيْداً ، وكان مَن تَبَنَّى رَجلاً في الجاهلية دَعَاه الناسُ إليه ، وَوَرِثَ من ميراثه ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ادْعوهم لآبائهم ﴾ [الأحزاب : ٥] .

من الملاحَظ أن التبني كان ثقافةً مجتمعية سائدة بلا نكير . فقد اتفقت العربُ على شرعيته ، وَرَتَّبت على هذا الأمر قضايا النَّسَب والميراث وغيرهما. وفلسفةُ التبني تدور حول اصطفاء الأخيار من أبناء الآخرين، وإسناد نَسَبهم إلى غير آبائهم. وعربُ الجاهلية كانوا يرمون من وراء شَرْعنة هذا الفعل إلى الحصول على النماذج البشرية الجيدة، والاستحواذ على الطاقات الإنسانية الخلاقة. فهم ـ بذلك ـ يريدون تكثير عدد أبنائهم ، وضم العناصر البشرية التي يَرَوْنَ فيها الصفاتِ الحميدة . وفي حالة الإنجاب لا يَمكن للآباء تحديد صفاتِ أبنائهم ، أمَّا في حالة التبني فهم قادرون على تحديد الصفات التي يَرغبونها ويَرَوْنَ أنها سَتَدعمهم في حياتهم الاجتماعية القاسية. لذلك كان التبني ـ بالنسبة لهم ـ ضرورياً لتكثير العدد ، وتحسين النسل . كما أن الشخص الذي يتم تبنِّيه يُعامَل كالابن تماماً من حيث النَّسَب والميراث ، وهذا يشير إلى مركزية هذه القضية وحيويتها في المجتمع . وقد تبنَّى النبيُّ ﷺ زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ ، مما يشير إلى أن التبني كان معمولاً به في الجاهلية والإسلامِ إلى أن نُسِخ بقول الله تعالى : ﴿ ادْعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ [الأحزاب: ٥]. فأمر اللهُ تعالى بأن يُنسَب الرَّجلُ إلى أبيه، لأن هذا هو العدل الواجب اتباعه[87].

(٨٧) في فتح الباري (١٢/ ٥٥) أن ابن بطال قال : ((لكن بقي بعضهم مشهوراً بمن تَبَنَّاه فَيُذكَر

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٠٨) : ((فرفعَ اللهُ حُكْمَ التبني ، ومنع من إطلاق لفظه ، وأرشد بقَوْله إلى أنَّ الأَوْلى والأعدل أن يُنسَب الرَّجلُ إلى أبيه نَسَباً . فيُقال : كان الرَّجلُ في الجاهلية إذا أعجبه من الرَّجل جَلَده وظُرفه ضَمَّه إلى نفْسه ، وجعل له نصيب الذَّكر من أولاده من ميراثه ، وكان يُنسَب إليه ، فيقال فلان بن فلان)) اهـ .

وأشهر مثال على ذلك هو زيد بن حارثة _ رضي الله عنه _ . فبعد أن تبنَّاه النبي ﷺ صار يُدعَى زيد بن محمد. وما كان ليحصل هذا لولا المحبة العميقة بين النبي ﷺ وزيد رضي الله عنه .

وعن عبد الله بن عمر _ رضي الله عنهما _ : ((أن زيد بن حارثة مَوْلى رسول الله ﷺ ما كُنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾))[88].

والعدلُ يَقتضي أن يُنسَب الرَّجلُ لأبيه الذي أنجبه ، فالرَّجلُ عبارة عن نطفة خَرجت من ظَهر أحدهم . وصاحبُ النطفة هو الأحق بها . لذا فإن إسناد نَسَب الأبناء لآبائهم كان من القضايا الكبرى التي نادى بها الإسلام من أجل الحفاظ على تماسك الأُسر ، والحيلولة دون تمزقها. وبالتالي بناء مجتمع متماسك خالٍ من اختلاط الأنساب والتنازع عليها . وهذا يدل على منهجية الإسلام في تجذيرِ الوقاية ، وسَدِّ الذرائع ، وحمايةِ المجتمع من كُل بذور الشِّقاق والصراع .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ١٩٥) : ((قال العلماء : كان النبيُّ ﷺ قد تبنَّى زَيْداً ، ودعاه ابنه ، وكانت العربُ تَفعل ذلك ، يتبنَّى الرَّجلُ مَوْلاه أو غَيْرَه فيكون ابناً له يُوارثه وينتسب إليه ، حتى نَزلت الآية ، فرجعَ كل إنسان إلى نَسَبه ، إلا مَن لم يكن له نَسَب معروف ، فيُضاف إلى مواليه)) اهـ .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّه قال : قام رَجل فقال : يارسول الله ، إن فلاناً ابني، عاهرتُ بأُمِّه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: ((لا دِعْوةَ في الإسلام، ذهب أمرُ الجاهلية ، الولدُ للفِراش ، وللعاهرِ الحَجَرُ))[89].

به لقصد التعريف لا لقصد النَّسَب الحقيقي، كالمقداد بن الأسود، وليس الأسود أباه وإنما كان تبناه، واسم أبيه الحقيقي عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة البهراني ، وكان أبوه حليف كِندة فقِيل له الكندي ثم حالف هو الأسود بن عبد يغوث الزهري ، فتبنى المقداد فقيل له ابن الأسود)) اهـ .

(٨٨) متفق عليه. واللفظ للبخاري(٤/ ١٧٩٥) . ومسلم (٤/ ١٨٨٤) .

(٨٩) رواه أبو داود في سننه (١/ ٦٩٢) . وحَسَّنه الحافظ في الفتح (١٢/ ٣٤) .

والدِّعْوةُ في النَّسَب هو أن يَنْتسب الإنسانُ إلى غَيْر أَبيه وعشيرته . وقد كان العربُ يَفْعلون ذلك ، فأبطلَ الإسلامُ هذا الأمرَ ، وجعلَ الولدَ للفِراش . نَعَم ، لقد أبطلَ الإسلامُ الدِّعْوةَ ، وهدمَ أمرَ الجاهلية ، حيث كانت الأنسابُ مختلطة وفي محل الشك والشُّبهة والتنازع . وحسم قضيةُ النَّسَب ، حيث الولد لفِراش الزوجية ، يُنسَب لأبيه الذي أنجبه ، أمَّا الزاني فله الحَجَر (الرَّجم) .

وعن أبي ذَر ــ رضي الله عنه ــ : أنه سمعَ النبيَّ ﷺ يقول : ((لَيْسَ مِن رَجل ادَّعى لِغَيْر أبيه وهو يَعْلمه إلا كَفَرَ ، وَمَن ادَّعى قَوْماً ليس له فيهم نَسَب ، فليتبوأ مَقْعده من النار))[90].

والمقصودُ بالكُفر هو كُفر النِّعمة (جُحودها) . أمَّا الكُفر بمعنى الخروج من الإسلام فلا يَكون إلا لمن استحلَّ ذلك (اعتقده حَلالاً) مَعَ عِلْمه بالتحريم .

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٥٤٠) : ((وقَوْله : " ليس مِن رَجل " مِن زائدة ، والتعبير بالرَّجل للغالب ، وإلا فالمرأة كذلك حُكمها)) اهـ . وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٩٤) أن النبي ﷺ قال : ((وَمَن ادَّعى إلى غَيْر أبيه ، أو انتمى إلى غَيْر مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يَقْبل اللهُ مِنه يوم القيامةً صَرْفاً ولا عَدْلاً)).

واللعنةُ هنا تَختلف عن لعنة الكافر ، فلعنةُ الكافر هي الطرد من رَحمة الله تعالى . أمَّا اللعنةُ في سياق الحديث فهي العذاب المستحق لمرتكب هذه الكبيرة ، والطرد عن الجنَّة أوَّل الأمر .

والصَّرْفُ الفريضة ، والعَدْلُ النافلة . والمعنى : أن اللهَ تعالى لا يَقْبل مِنه يوم القيامة أعمالَه ، سَواءٌ كانت فرائض أَم نوافل . وهذا مُنتهى الخُذلان .

وقد اعتنى الإسلامُ أشد العناية بقضية حِفظ الأنساب ، والحفاظِ على تماسك الأسرة والمجتمع دون نزاعات أو شبهات . فأرشد النساءَ إلى أهمية ألا يُلْحِقْنَ بأزواجهن غير أولادهم . فقال اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَأْتينَ بِبُهتان يَفْترينه بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ ﴾ [الْمُمْتَحَنَة : ١٢][91].

أي : لا يَكذبن في مَوْلود بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ . وهذا يدل على ضرورة نقاء الأنساب من الشك والاحتمال ، لِمَا في ذلك من تدعيم للوحدة المجتمعية ، والمحافظة على الطهارة الإنسانية

---

(٩٠) متفق عليه . البخاري (٣/ ١٢٩٢) ، ومسلم (١/ ٧٩) .

(٩١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ٤٣٣) : ((في حديث بَيْعَة النّساء [ولا يأتِينَ بِبُهْتان يَفْتَرِينَه] هو الباطل الذي يُتَحيَّر منه ، وهو من البُهْت التَّحيُّر ، والألِف والنُّون زائدتان . يقال بَهَته يَبْهَتُه. والمعنى: لا يَأتِينَ بوَلد من غير أزواجهنَّ فيَنْسبنه إليهم. والبُهْتُ: الكذب والافْتِراء)) اهـ .

، ومكارم الأخلاق ، بعيداً عن الكذب والغش والخداع . خصوصاً أن قضية الأنساب شديدة الحساسية لأنها تتعلق بالقيم والمبادئ والشرف الذي له قُدسيته في كل المجتمعات على اختلاف أديانها وأعراقها .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٠٠): ((ليس المراد منه نهيهنَّ عن الزِّنا ... بل المراد منه أن تلتقط مولوداً، وتقول لزوجها: هذا ولدي منك . فهو البهتان المفترَى بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ، لأن الولد إذا وضعته الأم سَقَطَ بين يَدَيْها ورِجْلَيْها)) اهـ .

وقد كانت المرأةُ تقوم بهذا الفِعل للحفاظ على مال زَوْجها الذي ليس له ولد . فهي تخشى على ماله بعد موته ، فتلتقط ولداً ، وتَزعم أنها قد وَلَدَتْهُ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : شَهدتُ الصلاةَ يوم الفِطْر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ، فَكُلُّهم يُصلِّيها قبل الْخُطْبة ثم يخطب بعد ، فَنَزَلَ نبيُّ الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ، ثم أقبلَ يَشُقُّهم حتى أتى النساءَ مع بلال ، فقال : ((﴿ يا أيها النبيُّ إذا جاءكَ المؤمناتُ يُبَايِعْنَكَ على أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلْنَ أولادهُنَّ ولا يَأْتينَ بِبُهتان يَفْترينه بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ ﴾)). حتى فَرَغَ من الآية كلها ثم قال حِين فَرَغَ : ((أَنْتُنَّ على ذلك ؟)) . وقالت امرأة واحدة ــ لم يُجِبْه غيرها ــ : نعم يا رسول الله [92].

وهذه هي شروط بَيْعة النساء ، وهي بَيْعة بالكلام مِن غَيْر أخذ كَف . فالنبيُّ ﷺ لا يَمَسُّ امرأةً لا تَحِلُّ له . وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٣٧) : عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: ((وما مَسَّتْ يَدُ رسولِ الله ﷺ يَدَ امرأةٍ إلا امرأة يَمْلكها)). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((أَيُّما امرأة أَدخلت على قَوْمٍ مَن ليس مِنهم ، فَلَيْسَتْ مِن الله في شيء ، ولن يُدخِلها اللهُ جَنَّته ، وأَيُّما رَجل جَحَدَ وَلَدَه وهو يَنظر إليه ، احتجبَ اللهُ منه ، وفضحه على رؤوس الخلائق مِن الأوَّلين والآخرين))[93]. وهذا يُشير إلى أهمية حفظ الأنساب ، وعدم التلاعب بها . فحرامٌ على المرأة أن تتلاعب بالنَّسل والنَّسَب ، وتُدْخِلَ على قومٍ نَسَباً ليس منهم ، ومَن قامت بهذا العمل فلن تَدْخل الجنَّةَ .وأيضاً ، حرامٌ على الرَّجل أن يُنكِر ابنَه وهو يَرى أنه مِن صُلْبه ، ومَن فَعَلَ ذلك حَرَمه اللهُ مِن رَحمته ونعيمه ، وفضحه يوم القيامة أمام الخلائق كلهم ، وكشفَ كذبَه على زوجته .

---

(٩٢) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٨٥٧) ، ومسلم (٢/ ٦٠٢) .

(٩٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٢٠) برقم (٢٨١٤) وصححه ، ووافقه الذهبي.

التفاخر بالآباء

يُعْتَبَر التفاخرُ بالآباء من القواعد الاجتماعية الأساسية في الجاهلية. وهذا ليس غريباً. فالجاهليةُ _ كنسقٍ دِيني واجتماعي _ مبنية بالكامل على التقليد الأعمى ، وتمجيدِ الأحساب ، والسَّيرِ على خطى الآباء والأجداد ، واعتناقِ دِينهم ، وتقديسِ أفعالهم ، وذِكْرِ بطولاتهم ، والإشادةِ بإنجازاتهم .

قال اللهُ تعالى : ﴿ فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا اللهَ كَذِكْركم آباءكم أو أشدَّ ذِكْراً ﴾ [البقرة: ٢٠٠] . وقد كان أهلُ الجاهلية إذا فَرَغوا من الحج ، قاموا فافتخروا بآبائهم ، وعَدَّدوا مناقبهم ، وأشادوا بأفعالهم وخِصالهم .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٢٩) : ((عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموْسِم ، فيقول الرَّجلُ منهم : كان أبي يُطْعِم ، ويَحمل الحَمَالات، ويَحمل الدِّيات . ليس لهم ذِكْرٌ غير فِعال آبائهم، فأنزل اللهُ على محمد ﷺ : ﴿ فاذكروا اللهَ كَذِكْركم آباءكم أو أشدَّ ذِكْراً ﴾)) . وهذا يدل على أن التفاخر بالآباء في الجاهلية ليس سُلوكاً اجتماعياً فَحَسْب ، بل هو أيضاً عقيدة دِينية . فأهلُ الجاهليةِ كانوا يختارون مَوْسمَ الحجِّ المقدَّسِ للتعبير عن أمجاد آبائهم ، وهذا الارتباط ليس عفوياً أو صُدفةً ، بل هو ارتباطٌ مُخَطَّطٌ له مُسْبقاً لإضفاء هالة القداسة على أفعال الآباء ، ورَبْطها بالحج الذي يَحْضره العربُ من كل أنحاء الجزيرة العربية . وهكذا ، يُحقِّق أهلُ الجاهلية هَدَفَيْن معاً : الأول_ تقديس أفعال الآباء وربطها بعبادة الحج، والثاني _ نشر هذه الأفعال على مسامع الحجيج الذين سَيَعودون إلى قبائلهم ومناطقهم فينشرونها، ويبثُّونها بين الناس. وهكذا يقترن الافتخارُ بالآباء بمنظومة العبادة (الحج) / الإعلام (نشر أفعال الآباء على مسامع الناس).

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٢٧) : ((كانت عادةُ العرب إذا قَضَتْ حَجَّها تقف عند الجمرة ، فتفاخر بالآباء ، وتَذْكر أيامَ أسلافها من بسالة وكَرَم وغير ذلك ، حتى إن الواحد منهم ليقول : اللهم إن أبي كان عظيم القُبَّة ، عظيم الجفنة ، كثير المال ، فأعطني ما أَعْطَيْتَهُ ، فلا يَذْكر غير أبيه ، فَنَزلت الآية لِيُلْزموا أنفسهم ذِكْر الله أكثر من التزامهم ذِكْر آبائهم أيام الجاهلية ، هذا قول جمهور المفسِّرين)) اهـ . وهذا الحِرصُ الهستيري على ذِكر أفعال الآباء ، وما قاموا به من إنجازات على الصعيدَيْن الشخصي والعام ، يُشير إلى غرق أهل الجاهلية في الحياة الدنيا ،

وعدمِ النظر إلى ما هو أبعد منها . ومِن أفعال الجاهلية الرامية إلى تعظيم الآباء، الحلفُ بهم . وهذا يعني إقحامهم في شعائر دِينية .

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ : عن النبي ﷺ قال : ((ألا مَن كَانَ حَالِفاً فلا يَحْلِف إلا بالله)) . فكانت قُرَيْش تَحْلِف بآبائها ، فقال : ((لا تَحْلِفوا بآبائكم))[94] .

والحلفُ يَقتضي تعظيمَ المحلوف به ، والعَظَمةُ للهِ وَحْدَه ، لَيْست للآباء ولا لغَيْرهم .

والثقافة الجاهلية قائمة ــ بالأساس ــ على مُتخيَّل أسطوري تم تكريسه بفعل نفوذ العقل الجمعي ، وتوارثِ العادات والتقاليد دون إعمال العقل النقدي . وفي ظل هذه الثقافة الهستيرية المكرَّسة ، يأتي التفاخرُ بالآباء كمبدأ ثابت في الحياة العربية البدائية . وذلك لأن هذا التفاخر يُكسِب الفردَ والقبيلة سُمعةً بين العرب، مما يُعلِي مِن المكانة الاجتماعية. ولا يمكن إغفال أهمية قيم المجد والشرف والرِّفعة في الحياة الجاهلية ، فالعربيُّ المعزول في صحراءِ الفكر وصحراءِ الرمال كان غارقاً في الرياء وعشقِ المديح ، إذ إن الدنيا هي منتهى أحلامه ، فلم يكن في باله قيمُ الإخلاص لله تعالى ، والأجر الأُخروي بعد الموت . فحياته الدنيا هي بدايته ونهايته ، ولا يَعتقد بوجود شيء وراء الموت. لذلك كان يريد امتصاص الدنيا بكل زُخرفها حتى الرمق الأخير. ولا شك أن التفاخر بالآباء والحصول على منْزلة شريفة بين الناس من أهم أهداف العربي البدائي. ولا يخفى أن قيم الفخر والمجد والسُّمعة تدغدغ الشعورَ الإنساني ، وتنفخ الفردَ والقبيلةَ بحيث تتضخَّم الأنا العُليا ، وتصبح الذاتُ هي كل شيء ، ولا يوجد أبعد منها .

وتعظيمُ الذات من أركان الفلسفة الجاهلية ، وهذا لا يتأتى إلا باختراع سلسلة من الفخر والسؤدد تشمل الآباء الغابرين ، من أجل منح الشرعية للأبناء الذين يُقدِّسون عِظامَ آبائهم طلباً للصِّيت ، وانتشاره بين العرب . لذا فالتفاخرُ بالآباء قضية مركزية حساسة ، زادها أهميةً البعدُ العشائري والروابط العائلية .

والجديرُ بالذِّكر أن المجتمع الجاهلي ذا الصبغة القَبَلية هو كيانٌ تجميعي للسلالات العائلية المترابطة . وهذه السلالات عبارة عن حلقات بشرية موزَّعة على مراحل التاريخ وبقعِ الجغرافيا . فإذا طُعن في إحدى الحلقات أو فُقدت ، فهذا يعني أن السلالة بأكملها فَقدت وجودَها واسمَها . لذلك كان تقديسُ الآباء ضرورياً في الحقبة الجاهلية من أجل حصول الأبناء على المكانة

---

(٩٤) متفق عليه . البخاري (٣/ ١٣٩٤) ، ومسلم (٣/ ١٢٦٦) .

والحصانة في المجتمع المحكوم بقوانين الغاب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : ((لا تفخروا بآبائكم في الجاهلية ، فوالذي نَفْس محمد بيده،لَمَا يُدَهْدِهُ الْجُعَلُ بِمِنْخَرَيْه خيرٌ من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية))[95].

فلا فائدة من التفاخر بالآباء في الجاهلية لأنهم كانوا على ضلال، عاشوا عُمياناً وماتوا عُمياناً . رَفضوا طريقَ الحق فخسروا الدَّارَيْن .

وفي الحديث الشريف تصويرٌ بليغ . فالفضلاتُ التي يُدحرِجها الجعلُ (حيوان كالخنفساء) بمنخريه أفضل من الآباء الذين ماتوا في الجاهلية ، لأنهم قد ماتوا على الكفر ، فصارت قبورُهم حفرةً من حُفر النار ، وليس لهم في الآخرة إلا الخلود في النار . ومَن كانت هذه حاله ، لا يُعقَل أن يتفاخر الناسُ به . ولا وزن لمكانة هؤلاء الآباء الكافرين التي تبوَّؤوها في الجاهلية ، لأن الوزن الحقيقي هو عند الله تعالى وليس عند الناس . فَكَم مِن عظيم في الدنيا حقير عند الله تعالى ، وكَم من حقير في الدنيا عظيم عند الله تعالى . فالعِبرةُ بالتقوى ، والتقوى محلها القلب ، لا يَطَّلع عليها إلا الله تعالى .

وقد وضَّح اللهُ تعالى أن معيار التفاضل بين الخَلْق هو التقوى ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتقَاكُمْ ﴾[الْحُجُرات : ١٣] .

ولم يقل اللهُ تعالى إن أكرمكم أتقاكم، وذلك لأن كل واحدٍ سَيَدَّعي أنه الأكرم وسَيَفْهم من خلال زَعْمه أنه الأتقى. لكن اللهَ تعالى حدَّد المسألة بأن الأكرمَ عندَ اللهِ تعالى هو الأتقى . والإنسان لا يَعلم مكانته عند خالقه تعالى. وبالتالي لا سبيلَ للإنسان أن يَطَّلع على مستواه ومنْزلته. وبالتالي ، فلا قُدرة للإنسان أن يَحْكم بأنه تقي . والتقوى محلها القلبُ ، وتظهر آثارُها على الجوارحِ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦): أن النبي ﷺ قال : ((التَّقْوى ههنا_ ويُشيرُ إلى صَدْره ثلاث مرات _)) .

إذن ، هذا هو الوزنُ الحقيقي للإنسان ، وليس التفاخر بالآباء الذين تحوَّلت أجسادُهم الناعمةُ الطريةُ إلى جِيَف قذرة نجسة ، أكلها الدودُ ، فصاروا عِظاماً بالية تافهة مدفونة في التراب. وهُم _ بالتأكيد _ وقود جهنم . وصدق القائل :

---

(٩٥) رواه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٩١) برقم (٥٧٧٥) .

إن الفتى مَن يَقول ها أنا ذا ليس الفتى مَن يقول كان أبي

وعن علي بن رباح قال : استأذن رَجل على عُمَر ــ رضي الله عنه ــ فقال : استأذنوا لابن الأخيار، فقال عمر ــ رضي الله عنه ــ: ((إيذنوا له))، فَلَمَّا دخل، قال له عمر: ((مَن أنتَ ؟))، قال : أنا فلان بن فلان ، قال : فجعل يَعُدُّ رِجالاً من أشراف الجاهلية ، فقال له عمر : ((أنتَ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ؟)) ، قال : لا ، قال : ((ذاك ابن الأخيار ، وأنتَ ابن الأشرار ، إنما تَعُدُّ عليَّ رجال أهل النار))[96].

وهكذا تتضح خطورةُ التفاخر بالآباء الجاهليين الذين خَسِروا مَصيرَهم بسبب كُفرهم ، فاستحقوا أن يكونوا من أهل النار . فقد باؤوا بالخزي والعار ، لا شرف لهم ولا مكانة . إنهم ملعونون في الدنيا ، ملعونون في الآخرة . ينبغي التبرؤ منهم وعدم التفاخر بهم .

وقال الله تعالى : ﴿ وقالوا لَوْلا نُزِّل هذا القرآن على رَجل من القريتَيْن عظيم (٣١) أَهُم يَقسِمون رحمةَ رَبِّك ﴾[الزُّخرف] .

والآيةُ تشير إلى العقلية الجاهلية عند العرب ، إذ إنهم يعتبرون مقياس العَظَمة والمجد مرتبطاً بالجاه والمال ، لذلك لم يتقبلوا أن يَنْزل القرآنُ على محمد ﷺ وهو الفقير اليتيم ، واقترحوا أن يَنْزل على رَجل عظيم. وهم يقصدون الوليد بن المغيرة من مكة ، وعُروة بن مسعود الثقفي من الطائف.

وفي هذا دلالةٌ واضحة على أن قِيَم الفخر والمجد والرياء والمظاهر الاجتماعية مسيطرة على عقول العرب في الجاهلية ، لدرجة أنهم يربطون العقائدَ بهذا الأمر . فهم يتصورون أن الوحي لا بد أن يَنْزل على رَجل غني ذي جاهٍ ، لأن هذا مقياس العَظَمة في نظرهم . لكنَّ الحقيقة الساطعة هي أن العظيم من كان عند الله عظيماً ، أمَّا الموازين الدنيوية فهي زينةٌ ظاهرية زائلة ، وتفاخرٌ بالأموال والأولاد سُرْعان ما تذهب إلى النسيان . أمَّا التقوى وَعُلُوُّ الهِمَّة وصفاء القلب فتظل على مدى الأزمان في حياة صاحبها وبعد موته .

وقد ردَّ القرآنُ عليهم وأعلمهم بأن الأمر ليس في أيديهم ، فاللهُ تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وهو يختار من يشاء لتبليغ الدعوة ، أمَّا محاولة العرب الجاهليين لاقتراح من صاحب النُّبوَّة فهي محاولة ساقطة ، لأنه ليس لهم من الأمر شيء . كما أن الله تعالى يختار صاحبَ

---

(٩٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٨) برقم (٣٣٢٦) وصححه ووافقه الذهبي.

القلب النقي لحمل الرسالة الإلهية . ومكانةُ الناس في الدنيا المعتمدة على الرياء والمظاهر الزائفة والأموال والأولاد تتعارض مع منهجية التقوى التي قرَّرها الإسلامُ ، فالمكانةُ الحقيقية للناس عند ربِّهم تعالى

تعتمد على صفاء قلوبهم ودرجة تقواهم . فالأتقياءُ هم العظماء الحقيقيون في الأرض والسماء .

وعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ : ﴿ أَهُم يَقسِمون رحمةَ رَبِّك نحن قَسَمْنا بينهم ﴾ ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((إن الله قَسَمَ بينكم أخلاقكم كما قَسَمَ بينكم أرزاقكم ، وإن الله لَيُعطي الدنيا من أَحب ومن لا يُحِب ، ولا يُعطي الدِّينَ إلا من أَحب ، فمن أعطاه الدِّينَ فقد أحبَّه))[97].

فالدنيا يأخذها من يَعمل ، سواءٌ كان مسلماً أم كافراً . أما الآخرةُ فلا يأخذها إلا المسلم . وهذا يشير إلى اختلاف الموازين بين الدنيا والآخرة . ولو كانت الدنيا ذات مكانة عند الله تعالى لأعطاها لأنبيائه وحَرَم الكافرين منها، لكن الواقع غير ذلك . مما يشير إلى أن محبة الله للعبد تتجلى في هدايته للإسلام لا إعطائه متاع الدنيا الزائل . ولو كانت الدنيا ذات قيمة لَمَا رأيتَ الكافرين يتنعمون فيها بالطول والعَرْض ، في حين أن الأنبياء كانوا يَرْعَوْنَ الغنمَ وهم سادة البشرية .

وعن سهل بن سعد ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لو كانت الدنيا تَعدِل عند الله جناحَ بعوضة ، ما سقى كافراً مِن شَرْبة ماء))[98].

إذن ، فإن النعيم الدنيوي لا يدل على حُبِّ الله للعبد أو بُغْضِه ، لأن الدنيا تُعطَى للمسلم والكافر على السواء . فلا يصح اعتماد المال والجاه وكثرة الأولاد مقياساً على صلاح العبد أو فساده ، لأن التقوى هي المِحَك الحقيقي ، ومحلُّها القلب ، وهذا أمرٌ باطني لا يعلمه إلا الله تعالى .

---

(٩٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٥) برقم (٣٦٧١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٩٨) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٥٦٠) برقم (٢٣٢٠) ، وقال : ((حديث صحيح غريب من هذا الوجه)) .

التنابز بالألقاب

التنابزُ بالألقاب هو دعاء الإنسان صاحبه بما يَكْرهه من اسم أو صِفة . وهو معصيةٌ كبيرة ، ذات خطر على الوَحدة الاجتماعية، إذ إنها تَجْرح مشاعر الناس، وتُهينهم، وتبثُّ الكراهية بينهم ، وتَزرع الأحقادَ في المجتمع .

وعن أبي جَبيرة بن الضَّحاك قال : كانت الألقاب في الجاهلية ، فدعا النبيُّ ﷺ رَجلاً منهم بلقبه ، فقيل له : يا رسول الله ، إنه يَكرهه ، فأنزل اللهُ ــ عز وجل ــ: ﴿ ولا تَنَابَزوا بالألقاب ﴾ [الْحُجُرات : ١١][99].

فأهلُ الجاهلية كانوا يهدفون من وراء نشر الألقاب المكروهة إلى تدمير الروح المعنوية لدى الخصوم ، والانتقاص منهم ، وتحجيمهم أو تحجيم قبائلهم ، في ظل الصراع بين القبائل المفتوح على كل الاحتمالات . فالألقابُ كانت سلاحاً لتدمير الآخرين، وإلصاق العار بهم . وهذا يدل على جو الحرب النفسية المتأججة نتيجة النِّزاعات المستمرة بين الأفراد والجماعات . فاللقبُ كالاسم يَلصق بالإنسان في حياته وبعد مماته، فإذا كان قبيحاً غدا وصمةَ عار أبدية لا يَمكن محوها. ولا يقف التأثيرُ السلبي عند صاحب اللقب، بل يتعدى إلى أُسرته وقبيلته ومحيطه الاجتماعي، مما يُسبِّب مشكلاتٍ روحية ومادية لا حصر لها . وفي هذا دلالةٌ على شراسة الحرب المعنوية في الجاهلية ، واستخدام كل الوسائل القذرة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٧) : ((إن النبز مختص بلقب السوء عُرفاً)) اهـ .

ولا يجوز مناداة الأشخاص بالألقاب التي يكرهونها ، وتُسبِّب لهم إحراجاً وألماً . فهذا يؤدي إلى جرح أحاسيسهم ، وإضعاف ثقتهم بأنفسهم ، وانتشار مشاعر الحقد وحب الانتقام بين الناس ، مما يصنع مجتمع الكراهية وانعدام الانسجام .

أمَّا الألقابُ الجميلةُ فلا بأس فيها . فقد قيل لأبي بكر عتيق ، ولِعُمَر بن الخطاب فاروق ، ولعثمان بن عفان ذو النُّورَيْن ، ولعلي بن أبي طالب أبو تراب .

---

(٩٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٣) برقم (٣٧٢٤) وصححه ووافقه الذهبي .

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٥/ ١٧): ((التَّنابُز : التَّداعِي بالأَلْقاب. والنَّبز بالتحريك : اللَّقب ، وكأنه يَكْثُر فيما كان ذَم)) اهـ .

تقديس ما ليس مُقدَّساً

إن الانهياراتِ الشديدة في العقل الجاهلي، والإرهاصاتِ العاصفة التي تتلاعب بمسار التفكير في ذهن الإنسان البدائي ، أدَّت إلى تقديس ما ليس مقدَّساً. وابتكار المقدَّسات الفوضوية محاولة حثيثة لربطِ الفرد بواقع مؤلم ينفي أتباعه ويضطهدهم . وأيضاً ، إن اختراعَ المقدَّسات الافتراضية يَهدف إلى ترسيخ الولاء لأشياء يُعتقَد أنها مُقدَّسة . وهكذا يفقد الفردُ حريته الشخصية لصالح هيمنة هالة القداسة على مُقوِّمات الإنسانية وتوابعها وكَينونتها . وانتشار التقديس للأشياء الباطلة كان سائداً في العصر الجاهلي بصورة جنونية ، كما أن فلسفة اختراع المقدَّسات والطقوس الدينية كانت سياسةً رسمية للأفراد والقبائل . فالمجتمعُ الجاهلي يَستشعر نقصَه بسبب تحركه بدون توجيهات الوحي السماوي ، لذلك يحاول جاهداً أن يُعوِّض هذا النقص _ من وجهة نظره _ عبر اختراع منظومة دينية ، وتكوين شعائر تعبُّدية مرتبطة بهذه المنظومة . وغيابُ الحقيقة عن الفكر الجاهلي أدَّى إلى اختراع العرب للأوهام والنظر إليها على أنها حقيقة مُطْلقة ثم تقديسها . وهذا البُعدُ الأسطوري كان سائداً في سلوك العرب الديني ، ورسمَ مَعالِمَ شخصيتهم الفكرية المهزوزة .

وعن جرير بن عبد الله_ رضي الله عنه _ قال: كان في الجاهلية بيت يقال له ذو الْخَلَصة، وكان يقال له الكعبة اليمانية ، أو الكعبة الشأمية ، فقال لي رسول الله ﷺ: ((هل أنتَ مُرِيحي من ذي الْخَلَصة ؟)) ، قال : فنفرتُ إليه في خمسين ومائة فارس من أحْمَس _ قبيلة من العرب _ ، قال: فكسَّرْنا وقتلنا من وجدنا عنده ، فأتيناه فأخبرناه ، فدعا لنا ولأحْمَس[100].

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢/ ٣٨٣) مُوضِّحاً معنى" خَلَصة " : ((وكان معناهم في تسميتهم له بذلك أن عباده والطائفين به خَلَصة. وقيل: هو الكعبة اليمانية التي بناها أبرهة بن الصباح الحِمْيَري،وكان فيه صنم يدعى الخلصة فهُدِم . وقيل : كان ذو الخلصة يُسمَّى الكعبة اليمانية، والبيت الحرام الكعبة الشامية)) اهـ .

وهكذا نجد أن اختراع المقدَّسات ما هو إلا تعزيز لواقع التردي الذي يعيشه الفرد الجاهلي . وإطلاق التسميات التي ما أنزل اللهُ بها من سُلطان على المقدَّسات عمل يهدف إلى توثيقِ الصلة بين القبيلة ومعبودها الحجري (الأصنام) ، وتعزيزِ سَطوة القبيلة ونفوذها ليشمل معبودها الصنمي

---

(١٠٠) متفق عليه. واللفظ للبخاري(٣/ ١٣٩٠) . ومسلم (٤/ ١٩٢٥) .

. وكل قبيلة كانت تحاول بسط نفوذها على كل شيء ، كي تكسب مزيداً من الامتيازات والخصائص المتفردة .

والجدير بالذِّكر أن اختراع كعبة أسطورية في مقابل الكعبة المشرَّفة، يُشير إلى طبيعة الفكر الوثني الرامي إلى تعدد مراكز العبادة. وفكرةُ التعدد كانت صفةً لازمة للعربي البدائي ، مثل تعدد الآلهة ، وتعدد الأصنام ... إلخ . فالذين اخترعوا كعبةً خاصة بهم لتنافس الكعبة المشرَّفة أرادوا بهذا العمل أن يُؤسِّسوا مركزاً جديداً للعبادة من أجل تحقيق أرباح مادية عالية ، ورفعِ المكانة بين باقي القبائل . وهم يعرفون أن الكعبة المشرَّفة هي مركز العبادة في الجزيرة العربية ، والتي يَقصدها الْحُجَّاج من كل مكان ، لذلك أرادوا اختراع كعبة جديدة لتكون مشروعاً استثمارياً يدر أرباحاً على أصحابه الجدد ، ويَسحب البساطَ من تحت القبائل العربية المتمسكة بالكعبة المشرَّفة . ولا يخفى أن الكعبة المشرَّفة هي مصدر الشرعية الدينية والسياسية والاجتماعية للعرب كلهم . ووجودُ كعبة مُنافِسة سيفقدهم كافةَ المكاسب الروحية والمادية .

والعَرَبُ كانوا يُعظِّمون الكعبةَ ويُقدِّسونها لدرجة أنهم ابتعدوا عن الأبنية المربَّعة ، لئلا تُصبِح بيوتهم مُشَابِهةً لبناء الكعبة . قال الثعالبي في ثمار القلوب (ص ١٦) : ((وقد كانت العربُ في الجاهلية لا تبني بُنياناً مُرَبَّعاً تعظيماً للكعبة)) اهـ .

وبالإضافة إلى هذا ، ظَهَرَ الحَلْفُ بالكعبة (بَيْت الله) تعظيماً لها ، وإبرازاً لمكانتها العالية .

يقولُ الشاعرُ الجاهلي زُهير بن أبي سُلمى :

فأقسمتُ بالبَيْتِ الذي طَافَ حَوْلَه رِجالٌ بَنَوْهُ من قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ [101]

---

(١٠١) لقد بدأ كلامَه بالقَسَم بالكعبة المشرَّفة، ولَوْلا عَظَمتها لَمَا أقسمَ بها . ولا يكتفي بالقَسَم بها ، بل يُركِّز ــ أيضاً ــ على قضية الطواف بها. وهو يشير إلى مَن طافَ حَوْلها، وهُم رِجالٌ قاموا ببنائها ، ويَنتمون إلى هاتَيْن القبيلتَيْن . جُرهم : وهي قبيلة قديمة تزوَّج فيهم إسماعيل ﷺ ، فَغَلبوا على الكعبة والْحَرم بعد وفاته ، وضعف أمرُ أولاده ، ثم استولى عليها بعد جُرهم خُزاعة ، إلى أن عادت إلى قُرَيْش (وهو اسم لولد النَّضِر بن كِنانة) . ولم يَكتفِ الشاعرُ بتعظيم الكعبة وإبراز قُدسيتها ومكانتها الجليلة عن طريق القَسَم بها ، بل ــ أيضاً ــ يُبرِز الحالةَ التاريخية المحيطة بالكعبة . وكأنه يُريد توضيح الأصول التاريخية للكعبة، والقول إن مقدَّسات العرب لها تاريخٌ ضارب جذوره في الأعماق، وليست مقدَّسات سطحية جاءت صُدفةً ، أو تم اختراعها دون سند حضاري أو تاريخي . ونراه يُنوِّه بقُريش وجُرهم ،= =ويُظهِر

والعربُ كانوا مُلْتَفِّين حَوْل قُدسية الكعبة ، ومُعظِّمين للبيت الحرام ، لدرجة أنهم كانوا يقولون : نحن أهل حَرَم الله وجيران بَيْته ، فلا يَغْلبنا أحدٌ ، ولا يَجْرؤ أحدٌ على الإساءة إلينا . وقد قادهم هذا إلى الغرور والاستكبار .

قال اللهُ تعالى عنهم : ﴿ مُسْتَكْبِرِين بِهِ ﴾ [المؤمنون : ٦٧] .

إنهم مُسْتَكْبِرون بالبَيْت الحرام ، يَفْتخرون به ، ويَعتبرون أنفسهم أولياءه ، وهُم _ في حقيقة الأمر _ أعداؤه. وهُم يَلْتَفُّون حول البيت الحرام للحصول على منافع مادية ، واكتساب الشُّهرة ، وانتشار الصِّيت الطَّيب بين قبائل العرب ، وبسط النفوذ على الجزيرة العربية بأكملها .

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية :((مُسْتكبرين بالبَيْت،يقولون:نحن أَهْله))[102].

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ١٢٣) : ((والضميرُ في ﴿ بِهِ ﴾ ، قال الجمهور : هو عائد على الْحَرَم ، أو المسجد ، أو البلد الذي هو مكة ، وإن لم يتقدَّم له ذِكْر لشُهرته في الأمر ، أي يقولون : نحن أهل الْحَرَم فلا نخاف، وقيل : المعنى أنهم يعتقدون في نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرَم أعظم الحقوق على الناس والمنازل ، فيستكبرون لذلك ، وليس الاستكبار من الحق)) اهـ .

والأصنامُ من أبرز الأمثلة على تقديس ما ليس مُقدَّساً . والفرد الجاهلي في قرارة نفْسه يَعْلم أن الأصنام لا تضر ولا تنفع ، ولكنه اقتفى آثار آبائه منطلقاً من فكرة التقليد الأعمى، وسار على دربهم مغمض العينين . والجاهليون الذي يَتَّبعون آثارَ آبائهم دون بصيرة ليس عندهم حُجَّة نَقْلية ولا عقلية ، ولا يَمْلكون أدلةً مُعْتَبَرَة، بل يَكْتفون بالقول: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى

دورهما التاريخي في بناء الكعبة ، والسيطرة عليها ، وبَسط النفوذ على الْحَرم . وهُما قبيلتان عريقتان لهما وزنٌ مهم في حضارة الجزيرة العربية، وتاريخهما جزءٌ من تاريخ الكعبة. ولا يَخفى أن القبائل تَنظر إلى الكعبة باعتبارها المركز ، وتَنظر إلى القبيلة التي تَغلب على الكعبة على أنها سَيِّدة القبائل بلا منازِع ، والقبيلة الأولى المقدَّمة في كل المحافل . فالأمرُ لا يَقف عن الدلالة الدينية ، بل يحتوي _ كذلك _ على دلالات سياسية واجتماعية واقتصادية شديدة الأهمية، ولا يمكن تهميشها بأية حال من الأحوال . (انظر فلسفة المعلقات العشر ، إبراهيم أبو عواد ، ص ٢٦ و٢٧) .

(١٠٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٧) برقم (٣٤٨٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

آثَارِهِم مُهْتَدُون ﴾ [الزُّخرف : ٢٢] . وهذه حُجَّة من ليس عنده حُجَّة ، ولا تصلح دليلاً علمياً راقياً يحترم عقلَ الإنسان. فالتقليدُ يُلغي استعمالَ العقل ، ويُحصره في خانة ترديد ما يُقال دون فحصه ، وإعمال العقل في نقده . كما أن أفعال الآباء ليست نَصَّاً مقدَّساً معصوماً . فهم بشر يُصيبون ويُخطئون ، والواجبُ غربلة أفعالهم لتمييز الصالح من الطالح . لكن العقل الجاهلي المنكمش على نفْسه ، والْمُتَقَوْقِع في زاوية التقليد جعل اتِّباعَ الآباء أصلاً من أصول الدِّين ، لأن العرب البدائيين ليس لديهم قواعد شرعية مُعتَبَرة ، أو أصول دينية متماسكة ، إذ إن دِينهم عبارة عن أفكار مخلوطة ومشوَّشة تفتقد للتجانس والمنهجيةِ المنطقية .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٠) : ((أي ليس لهم مُسْتَنَد فيما هم فيه من الشِّرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أُمَّة ، والمراد بها الدِّين ههنا)) اهـ .

وقد فنَّد القرآنُ الكريم هذه الدعوى وَرَدَّ عليها رَدَّاً مُحكَماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبيَّن فسادَ هذا القول وعدم موافقته للعقل السليم .

قال اللهُ تعالى مُورِداً شُبهة المقلِّدين ورادَّاً عليها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾[البقرة : ١٧٠].

وجوابُهم يدل على جهلهم ، فاتِّباع الآباء بلا بصيرة لا يُوصِل إلى الحق ، وإنما يُؤدي إلى الضياع الحتمي تماماً كالشخص السائر في الظلام. وهذا الاتِّباع إنما هو نتيجة للعَصَبية العشائرية ، والالتزام بخُطى الآباء وتعظيمهم وتمجيدهم بغض النظر عن أفعالهم . وهذا الأمر من أُسس الفكر الجاهلي . وقد وَرَدَ أن المقصود بالآية هم اليهود .

ففي لُباب النقول (١/ ١٧) : ((أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : دعا رسولُ الله ﷺ اليهودَ إلى الإسلام ، وَرَغَّبهم فيه ، وَحَذَّرهم عذابَ الله ونِقْمته ، فقال رافع بن حريملة ومالك بن عوف : بل نَتَّبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعْلم ، وخيراً مِنَّا ، فأنزل الله في ذلك ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ الآية)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن اتِّباع الآباء ليس ذَنْباً أو عَيْباً بحد ذاته ، إنما الذَّنْب والكارثة في اتباعهم دون بصيرة أو اتباع الأشياء السيئة التي ارتكبوها . فها نحن نجد النبي يوسف ﷺ يفتخر باتِّباع آبائه ، ولكن هذا الاتباع على بصيرة وهُدى . قال اللهُ تعالى على لسان يوسف ﷺ : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [يُوسُف : ٣٨] .

فهذا الاتباعُ ليس تقليداً أعمى . بل هو اقتفاءُ آثارهم المستند إلى نظر وبصيرة، لأنهم أنبياء كانوا على الحق ، فاتباعهم هو اتباع لنور النُّبوة ، والتزام بالصراط المستقيم، وإكمال لهذه السلسلة النبوية الشريفة بدون تكبُّر ، أو تفاخر زائف بالآباء .

أمَّا المجتمعُ الجاهلي فغارق في التقليد الأعمى ، والاتباع على غير هدى ولا بصيرة . وبلغ الإسفاف والضياع حداً غير معقول ، إذ كان لأهل كل دار في مكة صنمٌ خصوصي ، وكانوا يبتكرون أسماءً لهذه الأصنام ، واختلفت قيمة الأصنام حسب مكانة أصحابها ، فمن كان غنياً كان صنمه أكثر كُلفة ، ومن كان فقيراً صنع صنماً متلائماً مع ميزانيته . وقد وصل الانحطاط الجاهلي إلى إغراق البيت الحرام بالأصنام .

فعن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : دَخَلَ النبيُّ ﷺ مكة ، وَحَوْل الكعبة ثلاثمائة وستون نُصُباً ــ صَنماً ــ، فجعل يَطْعنها بِعُود في يَده، وجعل يقول: ((﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ [الإسراء : ٨١])) [103] .

إن كلَّ نُصُب (ما يُنصَب للعبادة من دون الله تعالى) يُمثِّل تراثَ قبيلةٍ ما ، ويُلخِّص تاريخَها الديني والاجتماعي . وما وجودُ هذه الأنصاب (الأصنام) حول الكعبة إلا مؤشر على مركزية الأصنام في الحِقبة الجاهلية ، وأنها مَصْدر الشرعية الوثنية . كما أن حرص العرب البدائيين على وجود الأصنام حول الكعبة يدل على أهمية الكعبة (مركز الثقل الديني) في حياتهم ، وأهميةِ الأصنام التي ينبغي ــ حسب رؤيتهم ــ أن تتواجد في قلب الحياة الدينية والاجتماعية ، وليس على الهامش .

وفي زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٣٦٢) : ((وقال سعيد بن جُبَيْر : كان حَوْل الكعبة ثلاثمائة وستون صَنماً ، وكان لكل حَي من العرب صَنم أو صَنمان)) اهـ .

وكانوا يعبدون الْحَجَر ، فإن وجدوا حَجَراً خيراً منه ، أخذوا الأفضل .

ففي صحيح البخاري (٤/ ١٥٩١) : أن أبا رجاء العطاري قال : كُنَّا نَعبد الحجَر ، فإذا وَجَدْنا حَجَراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جُثْوةً من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه، ثم طُفنا به، فإذا دخل شهر رجب قلنا : مُنْصِل الأسِنَّة فلا ندع رمحاً فيه حديدة ، ولا سهماً فيه حديدة إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب .

---

(١٠٣) متفق عليه . البخاري (٢/ ٨٧٦) برقم (٢٣٤٦) ، ومسلم (١٤٠٨/٣) برقم (١٧٨١) .

إن هذه البيئة المتخلفة لها أثر مدمِّر في صياغة النفس البشرية ، فهي تبني الإنسانَ وفق صورة سلبية بدائية تعتمد على تجريد الفرد من إنسانيته بشتى الأساليب والوسائل . وإذا حاصرَ الإنسانُ ذاته بالخرافاتِ ، فإنه سيغرق في مستنقع مُظلِم عميق ، لا مكان فيه للنُّورِ .

وقد تفرَّقت العربُ في العبادة ، واتخذوا مذاهب شتى . وذلك لأن الباطلَ دروبٌ مُتعددة ومُتضادة ، أمَّا الحق فواحد لا يتعدد [104] . وهذا يشير إلى اتباع الأهواء المتصارعة ، والنِّزاعِ الشرس في نفوس العرب الذين كانوا يغرقون في مستنقعات الوثنية والوهم والهوى وتقليد الآباء ، لذلك نجدهم قلقين في عبادتهم ، شديدي الاضطراب والتَّبدل، لا يَعرفون نقطتَي البداية والنهاية في مسارهم . وهذه الفوضى كانت كارثية ــ بامتياز ــ في حياتهم الروحية والمادية . وكما قال المثل : لا يَذهب بعيداً مَن لا يَعرف إلى أين هو ذاهب .

وفي تفسير القرطبي (١٤/ ٢٧١) : ((وفي التفاسير : أن حَيَّاً يقال لهم بنو مُلَيح من خُزاعة كانوا يَعبدون الجنَّ ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله)) اهـ .

وقال صاعد : ((كانت حِمْير تعبد الشمسَ ، وكِنانة القمرَ ، وتميم الدَّبَرانَ ــ وهو مَنْزِل للقمر ــ ، ولَخْم وجُذام المشتري ، وطَيْء سُهَيْلاً ، وقيس الشِّعرى العَبور، وأسد عطارداً))[105].

إن تعدد الآلهة في البيئة الجاهلية يعكس الصراعَ العنيف في النفس البشرية المضطربة التي لا تَعرف هدفَها ، لذلك تهيم على وجهها بلا بوصلة أو ضوء مُرشِد . وما عبادةُ الكواكب والأجرام السماوية إلا مؤشر على سعي العرب إلى مَثَلٍ أعلى ، وقِبْلةٍ سماوية عُليا ، وآلهةٍ مُتفوِّقة سامية .

وعربُ الجاهلية ضربوا أسوأ الأمثلة على عبادة غير الله تعالى . لقد كانوا هائمين على وجوههم في الصحاري والقِفار ، منسيين ، لا وزن لهم بين الأمم ، ولا أحد يعبأ بهم ، ولَوْلا الرسالة المحمَّدية الإسلامية لَمَا ذَكَرَهم أحد .

إن الأصنام صورة الوهم المنبعث من المخيلة الفاسدة التي لا تؤمن إلا بالمادة الملموسة. وهذا بحد ذاته مرض عُضال مُستشرٍ في محيطات الغباوة والخيال الوبائي . والفرد النواة صاحب ثقافة العدم لا يَقْدر إلا على تخيُّل إلهٍ متجسد حالٍّ في المادة الفانية . ولو كان لدى الفرد أدنى

---

(١٠٤) إننا نجد في القرآن الكريم لفظة "النُّور"، ولا نجد لفظة "الأنوار". وذلك لأن الحق واحد لا يتعدد . أمَّا الظلمات فهي متعددة لأن الباطل ليس واحداً بل مذاهب شتى .

(١٠٥) طبقات الأمم لصاعد ، ص ٤٣٠ .

ثقافة لَعَلِمَ أن المادة فانية، فهي محل الحوادث ، والذي يكون محل الحوادث فهو حادث، والله تعالى مُخَالِفٌ للحوادث لأنه مُوجِدها مِن العدم . واللهُ تعالى خالق لا بداية لأوليته ولا نهاية لآخريته . فهو الأولُ ليس قَبْله شيء ، وهو الآخِر فليس بعده شيء .

والتعابيرُ الوجودية في الإطار الجاهلي تأبى إلا أن تُخضِع للعقل القاصر فهمَها للألوهية، ومن هذا المنطلق العابث جاءت الكوارثُ العَقدية ، والاضطراباتُ الفاضحة في تقديس الأصنام محل النجاسة والزوال . وأساس ذلك غياب الهداية الربانية عن الجماعات الجاهلية التي لم تفعل شيئاً يؤهلها لنيل الهداية الربانية . وإذا فهمنا النقطة السابقة لن نتعجب من وجود بعض النماذج البشرية الفوضوية المتخلفة، والتي كانت تأكل إلهها إذا جاعت ، أو تبيعه إذا ضاقت عليها مصادر الرزق .

وإيقاعات الجاهلية ازدواجية بامتياز، بمعنى أنها تجعل للإله قريناً حجرياً ، يُقرِّبهم ــ بزعمهم ــ إلى معبودهم الحال في السماء[106]. وتسلسل العقائد الزائغة أدى إلى تكوين فلسفة وثنية منحرفة تأخذ بيد الفرد نحو الهاوية الدنيوية والأخروية . والفرد النواة بما يحمله من عقائد وثنية ، يخوض بحراً من الرِّيبة والشك لا شاطئ له، ويقتحم هذا الخضم المتهالك بدون أسلحة فكرية يُعتمَد عليها.

والتقديس المفتعَل في البيئة الصنمية يفتقد إلى الأساس النقلي والعقلي، والْحُجَّةِ الدامغة. فاتباع الآباء في عاداتهم وطقوسهم وتفاصيل حياتهم الحيوانية لا يعد دليلاً متيناً، بل هو على العكس ، يُعتبر ضعفاً فكرياً ونقيصة ما بعدها نقيصة وقصوراً ذهنياً وتعطيلاً للمَلَكَة الإبداعية الساعية إلى الحصول على الحقيقة ولا شيء سواها . إننا أمام وضعيةٍ حرجة تستند إلى تفكير سالبي ، وضحالةٍ ذهنية تُعطِّل كلَّ أشواق الإنسان المتوجهة نحو اكتشاف الحق .

---

(١٠٦) إن العقيدة القائلة بأن الله تعالى موجود وحالٌّ في السماء عقيدة وثنية جاهلية متخلفة ، وللأسف فإن بعض المجسِّمة الذين يُسَمُّون أنفسهم مسلمين يقولون بها وينافحون عنها بكل ما أُوتوا من قوة وجدل . قال اللهُ تعالى مُبَيِّناً هذه العقيدة الباطلة ورادّاً عليها : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاواتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِي لأَظُنُّهُ كَاذِبَاً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [غافر : ٣٦و ٣٧] . فها هو فرعون يعتقد أن الله تعالى حالٌّ في السماء ، لذا حاول ــ بزعمه ــ أن يصعد إليه ، والله تعالى سمى هذا العمل المستند إلى عقيدة باطلة سيئاً، وقال إن هذا العمل السيئ زُيِّنَ لفرعون ، وصُد عن السبيل.

وانتشارُ المقدَّساتِ الباطلة شكلٌ لاختلالِ منظومة الأشواق الروحية ، وتضاربِ الأهواء وتعاكسها . والظاهرة الاجتماعية الوثنية المستندة إلى أساس متهافت ، لا تلبث أن تنهار وتذوب تحت شمس الحقيقة الساطعة ، لأنها قامت على شفير هاوية سحيقة تخلو من المعاني السامية والأفكار التنويرية . إنها مهزلة حقيقية بسبب اعتماد المنظور الجاهلي على الوثن الجماد في إعطاء تفسير شمولي للفكرِ ، والوجودِ ، والعلاقاتِ الإنسانيةِ ، والحياةِ الاجتماعية، وانعدامِ الثورات على المقدَّس الوثني [107] . والخضوع للعُرف السائد كان من أهم العوامل التي أفرزت تياراتِ اللاوعي ، ومساراتِ اللامعنى الهلامي ، والحياةِ الخالية من الأهداف السامية .

إن الانهيار القِيَمي والأخلاقي يشمل كل مفردات النسق الحياتي . وهذا الانهيار عبارة عن لَوْثة حقيقية لم تترك بيتاً إلا دخلته في الفترة الجاهلية ، وقليل جداً هم الذين نَجَوا من هذا الوباء . وخطورة هذا الوباء تنبع من مصدرين ، الأول : تجريد العقل البشري من قدرته على التمييز وإطلاق الأحكام الصائبة المبنية على معطيات ومدخلات دقيقة، والثاني : بث الغفلة في المجاميع الذهنية ، وتقليص دور الإنسان في تقرير مصيره [108]، بل الأمر يتجاوز هذا وصولاً إلى سَلْبِ الإنسانية من الإنسان ، وسرقةِ قُدرته على اختيار الطريق الذي تنادي به فطرتُه السليمة ، وقمعِ ميوله نحو معرفة الحقيقة .

---

(١٠٧) يُسجِّل لنا التاريخ بعض النماذج في الجاهلية والتي رفضت عبادة الأصنام ، وقامت بثورة شاملة على المقدَّس الصنمي مستندة إلى حكم العقل المجرَّد ، مثل النبي محمد ﷺ ، وأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ــ رضي الله عنهما ــ وهناك أسماء أخرى رفضت الأصنام في حقبة الجاهلية معتمدة على تقبيح العقل لهذه الآلهة الهالكة .

(١٠٨) في الحقيقة إن الله تعالى هو الذي يُقرِّر مصيرَ الإنسان، لكننا ننسب هذا الفعل إلى الإنسان مجازاً. والإنسان حر في اختيار طريقه ، ويتحمل كامل المسؤولية عن اختياره الذي قد يُفضي إلى الجنة أو النار، ومن هنا نسبنا فعل تقرير المصير إلى الإنسان من باب المجاز ، لأنه مكتسب لأفعاله غير خالق لها. والشر والخير مخلوقان لله تعالى ، والإنسان فاعل لهما على وجه الحقيقة كَسْباً، والله تعالى مُوجدهما من العدم. ولا يوجد لغير الله تعالى فِعل من الأفعال على وجه الإيجاد، وإنما يُنسَب الفِعل لغير الله تعالى على وجه الكسب والاختيار .

وضمن هذه الدائرة المغلَقة يَهيم الإنسان على وجهه، وتتقاذفه أمواج الشكوك، ويغدو مريضاً حقيقياً غارقاً في بحر الأوهام ، مقدِّساً لمصالحه الشخصية، مُضفياً عليها صفات الألوهية والقداسة . فالأصنام على وجه الحقيقة ليست بأكثر من مشروع استثماري فاشل ، يهدف الإنسان من خلاله إلى تحقيق مكاسب مادية ، وبناء إشباع روحي متخيَّل. وهذا الفرد الغارق في أوحال الوثنية لا يدري أنه كلما توغل في عبادته للأصنام ازداد عطشاً، وتكاثفَ الغبارُ على روحه، وعلت النجاسة المعنوية على كيانه حتى تطمره وتُلغيه، وهكذا يصبح الكائن مجرَّداً من هويته الإنسانية، وخالياً من وخز الضمير الذي يموت تدريجياً، حتى يغيب بالكلية . وتفشي الظواهر التعبدية الباطلة في المحيط الجاهلي أدى إلى تكثيف الضباب حول الروح والجسد ، فأضحيا غير واضحين بالمرة . وبسبب غياب الفكر التنويري على المستويات المعيشية كافة ، حدثت الفجوة المتسعة بين الإنسان ومعنى وجوده . أضف إلى هذا انحسار القدرات التفكيرية الإبداعية ، وتحكُّم الشهوة المتأججة بأتباعها الكثيرين . لكن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح : لماذا استمرأ الفرد الجاهلي هذه الحياة الفاقدة لمعنى الحياة ؟!. الجواب له شقان : الأول :_ بسبب غياب الإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور ، وتزيين النفس البشرية والشيطان لهذه العقائد الباطلة ، وهذا أدى إلى التمسك بالحياة الدنيا والتشبث بها بالأظافر والأسنان ، واعتبارها شكلاً نهائياً حاسماً لا شيء وراءه ، وهذا إرهاب أيديولوجي عبثي يخلع الفردَ من إنسانيته ، ويلقيه في مهاوي العدمية التي تتعزز كلما تمكن الخنوع من التغلغل في القلوب ، وهكذا يصبح الفرد مجرد شبح لأفكار قديمة مُتضارِبة . ويُعبِّر عن هذا المفهوم شاعر جاهلي شهير هو طَرَفة بن العبد [109] ، إذ يقول في مُعلقته :

كَرِيمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ في حَياتِهِ سَتَعْلَمُ إِنْ مُتْنا غَداً أَيُّنا الصَّدي[110]

---

(١٠٩) هو عمرو بن العبد الملقب بِـ(طَرَفة) من بني بكر بن وائل ، وُلد حوالي سنة ٥٤٣ ميلادية، في البحرين على الخليج العربي . وهو أحد أصحاب المعلَّقات .

(١١٠) يَعتبر الشاعرُ الخمرَ هي مركز الكَرَم ، وأن شُربها دليل على المنْزلة الاجتماعية الرفيعة للشاعر . فهو كريمٌ يُروِّي نَفْسَه في حياته بالخمر . وأيامُه مليئة بالشُّرب والسعادة ، حيث إن الخمرَ تنقله إلى عوالم جديدة ، وتَبعث فيه الفرح والحبور ، وتُزيل عطشَه الملتهب . إنهُ كريمٌ يُنفِق مالَه على شُرب الخمر بلا حساب ، ويَسقي جوارحَه الميتة العطشى بقطرات الخمر ، كما تسقي حَبَّاتُ المطرِ الأرضَ القاحلة . ثم

والثاني :_ انتشار مفاهيم السيادة والرِّفعة والسؤدد دون وجود دِين صحيح يُوجِّهها في مسالكها وطرقها الصحيحة . حيث أضحى انتشار هذه القيم شكلاً تجميلياً، وعادة تعوَّد على ممارستها الناس دون وجود نية صادقة خالصة لله تعالى ، فصار الإيثار ينبع من تحسين العقل له فَحَسْب ، وليس بُغية أجر من الخالق تعالى ، والشرف مجرد ديكور كالثياب والطقوس الوثنية لا بد من ممارسته حتى لا يشذ الفرد عن مسار قبيلته أو عاداتها ، والشجاعة إعلاء لشأن القبيلة كي تفتخر بابنها وتباركه ضمن أُطر العصبية والقومية البدائية . وصار الكَرَم دِيناً بحد ذاته ، وصارت الطقوس الوثنية امتداداً لتخليد ذكرى الآباء الغابرين ، وصارت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله .

وقد رَدَّ اللهُ تعالى على الجاهليين الذين تَبَنَّوْا هذه المعتقدات قائلاً : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التَّوبة : ١٩] (111) .

وهذا تقريعٌ وتوبيخ لأولئك المفتخرين بسِقاية الحاج وسِدانة البيت . فأعلمهم _ سبحانه وتعالى _ أن الفخر الحقيقي والشرف السامي في الإيمان بالله واليومِ الآخر والجهاد . وهنا تبرز الأولويات الشرعية التي تُعطي كل قضية مكانتها اللائقة بها .

قال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٦) : ((والمعنى إنكار أن يُشَبَّه المشركون وأعمالهم المحبَطة بالمؤمنين وأعمالهم الْمُثْبَتة)) اهـ .

يُخاطِبُ خَصْمَه بنبرة واثقة : سَتَعْلم إن مُتنا غداً أيُّنا العطشان (الصَّدي) . إنها صيغة التحدي النابعة من القناعة الذاتية ، والثبات على المبدأ . فمبدأُ الشاعر يتمحور حول مركزية الخمر ، ودورها في إزالة الظمأ ، وبَعْثِ الحيوية والنشوة في القلب والأعضاء . والشاعرُ على يقين تام بأن الخمرَ تَمنحه الدفءَ الوجداني ، والخلاصَ في الحياةِ والموتِ ، وهو واثقٌ أنه يَموت ريَّان ، مُنتشياً بقطرات الخمر ، ومُفعماً بالإشراق والحيوية كالأرض الخصبة التي سَقاها المطر ، أمَّا عاذله فيموت= =عطشان ذابلاً كالصحراء التي لم تَعرف المطرَ . وفي هذا إنكار واضح للبعث والحياة بعد الموت ، فهو يظن أنه إذا شرب الخمر سيموت ريَّان وانتهى الأمر ، وفي هذا إشارة واضحة إلى غياب عقيدة الحساب والبعث بعد الموت عن ذهن الشاعر وقلبه.

(١١١) هذه الآية الشريفة تؤسس لفقه الأولويات ، وتردُّ على مُنكريه بشكل حاسم .

وفي الآية إشارة إلى العقلية البدائية لعرب الجاهلية الذين كانوا يتفاخرون بأنهم أهل البيت الحرام. وهذا دفعهم إلى التكبر والتطاول على باقي القبائل ، لأن الإنجازات العربية في الجاهلية كان مبعثها الرياء والاستكبار في الأرض بغير الحق ، وإعلاء راية القبيلة في المحافل العشائرية الأخرى ، فهذا التنافس القَبَلي كان يسيطر على العقول ، ويدفعها لتحويل كل شيء إلى تفاخر في المجتمع الجاهلي .

قال الثعالبي في تفسيره (٢/ ١٢١) : [سِقاية الحاج كانت في بني هاشم ، وكان العباس يتولاها. قال الحسن: وَلَمَّا نَزلت هذه الآية، قال العباس: ما أراني إلا أترك السِّقاية، فقال النبي ﷺ: ((أَقيموا عليها فهي خير لكم)) ، وَعِمارة المسجد الحرام ، قيل هي حِفْظه ممن يَظْلم فيه، أو يقول هُجْراً ، وكان ذلك إلى العباس ، وقيل : هي السِّدانة وخدمة البيت خاصة ، وكان ذلك في بني عبد الدار ، وكان يتولاها عثمان بن طلحة وابن عَمِّه شَيْبة ، وأقرَّها النبيُّ ﷺ لهما ثاني يوم الفتح وقال : ((خُذاها خالدةً تالدة لا يُنازعكموها إلا ظالم))[112]] اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٩) : عن النعمان بن بشير ــ رضي الله عنه ــ قال : كنتُ عند مِنبر رسول الله ﷺ . فقال رَجلٌ : ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقيَ الحاج . وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة ، ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيتُه فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

---

(١١٢) روى الطبراني في الكبير (١١/ ١٢٠) [عن ابن عباس ــرضي الله عنهماــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((خُذوها يا بني طلحة خالدةً تالدة ، لا يَنْزعها مِنكم إلا ظالم)) ، يعني حِجابة الكَعْبة] . قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٢٠) : ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عبد الله بن المؤمل ، وثَّقه ابن حبان وقال : يُخطِئ . ووثَّقه ابن معين في رواية ، وضَعَّفه جماعة)) اهـ . قلتُ : وقد وَردت روايات كثيرة جداً تفيد بإبقاء مفتاح الكعبة بأيديهم إلى الأبد ، وهذا ما قَرَّره النبيُّ ﷺ ، والمسْلمون مُتَّفقون على هذا . وما زالَ المفتاح بأيدي بني طلحة حتى يَوْمنا هذا . وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ٣٩٨) : ((يُقال للشيء الدائم الذي لا يَزول : تالِد)) اهـ .

فنجد أن التوجيه الإلهي قد رسَّخ في النفوس أن الإيمان بالله واليومِ الآخر والجهادَ أعلى من سِقاية الحاج وخدمةِ بيت الله الحرام . وفي الآية توجيهٌ إلى أهمية جعل الأعمال خالصةً لوجه الله تعالى. ولا يخفى أن القبائل العربية اتخذت من سِدانة البيت سُلَّماً لتحقيق مصالحها الشخصية ، وبسطِ نفوذها بين قبائل العرب ، والتطاولِ على الناس بالباطل ، وفق عقلية العصبية القَبَلية والتفاخر الجاهلي بالحَسَب والنَّسَب . فجاءَ القرآنُ ليجعل من النوايا خالصةً لوجه الله تعالى عن طريق تجذير الإيمان الصافي في النفوس ، والذي لا تشوبه شائبة شِرك أكبر أو أصغر (الرِّياء) .

والتداعيات الخطيرة التي تَحرسَ تعاليمَ الصنم في البيئة الجاهلية حالةٌ من الانسحاب السيكولوجي الذي يتم تطبيقه على الحركات البشرية المتَّجهة نحو تكوين إنسان فاقد لإنسانيته يتمتع بِقَدْر كبير من القيم المعنوية المنحرِفة .

وهكذا يُصار إلى توليد أنساق تحطيمية ضمن نطاق الأيديولوجية التي تسلب القدراتِ والمعنى من البشر الذين يغدون دمى تحركها أيدي عِلْية القوم أصحاب المال والسَّوْط. وهؤلاء البشر الذين لا هَمَّ لهم سوى العيش كالأنعام يصبحون عالةً على أنفسهم ، وعبئاً ثقيلاً على كاهل بيئتهم الخانقة ، والغارقة في تكوين جيل مسخ من الكائنات الفاقدة لحقِّها في السيادة على ذواتها.

*

السَّعْي بين الصَّفا والمَرْوة

يُعتبر السعي بين الصفا والمروة من شعائر الجاهلية التي مُورست بِمُثابَرة قبل مجيء الدعوة المحمَّدية الإسلامية . والتمسكُ بعادات وتقاليد الأجداد كان الدافع لممارستها . والعربُ الوثنيون ليس لهم دِين سوى تقليد الآباء ، وممارسة طقوسهم العمياء ، والالتزام بعاداتهم المتوارَثة .

وكان المسلمون يكرهون السعي بين الصفا والمروة لأنها من شعائر الجاهلية الصنمية ، ولكن الإسلام ألغى هذه الكراهية ، وأقر السعي بين الصفا والمروة .

فعن عاصم قال : قلتُ لأنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ: أكنتم تَكْرهون السَّعي بين الصفا والمروة، قال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[البقرة : ١٥٨][(113)].

إذن ، فقد طَهَّر اللهُ تعالى الصفا والمروة من طقوس الجاهلية ، وجعل السعي بينهما عبادةً إسلامية لا مكان فيها للشِّرك . وجعل الفكر الإنساني التَّعبُّدي خالصاً لله تعالى ، ينطلق من إيمان راسخ لا تقليدِ الآباء الغابرين . فالمنهجُ الإسلامي منهج تطهيري يؤكد الحقَّ ويَدحض الباطلَ . ولا شَكَّ أن الحِقبة الجاهلية كانت خليطاً من الحق والباطل ، ولم تكن سيئةً بشكل كامل .

وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٥٠٠) : ((وروى الفاكهي وإسماعيل القاضي في الأحكام بإسناد صحيح عن الشَّعبي قال : كان صنم بالصفا يدعى أَساف ، ووثن بالمروة يدعى نائلة، فكان أهل الجاهلية يسعون بينهما، فلمَّا جاء الإسلامُ رمى بهما ، وقالوا : إنما كان ذلك يصنعه أهل الجاهلية من أجل أوثانهم ، فأمسَكوا عن السعي بينهما ، قال : فأنزل اللهُ تعالى ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ ﴾ الآية)) اهـ .

والإسلامُ لم يأتِ لإلغاء الجاهلية كاملةً ، بل لإلغاء الأشياء السيئة والإبقاء على الأمور الصالحة النافعة . فالسعي بين الصفا والمروة عادة جاهلية ، لكن الإسلام أبقى عليها وأقرَّها وطَهَّرها من شوائب الشِّرك .

---

(١١٣) رواه البخاري (٢/ ٥٩٤) واللفظ له ، ومسلم (٢/ ٩٣٠) .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٤٦) : ((والصفا جمع صفاة وهي الصخرة الملساء ... وأمَّا المروة فإنها الحصاة الصغيرة يُجمَع قليلها مروات وكثيرها المرو)) .

ومنهجية الإبقاء على بعض أمور الجاهلية أشار إليه الحديث الشريف التالي : عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((بُعِثْتُ لأُتَمِّم مكارمَ الأخلاق))[114]. ولم يقل عليه الصلاة والسلام: لأبنيَ مكارم الأخلاق من جديد، بل عَبَّر عن مُراده الشريف بلفظة " لأُتمم " والتي تدل على وجود شيء مسبق ، وسوف يُعْمَل على إكماله وتحسينه .

ومن المهم أن نعرف أن سعي أهل الجاهلية بين الصفا والمروة كان تقليداً للآباء المفتقدين إلى شرعية النص السماوي المقدَّس . وقد كانت تعاليم الأيديولوجية الجاهلية غير المدوَّنة تؤسس لمرحلة التقاء الثنائيات المتضادة ضمن حلقةٍ مفرغة ، ودائرةٍ مفتوحة على تكثيف اللاوعي ، وتكريسِ هالة الغيبوبة المعرفية ، وتعميقِ حالة الهذيان التعبدي .

واجتماع العناصر غير المعتمدة على صوت العقل ، أدى إلى بناء أساليب الفوضى وتشكيلها وفق ما تراه القبيلة الهمجية العائشة على هامش الحياة، وهكذا تغدو حالة التصحر المعرفي مُلازِمةً لحياة الجاهلي ، وملتصقة به بشكل هستيري ، يدفع باتجاه الإغماء الفكري المتعمد والمتَمَوْضِع في قلب الجنون الذي يُسمى دِيناً .

إن الهستيريا التي تأخذ صيغ العبادة في الجاهلية تنبع من حتمية تصادم الأضداد داخل البُنية العَقدية الإرهابية ، تلك البُنية المعتمدة على توزيع مناصب الآلهة حسب الاتجاهات الفكرية لرؤوس القبائل وزعمائها، ومِن ثَمَّ تأتي التعاليم والطقوس التفصيلية لإضفاء شرعية وهمية محمومة على عادات الآباء وتقاليدهم .

ودراستنا للحالة الجاهلية يجب أن تأخذ بعين الاعتبار المصالح الوقتية والمنافع المادية للفرد المؤدلَج ضمن دائرة القبيلة التي تضغط باتجاه تجذير سلبيات الواقع المعاش في الهذيان، وإلباسها لبوس الشرف والنخوة والشهامة. فالأصنام ــ في الحقيقة ــ مشروع استثماري يقتحمه الأفراد من أجل ربح وفير في نهاية اليوم. إنه يُشبه سوق الأسهم في زماننا. والطقوس التعبدية مكياج ضروري لإخفاء حالة البشاعة والنجاسة والقبح المتجذرة في نخاع الجماعة البدائية

---

(١١٤) رواه الحاكم في المستدرك(٢/٦٧٠) برقم (٤٢٢١) وصحَّحه، ووافقه الذهبي . وفي مسند الإمام أحمد (٢/ ٣٨١) برقم (٨٩٣٩) : ((إنما بُعِثْتُ لأتمم صالح الأخلاق)). وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٥٧٣) : ((رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ورواه البزار إلا أنه قال : " لأتمم مكارمَ الأخلاق " ، ورجاله كذلك غير محمد بن رزق الله الكلوذاني وهو ثقة)) .

الجاهلة.وبالطبع، لا يمكن تغطية حالة البشاعة المستقرة في قلب التجمع البشري ، والمتفجرة على وجوه أتباع القبائل المتهافِتة.

ولا يمكن للدارس المنصِف عندما يستعرض أوجه التخلف داخل تجمعات الجاهلية ، إلا أن يصاب بالدهشة نتيجة حجمِ التخلف العَقدي ، وسَعةِ انتشار مهنة المتاجرة بدِين الآباء لتحقيق المكاسب المادية، وتسييسِ العقيدة الوثنية لخدمة أهداف القبيلة وسياستها ومنهجها . فعلى سبيل المثال كان الحج في الجاهلية تُنظِّمه قبيلة قُريش لأهداف مالية بحتة ، لكنها لا تجرؤ على البوح بهذه الحقيقة ، فسعت إلى تغطية هذا الهدف المادي بغطاء دِيني _ ولا دِين لهم سوى تقليد الآباء _، زاعمةً أن هدفها خدمة حجيج بيت الله الحرام ، وتفاصيل الوقائع تقول عكس هذا . ومن هنا يمكننا القول إن الجاهلية كانت صفقة مالية ضخمة أدارها الزعماء بحرفية عالية مستغلين الأفراد السُّذج والمغفلين والبسطاء .

وضمن هذا السيرك الجاهلي المبرمَج مسبقاً من أجل الحفاظ على مصالح الطبقة الحاكمة ، تتكاثر أوبئةُ الفساد الإداري ، وروابطُ المصلحة المبنية على أساس مَرَضي يتفشى بصورة هستيرية في جُملة العلاقات الإنسانية . وهكذا انقسم العالَمان الداخلي والخارجي في العبادة الصنمية إلى خلايا قاتلة قاسية، تتوالد كالسرطان في قلب الجماعة المنتهية [115]، بل هي سرطان بحد ذاته .

وهذا الوباء الاجسياسي[116] تبرز أسبابه في الانهيارات الانسحابية في العلاقات الوظيفية بين البشر،وتصدعاتِ الآلة الدينية التي تُفرِز صراعاتٍ تفشل في الإجابة عن الأسئلة الوجودية الحاسمة. والمنخرِطون في هذه المهزلة الرسمية يواجهون كافة الأسئلة الوجودية الكبرى بالتهرب منها ، وقمعِ القائلين بها رغم قلة عددهم. والتقوقعُ على الدائرة الجاهلية الضيقة يمنع الكثيرين من حرية التفكير والتعبيرِ عن آرائهم وحقهم في السؤال عن مصيرهم ومتطلباته وتفاصيله ، ومَن يُفْلِتْ من هذه الدائرة التي تكاد تكون مُغلَقة من كل الجوانب ، لا يصل صوته إلى الآخرين بسبب

---

(١١٥) التجمع البشري داخل نخاع الجسد البدائي الجاهلي مَيْتٌ في مَهْده ، وساقط قبل أن يَسقط ، ومتهاوٍ بصورة دراماتيكية ، لذا فالجماعة مُنتهية فِعلاً ، حقيقةً لا مجازاً .

(١١٦) الاجسياسي هو الرابط الحتمي بين الْمُعطَى الاجتماعي والقيمة السياسية . وبتعريفٍ أكثر تخصصاً نقول إنه اقتران وظيفي يمس بنية الروابط والعلاقات المسيَّسة داخل النسغ الجماعي والنسيجِ الاجتماعي المنهَج .

حجم التشويش المبرمَج ، وسياسةِ الجماعة العامة المتَّجهة نحو قمع العقل المفكِّر الذي يُشكِّل _حَسَبَ اعتقادها _ خطراً على أنظمة الحكم الاجسياسية . وعلى الرغم من أن هذه السياسة تحاول جاهدةً أن تكون سياسة جمعية ، إلا أنها تفشل بامتياز في استقطاب العقول الثورية الرافضة لنظريات التخلف والتبعيةِ للطبقة الحاكمة التي تفكِّر نيابة عن الأفراد المضطهَدين والمقموعين والمهمَّشين.

والعلاقاتُ المشروطة والمصبوغة بلون الفئة الحاكمة والمتحكمة في حياة أهل الجاهلية، لا تتردد في قمع كل صاحب عقل ثوري يريد التغيير باتجاه الأفضل . ونظامُ الحُكم في الجاهلية هو سِجنٌ كبير ، ومنظومةٌ قاسية تتجلى تفاصيلُها في الأحداث الاجتماعية المسيطَر عليها مِن قِبَل عِلْية القَوم.

إننا أمام حالة من توتر الوعي الذي يتَّسع ليشمل وسائل القمع والاضطهاد منتهياً إلى جملة النِّزاعات الاجتماعية . وآليةُ القمع تضبط المعطياتِ السياسية ، بحيث لا تَخرج مساراتُ الانتكاس الواعي عن الأُطر المنهجية في قلب المؤسسة الحاكمة بواسطة التلويح بالمال والعصا.

والإشاراتُ ذات الدلالة القمعية تمارس دورها بحرفية عالية ، وتدفع باتجاه مزيد من الانغلاق، ومزيد من الظلم والاضطهاد ، ومزيد من العبادات الحجرية الهادفة إلى محو القدرة على التفكير والرفض والثورة .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٩٧): عن ابن عباس _رضي الله عنهما_ قال : ((ليس السعي ببطن الوادي بين الصفا والمروة سُنَّةً، إنما كان أهل الجاهلية يَسْعَوْنها ، ويقولون : لا نُجيز البطحاءَ إلا شَدَّاً)) .

فأهلُ الجاهلية كانوا يَخْترعون شعائر دِينية وسلوكيات اجتماعية اعتماداً على أهوائهم الشخصية ، دون دليلٍ نَقلي أو عقلي . وقد قَرَّروا ألا يُجيزوا (ألا يَقْطعوا) البطحاءَ بمسيل الوادي إلا شَدَّاً ، أي بقوة وعَدْو شديد .

وقال العَيْني في عمدة القاري (١٦/ ٢٩٩) : ((أراد ابن عباس أن شِدَّة السَّعي ليس بِسُنَّة ، ولا يُريد بذلك نَفْسَ سُنِّية السَّعي المجرَّد ، وفيه خلاف . فعند مالك والشافعي وأحمد السَّعي بين الصَّفا والمرْوة مِن أركان الحج ، وعند أصحابنا _ يعني الأحناف _ ليس بِرُكْن ، بل هو من الواجبات)) اهـ .

الطواف حول البيت عُراة

إن علاقةَ أهل الجاهلية بالبَيْت (الكعبة) مُشوَّشةٌ إلى أبعد حَد ، فطقوسُهم التَّعبُّدية كانت نابعةً من أهوائهم الشخصية ، وعقولِهم القاصرة. وهذا الأمرُ يتجلى في طريقة صلاتهم عند البيت.

قال اللهُ تعالى : ﴿ وما كان صلاتهم عِند البَيْت إلا مُكاءً وتَصْدية ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

لقد كانت صلاتهم بعيدةً كلَّ البُعد عن الإيمان والخشوع ، فهي صلاةٌ عبثيةٌ لها رُكْنان : الْمُكاء (الصَّفير) ، والتَّصْدية (التَّصفيق). وقد جَعلوا هذا العبثَ صلاةً لهم ، يتقرَّبون بها إلى الله تعالى. وفي واقع الأمر ، لم يَكونوا يُصَلُّون ، وإنما كانوا يُصفِّرون ويُصفِّقون ، وهُم يَفْعلون ذلك لِيُشَوِّشوا على صلاةِ النبي ﷺ وصلاةِ المؤمنين. وأيضاً، للاستهزاء بالمؤمنين ، ونشرِ اللهو والعبث.

وفي الدر المنثور (٤/ ٦٢) : ((عن عكرمة _ رضي الله عنه _ قال: كان المشركون يَطُوفون بالبَيْت على الشِّمال ، وهو قَوْله : ﴿ وما كان صلاتهم عِند البَيْت إلا مُكاء وتَصْدية ﴾ ، فالمكاء مثل نفخ البوق ، والتصدية طوافهم على الشِّمال)) اهـ .

ومشركو الجاهلية _ كعادتهم _ قد اخترعوا شعائر دِينية متعلقة بالطواف حول البَيْت . فكانوا يَطوفون عُراةً كما ولدتهم أمهاتهم . وهذه الهلوسة الإباحية التي تَمَّت شرعنتها ، وتوفير الغطاء الدِّيني لها ، هي نتيجة لحالة الفوضى النفسية المتشظية في المجتمع الجاهلي التائه بين أهواء النَّفْس وتزيينِ الشيطان .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا واللهُ أمرنا بها قُل إن الله لا يَأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تَعلمون ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

إن أهلَ الجاهلية كانوا غارقين في التقليد الأعمى ، يَسيرون على خُطى آبائهم الضالين ، ويعتنقون الافتراءَ على الله تعالى. ولم يَكتفوا بِفِعْل الفاحشة (كل فِعْلٍ بَلَغَ أقصى درجات القُبْح)، بل أيضاً كانوا يُرجِعونها إلى الله تعالى ، فَيَزْعمون أن الله تعالى قد أمرهم بها . ومن المعلوم أن الله تعالى يأمر بالطاعات ومكارم الأخلاق ، ولا يأمر بالفحشاء والأفعالِ الدنيئة .

والمقصود بالفاحشة هو الطواف بالبَيْت عُراةً ، حيث كانوا يتقرَّبون إلى الله تعالى بالعُري وكشفِ العَوْرات . وقد كانوا يقولون : نطوفُ كما وَلَدَتْنا أُمهاتنا ، وأيضاً كانوا يقولون : لا نَطوف في ثياب عَصَيْنا اللهَ فيها. وحُجَّتهم في الطواف بالبيت عُراةً قائمةٌ على أمرَيْن: تقليد الآباء ، والكذب على الله تعالى . وهذه حُجَّةٌ واهيةٌ .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٩) : ((كانت العربُ ما عَدا قُرَيْشَاً لا يَطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ، يتأوَّلون في ذلك أنهم لا يَطوفون في ثياب عَصَوا اللهَ فيها ، وكانت قُرَيْش وَهُم الْحُمْس[117] يَطوفون في ثيابهم. وَمَن أعارَه أحمسي ثوباً طاف فيه، ومَن معه ثوب جديد طاف فيه ، ثم يُلقيه فلا يتملكه أحد ، ومَن لم يجد ثوباً جديداً ، ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عُرْياناً ، وربما كانت امرأة فتطوف عُريانة ، فتجعل على فَرْجها شيئاً ليستره بعض السِّتْر ، فتقول :

اليومَ يَبْدو بَعْضُه أو كُلُّه وَمَا بَدا مِنه فلا أُحِلُّه)) اهـ .

إنَّ قُرَيْشاً كانت تتحكم بمقاليد الأُمور، وتُسيطر على عقائد العرب، وتُمسك بتفاصيل العلاقة الدينية _ الاجتماعية. وقد استغلتْ عبادةَ الطواف حَوْل البيت لتدعيم نفوذها، وترسيخِ سُلطتها ، وتلميعِ اسمها، وإبراز مكانتها السامية بين قبائل العرب. فَقُرَيْش _وَحْدَها_ كانت تَطوف بملابسها، وهذا مؤشر باهر على حِرْصها على التميز ، ودليلٌ واضح على تفوُّقها على قبائل العرب التي كانت لا تَطوف بثيابها ، بِحُجَّة أنهم لا يَطوفون في ثياب عَصَوا اللهَ فيها . وهذه حُجَّةٌ داحضةٌ ، فلو كانت المعاصي تتطلب خَلْعَ الثيابَ لصارَ الناسُ كلهم عُراةً _ رِجالاً ونساء _ . فالإنسانُ لا بد أنه سيرتكب المعاصي لأنه غير معصوم ، فالعِصْمةُ للأنبياء _ وَحْدَهم _ . كما أن قُرَيْشاً كانت غارقة في الشِّرك والمعاصي ، ومع هذا كانت تطوف بثيابها التي عَصَت اللهَ فيها ! . وهذا مؤشر جديد على تميُّز قُرَيْش وسيطرتها المطْلقة على الشرائع الدينية ، والسلوكياتِ الاجتماعية .

وَقُرَيْش كانت تتحكم بمن تشاء ، تُعطي فُلاناً ثياباً فيطوف مستوراً ، وتمنع الثيابَ عن فُلان فيطوف عُرْياناً . وبعبارة أخرى ، كانت قُرَيْش تَسْتر من تشاء ، وتُعرِّي مَن تشاء . وهكذا وَصَلَ نفوذها إلى العَورات، فصارت تتحكم بكشفها أو سَتْرها. وهذا يُشير إلى نفوذها الهائل ، وسيطرتها الشاملة على تفاصيل الحياة العربية بكل أبعادها الروحية والمادية .

---

(١١٧) في شرح النووي على صحيح مسلم (٨/ ١٩٧) : ((قال أبو الهيثم : الْحُمْس هم قُرَيْش ، وَمَن وَلَدَتْه قُرَيْش وكِنانة وجَديلة قَيْس ، سُمُّوا حُمْساً لأنهم تحمَّسوا في دِينهم ، أي تشدَّدوا . وقيل : سُمُّوا حُمْساً بالكعبة لأنها حَمْساء ، حَجَرها أبيض يَضرب إلى السَّواد)) اهـ . قُلتُ : ومِن تشدُّدهم أنهم كانوا لا يَسْتظلون أيام مِنى ، وكانوا يَدْخلون البيوت مِن أبوابها وهُم مُحْرِمون ، ولا يَخرجون أيام الموسِم إلى عرفات ، وإنما يَقفون بالْمُزْدَلِفة .

حتى المرأةُ دَخَلت في هذه اللعبة ، فكانت تطوف عُريانة واضعةً على فَرْجها قطعة قُماش أو ما شابه من أجل سَتْر فَرْجها الذي قد يَظْهر بَعْضُه أو كلُّه ، وكأن شيئاً لم يكن ! .

وقال عُرْوة:((كان الناسُ يَطوفون في الجاهلية عُراةً إلا الْحُمْس، والْحُمْس قُرَيْش وما وَلَدَت. وكانت الْحُمْس يَحتسبون على الناس ، يُعطِي الرَّجلُ الرَّجلَ الثياب يطوف فيها ، وتعطي المرأة المرأة الثياب تطوف فيها ، فَمَن لم يُعْطِه الْحُمْس طاف بالبيت عُرْياناً))[118].

هذا الطقسُ الدِّيني ذو المرجعية الوثنية قد حَوَّل أجسادَ الرجال والنساء إلى لوحاتٍ عارية أمام العيون بلا خجل . وفلسفةُ طواف العُري في الجاهلية تتمحور حول اعتقاد أهل الجاهلية أن العُري يُقرِّبهم إلى الله تعالى ، فهم لا يَريدون الطواف في ثياب عَصَوا اللهَ فيها _ حَسَبَ رؤيتهم _ . لذلك كان التخلصُ من الثياب هو التطهُّر الأسمى الذي يُخلِّصهم من الذنوب ، ويجعلهم أنقياء بلا خطايا كيوم ولدتهم أمهاتهم .

وينبغي التركيزُ على أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عُراة سوى قُريش التي كانت تتزعم القبائل . فهي مركزُ التشريع الجاهلي على كافة الأصعدة ، وقلبُ الجسم القَبَلي العربي الوثني، وحارسةُ " الشرعية الصنمية " المجمَع عليها بين القبائل، والمقطورةُ الأولى في قطار عبادة الأصنام .

وهذه السلوكيات النابعة من العقائد الجاهلية هي تكثيف للنظام الطبقي الاجتماعي التمايزي . إذ إن قريش وما ولدت تتميز عن باقي القبائل بأنها لا تطوف عاريةً ، وفي ذلك تمييز واضح على أساس قَبَلي ، وإعلاء لشأن قريش بين العرب ، مما يدل على أن فوضى النظام العَقَدي الجاهلي يهدف إلى تكريس التداعيات الطبقية في مجتمع الجزيرة العربية ، وتقسيم الناس حسب عقلية جاهلية اعتماداً على شعائر وثنية وتعاليم جاهلية . فصار الشرف _ بحد ذاته _ تياراً طبقياً تمايزياً ، مبنياً على الفروقات المادية بين البشر . وهذا أدى إلى تكثيف الصفات الأخلاقية بشكل سِلَعي كَمِّي ضمن الإشكاليات الإقطاعية المناوئة للفكر الأخلاقي المتماسك .

كما أن إعطاءَ قُريش الثياب للآخرين كي يطوفوا ، ومَن لم يُعْطَ بقي عُرياناً ، مؤشرٌ على ابتزاز قريش لباقي القبائل ، وتجذير سطوتها ونفوذها على باقي العرب . فمجتمعُ الجزيرة العربية كان طبقياً إقطاعياً متطرفاً ، وهذا الوترُ الحسَّاس قامت قُريش باللعب عليه. فاستغلت وجود البيت

---

(١١٨) رواه البخاري (٢/ ٥٩٩) واللفظ له ، ومسلم (٢/ ٨٩٣) .

ومسؤوليتها عنه في قهر الآخرين وإلباسهم متى أرادت وتعريتهم متى شاءت . وفي هذا دلالةٌ واضحة على فلسفة السادة والعبيد، وأن قُريش تريد إحكام قبضتها على العرب ، بحيث يظلون خاضعين لها في أمور دِينهم ودنياهم . وبالطبع ، فهي تريد تذكيرهم بأنها هي السيدة المطْلقة صاحبة الكلمة الفصل ، فهي تَكسي مَن تشاء ، وتُعرِّي مَن تشاء .

وقد نقل القرطبي في تفسيره (٧/ ١٦٧) أن قُرَيْشاً كانت تقول : ((نحن أهل الْحَرَم ، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا)) اهـ .

وهذا اعترافٌ صريح يدل على حِرْص قُرَيْش على تعزيز قبضتها على باقي القبائل ، وبسطِ سيادتها على كامل التراب العربي ، وإخضاع الآخرين لقانونها ، وثيابها ، وطعامها . أي إنَّ قُرَيْشاً كانت حريصةً على إلغاء هُويات القبائل وأنظمتها ، وتجذير الهوية القُرَشية في البيئة العربية . وهكذا تصبح الْهُويةُ القُرشية هي الْهُوية الجامعة لقبائل العرب ، ويَنضوي الجميعُ تحت راية قُرَيْش. وهذا يَكشف الخطةَ الإستراتيجية التي كانت قُريش تنتهجها لتوحيد العرب تحت لوائها ، وصبغهم بهويتها وتقاليدها . فلا اسْم يَعلو على اسم قُريش ، ولا تاريخ للعرب غير تاريخ قُريش .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ١٦٢و١٦٣) : ((وكان أهلُ الجاهلية يَطوفون عُراةً ، وَيَرْمون ثيابهم ، وَيَتركونها مُلقاةً على الأرض ، ولايأخذونها أبداً ، ويتركونها تداس بالأرجل حتى تَبلى ، ويُسمَّى اللقاء)) اهـ .

إن طواف العُري من الفواحش القبيحة التي كانت تمارسها القبائل دون وازع دِيني أو أخلاقي. وهذه الممارَسة تتم في غياب الأخلاق الفاضلة التي تحرِّك الشعور الإنساني ، لذلك لم نجداً أحداً يعترض على طواف العُري ، فهو ثقافة مجتمع سائدة ، وإنكارُها يعني الطعنَ في دِين العرب عموماً ، وقُريش خصوصاً . وهذا غير مسموح به .

والغفلة اللاأخلاقية المؤسَّسة على انهيار المنحى القِيَمي، تأخذ مساراً جديداً يُروِّج للانفلات من إطار القيم السامية والفضائل ، والتحرر من كل المناحي الأخلاقية ، وهكذا تتم حَيْونة الإنسان ، وإدماجه بصورة قسرية بالمسار السلبي الهادم لكل فضيلة،والمتبنِّي لكل رذيلة. وإننا لنجد أن قُريشاً قبل الإسلام تُروِّج لنفْسها بوصفها مركز التشريع لباقي القبائل ، فهي تبتكر الشرائع الأرضية ، وتُسَوِّقها للآخرين من أجل الحفاظ على مكانتها وتلميع مركزها الاجتماعي وسُلطتها. فها هي تفرض إيقاعها على الآخرين. وباقي القبائل لا تملك إلا أن تستجيب وتخضع لهذا الإيقاع المدمِّر

. فقريش هي حَجر الزاوية في البناء الجاهلي،وهي النواةُ الأساسية التي يَدور في مداراتها باقي القبائل.

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال: ((الناسُ تَبَعٌ لِقُرَيْش في هذا الشأن ، مسلمهم تَبَعٌ لمسلمهم ، وكافرهم تَبَعٌ لكافرهم . والناس معادن ، خِيارهم في الجاهلية خِيارهم في الإسلام إذا فَقِهوا))[119].

يتضح لنا أن قريشاً تتزعم القبائل العربية، وأنها تفرض خطة عملها ومنهجيتها على الآخرين . فالمسلمون تَبَعٌ لمسلمي قريش ، والكافرون تبع لكفار قريش .

إذن ، قريش ليست مجرد قبيلة عادية ، بل هي مركز سُلطة التشريع الجاهلي ، والمتزعمة لسُلطة سن القوانين والتشريعات الأرضية الجاهلية . وهذه المزايا جعلت منها قبيلة فوق القبائل ، تُسمَع كلمتها ، ويُفرَض رأيها فرضاً إجبارياً على القبائل الأخرى ، ولا يُبرَم أمر جلل إلا إذا وضعت قريشٌ لمساتها عليه وباركته ، بحيث يصير بعد المبارَكة دِيناً لازماً للأفراد . وقريش تجسِّد عقليةَ القبيلة الحكومة ذات الامتيازات العالية،والخصائصِ المتفردة، مما يجعلها الركيزة التي يدور حولها الآخرون . فهي الحاكم والحكومة في آن معاً .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٢٠٠) عن قُريش: ((لأنهم كانوا في الجاهلية رؤساء العرب، وأصحاب حَرَم الله ، وأهل حَج بيت الله، وكانت العرب تنظر إسلامهم ، فلمَّا أَسلموا وفُتحت مكة ، تبعهم الناسُ ، وجاءت وفودُ العرب من كل جهة ، ودخل الناسُ في دِين الله أفواجاً)) اهـ .

إن العُري المتجذر في تعاليم السُّلطة الحاكمة يُعتبَر صراعاً حقيقياً يَصعب ضبطه والسيطرة عليه. فهو لا يُمثِّل انحرافاً أخلاقياً فَحَسْب ، بل هو أيضاً انحراف عَقدي يرتبط بالعلاقة المتأزمة بين دِين الآباء الجاهلي والتيارِ الأخلاقي . والدِّين يصبح أداة في يد الشهوة الجنسية، يتلاعب به عِلية القوم . والطواف حول البيت عُراة وسيلة لتفريغ الكبت الجنسي الذي يعاني منه البعض ، ومحاولة للمتاجرة بالأجساد العارية ، خصوصاً جسد المرأة الذي يُستغل بصورة هستيرية ، ويُقدَّم كأداة جذب للأفراد الذين لا دِين لهم سوى اتباع الشهوات والملذات الزائلة .

---

(١١٩) رواه البخاري (٣/ ١٢٨٨) برقم (٣٣٠٥) واللفظ له ، وروى مسلم الجزء الأول من الحديث (٣/ ١٤٥١) برقم (١٨١٨) .

إن هذه النقاط تتَّسع لتشمل تفاصيل النظام الاجتماعي التقليدي ، فهناك أوجه تقارب بين الانهيار الأخلاقي والأنظمة الإنسانية التي تضبط مسارَ الأتْباع . والأعراف والتقاليد الناتجة عن الحراك السياسي والتحرك الاجتماعي المتخلف ، تقود الأتْباع إلى تصورات أكثر انغلاقاً وأقل تقبلاً للفكر الثوري ، وصولاً إلى خيالات تافهة في أحيان كثيرة . وهذا المنحنى المغلَق يُبنى عليه نتائج سلبية وهمية . وهذا الطريق المسدود تتم أدلجته ليتفق مع انفعالات الجماعة ، وغيابِ الشراكة الحقيقية بين الفرد والسُّلطة التي يَظن أنها تمثله بأمانة ونزاهة واقتدار . وغيابُ أُسس الاستقلال المعرفي ، يُفضي إلى انتشار أطروحات بعيدة عن أحلام الفرد العادي ، وهكذا يتم الوصول إلى نقطة غامضة مجهولة لا تَطْلُع عليها شمس الحقيقة .

إن الأسلوب الذي يفكر من خلاله الفرد الجاهلي يوصله بالتأكيد إلى السقوط الخيالي والتشقق الواقعي ، وهكذا يصبح الفرد موزَّعاً بين جزيئات سَيل المعطيات الذي يضرب بنيةَ التجمع الفكري ولا يرحم . والتعبير عن حالة الانغلاق الأيديولوجي[120] يأخذ عدة مسارب ، كلها توصل إلى الهاوية الأكيدة . وفرضية الانغلاق الأيديولوجي تتطور لتصير نظرية تُطبَّق على التجمعات البشرية البدائية. ومُمارَساتُ عِلْية القَوم (الطبقة المتنفِّذة) تهزُّ طبقةَ الانسجام والتجمعِ والبنائيةِ ، بسبب فُقدان الممارَسة الاجتماعية لقيم الحقيقة ، وأنساقِ المبدأ الفكري المتكامل الواضح المؤثر .

ويقوم سَدنةُ الفوضى الخلاقةِ ، وحُماةُ عقلية التخلف والإرهاب ، بتغذية المنظومة الفوضوية الهادفة إلى تفعيل انتماء الفرد لهالة الجنون المقصود والهلوسةِ المحمومة . ونحن إذ ندرس هذه البنى التخريبية ، فإننا نعمل على تفكيك مسار القدرات الفاعلة في التوجهات والتصورات الهذيانية ضمن هذه الدائرة المغلقة الموضوعة في قلب الأحداث التي تتسارع بشكل يُغذِّي العنفَ الاجتماعي ورفضَ الآخر في التجمعات الفردية ، حيث ينكمش كل فرد على ذاته ، ويصير مُنظِّراً لهذا المنحى التفردي الرافض لصيغ العيش الجماعي ، وهذه الأفكار تهدم أنظمة التشارك الوظيفي في نخاع الجماعة ، ومن هنا لا نستغرب احتواء الأيديولوجية على عوامل هدمها الذي

---

(١٢٠) هي عملية حقن الأيديولوجية بكل عوامل الفشل الاجتماعي التطبيقي، بحيث تصبح منغلقة على ذاتها ، ومحتوية على عوامل هدمها ، وهذا يقودها إلى التآكل الذاتي، والانكماش ، ثم التفجر والتفرق إلى شظايا غير معرفية لا يُستفاد منها .

يتشظى ، ويتخذ أشكالاً وصوراً تتواءم مع انحسار المعطى الواقعي ، وسقوطِ إمبراطورية الشعوذة الجاهلية الساقطة أصلاً .

إن السياسات الفظيعة تُفرَض على الممارَسات التطبيقية للانحلال الأخلاقي . والطبقة المسيطِرة تعمل جاهدة لتغييب كل ممارسة عفوية أو مُنظَّمة عن المشهد الواقعي، لتظل_أي الطبقة المسيطِرة_ محتفظةً بامتيازات تفسير وتحليل النص الصنمي غير المدوَّن . فالعُرف يَصير دِيناً مُتَّبعاً لا يعترف بأنظمة التفكير الرافضة للمدلولات الزمكانية ، التي يُحدِّدها أشخاصٌ مُجرَّدون من الخبرة العملية والمنهجيةِ الواضحة والعقليةِ الثائرة .

وعدم الاعتراف بأنظمة التفكير الخلاق وقمعها أدى إلى اضمحلال المنهج العِلمي البَنَّاء ، وانحسارِ دوره في تقييم الأثر المعرفي، وانعدامِ القدرة على تقويم الاعوجاجات النسقية التحطيمية ، وتوجيهِ الفرضيات السلوكية باتجاه عقلية المؤامرة والخديعة .

والتحدي الشرس الذي واجهَ أهلَ الجاهلية ، يتمحور حول إمكانية الانعتاق من رِق الأفكار التي يُسوِّقها زعماء القبيلة ومستشاروهم الذين وَجَّهوا دفةَ السفينة الجاهلية الغارقة باتجاه غرقٍ أكثر صخباً وألماً وانتحاراً ، معتقدين أنهم يقودونها نحو الخلاص والحرية وبَر الأمان .

إن عناصر الطبقة الحاكمة يُشْبهون حجارة الدومينو ، فما إن يسقط حجر حتى يسقط باقي الأحجار تباعاً. وبعبارة أخرى، إن الانهيار الشمولي في الرؤية الفلسفية المؤدلَجة يُكرِّس هلاميةَ المعنى ، وانسلاخه عن الجسد المعرفي الذي انتهى قبل أن يبدأ . وما تآكلُ المعنى الظاهر للعيان إلا دليلٌ واضح على فشل المحاولات الترقيعية ، وعدمِ جَدوى أنصاف الحلول . وكلُّ حَلٍّ لا يَكون جذرياً ، فهو حَل ناقص ومُؤقَّت . وسُرعان ما تعود المشكلات القديمة أكثر شراسةً .

وبالإضافة إلى العُري (السلوك الفِعلي) ، كان اختيار الأسماء الخبيثة (السلوك القَوْلي) حاضراً بقوة عند الكعبة . في صحيح البخاري (٣/ ١٣٩٧) : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((مَن طافَ بالبيت فَلْيَطُفْ مِن وراء الحِجْر، ولا تقولوا الْحَطِيم ، فإن الرَّجل في الجاهلية كان يَحلف فَيُلقي سَوْطَه أو نعلَه أو قَوْسَه)) . فالرَّجلُ في الجاهلية كان يتخذ من الحِجْر مَكَبَّاً للأمتعة فيرمي فيه بعض أدواته ، ويُسمِّيه الحطيم ، لأنه يحطم أدواته . وهم يقومون بهذا الفعل كدلالة على التحالف الوثيق بينهم . قال الحافظ في الفتح (٧/ ١٥٩) : ((والمعنى : أنهم كانوا إذا حالفَ بعضُهم بعضاً ألقى الحليفُ في الحِجْر نعلاً أو سَوْطاً أو قوساً أو عصا، علامة لقصد حِلفهم ، فَسَمُّوه الحطيم لذلك ، لكَوْنه يحطم أمتعتهم)) اهـ .

يُعْتَبَر الحجُّ من أركانَ الدِّين الوثني عند العرب . ومع أنهم كانوا يُعظِّمون الحجَّ إلا أنهم مَزَجوه بالانحرافاتِ ، والرياءِ ، والسُّمعةِ ، والعصبيةِ القَبَلية ، والتفاخرِ العشائري .

قال اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ أفيضوا مِن حَيْثُ أفاضَ الناسُ ﴾ [البقرة : ١٩٩] .

والمعنى : أفيضوا يا قُرَيْش مِن حيث أفاض الناسُ، أي مِن عَرَفة بأن تقفوا بها معهم .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢١٤) : ((والإفاضة هاهنا على ما يقتضيه ظاهر اللفظ هي الإفاضة من الْمُزْدَلِفة إلى مِنى صبيحة النَّحر ، إلا أن جمهور المفسِّرين على أنها الإفاضة من عرفات ، فظاهر الكلام لا يقتضي ذلك ، كيف يُقال : فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله ، ثم أفيضوا من عرفات ، غير أني أقول : وجه الكلام على ما قال أهل التفسير أن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، فإذا أفضتم مِن عرفات فاذكروا الله)).

وكانت قُرَيْش يَقفون بالمزدلفة، وذلك لإظهار تميُّزهم عن الناس، وتَرَفُّعاً عن الوقوف معهم .

وعن عائشة_رضي الله عنها_قالت: ((كانت قريش ومن دان دِينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يُسَمَّوْن الْحُمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلمَّا جاء الإسلامُ أمر اللهُ نَبِيَّه ﷺ أن يأتيَ عرفات،ثم يقف بها،ثم يفيض منها،فذلك قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أفيضوا مِن حَيْثُ أفاضَ الناسُ ﴾))[121].

لقد استغلت قُرَيْش الحجَّ (مُلْتَقى القبائل من كل أنحاء الجزيرة العربية) لإبراز مكانتها بين قبائل العرب، وبيانِ تميُّزها وترفُّعها عن الناس. لقد سَخَّرت قُرَيْش الحجَّ كوسيلة إعلانية وبرنامج دعائي ، وذلك من أجل تثبيت صورتها البراقة ، وتجذير مَنْزلتها السامية في النفوس ، وترسيخ سُلطتها المطْلقة على أرض الواقع. وقد كانت قُرَيْش يقولون: نحن قُطَّان حَرَمِ الله ، فلا نَخْرج مِنه.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ١٨١): ((وإنما كانت قُرَيْش تقف بالمزدلفة لأنها من الْحَرَم ، وكانوا يقولون : نحن أهلُ حَرَمِ الله ، فلا نَخرج مِنه)) اهـ .

وعن جُبَيْر بن مُطعِم ــ رضي الله عنه ــ قال : ((أضللتُ بعيراً لي ، فذهبتُ أَطلبه يَوْمَ عَرفة ،

(١٢١) متفق عليه . البخاري (١٦٤٣/٤) برقم (٤٢٤٨) ، ومسلم (٨٩٣/٢) برقم (١٢١٩) .

فرأيتُ النبيَّ ﷺ واقفاً بِعَرَفة ، فقلتُ : هذا والله مِن الْحُمْس ، فما شأنه هاهنا ؟))[122].

إنَّ جُبَيْراً قد جاء إلى عَرَفة لِيَطْلب بعيرَه لا ليقف بها . وقد تعجَّب مِن وقوف النبيِّ ﷺ بعرفة ، وهو قُرَشي ، إذ إنَّ قُرَيْشاً كانوا يَقفون بالمزدلفة تميُّزاً عن باقي العرب الذين كانوا يَقفون بعرفة . وهذا يُشير إلى عقلية الغطرسة والتكبر التي كانت تتحكم بسلوك قُرَيْش التَّعبُّدي والاجتماعي والسياسي . وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٢٣) : ((وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عَرَفة موقف إبراهيم _عليه السلام _ لا يَخْرجون من الْحَرَم)) اهـ .

وهذا يدل على تمسُّكهم بالباطل من أجل الحفاظ على نفوذهم وسَطْوتهم ، وإظهار تميُّزهم عن باقي القبائل . ((وكان الشيطان قد استهواهم ، فقال لهم : إنكم إن عَظَّمْتُم غير حَرَمِكم ، استخفَّ الناسُ بِحَرمكم ، فكانوا لا يَخرجون من الْحَرَم))[123].

وروى ابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٢٦٢) عن ابن عباس _رضي الله عنهما _ قال : ((كان أهلُ الجاهلية يقفون بعرفة ، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرِّجال دفعوا بالمزدلفة ، حتى إذا طلعت الشمس فكانت على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا ، فَأَخَّر رسولُ الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس)) .

وهنا تَبْرز المنهجيةُ النبوية في مخالفة أهل الجاهلية ، وتكوين منظومة إسلامية مستقلة قائمة بذاتها ، ومُنْطلقة من الوحي السماوي . فقد أخَّر النبيُّ ﷺ الدفعة من عرفة حتى غَرُبت الشمسُ مخالفةً لأهل الجاهلية . وهذا مبدأ إسلامي مشهور يَعتمد على مخالفة المنحرِفين ، سواءٌ كانوا من أهل الكتاب أَم من المشركين ، وتكوين نظام تعبُّدي سماوي المصْدر ، وليس أرضياً وَضْعياً .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٩٤) أن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال : ((إن المشركين كانوا لا يُفيضون من جمع (يعني مزدلفة) حتى تشرق الشمس على ثَبِير (وهو أعظم جبال مكة) ، فخالفهم النبي ﷺ ، فأفاض قبل أن تطلع الشمس)) .

---

(١٢٢) متفق عليه. البخاري (٢/ ٥٩٩) برقم (١٥٨١) ، ومسلم (٢/ ٨٩٤) برقم (١٢٢٠) .
وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٨/ ١٩٨): ((قال القاضي عياض : كان هذا في حَجِّه قبل الهجرة ، وكان جُبَيْر حينئذ كافراً، وأسلم يوم الفتح ، وقيل : يوم خَيْبر ، فتعجَّب من وقوف النبي ﷺ بعرفات ، والله أعلم)) اهـ .

(١٢٣) فتح الباري (٣/ ٥١٦) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا تُحِلُّوا شَعائرَ اللهِ ولا الشَّهرَ الحرامَ ﴾ [المائدة: ٢]. الخطابُ للمؤمنين يأمرهم باحترام شعائر الله وحدوده وعدم تجاوزها ، كما يأمرهم باحترام حُرمة الشَّهر الحرام ، وعدم التَّعدي عليها بأي شكل .

وفي تفسيرابن كثير(٢/٥)عن قتادة قال:((كان الرَّجلُ في الجاهلية إذا خرج من بيته يريدالحجَّ تقلَّد من الشجر، فلم يَعْرض له أحد، فإذا رجع تقلَّد قلادة من شَعْر ، فلم يَعْرض له أحد))اهـ.

والرَّجلُ في الجاهلية إذا خرج من بيته يُريد الحجَّ كان يتقلد من الشجر كعلامة على أنه حاجٌّ، وبالتالي يَحْمي نَفْسَه من أذى الآخرين ، ويَصون ذاته من كل الذين يُريدون أَذِيَّته ، فلا يتعرض له أحد بسوء. وإذا رجعَ تقلَّد قلادة مِن شَعْر ، لِيُشْعِر الآخرين أنه راجع من الحج ، فلا يُؤذيه أحد .

وفي تفسير الوجيز للواحدي (١/ ٣٠٦) : ((قال المفسرون : كانت الحروب في الجاهلية قائمة بين العرب إلا في الأشهر الْحُرُم، فمن وُجد في غَيْرها أُصيب منه ، إلا أن يكون مُشْعِراً بَدَنة، أو سائقاً هدايا ، أو مُقلِّداً نَفْسَه أو بعيره مِن لِحَاء شجر الْحَرَم ، أو مُحْرِماً ، فلا يُتعرض لهؤلاء ، فأمر اللهُ _ سبحانه وتعالى _ المسلمين بإقرار هذه الأمَنة على ما كانت لِضَرْب من المصلحة إلى أن نسخها بقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتموهُمْ ﴾[التوبة : ٥])) اهـ .

إنَّ تقلُّد الحاج في الجاهلية من الشجر أو من الشَّعْر كان سلوكاً مُتَّبعاً لحماية نَفْسه ، وصونِ ممتلكاته ، حيث إن الحروب بين العرب في الجاهلية كانت على أشدِّها . فالغزو والغزو المضاد يَرْسمان تاريخَ الجزيرة العربية . وفي هذه المعمعة ، راحَ الْحُجَّاجَ يَضعون علاماتٍ خاصة لإظهار هويتهم الدينية ، وإبراز سُلوكهم غير الحربي ، وتقديم أنفسهم كمدنيين ، وأنهم لا ناقة لهم ولا جَمَل في فوضى الحروب العربية . وبالتالي ، يَحْمون أرواحهم وممتلكاتهم _ ذهاباً وإِيَاباً _ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فَمِن الناس مَن يقول رَبَّنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة مِن خَلاق ﴾ [البقرة : ٢٠٠] . كان أهلُ الجاهلية يَحْصرون تفكيرَهم في شؤون الدنيا فقط ، ولا يَذْكرون الآخرةَ ، لأنهم لا يؤمنون بحياة بعد الموت . وقد كانوا يُخصِّصون الدعاءَ في الحجِّ للحاجات الدنيوية فقط ، ولا يهتمُّون بالآخرة إطلاقاً . والحجُّ _ عِندهم _ فُرصةٌ لتحقيق منافع مادية بحتة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٣١) : ((كانوا لا يسألون اللهَ تعالى في الحج إلا الدنيا . يقولون : اللهم أعطنا غنماً ، وإبلاً ، وبقراً ، وعبيداً . وكان الرَّجلُ يقوم فيقول : يا رَبِّ ، لأنَّ أبي كان عظيم القُبَّة ، كبير الْجَفنة ، كثير المال ، فأعطني مثل ما أعطيته)) اهـ .

لقد كان الحجُّ في الجاهلية مشروعاً تجارياً مادياً بحتاً ، فعقلُ الحاجِّ محصور في الأنعام والعبيد ، واستحضارِ صورة الآباء الأغنياء ، وتمنِّي الوصول إلى مكانتهم الشريفة في المجتمع العربي القَبَلي .

وفي الدر المنثور (١/ ٥٥٨) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث ، وعام خِصْب ، وعام ولاد حسن ، ولا يَذْكرون مِن أمر الآخرة شيئاً، فأنزل فيهم : ﴿ فَمِن الناس مَن يقول رَبَّنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة مِن خَلاق ﴾)) اهـ .

وهذا يُشير ــ بكل وضوح ــ إلى انحصار العقل العربي في الأمور المادية ، وعدم الاهتمام بالأمور الروحية إطلاقاً . كما يدل على أن الدنيا ــ بالنسبة للعربيِّ ــ هي البداية والنهاية ، ولا يوجد شيء بعدها . فالآخرةُ غير موجودة في قاموس أهل الجاهلية . وبالتالي ، فمن الطبيعي أن يَكون الحجُّ فرصةً ماديةً دُنيويةً للحصول على مكاسب مالية ، ومنافع اقتصادية ، ومتاعٍ زائل .

وروى الطبراني في الدعاء (١/ ٢٧٥) عن عبد الله بن الزُّبير ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((وكان الناسُ في الجاهلية إذا وَقفوا عِند المشعر الحرام دَعَوا ، فقال أحدُهم : اللهم ارزقني إبلاً ، اللهم ارزقني غَنماً . فأنزل اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ﴿ فَمِن الناس مَن يقول رَبَّنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة مِن خَلاق ﴾))[124] .

ومن انحرافاتِ أهل الجاهلية في موضوع الحج ، أنهم كانوا يَرَوْنَ أن العُمرةَ في أشهر الحج من أقبح الأمور ، وأكبر المعاصي . وقد أبطلَ الإسلامُ هذا الاعتقادَ الذي لا يقوم على حُجَّةٍ ، لا نقلية ولا عقلية . وإنما هو من اختراعات أهل الجاهلية ، حيث إنهم يَعتمدون على عقولهم القاصرة ، وأهوائهم الشخصية ، من أجل تحسين الأُمور وتقبيحها .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٠٩) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : كانوا يَرَوْنَ أن العُمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ، ويَجعلون المحرَّم صَفَر ، ويقولون : إذا بَرَأَ

---

(١٢٤) في سنده : سعيد بن المرزبان. قال عنه ابن حجر في العُجاب في بيان الأسباب (١/ ٥١٤) : ((ضعيف)) اهـ. وضَعَّفه الهيثمي في المجمع (١/ ٦٠١). وقال ابن الجوزي في التحقيق في أحاديث الخلاف (٢/ ٣٢٦): ((قال يحيى : ليس بشيء، ولا يُكتَب حديثه، وقال الفلاس: متروك)) اهـ . وقال الذهبي في الكاشف (١/ ٤٤٤) : ((قال أحمد : مُنكَر الحديث)) اهـ .

الدَّبَرُ ، وعفا الأثَرُ ، وانسلخَ صَفَر ، حَلَّت العُمرة لمن اعتمر. فَقَدِمَ النبيُّ ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة مُهِلِّين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عُمرة، فتعاظم ذلك عندهم، فقالوا : يا رسول الله ، أي الحِل ؟ ، قال : ((الحِلُّ كُلُّه)) .

كان أهلُ الجاهلية لا يؤمنون بالعُمرة في أشهر الحج ، ويُحرِّمون هذا الأمرَ تحريماً لا نقاش فيه . وكانوا يُحرِّمون العُمرةَ حتى ينسلخ ذو الحِجَّة. وهذا الأمرُ اخترعوه من بنات أفكارهم ، معتمدين على أهوائهم الشخصية ، وأحكامهم الباطلة التي لا أصل لها . كما أنهم كانوا يَجْعلون شَهر المحرَّم هو شهر صَفَر ، وهذا من تلاعبهم بالأشهر الْحُرُم .

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٤٢٦) : [قَوْله : ((ويقولون : إذا برأ الدَّبر)) ... أي : ما كان يحصل بظهور الإبل من الحمل عليها ومشقة السَّفَر، فإنه كان يَبْرأ بعد انصرافهم مِن الحج ، وقَوْله: ((وعفا الأثر))، أي: اندرس أثرُ الإبل وغيرها في سَيْرها ، ويُحتمل أثر الدَّبر المذكور)).

وقَدِمَ النبيُّ ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة ، أي ليلة رابعة من ذي الحِجَّة ، وهي يوم الأحد ، وكانوا يُلَبُّون بالحج ، فأمرهم أن يَجْعلوها عُمرة ، وكانت مفاجأة كبيرة بالنسبة إليهم، واسْتَعْظَمُوا مخالفتهم عبادتهم المألوفة التي تَقْضي بعدم جواز العُمرة في أشهر الحج . وقد سألوا عن الحِل ، فَبَيَّن لهم النبيُّ ﷺ أنهم يَتحللون الحِلَّ كُلَّه . وهذا يدل على حِرْص الصحابة على معرفة أمور دِينهم جُملةً وتَفصيلاً . والحجُّ له تَحَلُّلان ، أمَّا العُمرة فلها تحلُّل واحد فقط .

وقد أرادَ النبيُّ ﷺ أن يُلْغِيَ هذه البِدعة الجاهلية (عدم جواز العُمرة في أشهر الحج) ، وقد ألغاها ، وقطعَ أمرَ الشِّرك إلى الأبد .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((واللهِ مَا أَعْمَرَ رَسولُ الله ﷺ عائشة في ذِي الحِجَّة إلا لِيَقْطع بذلك أمرَ أهل الشِّرك))[125].

وفي صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦) أن النبي ﷺ قال : ((دَخلت العُمرةُ في الحج)) .

وهذا يدل على جَواز العُمرة في أشهر الحج إبطالاً لِمَا كان عليه المشركون في الجاهلية .

وهكذا تتجلى هويةُ التشريع الإسلامي المستقل ، والقائم بذاته ، والنافي لأوهام أهل الجاهلية ، وعقائدهم الباطلة ، وسلوكياتهم الاجتماعية المنحرفة .

---

(١٢٥) رواه أبو داود في سُننه (١/ ٦٠٨) برقم (١٩٨٧) .

والعربُ في الجاهلية كانت لهم أيَّام حَجِّهم تقاليد خاصة تتعلق بالطعام والشراب . فكانوا لا يَأكلون من الطعام إلا قُوتاً _ ما يُمسِك الرَّمق مِن الطعام _ ، ولا يأكلون اللحمَ .

وقد أَبطلَ اللهُ انحرافَهم ، ووضَّح طريقَ الحق ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وكُلوا واشربوا ولا تُسرِفوا ﴾ [الأعراف : ٣١] .

وهذه القاعدةُ القرآنية العظيمة تُغني عن وصفات الأطباء . فالاعتدال في الأكل والشرب هو مفتاح الصحة والحيوية ، لأن الإسراف هو طريق الأمراض وانهيار القوة البدنية . وتجاوزُ الحد في الأكل والشراب يُثقل المعدةَ ، ويقود إلى التكاسل والخمول ، والضعف عن أداء العبادات ، مما يؤدي إلى عواقب وخيمة .

وفي تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨١):((قال بعض السلف : جمع اللهُ الطبَّ كله في نصف آية)).

وقال الواحدي في الوجيز (ص ٣٩١): ((كان أهلُ الجاهلية لا يَأكلون أيام حَجِّهم إلا قُوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، يُعظِّمون بذلك حَجَّهم . فقال المسلمون : نحن أحق أن نفعل ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وكُلوا ﴾ يعني: اللحم والدسم، ﴿ واشربوا ﴾ اللبن والماء وما أَحَلَّ لكم، ﴿ ولا تُسرِفوا ﴾ بحظركم على أنفسكم ما قد أحللتُه لكم من اللحم والدسم)) اهـ .

لقد تلاعبَ أهلُ الجاهلية بالحج بصورة واضحة، واخترعوا أحكاماً ما أَنزل اللهُ بها مِن سُلطان. وعندما جاءت الشريعةُ المحمَّديةُ الإسلاميةُ أَلْغَت الباطلَ ، وَوَضَعَت قواعدَ الحق حتى يوم القيامة ، واستقامَ أمرُ الحج على ما فعله النبيُّ ﷺ ، فلا جِدال في الحج ، ولا اختلاف فيه .

قال اللهُ تعالى : ﴿ ولا جِدالَ في الْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وفي فتح الباري (٣/ ٤٣٥): ((عن مجاهد قال: قد صار الحجُّ في ذي الحِجَّة، لا شهر يُنْسَأ ، ولا شَك في الحج ، لأن أهل الجاهلية كانوا يَحُجُّون في غَيْرِ ذِي الحِجَّة)) اهـ .

وبالتأكيد ، لا شَكَّ في الحج . فقد استقامَ أمرُه ، وعُرف وَقتُه ، وانتهت قضيةُ التلاعب بالأشهر الْحُرُم إلى الأبد . وَشَهْرُ الحجِّ هو ذو الحِجَّة ، أمرٌ مُتَّفق عليه ، ولا جِدال فيه . لقد ذَهَبَ باطلُ أهل الجاهلية إلى غَيْر رَجعة ، واستقرَّ حُكْمُ الشريعة الإسلامية إلى يوم القيامة .

*

إتيان البيت مِن ظَهْره

كان العربُ في الجاهلية يبتكرون كل وسائل الهلوسة الدينية والهذيان التَّعبُّدي ، فقد كانوا إذا عادوا من الحج يأتون بيوتهم مِن ظُهورها ، وهذه العقيدة ليس لها سند أو دليل يُعوَّل عليه ، بل هي افتراءٌ على الله تعالى، وانحراف عن جادة الحق ، وجنون يرتدي لباسَ العبادة التي تتم شرعنتها تحت ضغط العقل الجمعي ، وما هي إلا عبادة زائفة تتكرس بدافع التقليد وإسنادها بالقوة لا المنطق . وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٤٠) : عن البراء قال : ((كانوا إذا أَحْرَموا في الجاهلية أَتَوا البيتَ مِن ظَهْره ، فأنزل اللهُ : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [البقرة : ١٨٩])) .

وقال الواحدي في الوجيز(ص ١٥٣) : ((كان الرَّجلُ في الجاهلية إذا أَحرم نقب من بيته نقباً من مُؤخره يَدخل فيه ويخرج، فأمرهم اللهُ بترك سُنَّة الجاهلية ، وأعلمهم أن ذلك ليس بِبِر))اهـ .

وقد كانوا لا يَدْخلون البيوت مِن أبوابها بسبب الإِحْرام[126] .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٣٩) : ((وكان الأنصار إذا حَجُّوا وعادوا لا يَدخلون من أبواب بيوتهم ، فإنهم كانوا إذا أَهَلُّوا بالحج أو العُمرة يلتزمون شَرْعاً ألا يَحول بينهم وبين السماء حائل ، فإذا خرج الرَّجلُ منهم بعد ذلك ، أي من بعد إحرامه مِن بيته فرجع لحاجة لا يَدخل من باب الْحُجرة من أجل سقف البيت أن يَحول بينه وبين السماء)) اهـ .

إن اختراع الطقوس التعبدية، وإخراجها من الخيال المرَضي إلى حَيِّز الوجود، يُجسِّدان أهدافَ الفرد الجاهلي الرامية إلى إعطاء نفْسه حق التشريع، وابتكارِ المقدَّسات، واختيارِ الطرق الباطلة

---

(١٢٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٩٥و١٩٦) : ((وفيما كانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها لأجله، أربعة أقوال: أحدها_ أنهم كانوا يَفْعلون ذلك لأجل الإحرام، قاله ابن عباس وأبو العالية والنخعي وقتادة وقيس النهشلي ، والثاني _ لأجل دُخول الشهر الحرام ، قاله البراء بن عازب . والثالث _ أن أهل الجاهلية كانوا إذا هَمَّ أحدهم بالشيء فاحتبس عنه لم يَأتِ بيته مِن بابه حتى يأتيَ الذي كان هَمَّ به ، قاله الحسن . والرابع _ أن أهل المدينة كانوا إذا رَجعوا مِن عيدهم فعلوا ذلك ، رواه عثمان بن عطاء عن أبيه)) اهـ .

للتعامل معها، وذلك بوضع تفاصيل وتقاليد تفتقد إلى الدليل الدامغ، والْحُجَّةِ الساطعة، والبرهانِ الْجَلِيِّ . والتفاصيل التي تؤسس لحالة العبادة ضمن العادات البدائية الوثنية، لَيست بأكثر من وهم مُصْطَنَع يتم بناؤه وفق ما يراه المستفيدون من الانتكاسة التي تصيب الممارِسين للحالة التعبدية . إنها انتكاسة صارمة تدفع باتجاه تحطيم مُكوِّنات النفس البشرية ، وإغراقها في مستنقع الهواجس الوبائية، والأوهامِ الْمُبَرْمَجَة المندفعة .

وقد كانت التقاليد الجاهلية دِيناً لازماً للأَتْباع ، بحيث إن مُخالفها يُعتبَر مارقاً يُرمى بالعيب والخزي ، وخارجاً على قانون القبيلة . وهذا الضغط الاجتماعي النابع من الفلسفة العشائرية الجمعية التي تمارس إرهابَها المنظَّم على الأتباع بُغية السيطرة عليهم ، وقيادتهم إلى الوُجهة المرسومة مِن قِبَل رؤوس القبائل ، إنما هو ضغط متجسد في كل الأبعاد ، وله أذرع كثيرة من شأنها ضمان دوران الفرد في فلك القبيلة دون أن يفكر في الثورة ، أو رفضِ المعطيات السلبية .

وعن البراء_رضي الله عنه_قال: ((كانت الأنصارُ إذا حَجُّوا فجاؤوا لم يَدْخلوا مِن قِبَل أبواب بيوتهم، ولكنْ مِن ظُهورها، فجاء رَجل مِن الأنصار، فدخلَ مِن قِبَل بابه فكأنه عُيِّر بذلك))[127].

وهذه الحالة تُشكِّل لُبَّ الانشقاق في النظام الجاهلي الذي يُعمَل على تكريسه، ودفعه في طريق الانفعالات المنشقة عن مسار البُنى الفكرية. وانسلاخ المضمون عن جسد المعنى يؤسس مرحلة عبثية تُنسَب إلى الكائن الجاهلي ، حيث يقوم بتكريس عبودية المادة للمادة في جو من الغرائبية المذمومة التي لا تُحفِّز إلا على مزيد من انشقاق المبنَى عن المعنى ، والجزء عن الكل . واستقلال الفرد عن طموح القبيلة التَّوسعي يظل محصوراً في زاوية ردود الأفعال ، مع العِلْم أن بعض الأفراد ثاروا على عقيدة احتكار الحقيقة المطْلقة التي تُسوِّقها النُّخبة الحاكمة بالمالِ والصَّوْلجان . والجدير بالذِّكر أن سريان التقاليد الجاهلية قد يمتد في بنية المجتمع المسلم إذا لم يكن هناك وحي توجيهي يعيد الأمور إلى نِصابها الصحيح . فالوحي _ وَحْدَه _ هو الذي يُعطي الشرعية الدينية للتقاليد الجاهلية ، أو يَنْزع عنها غطاءَ المشروعية .

وعن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ قال : كانت قُرَيْش يُدْعَوْن الْحُمْس ، وكانوا يَدْخلون من الأبواب في الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يَدْخلون من الأبواب في الإحرام ، فبينما رسول الله ﷺ في بُستان فخرج من بابه ، وخرج معه قُطْبَة بن عامر الأنصاري ،

---

(١٢٧) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٢/ ٦٣٩) . ومسلم (٤/ ٢٣١٩) .

فقالوا : يا رسول الله ، إن قطبة بن عامر رَجل فاجر ، إنه خرجَ معك من الباب ، فقال : ((ما حَمَلَكَ على ذلك ؟)) ، قال : رَأَيْتُكَ فَعلتَ، فَفَعلتُ كما فَعلتَ، فقال: ((إني أَحْمسي))، قال : إنَّ دِيني دِينُك ، فأنزل اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (128).

إن الشعائر الدينية في الجاهلية تجسيدٌ للنظام الطبقي الإقطاعي ، وانعكاسٌ للصراعات القَبَلية والبحثِ عن الشرف والسيادة والتميز . وما تفرُّد قُرَيْش بالدخول من الأبواب في الإحرام إلا مؤشر واضح على تميُّزها عن باقي القبائل، وقُدرتها على تحويل الأنظمة الاجتماعية إلى أنظمة دِينية.

وقد أسَّس الإسلامُ أنظمته على حقيقة مَفادها أن رابطة الدِّين أقوى من رابطة الدَّم ، وأعْظم من المؤروث الاجتماعي . لذلك نَبَّه القرآنُ على ضرورة إتيان البيوت من أبوابها ، وترك عادة الجاهلية التي تقضي بإتيان البيوت من ظُهورها . والقضيةُ لَيْستْ قضيةَ بَيْت وباب ، بل هي قضية مبدأ دِيني ، ونظام اجتماعي جديد يستند إلى الوحي لا تقاليد الآباء المتوارَثة .

لكن سؤالاً يبزغ في الأفق ، وهو : كيف يمكن للنخبة الحاكمة المعدودة على الأصابع أن تسيطر على نظام الحُكم ، وتفرض أفكارها على شعب متعدد الأعراق وغير متجانس ؟. الجواب كلماته بسيطة وسهلة، لكن الواقع معقَّد وبالغ التركيب .

لكننا نقول إن القوى الفاعلة في التجمع البدائي تعتمد على التلويح بالمال والعصا ، وتضغط على مواطن الأزمات ، ونقاطِ الضعف التي يتم تكثيرها ليتلاءم المشروع الاستخرابي (ولا أقول الاستعماري) مع الانهيار الخلاق ــ حَسَبَ التصور الجاهلي ــ الذي تقوده النخبة الحاكمة والنخبة المثقفة المتواطئة مع طبقة الحُكم .

والانشقاق الضمني المغلَّف بسياسة الأمر الواقع ، يتمحور حول إمكانية غياب التلاحم الوهمي بين قوى الشعب الجاهلي . وهذا التمحور يبقى محدوداً وقابعاً في زاوية الانحسار المعرفي . والفئة الحاكمة المتسلطة تحتل الأرضية الخصبة لنشوء التيارات الثورية الانقلابية، لذلك وجدنا أن الثائرين على المنظومة الجاهلية قليلون ، وفي كل الأحيان يُحارَبون ويُقمَعون وتُحاصَر دعوتهم الفكرية الثائرة . والحُكم الهمجي الذي يتبناه أصحاب المواقع القيادية ، يتحكم

---

(١٢٨) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٥٧) وصححه . وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٦٢١) : ((وهذا الإسناد، وإن كان على شرط مسلم، لكن اختلف في وصله على الأعمش عن أبي سفيان)).

بهذه الدمية التي لا حَوْل لها ولا قوة ، وهذه الدُّمية إنما هي الفرد المنبوذ المقموع والمحاصَر من كل الجهات . والأشكال الحاكمة المتماهية مع عنصر المباغَتة وتحدي الرأي العام والوقوف ضده عن طريق إيجاد صور انتكاسية في تفاصيل العبادة غير المشروعة، هي أشكال فاقدة للهوية التحليلية، بسبب وجودها على الضفة الأخرى للفكر الشعبي المضاد للاضطهاد والقمع والخنوع. لكن الفكر الشعبي الْمُعبَّأ ضد نظام الحُكم يبقى محصوراً يراوح مكانه ، وغير ظاهر للعلن ، وهذا بحد ذاته انتكاسة قِيَمية صارخة .

إن التحليلات المشروطة للوعي السالبي تُسْتَنْزَف تدريجياً ، وتميل إلى تكوين مصفوفات موغلة في السادية ، وإعادة إنتاج الاستيعاب الوظيفي، والتجانسِ القسري غير الشعبي. والسُّلطة الحاكمة تزعم أنها امتداد لشرعية الجماعة المتجانِسة _ حَسَبَ ما تقوله أبواق المؤسسة الحاكمة _ . وفي حقيقة الأمر ، إن السُّلطة الحاكمة هي ارتداد وقتي آني لجماعة متناحرة غير متجانسة البتة ، تَنْزع إلى تعزيز الانهيار والسقوط على جميع المستويات التي يُصار إلى تلفيقها والتوفيق بينها _بالقوة _ تلبيةً لرغبة السادة ، الذي يُفَصِّلون العاداتِ والتقاليد والقوانين لضمان الهيمنة على العبيد واستغلالهم .

ولا يوجد في العلاقة بين تلك المستويات حيادٌ انبعاثي . وبما أن ضوابط صياغة المنظومات الفلسفية عبثية، فإن المخرَجات لن تكون بمستوى الطموح البشري ، وربما كان هذا أحد أسباب الثورة الداخلية ، التي تنبعث في أصل الفِطْرة الداعية إلى التوجه إلى خالق واحد ذي قوة مُطْلقة .

وبمعنى آخر ، إن الفِطْرة الإنسانية كان فيها تياران متصارعان ، تيار أصيل ضعيف يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وتيار دخيل شرس متمثل في الشوائب والشُّبهات والانحرافات التي سيطرت على جزء كبير من الفِطْرة ، لدرجة أنك تجد كَمًّاً هائلاً من الغبار ، يكاد يُبيد مقومات الفِطرة ونوازعها الفاضلة . لذلك ينبغي عدم التعويل على فِطْرة الفرد الجاهلي ، لأنها صارت مُغلَّفة بالسواد والقتامة جرَّاء الحجم الهائل من الشذوذ التعبدي ، ولكنني أقول إن ضوءاً ربانياً قد يبزغ في فِطْرة أحدهم ، ويقودها إلى جادة الحق ، وصراطِ الله تعالى المستقيم .

والتناحرُ العَقدي المتأجج في العادات والتقاليد الناجمة عن الهذيان الْمُبَرْمَج والفوضى المنظَّمةِ، من شأنه أن يبثَّ طبائعَ اللانتظام السلوكي في أنوية الأنساق المؤدلَجة، وهكذا تنهار القيمة المعنوية للعنصر المادي بصورة موغلة في اضطهاد المعنى ، ونفي التراكيب السلوكية لقدرة الزمكان على تشكيل صور تاريخية ، فيتم الوقوع _ بحركة عفوية لا إرادية _ في عملية عقلنة

اللامعنى التي هي تيار جمعي شاذ لإضفاء الصفات العقلانية الخاضعة لتفكير العقل الحر على انهيار المعنى وغيابه (اللامعنى) من أجل إلباس الانحراف صفة التكاملية الحرة. وهكذا يصبح العقلُ الحر عدواً للعِلْم ، والعِلمُ مُؤيِّداً للجهل المطْبِق ضمن ثنائية نسقية هدَّامة .

وإذا فهمنا نظرية "عَقْلنة اللامعنى"، تَوَصَّلنا إلى العلاقة النسبية بين الأجزاء الثائرة على الكُل . وللأسف ، فإن العقلانية سلسلة مفقودة ، قد حَلَّ مكانها النَّوْعيةُ الجمعية المنحرِفة . وهذه النوعية غير المتجانسة لا تعمل من تلقاء نفْسها ، بل تعمل بفعل الوقود الأيديولوجي الذي يتم حقنه في صورة المعاني والألفاظ والأشكال التعبيرية الخارجة من الاستيعاب النوعي . والعملية ليست بدهيةً، وهذا يقودها إلى حالة الاختناق الذاتي الذي يُمهِّد لانسحاب العلائق الاجتماعية ، وتمركزِ الرؤى الشاذة عن المسار الحضاري العام .

والمؤسسية القائمة على تغييب المعنى تارة ، وقتله تارة أخرى ، تُفرِز حراكات لاإنسانية ضمن تتابعات ذهنية غير محدودة تدعو _ علانيةً _ إلى تعديلات وجدانية تمس مركزية حياة الفرد ، من أجل الحصول على كائن مسخ لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم ، وهذا هو مفهوم الجاهلية للإنسان الصالح الذي يُصفِّق لجلاده ، وينحني لقاتِله .

إن الوصول إلى المواجَهة الشاملة حتمي ومنهجي ، والصراعُ الانقلابي مستمر بصورة فكرية حركية ثَورية. واستقلال الأيديولوجية غير المتجانسة عن الجسد البشري ، إنما هو بفِعل الكَم الهائل من الظواهر الهذيانية التي تكونت نتيجة سيطرة أصحاب النفوذ على الحياة السياسية والاجتماعية . ونزع التكوينات النسقية الهدامة من العقلية اللاعقلانية أمر ليس سهلاً ، بسبب حاجته إلى جهود جبارة فاعلة . ولكنْ في كُل زمانٍ ومكانٍ ، مَن يقوم بالتغيير هم الفئة الثورية التي يحتقرها السادة ، ويتاجرون بها في صفقاتهم، ويتاجرون بها في أعمالهم . وهذه الفئة الثورية لَيس لَدَيْها ما تخسره سِوى قُيودها. وهذه الفئة تكون منبوذةً في التجمع البشري لأنها تُهدِّد نظامَ الحُكم الجاهليِّ. وإذا لم تقم هذه الفئة بالثورة ، فإنها ستفقد قيمَ حياتها الاجتماعية ، وإذا اعتنقت الصمتَ المخيف ، فإن سُلوكها الوجداني سَوْفَ يضمحل ، وتختفي مُقوِّمات وُجودها . لذلك كانت الثورة هي الحل الوحيد والجذري في هذا السياق الجاهلي البدائي القاتل .

وينبغي القول في هذا السياق ، إن صراع البنى الطبقية التراتبية له أهمية بالغة في التجمعات البدائية المتخلفة _ مثل التجمع الجاهلي البدائي العربي الوثني _ بسبب سوء توزيع الثروات، وانعدامِ العدالة الاجتماعية ، والظلمِ الطبقي الممنهَج ، وغيابِ المنهج الرَّباني .

رَمْي البَعْرة

إن الهذيان الجاهلي يتجذر في صلب العلاقات الاجتماعية . وبما أن المرأة هي الحلقة الأضعف في سلسلة التشريعات الجاهلية ، فقد كانت النقطةَ المركزية التي تدور حَوْلها الطقوسُ المجتمعية البدائية . وهذا يُنبئ عن وضع المرأة الذي كان متدنياً وغارقاً في مستنقعات المجتمع الذُّكوري المتطرف .

والمنْزلة الدونيةُ للمرأة جَعَلَتْها فأرَ تجارب تُطبَّق عليه تعاليمُ القبيلة ، والشعائرُ الدينية والدنيوية التي اخترعها الرِّجال . لذا فإن المرأة الجاهلية تدفع ثمنَ هزيمة الرِّجال الروحية والمادية . وإذا كانُ الرجلُ العربي البدائي يدفع ثمنَ تخلف الجاهلية مرةً واحدة ، فإن المرأة تدفع الثمنَ آلاف المرات بسبب ضعفها ، وتهميشها ، واحتقارها ، وتجريدها من كافة الحقوق ، ووضْعها في رُتبة الإماء . وسُلطة التشريع الجاهلية تمارس نفوذَها الأخطبوطي على المرأة بقسوة بالغة ، وهذه السُّلطة مستمدة من العقل الجمعي الجماهيري الذي يرى المرأة مفعولاً به ، ويرى الرَّجلَ فاعلاً.ووفق هذا المنطق فإن المفعول به لا يمكن أن يَتقدم على الفاعل، وهذه هي فلسفة النظرة الدونية للمرأة . واحتقارُ المرأة في الجاهلية يرجع إلى أسباب بيولوجية تَنظر إلى المرأة على أنها محل شهوات الرِّجال ، ومجرد وعاء حاضن لشبق الرَّجل ومتعته الجنسية . لذلك كان الرَّجلُ (الفِعْل / الفاعل) سَيِّداً مُطْلقاً على المرأة (ردة الفِعْل / المفعول به) ، ومَالِكاً لجسدها بكل تفاصيله . وعن أم سلمة _ رضي الله عنها_ قالت : جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ، فقالت : يا رسول الله ، إن ابنتي تُوُفِّيَ عنها زَوْجُها، وقد اشتكتْ عَيْنها، أَفَتَكْحُلُها ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : ((لا)) مَرَّتَيْن أو ثلاثاً . كل ذلك يقول : لا، ثم قال رسول الله ﷺ : ((إنما هي أربعة أشهر وعَشْر ، وقد كانت إحداكنَّ في الجاهلية تَرْمي بالبَعْرة على رأس الْحَوْل)). قال حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبَعْرة على رأس الحوْل؟، فقالت زينب : كانت المرأة إذا تُوُفِّيَ عنها زَوْجُها دَخَلتْ حِفْشاً ، وَلَبِسَتْ شَرَّ ثيابها، ولم تمسَّ طِيباً حتى تمرَّ بها سَنة، ثم تُؤتَى بدابةٍ حمارٍ ، أو شاةٍ ، أو طائرٍ ، فتفتض ، فقَلَّما تفتض بشيء إلا مات ، ثم تخرج فتُعطَى بَعْرة ، فترمي ، ثم تُراجع بعد ما شاءت مِن طِيب ، أو غَيْرِه [129].

---

(١٢٩)متفق عليه.البخاري(٥/ ٢٠٤٢)برقم(٥٠٢٤)،ومسلم(٢/ ١١٢٤)برقم(١٤٨٨و ١٤٨٩).

والبَعْرةُ هي رَوْثُ الجِمال . والمرأةُ في الجاهلية إذا تُوُفِّي عنها زوجُها دخلت بيتاً صغيراً حقيراً (حِفْشاً) ، وارتدت أسوأ ملابسها ، ولم تمس الطِّيب إلا بعد مرور سنة . ثم تَكسر ما كانت فيه من الحالة المزرية بما تفعله بالدابة ، حيث تَمسح بها جِلْدها ، وهذه الدابة لا تكاد تعيش بعد ذلك . ثم ترمي البعرةَ ، فتكون بعد ذلك في حِل من أمرها .

وهذه الطقوسُ البدائية المهينة للمرأة ، تم اختراعها من قِبَل السُّلطة الجاهلية ، وتكريسها كشريعة خاصة بالمرأة المتوفى عنها زوجها (الأرملة) . وهي تَحمل في طَيَّاتها صورة المرأة العبدة المرغمة على اتخاذ سلوك مُعيَّن تجاه زوجها المتوفى ، وتجاه تقاليد المجتمع ، دون أن تَفهم أبعادَ هذا السلوك أو مدى اتفاقه مع العقل . ولكنَّ المرأة الجاهلية كانت مُجبَرَة على الرضوخ لتعاليم الآباء المؤسِّسين للفكر العربي البدائي المعتمد على التقليد واختراعِ الشرائع والطقوس ، بدون توجيه سماوي .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٠/ ١١٤) : ((قال بعض العلماء : معناه أنها رمت بالعِدَّة وخرجت منها ، كانفصالها من هذه البعرة ورميها بها ، وقال بعضهم : هو إشارة إلى أن الذي فعلته وصبرت عليه من الاعتداد سنة ولبسها شر ثيابها ولزومها بيتاً صغيراً هَيِّنٌ بالنسبة الى حق الزوج وما يستحقه من المراعاة كما يهون الرمي بالبعرة)) اهـ .

نلاحظ حجم التخلف والانهيار في العلاقات الاجتماعية داخل البيئة الجاهلية . فرمي البعرة الذي يُجسِّد _ حسب تصور المرأة الجاهلية _ خروجها من العِدَّة ، كان منتشراً بكثافة وكأنه تشريع سماوي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن هنا نستنتج مقدار الافتراءات والخزعبلات في قلب البيئة الوثنية الرجعية . وهذا يقودنا إلى الحديث عن الأساس الفكري لنشأة مثل هذه الترهات . فنقول إن العادات والتقاليد صارت بمثابة الدِّين الذي لا يُناقَش ولا يُستدرَك على تعاليمه. ومنشأ العادات والتقاليد هو الأداء الهوَسي للقبائل ومُشعوذيها وأتباعها الذين يفتقدون إلى الهداية الرَّبانية التي تَقود الناسَ إلى بَر الأمان . فنراهم منشغلين بتكوين أنساق خُرافية تنْزع إلى تحطيم إنسانية الإنسان ، وتعزيزِ انعدام احترام الكائن لكَينونته .

والخرافة ترتدي الدِّينَ ، ويتَّحدان ضمن ثنائية فاقدة للشرعية ، شرعيةِ النَّص المقدَّس . ومن الواضح أن هناك مستفيدين من هذا الخلط المتعمد ، الذي يتم وفق خطة منهجية للتسريع في عملية إعدام الإنسان روحياً، فلا يبقى غير جسد مُحطَّم مُتكوِّم على أنقاضه .

قال اللهُ تعالى موضِّحاً البنية الفكرية المتهاوية لأهل الجاهلية : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

واختراع العادات السيئة مرتبط باستقلال نظام الحُكم الجاهلي عن أفراد الجماعة ، استقلال ينبع من حتمية التصادم المستور نتيجة استيلاء القوى الحاكمة على السُّلطة بشكل يخلو من احترام حق الآخر في العيش الكريم وحريةِ الفكر والاعتقاد. وقد كانت السُّلطة القسرية احتكاراً للحقيقة المطْلقة المتمثلة في عبادة الأوثان . واتجاهاتُ البنى الرَّكامية داخل مدلولات النَّزعة المركزية السُّلطوية ، لا تسمح للرأي الآخر المضاد للوثنية بالانتشار بين أفراد الجماعة ، وذلك بسبب تَبَنِّي الوثنية منهج حياة لا يقبل النقاش، وهذا تحجُّرٌ في الفِكر مستند إلى غياب الْحُجَّة الساطعة ، والبرهانِ الواضح ، والدليلِ الدامغ .

ولا نُخطئ إذا قلنا إن العقلية الجاهلية تخشى من طرح الأسئلة الوجودية على ذاتها ، لأنها متقوقعة على مِحورها الذائب في ركام الهذيان والشعوذة، واختلاطاتِ الواقع الاجتماعي الذي يضغط على حرية التفكير ، ويقمع المنهجَ التنويري التثويري بصورة شرسة لا مكان فيها للرحمة والأخلاقيات .

وللأسف فإن الفرد يخضع لتفاصيل حياته الاجتماعية الجمعية الشاذة ، مُفضِّلاً رأي الجماعة المنحرف على رأيه وتفكيره ، فيُقنع نفْسَه بأنه غير مؤهل للبحث والتفكير، وهكذا يَهزم نفْسَه ويلغيها ويقمعها بشكل قاس . وهذا هو السبب الأساسي لانعدام الثقة بالنَّفْس لدى أفراد التجمع الجاهلي ، حتى لو كانوا يتميزون بالفروسية وحب الغزو والقتال . فمعَ هذا سيظلون أسرى لشهواتهم وشذوذهم ، وبالتالي سيكونون فاقدي الثقة بالنَّفْس ، حيث إن دافعهم إلى الفروسية لن يُكسبهم مزيداً من الثقة ، فالثقة بالنَّفْس ترجع إلى أمر واحد ، وهو الثقة باللهِ تعالى الذي يتولى الإنسان ويَحميه ويُدافع عنه . وهذا المفهوم غائب بالكلية عن تفكير الفرد الجاهلي الذي يفتقد إلى الرأي الصائب المعتمِد على عقيدة صافية مُستقاة من الوحي السماوي . وكما قال المتنبي :

الرَّأيُ قَبْلَ شَجاعةِ الشُّجعانِ ... هو أوَّلٌ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثاني
فإذا هُما اجتمعا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ... بَلغَتْ مِن العَلياءِ كُلَّ مَكانِ
ولربما طَعنَ الفتى أقرانَه ... بالرأْيِ قبلَ تطاعُنِ الأقرانِ

وتحليل الأنساق إنما يتم بفهم تأسيسي للعلاقة بين الْمُعطَى الاجتماعي والتفكيري. وتفكيك الظواهر الفكرية يجيب على كثير من الأسئلة التي يطرحها الفرد الجاهلي على نفْسه من حين إلى آخر، وهذا يُجسِّد نواة المعرفة الجمعية . أمَّا استيلاء بعض أجهزة الحُكم على القيمة الأخلاقية ، والمنحى الفكري ، فهو بسبب سيطرة الفكر التقليدي الكلاسيكي المقموع على مجريات الحياة العامة التي تؤلف نواة مركزية للحكومة العُرفية القاتلة .

والتَّمَوْضُعُ حول الذات السُّلطوية القمعية يُجري بين الحين والآخر مُراجَعةً غير بناءة ، تهدف إلى تعزيز القمع والهيمنة والاستيلاء على كل مفاصل الدولة العُرفية غير المعلَنة. وهذه المراجَعة عبارة عن عدة مراجعات تحدد الطبيعةَ المفصلية للعلاقة بين التقاليد والسُّلطة التي تتبنى هذه التقاليد عقيدةً ذِهنيةً وواقعاً ملموساً . أمَّا التغيرات في أنماط الحكومة العُرفية فليست بأكثر من إجراء تجميلي وقتي لتحسين صورة النظام المجزَّأ إلى عدة أنظمة لا معرفية ، ومُناوِئة للمعرفة النافعة ، ومضادة للسلوك المعرفي البَنَّاء ، ومُعاكِسة للمعاني السامية .

وتشخيص البؤر السيكولوجية الموجودة في المعنى ، ينبغي أن يركز على العلاقات الزمكانية . والواقعيةُ السُّلطوية في قلب الأجهزة الحاكمة ، هي روابط شكلية تنتهي بانتهاء المظاهر الركيكة المعتمدة على محاولات قمع الحقائق. والتفكيكُ البيئي لسُلطة الموروث الاجتماعي ، يأخذ بأيدينا إلى التحليلات المنضبطة بقيود المنهج العِلمي. وهذا يساعدنا على تعيين القوى الثائرة على خارطة السيطرة غير المعرفية . ولتحديد القوى المهيمِنة على السِّياقات المضادة للاتجاه الحضاري ، ينبغي تحديد السلوكيات الأيديولوجية التي لا تعدو عن كَونها أخلاقاً نفعية أو مذهباً نفعياً [130] مُؤطَّراً داخل العُزلة اليومية القاتلة ، وَمُتَسَتِّراً بالقيم الخُلقية السامية .

*

(١٣٠) أخلاق المنفعة مذهب أخلاقي يرى أن الخير هو المنفعة ، وقد ظهر هذا المذهب في بريطانيا على يد مفكِّر اسمه جيرمي بنتام (١٧٤٨م ــ ١٨٣٢م) ، وأرسى دعائمه المفكر جون ستيوارت مِلْ (١٨٠٦م ــ ١٨٧٣م) ، وقد أجرى مفكرون لاحقون تعديلات وإضافات عليه .

صيام عاشوراء

من الطقوس التي كانت تُمارَس في الجاهلية صيامُ عاشوراء. ولم يكن صيامه سوى تقليد أعمى، وحالة تعظيمية أخذها العربُ الجاهليون (أهل الأوثان) عن اليهود .

وعن السيدة عائشة _ عليها السلام _ أن قُرَيْشاً كانت تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية ، ثم أمر رسول الله ﷺ بصيامه حتى فُرض رمضان ، وقال رسول الله ﷺ : ((مَن شاءَ فَلْيَصُمْهُ ، ومَن شاءَ أفطرَ))[131].

((قال القرطبي : لعلهم كانوا يستندون في صَوْمه إلى أنه من شريعة إبراهيم وإسماعيل _ عليهما الصلاة والسلام _، فإنهم كانوا ينتسبون إليهما ، ويستندون في كثير من أحكام الحج وغيره إليهما))[132].

والجديرُ بالذِّكر أن اليهود كانوا يَصومون عاشوراء تعظيماً له . فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ قال : لَمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ ، وَجَدَ اليهودَ يصومون عاشوراء ، فَسُئلوا عن ذلك ، فقالوا : هذا اليوم الذي أظفرَ اللهُ فيه موسى وبني إسرائيل على فِرْعَوْن ، ونحن نصومه تعظيماً له ، فقال رسول الله ﷺ : ((نحن أَوْلَى بموسى مِنكم))[133].

إذن ، يتضح أن اليهود كانوا متمسكين بصيام عاشوراء ، ولا يخفى التصاق اليهود الوثيق بمشركي الجاهلية والتواصل فيما بينهم بحُكم البيئة الواحدة في الجزيرة العربية . لذا فإن تقليد العرب لليهود لم يكن سِرَّاً . إذ إن تقليد أهل الأوثان لأهل الكتاب واضحٌ . ومن الواضح كذلك سعي الوثنيين إلى اقتباس طقوسهم وعاداتهم من أهل الكتاب ، لأن العرب الوثنيين في الجاهلية كانوا مصابين بعقدة الشعور بالنقص ، إذ إن اليهود والنصارى عندهم التوراة والإنجيل اللذان هما في الأصل كتابان سماويان،ولكن طرأ عليهما التحريف. أمَّا العرب الجاهليون فليس عندهم كتاب، وهذا أدى إلى نظرهم إلى أهل الكتاب نظرة تقديسية مليئة بالاحترام والتعظيم، حتى لو لم يعتنقوا

---

(١٣١) متفق عليه . البخاري (٢/٦٧٠) برقم (١٧٩٤) ، ومسلم (٢/ ٧٩٢) برقم (١١٢٥) . قلتُ : عاشوراء ، هو اليوم العاشر من شهر مُحرَّم .

(١٣٢) شرح السيوطي على صحيح مسلم (٣/ ٢٢٢) .

(١٣٣) متفق عليه . البخاري (٣/١٤٣٤) برقم (٣٧٢٧) ، ومسلم (٢/٧٩٥) برقم (١١٣٠) .

اليهودية والنصرانية، مع العِلْم أن عدداً قليلاً جداً من العرب اعتنقوا اليهودية أو النصرانية في الجاهلية. وينبغي القول إن اليهوديةَ والنصرانيةَ الغارقتَين في تقديس الأشخاصِ ، وتعظيمِ الخرافاتِ، واختراعِ الطقوس الوهمية، تتعارضان جُمْلةً وتفصيلاً مع العقل العربي الطامح إلى الحرية والانعتاق، ولا تُناسبان المزاج العربي بسبب كثرة القيود فيهما ، وتفشِّي الشعائر الوهمية القاتلة لروح الإبداعِ والتحررِ والانطلاقِ . وهذه الأمورُ أدَّت إلى عدم انتشار اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية . وقد كانت العقائد الجاهلية صورة للصراع النفسي الحاد في الوسط البشري، وهذا الصراع له دور محوري في توجيه أشكال المعارف داخل الروابط المعقَّدة في الصور الاجتماعية ذات الطبيعة الاستحواذية . وبالطبع، فإن الصور الاجتماعية كانت مُركَّبةً تركيباً غير متجانس في قلب البيئة الجاهلية . كما أن للإدارة الفاشلة للموارد البشرية دوراً هائلاً في تحجيم القوى الثورية ، وقتلِ معطيات الحرية والعدالة داخل الوسط البدائي الموغل في الوثنية . وتأسيس وضعيات الاتجاه نحو بسط النفوذ على الأفراد المهمَّشين، كان الشُّغل الشاغل للسادة أصحابِ النفوذ ، وهُم الحرس القديم (حُرَّاس المؤروث الجاهلي). وهيمنةُ قِطاع متآكل على باقي القطاعات الاجتماعية ، كانت إحدى المراحل الوقتية، والأطوارِ المرحلية لاحتكار مركزية السُّلطة المكوَّنة من الاتجاهين العَقدي والاجتماعي .

ومن أسباب انحسار المد العَقدي الأصيل ، وغيابِ القيم الزمكانية في الوجود الفلسفي، وأفولِ معطيات حرية الاعتقاد والتعبير، وجودُ العناصر المؤدلَجة مُسبقاً ، وتبنِّي وُجهة نظر وثنية أحادية منكمشة على ذاتها ، ورافضة لكل رأي مخالف، أو عقيدة مضادة، ليس حباً في العقيدة الوثنية، أو تعزيزاً لعنصر الانتماء إلى التجمع الجاهلي ، بل حُبَّاً في المصالح النوعية الفردية ، وسعياً نحو إحكام الخناق وتضييقه على الأفراد المقموعين . والأدواتُ العَقدية _ بسبب انتشارها وسَطْوتها _ تسيطر على مُخرَجات العملية السياسية الميتة في مهدها . ولأن العملية السياسية منتهية قبل أن تبدأ ، انعكس هذا الأمر على المعطيات العَقدية التي يتبناها الإنسان الجاهلي المعارِض لإنسانيته . والصِّدامُ بين المقدَّس لدى الفرد الجاهلي ومصلحته المقدَّسة لا بد أن يَحْدث ، وعندها سوف يختار الفرد مصلحته الدنيوية الزائلة، لأنه لا يؤمن _ أصلاً _ بحياة بعد الموت . والفئة المهيمنة على المشهد الجيوسياسي ترسم استقلالاً وهمياً عن الموروث المتطرف الذي يَقمع الفردَ ، ويَفرض عليه عقائد لا معنى لها. والأسبابُ الاجتماعية والمعطياتُ التاريخية تلعب دوراً محورياً في توجيه الإرهاصات البنائية داخل فوضى الأيديولوجية . وجُملةُ النِّزاعات

العَقدية تعبث _ بشكل مثير للغثيان _ بحياة الفرد ومقوماتها وبنائيتها ، وكأن الفرد أضحى مجموعة من التنازلات الخاضعة لتسوية غير مشروطة، ومغلَّفة بالمكائد المنظَّمة ، والتناقضاتِ الصارخة . ومشروعُ الدولة المتهاوي يُفصح _ على الدوام _ عن رغبته بصناعة فرد لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم ، وهذه هي المواطَنة الصالحة في أجمل صورها _ حَسَبَ المنظور الجاهلي _ . والعقائد الجاهلية تعتمد على تجمع رأسمالي ، تكون السيطرة فيه لرأس المال. والقبيلة لا تملك أن تستجوب الأغنياء ، ولا تستطيع تطبيق تعاليم القبيلة عليهم . أمَّا العبيد والعوام فيتم تسليط سيف العادات والتقاليد الوثنية عليهم . وإذا أدركْنا تفاصيلَ الحكومة الطبقية غير المعلَنة ، استوعَبْنا منظومةَ الانهيار الاجتماعي داخل العناصر الطبقية الحاكمة .

وهذه السيطرة العَقَدية الاجتماعية بالغة الحساسية والتعقيد في نفس الوقت. فأداء الجزء المهيمن إنما يكون لصالح فئة معينة محسوبة على التيار الحاكم . وعلى الرغم من تكريس حاكمية الطاغوت في هذه البيئة السادية ، إلا أن البيئة قد تتعامل في بعض الأحيان مع العواطف الإنسانية وقيم الرجولة والشهامة ، ليس اقتناعاً بهذه القيم بقَدْر ما هو تمسك بدين الآباء وعاداتهم وتقاليدهم التي تمثل خليطاً من الإيجابيات والسلبيات .

إن تحليل المركَّبات الأيديولوجية النفعية يحفر خندقاً عميقاً للعقائد الممزوجة بالوهم والخديعة والهذيان . وبما أن تنسيق القوى الذهنية يعتمد أساساً على واقع مُحطَّم ، كانت النتائج كارثية بامتياز . والأداء السياسي المختل لم يكن سوى أداةٍ في يد الحكومة الجاهلية العُرفية ، وتفعيلٍ لحالة اللاوعي الهذياني، من أجل هيمنة طبقة حُرَّاس الأوثان(عِلْية القوم) على سَير العلاقات العَقدية والاجتماعية. ومهما كان التفاعل مليئاً بالنشاط والحيوية، لا يستطيع الوصول إلى مركزية الحقيقة، أو اعتماد الذات البشرية كمبدأ يمتاز بالسُّمو والرِّفعة . وهذا المشروع البدائي الذي يُمثِّل نواة بائدة لدولة غير متحضرة وغير معترف بها، يمتاز بانعدام الاستقلالية، وتفشي المركزية الإدارية بصورة صاعقة ، وهذا مرجعه إلى تشديد الرقابة على كل المدخَلات والمخرَجات الفكرية للفرد العائش في ظلال انتحاره البطيء. صحيحٌ أن أدوات هذا المشروع (الدولة) قد تركزت في يد القوة التنفيذية سَوْطاً على ظهور العبيد ، إلا أننا نجد بعض بوادر الثورة الخفية، وتباشير صباح قادم يُفجِّر ظلامَ اليأسِ والتخلفِ والتبعيةِ للحَجَر . وتمثلت ذِرْوةُ الثورةِ وأوْجُها في الإسلام المخلِّص الذي فجَّر ظلامَ الوثنية إلى الأبد، مُوظِّفاً أصحابَ الفكر الثوري المعارِضين لهيمنة الحجَر على حياة البشر، لصالح الشريعة المحمَّدية الإسلامية . وهكذا حَضَنَ الإسلامُ كُلَّ فكرٍ

ثَوري ، ونَقَّاه من الأدران والشوائب التي تُنافي الإخلاص لله تعالى، ووظفه لخدمة أسمى قضية على وجه المعمورة ، ألا وهي قضية التوحيد .

والجدير بالذِّكر أن الطبقة النخبوية الحاكمة هي تجسيد لذاتها المنكمشة، وليست تجسيداً لآمال وطموحات ما يُعرَف مجازاً بالشعب الجاهلي . والأوبئةُ السياسية المتفشية تقود إلى تأسيسات مشروطة ومُؤقَّتة تتخذ من قمع الجماعة مكاناً وزماناً . أمَّا الشروط المندفعة باتجاه تعميق حالة التخلف التابع للصَّوْلجان ، فهي موجودة لترسيخ التخلف والجهل في العامة حتى يسهل قيادتهم إلى الهاوية والسيطرة عليهم ، وتوجيههم _كالأغنام المستسلِمة لمغتصِبها _ إلى الحفرة العميقة القاتلة .

والتذبذبُ الحاصل في فهم عناصر العالَم الخارجي ، كان من السِّمات الأساسية التي صَبغت حياةَ الفرد العبثية. تذبذب وتردد في تقبُّل المعطيات الاجتماعية، والتعامل معها بأسلوب همجي سادي . وفي هذه الحالة المتجذرة، تُحقِّق الصَّفوةُ الحاكمة مزيداً من المكاسب والنفوذ على حساب المشردين والضعفاء الذين استمرأوا الذل والعار والمهانة ، واستثنوا الثورةَ الشاملة من أفكارهم المستقبلية وحساباتهم العملية .

وفي ظل هذه الضبابية المتعمدة ، فرَّخ الخوفُ شرائعَ الوهم ، وطُقوسَ الخرافة ، مِمَّا أدى إلى إنتاج جيل مسخ مُكرَّس للخنوع ، والاستسلامِ ، وتبريرِ الذل ، وإلباسه ثوب العقلانية والواقعية . والتذبذبُ إنما تتمُّ صناعته خصيصاً لمحاصَرة كل فكر ثَوري خلاق ونافع . وكلُّ فرد لا يُفكِّر بالثورة هو فرد مهزوم يُمثِّل عِبئاً على الحياة الاجتماعية ، ينبغي استبعاده من دائرة صنع القرار ، والفكرِ الجمعي البَنَّاء . وللإنصاف ، فإن أهل الجاهلية الذين كانوا يصومون عاشوراء ، إنما فعلوا ذلك بدافع دِيني من أجل التقرب إلى الله تعالى . فلم يُجبرهم أحد على الصيام ، لكنهم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم . وفي هذا دليلٌ واضح على حرصهم على أداء العبادات .

لكنَّ الإشكالية الكبرى في النسق الجاهلي أن عباداتهم مبنية على أساس باطل ، فهم يعتمدون على الشِّرك والتقليد والابتداع دون أي توجيه سماوي. وما بُنِيَ على باطل فهو باطل . كما أن النية الصالحة لا تُصلِح العملَ الفاسد . فالنوايا الصالحة كانت موجودة في أهل الجاهلية الذين أرادوا التقرب إلى الله تعالى وفق طريقتهم . لكنَّ ذلك لا يُجدي ، فالعبادةُ لا بد أن تنطلق من عقيدة سليمة لا شائبة فيها ، ويتم تطبيقها وفق منهج سماوي لا بشري وَضْعي ، وما سوى ذلك مَضيعةٌ للوقت . وكما يقال : إن الطريق إلى جهنم مُعبَّد بالنوايا الحسنة .

النَّذر

النَّذْرُ هو الالتزام بأداء قُربةٍ غير واجبة ، وَرُكْنُه هو الصِّيغة الدالة عليه ، والهدفُ مِنه التقرُّب إلى الله تعالى . ومن المعلوم أن أهلَ الجاهلية كانوا يتقرَّبون إلى آلهتهم بالنُّذور طمعاً في شفاعتهم عند الله تعالى .

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن عُمر سأل النبي ﷺ قال : كنتُ نذرتُ في الجاهلية أن أعتكفَ ليلةً في المسجد الحرام ، قال : ((فَأَوْفِ بِنَذْرِك))[134].

يظهر لنا أن النذر كان موجوداً في النسق الاجتماعي الجاهلي اللاديني . والذي نريد أن نفهمه في هذا البحث المختصَر ، هو فلسفة انتشار معنى النذر وكيفية نشأته في الأوساط الإنسانية الجاهلية. فنقول إن العقيدة الوثنية المضادة للشرائع السماوية إرهابيةٌ بكل معنى الكلمة ، لأنها اعتداء سافر على حق الفرد في أن يحيا حياة طبيعية في ظل الشريعة السماوية . وليس النذر في الجاهلية إلا محاولة إلزامية لفرد يعتبر عبادة الوثن دِيناً واجب الوجود ، وهذه البؤرة الفاسدة هي اللادينية بعَيْنها .

وانتشار مفهوم النذر في التجمع العربي الوثني قبل الإسلام ، إنما هو بسبب حاجة الفرد للالتصاق بنسق اجتماعي مُحدَّد ، يصطبغ بصبغة ما يُظَن أنه دِين لازم . والإنسان الجاهلي بطبيعته البدائية، كان يسعى إلى تمثيل دور الإنسان الطبيعي الخاضع لشريعة ما، تُكمِل نقصَه، وتُدافع عنه ، وتُوفِّر له الطمأنينة والسعادة ، وتسلب منه الخوف من المستقبل المجهول. والنذر مثل باقي التعاليم التي كانت منتشرة في الجاهلية ، كان يُهدَف من خلاله إلى إعادة صياغة المشروع البشري

---

(١٣٤) متفق عليه . البخاري (٢/ ٧١٤) برقم (١٩٢٧) ، ومسلم (١٢٧٧/٣) برقم (١٦٥٦) .
قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ١٢٤) : ((اختلف العلماء في صِحَّة نذر الكافر ، فقال مالك وأبو حنيفة وسائر الكوفيين وجمهور أصحابنا ــ يَقْصد الشافعية ــ : لا يَصِح . وقال المغيرة المخزومي وأبو ثور والبخاري وابن جرير وبعض أصحابنا: يَصِح. وَحُجَّتهم ظاهر حديث عمر. وأجاب الأولون عنه أنه محمول على الاستحباب ، أي يُستحب لك أن تفعل الآن ، مِثل ذلك الذي نذرته في الجاهلية . وفي هذا الحديث دلالة لمذهب الشافعي وموافقيه في صحة الاعتكاف بغير صوم ، وفي صحته بالليل ، كما يصح بالنهار ، سواء كانت ليلة واحدة ، أو بعضها ، أو أكثر)) اهـ .

وفق تصورات مادية مهووسة بتقديس المادة التي تصير بُعداً غيبياً ومشهوداً داخل الأنساق الاجتماعية المشوَّشةِ ، وداخل الأنماط الجمعية الاستحواذية المضادة للمعنى .

واتساعُ فرضيات الوهم السياسي قاد إلى معركة أيديولوجية بين العقائد الوثنية التوراتية والإنجيلية الموجودة في بعض التجمعات ، وبين الوثنية العربية ، فحدث بينهما تأثير متبادل يرمي إلى منع العقل من التفكير والانعتاق والتحرر . وآليةُ الاضطهاد الفكري مندمجة بالكامل مع رغبة الساسة في قمع الحريات الثقافية ، وترسيخِ حالة التسيب والانفلات والتحرر من هيمنة الله تعالى على البشر[135] .

ولم يكن الاستبدادُ الجاهلي المسعور غير تسوية سياسية فاشلة ومُقامَرة غير محسوبة، وذلك لأن الاستبداد جعلَ جهاز الحكومة العُرفية (حكومة الظل القاتل) المتنقلة بين الوهم الاجتماعي والوهم الدِّيني دُميةً في يد صنمٍ يُدعَى شيخ القبيلة . وهذه الأمراض الفكرية المتأصلة تملك حياة الأفراد، وتسيطر عليها بلا رأفة ، حيث تفتك بأصول المشاريع الإنسانية الثورية نتيجة تجذر المِلكية المطْلقة في الأنساق المجتمعية، وتكريسِ الرأسمال المتحكِّم بحياة الجميع بصورة وحشية تقتل المعنى الإنساني في الذات البشرية، وتبيد فكرَ التغيير الرامي إلى تكوين مستقبل

---

(١٣٥) هيمنة الله على البشر هيمنةٌ محمودة ، لأنها تُعطي للإنسان إنسانيته ، وتقوده إلى القيم السامية والمعاني الجميلة كالتوحيد ، حيث يتم إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، وهذا منتهى التحرر والحرية ، والالتزام بالشريعة السماوية الموجودة لصالح البشر ، وليس لخدمة الأغنياء والمتنفذين على حساب الفقراء مثل القوانين الوضعية التي يضعها الحكامُ الظالمون ، والسَّاسةُ المرتزَقة ، وأمراءُ الحروب . والجدير بالذِّكر أن ما يُسمَّى بالحداثة ، والتي تهدف إلى إقامة قطيعة مع الوحي ، والوقوف ضد الإسلام ومؤسساته ، وضد اللغة العربية وثقافتها ، إنما هي حداثةٌ مُفرَغة من معناها ليس لها من اسمها نصيب. وهي ــ أي الحداثة ــ مشروع جاهلي مندمج مع عُقدة الخواجة ، ويستند إلى الموروث الجاهلي في تفسير وجود الإنسان ، وعلاقته بخالقه ، وبأخيه الإنسان ، وبالأشياء مِن حَوْله . كما أنها تهدف ــ كما في الجاهلية ــ إلى التسيب والانفلات وعدم الخضوع للخالق تعالى ضمن فوضى يدعونها خلاقة . ويريدون تكريس سيادة الإنسان المطْلقة على نفْسه دون الرجوع إلى الشريعة السماوية الإسلامية ، وإنما الرجوع إلى العقل القاصر الذي صَيَّروه إلهاً يُعبَد من دون الله تعالى . إذن ، يتبين لنا أن ما يُسمَّى بالحداثة هي مَوْروث جاهلي عَقدي ، أسَّسه عِلْية القوم داخل البيئة الجاهلية .

آمِن، لا يخاف منه الفرد . ولأن النذر في الجاهلية كان نتيجة طبيعية لوضعية وثنية متقلبة في أنحاء اللامعنى ، غُلِّف بطابع يمس المعتقداتِ الدينية اللادينية [136]، ذات الامتداد الأيديولوجي غير المستند إلى حقيقة ساطعة . فالنذر الجاهلي كان نتاج مرحلة تاريخية ، وبسبب وضعية زمنية مُحدَّدة فرضها الآباء المؤسِّسون للهذيان على حياة أجيال لاحقة ضائعة .

وتأريخُ النُّظم الاستبدادية المنعكِسة على العقائد السائدة الملتبِسة غير الحاسمة ، يؤدي إلى تكوين إيقاعات معرفية تائهة في الصراع بين المنظومة الفكرية والمنظومةِ العاطفية . والملاحظاتُ السياسية التي تتخذ طابع الاستعلاء الطبقي بإمكانها تجريد المنحى الاجتماعي من حيويته المصْطَنَعَة ، لكنَّ هذه الملاحظات لا تستطيع فرض منحى اجتماعي جديد ، بسبب غرق الأفراد في سياسة العبودية والخنوع ذات الطابع التكراري . وبما أن آليات السيطرة الاجتماعية المطْلقة تؤتي أُكلها الآنية ، وتميل إلى التعبير عن جُمَل النِّزاعات الأيديولوجية ، كان من الطبيعي أن يتمسك العربي البدائي بالوهم العَقدي ، لأن الغريق يتعلق بحِبال الهواء ، على الرغم من أن الأيديولوجيات الوثنية القاتلة تَقمع الفردَ ، وتَقتل فيه رغبةَ الحياة الإبداعية ، وتَضطهده في كل زمان ومكان ، وتضع طُموحَه الشخصي في مُواجَهة عقل الجماعة. وسبب هذا الانهيار الكارثي هو عدم وجود مَدلولات معرفية انقلابية في قاموس حياة الأشخاص . وهكذا يغدو الأشخاصُ ظِلاً باهتاً ، يغرق في مستنقع الأمراض الاجتماعية الفتَّاكة .

إن الخوف من تصادم الأفكار التنويرية مع الأعراف السائدة والتقاليدِ المقدَّسة ، وَجَّهَ بوصلةَ الحياة الفردية نحو التماهي مع الذات الجمعية التي _ رغم تفككها _ ما زالت محافظة على الاضطلاع بِدَوْر الممثِّل لآمال وطموحات وتصورات الأفراد العاديين، بغض النظر عن طبيعة الدَّوْر المتكلِّفة والْمُصْطَنَعَة . لذا يجب تعزيزُ أدبيات صدمة الأعراف السيئة، واجتثاثُ الموروث السلبي بصورة حاسمة . ولأن محيط الحوار عبارة عن دائرة مُغلَقة ، كان لزاماً على أتباع المنظومة الجاهلية العبثية ترسيخ حرية التعبير، والذهاب إلى أبعاد غير محدودة أكثر انفتاحاً على سياسات الوعي المنبوذة ، وأقل خوفاً من حتمية الصِّدام مع سُلطة الموروث العَقدي. وإذا اعتبرنا أن الفعالية الاجتماعية الموروثة محدودة بسبب غياب البنية الإبداعية للتأصيل الفكري، عرفنا حجمَ

---

(١٣٦) الوثنية العربية كانت دِيناً وَضْعياً أرضياً أسسه الآباء في التجمع الجاهلي ، وتبعهم الأبناء بكل هذيان . وهذا الدِّين الباطل ليس بدِين صحيح ، ومن هنا كانت العبارة " الدِّين اللاديني " .

السياسات التقليدية في التجمع البشري الخالي من الحراك الاجتماعي الحقيقي الفاعل، والمفتقدِ إلى الانتصارات المعرفية على المستويين الرسمي والشعبي ، والمحتاجِ إلى تسليط الضوء على دائرة اللامفكَّر فيه ضمن الأدبيات الجاهلية غير المدوَّنة .

ويوجد في ثقافة التجمع الإنساني النواة تكريسٌ للأبعاد التجسيمية المتعلقة بالأفكار الوثنية . ولكن هذا التكريس سُرعان ما يَخبو إذا وَجد فِطرةً سليمة لم تتلوَّث بأدران الشِّرك الجاهلي . والشراكةُ بين تكريس الأبعاد المنحرفة ونشرِ فلسفة الجاهلية، لن تصمد أمام الأفكار الثورية الفذة، لأن الشمس لا يمكن تغطيتها بغِربال ، ولأن الثورة هي فكرة الحقيقة ، أمَّا الفكرةُ المسيطرة على سلوك القيادة السياسية في النسق الجاهلي ، فهي فكرة الوهم الأيديولوجي المعتمِدِ على السيف وسُلطةِ القبيلة ، والمستندِ إلى منطق القوة لا قوة المنطق .

إن الذين يتقيدون باستقلال المناحي الذهنية عن السلوك الاجتماعي غالباً ما يقعون في فخ " الغباوة الثقافية " . فهم _ رغم ما يملكونه من الخواطر الثائرة _ غير قادرين على نسج بيئة جمعية فعالة ، تُمثِّل آمالَ الجماهير العريضة في صياغة مجتمع متجانس . وبالتالي غابت فكرة المجتمع عن حياتهم ، فأضحَوا تجمعاً بشرياً فقط ، وليس مجتمعاً إنسانياً له عناصره ومُقوِّماته .

وإعطاءُ الممارَساتِ اللادينية صورة الممارَسة الواعية المنتظَمة عمليةٌ غير واقعية ، لأن الاتحاد النمطي الظاهري في هرم السُّلطة قائم على تفكيك العناصر المكوِّنة للمشروعات الصغيرة ، تلك المشروعات التي يتخيلها الفرد ويسعى إلى تحقيقها ، لأنها تعطي معنىً قِيَمياً _ ولو آنياً _ لحياته ، ومُكوِّناتِ سُلوكه ، وعناصرِ قلبه وعقله .

إن الانحرافات السلوكية المتغطية بلباس العقيدة الدينية الجاهلية ، لن تساعد في إيجاد الحلول للأنساق المادية والمعنوية . فالحلول لا تولد في دائرة ضيقة تعتمد على القمع الوظيفي . ولأنَّ تلميع التسويات السياسية التي تُسيِّس المشروعَ الديني التقليدي _ دِين الآباء الموظَّف لإحكام سيطرة المتنفذين على طبقة العبيد_ هو وصفٌ متآكل تتجاذبه القوى المتمثِّلة في شَخْصنة القبيلة والمعطياتِ الدينية ، رأينا مراحلَ انهيار الفكر والْخُلُق ، بعد أن حَلَّت مكانهما النسقيةُ والتنميطُ المغيَّب ضمن مشروع جَمعي يَضطهد قوةَ المعنى .

والجديرُ بالذِّكر أن مشاريع شَخصنة الجماعة ومُقوِّماتها لصالح الفرد الحاكم ذي السَّطوة المطْلقة ، نجحتْ إلى حد بعيد _ رغم ضحالة بُنيتها _ بسبب غياب التنظيمات الأخلاقية الثورية داخل القوة الاجتماعية الآخذة في الانكماش .

ودَوْرُ القيادة السياسية الجاهلية _ التي لا تُجسِّد إلا أطماعها _ غائبٌ عن المشهد الحياتي الفلسفي . فهذه القيادةُ ليس لَدَيْها خطة عمل أو مبادئ سامية لصناعة منهج حياتي متماسك يُؤتي أُكله داخل المحيط الذي يُطوِّق الشعبَ الجاهلي . كما أن الشعب غير معني بتنفيذ انطباعاته الحياتية، وتحويلها إلى واقع ملموس. وهذا مرجعه إلى الخداع الإعلامي الذي يُمارَس عليه، وحملاتِ التضليل المنهجية التي تصب في خانة تعميق الهوة بين الحاكم والمحكوم ، بين سُلطة الموروث الشعبي التي يتزعمها الشعب بشكل عفوي ، وسَطْوةِ الموروث الطبقي النخبوي الذي يجسده الحكام الآلهة الطغاة .

ولا بُدَّ مِن القَوْل إن حُكم النَّذْر في الشريعة الإسلامية " مَكْروه " ، وهو لا يُقدِّم شيئاً ولا يُؤخِّره ، وليس له أي تأثير في قضاءِ الله وقَدَرِه .

وعن ابن عُمر _ رضي الله عنهما _ قال : نهى النبيُّ ﷺ عن النذر ، قال : ((إنهُ لا يَرُدُّ شيئاً ، وإنما يُسْتَخْرَجُ بِه مِن البخيل))[137].

إن النذرَ منهيٌّ عنه ، وهو لا يردُّ شيئاً من القضاء والقَدَر . فهو لا يأتي بمنفعة ، ولا يَدْفع مضرةً _ كما يتوهَّم العوام _ . وَقَدَرُ اللهِ واقعٌ لا محالة ، سواءٌ نَذَرَ العبدُ أَم لم يَنْذِر .

والنذرُ مكروهٌ لأنه إلزامٌ للنَّفْس بأمرٍ غير لازم ، وهذا قد يؤدي إلى التكلف ، أي : أداء العبادة بدون نية صادقة ولا نشاط ، وإنما مُقابِل أمرٍ ما . لذلك فالنذر قد يَحْمل معنى المعاوَضة للأمر ، أي إن الإنسان يَقوم بالعبادة عوضاً عن شيء ما . وهذا يؤثر سلباً على النِّية الخالصة . فالعباداتُ كلها يجب أن تَكون خالصةً لوجه الله تعالى، وغير مرتبطة بجلب منفعة ، أو دفع مضرَّة.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ٩٩) : ((وأمَّا قَوْله ﷺ : " يُسْتَخْرَجُ به من البخيل " ، فمعناه : أنه لا يأتي بهذه القُربة تطوُّعاً مَحْضاً مُبْتَدَأً ، وإنما يأتي بها في مقابلة شفاء المريض وغيره مما تعلَّق النذر عليه)) اهـ .

*

(١٣٧)متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٤٣٧) برقم (٦٢٣٤)، ومسلم (٣/ ١٢٦١) برقم (١٦٤٠).

التعامل مع الأنعام

إن تعاملَ أهل الجاهلية مع الأنعام يُشير إلى اضطراب فكري هائل ، فَقد أحاطوا الأنعامَ بعقائد فاسدة ، وسلوكياتٍ اجتماعية منحرفة . وهذا إن دَلَّ على شيء ، فإنما يدل على غرقهم في الأهواء الشخصية ، والأوهامِ المستندة إلى أحكام عقلية قاصرة .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وجعلوا لله مِمَّا ذَرأ مِن الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يَصل إلى الله وما كان لله فهو يَصل إلى شركائهم ساء ما يَحكمون﴾ [الأنعام : ١٣٦] .

فمشركو الجاهلية جعلوا للخالق تعالى جزءاً من خَلْقه (الحرث والأنعام) . فهم اخترعوا شركاء لله تعالى، وسَنُّوا شرائع متعلقة بتخصيص قِسم من الحرث والأنعام لله تعالى وقِسم لأوثانهم. وهذه العمليةُ الشِّركية هي اختراع من بنات أفكار المشركين ، ما أنزل اللهُ بها من سُلطان . ولم يقف الأمرُ عند هذا الحد، بل تم الاعتناء بنصيب الأوثان أكثر من النصيب الذي جعلوه لله تعالى .

قال الواحدي في الوجيز (ص ٣٧٦) : ((كان المشركون يَجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم﴿ نصيباً ﴾، وللأوثان نصيباً. فما كان للصنم أُنفق عليه ، وما كان لله أَطعم الضيفان والمساكين ، فما سقط مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه ، وقالوا : إن الله غني عن هذا . وإن سقط مما جعلوه للأوثان في نصيب الله التقطوه ورَدُّوه إلى نصيب الصنم، وقالوا : إنه فقير)) اهـ.

وقال اللهُ تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

ومعنى قَوْله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ ﴾ ، أي : ما حَرَّمَ اللهُ ، وحقيقةُ الْجَعْلِ غير مُرادة ، لأن كُلَّ شيء خَلَقَه اللهُ تعالى . والآيةُ تُوضِّح بِدْعةَ المشركين التي اخترعوها مِن بنات أفكارهم .

والعقلُ التشريعي الجاهلي لم يكتفِ بفرض نفوذه على البشر ، بل فرضه أيضاً على الأنعام (الحيوانات) . وهذا يدل على المنهجية الوثنية الساعية لفرض نفوذها على جميع عناصر الطبيعة ، وأن لا يُفلِت من تأثيرها شيء . لذلك تم اختراع شرائع خاصة متعلقة بالأنعام من أجل تكريس الجانب التشريعي في المنظومة الوثنية . فظهر لدينا مصطلحات متعلقة بالأنعام ذات مرجعية دِينية

صنمية . وكأن أهل الجاهلية يريدون القول إن دِينهم عبارة عن نظام متكامل يشمل كلَّ مناحي الحياة .

قال الواحدي في الوجيز (ص ٣٣٨) : ((والبَحيرة : الناقة إذا نتجت خمسة أبطن شقوا أُذنها وامتنعوا من ركوبها وذبحها . ﴿ وَلا سَائِبَةٍ ﴾ ، هو ما كانوا يسيبونه لآلهتهم في نذر يلزمهم إن شُفِيَ مريض ، أو قُضيت لهم حاجة . ﴿ وَلا وَصِيلَةٍ ﴾ ، كانت الشاةُ إذا وَلدت أنثى فهي لهم وإن وَلدت ذَكَراً جعلوه لآلهتهم ، وإن وَلدت ذكراً وأنثى قالوا : وَصَلت أخاها فلم يذبحوا الذَّكر لآلهتهم . ﴿ وَلا حَامٍ ﴾ ، إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن ، قالوا : قد حَمَى ظَهْرَه فلم يُركَب ، ولم يُنتفع بِه ، وَسُيِّب لأصنامهم فلا يُحمَل عليه)) اهـ .

وهذه التعابيرُ التي اخترعها أهلُ الجاهلية وجعلوها شريعةً إلهية يتوجب تطبيقها ، تعكس مَبْلغ كذبهم على الله تعالى، وأنهم سائرون على غير هدى ، يُشرِّعون اعتماداً على أهوائهم وآرائهم الشخصية . وحتى الأنعام لم تَسْلَم من تأثير طقوسهم الوثنية .

وقد كان رأسُ الضلال في هذا السياق رَجلاً من خُزاعة ، اسْمُه : عمرو بن عامر بن لُحَيٍّ ، فهو الذي غَيَّر دِينَ إبراهيم ﷺ ، وكان أول من اخترع فكرةَ السائبة . وقد تبعته العربُ في كُفره بلا بصر ولا بصيرة . وهذا التقليدُ الأعمى مردُّه إلى الجهل .

وقد قال عنه النبيُّ ﷺ : ((كان أَوَّلَ مَن غَيَّرَ عَهْدَ إبراهيم))[138].

وعن أبي هريرة ــرضي الله عنهــ أن النبي ﷺ قال: ((رأيتُ عمرو بن عامر بن لُحَيٍّ الْخُزاعي يَجُرُّ قُصْبَه في النار ، وكان أول مَن سَيَّب السَّوائب))[139].

فهذا الرَّجلُ هو الذي حَمَل العربَ على عبادة الأصنام ، واخترع المنظومةَ الجاهلية بكل هلوستها . وبالطبع ، فالعربُ ــ الغارقون في التقليد الأعمى ــ قد اتَّبعوه وحَرَسوا ميراثَه الوثني دون تفكير . فها هو في النار يَجُرُّ قُصْبه ــ أمعاءه ــ عقوبةً له .

---

(١٣٨) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٥٣٥) برقم (٧٤٩٠) .

(١٣٩) متفق عليه . البخاري(١٢٩٧/٣) برقم (٣٣٣٣) ومسلم(٢١٩١/٤)برقم(٢٨٥٦). وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٦) : ((عمرو هذا هو ابن لُحَيِّ بن قَمَعة ، أحد رؤساء خُزاعة الذين وَلوا البيت بعد جُرْهم ، وكان أول مَن غَيَّر دِين إبراهيم الخليل ، فأَدخل الأصنامَ إلى الحِجاز ، ودعا الرَّعاع من الناس إلى عبادتها ، والتقرب بها ، وشَرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام ، وغيرها)) اهـ .

وفي صحيح البخاري(٦/ ٢٤٨٢): عن عبد الله بن مسعود_ رضي الله عنه _ قال : ((إنَّ أهلَ الإسلام لا يُسَيِّبون ، وإن أهل الجاهلية كانوا يُسَيِّبون)) .

قال الحافظ في الفتح (١/ ١٣٦): ((كانوا في الجاهلية إذا نَذروا قال أحدُهم: ناقتي سائبة ، أي تُسَرَّح ولا تُمنَع مِن مَرْعى. والسائبة أن يقول لعبده : أنتَ سائبة ، أو أعتقتكَ سائبة)) اهـ .

إن العقلية الجاهلية الاحتكارية العرجاء تغرس بذورَ الظواهر الاجتماعية المنقطعة عن التأسيس المنطقي الواعي. فالتشابك بين لامنطقية التقاليد البالية والملابَساتِ المؤسِّسة لعقيدة عدم الاكتراث، يُكرِّس الاندماجَ المتعدد في العمود الفقري للجماعة الغثائية. وهذه الفردية التي تُجسِّد الأنا العليا المهووسة ، تُشرعِن قيماً اجتماعية مندمجة بالكلية مع الهلوسة التابعة للحاكمية السياسية والاجتماعية . وحب السيطرة والاستحواذ يدفع باتجاه تعميق نفوذ الكيانات الصحراوية البوليسية على كل عناصر الطبيعة،وذلك من أجل صناعة وعي مخادِع مرتبط بسيادة القبيلة واتساعِ نفوذها، وكلمتها العليا السارية على الإنسان والحيوان والشجر والبيئة والجماد . وهذا الفكر المتعلق بهستيريا السيادة وشهوةِ بسط النفوذ ، ينبع من الطبيعة الأنانية الفردية لإشكاليات القبيلة ، وما يتفرع عنها من ثقافات مخيالية ، وعنصريةٍ مبنية على نقاءِ العِرْق والشرفِ المتصوَّر ، والآلهةِ السيادية المزعومة . والغبش المسيطر على القدرات الذهنية لقادة التوجه الإنساني ومنظِّريه يضغط على تجمعات المثقفين ، فيقومون بتوفير الغطاء الإنساني للظاهرة الاجتماعية الجنونية نزولاً عند رغبة أسيادهم الطواغيت. وبالنسبة للتجريد الأيديولوجي العاري عن احترام العقل ، فإنه شكلٌ تفكيكي ذو علاقة بالحاجات الهدامة التي يؤطرها المدلول الملتزم بصناعة بنية اجتماعية مضادة للقيم الجمالية . والمنهجُ الفكري الذي يُفتِّت خطابَ الحاكم في وجه المحكوم ، يدل على بقايا رفض منزوية في أركان التفكير العقلاني الهادر . ولكن ينبغي أن لا ننسى الحاجات البشرية الاستهلاكية اليومية الضاغطة على تفاصيل حياة الفرد، والمؤثرةَ في توجيه مسار أفكاره ومعتقداته . فالفرد الجاهلي عبارة عن كائن منفصل عن رسالة السماء ، لا يجد غضاضة في تبديل معتقده من أجل كسرة خبز أو حفنة تمر . وفي الجاهلية كانت بعض الأصنام تُصنَع من التمر وتُؤكل عند الجوع ، وهذا يدل دلالة قاطعة على انهيار المفاهيم المتعلقة بالكون والإنسان وخضوعه لقوة عليا مُطْلقة .

وفي طريق الاستجابة للحاجات الاستهلاكية ، يخسر الفرد منهجية وجوده ، ويفقد أهميته ككائن استقلالي ذي تفكير حر . واعتماداً على هذه المعطيات ، نقول إن الاقتصاد يُشكِّل دوراً محورياً في بناء العقائد الجاهلية على مر العصور مهما اختلف الأشخاص وإمكانياتهم .

إن الأنساق الثقافية الشَّعْبَوِيَّة في البيئة الصنمية توجد على هامش التجريد الفلسفي الثائر ، وذلك لأنها لا تُشكِّل سوى منحى فرعي منبوذ خاضع للثقافة الحاكمة ، التي يُروِّجها السيفُ الْمُصْلَت على الرقاب . والثقافة السائدة هي الثقافة السُّلْطوية الاستبدادية التي تخترع المفاهيم وأبعادها ، وتفرضها بالقوة على أفراد الشعب الجاهلي الذي يَفتقد إلى الأسلحة المعنوية والمادية .

وإن إنضاج المناحي الطبقية في هذه البيئة المنكمشة المتخلفة ضروري بالنسبة لعِلْية القوم ، لكي يحافظوا على سُلطتهم لأطول وقت ممكن . ونحن إذ نُحلِّل الانسحاباتِ النفسية النابعة من أكوام الأيديولوجيات المتناحرة ، نُدرِك الحجمَ المعرفي السالبي الذي يتلاعب بالقدرات البشرية وينفيها في زوايا لعبة الطبقات التشريفية، إذ تصبح قيمة الإنسان متوقفة على انتمائه لطبقة ما، ومن المعلوم بالضرورة أن الطبقة الاجتماعية العليا للإنسان الفاسد لا تُحوِّله إلى صالح ، وإذا كان الفردُ ذا نَسَب رفيع، فهذا لا ينفعه شيئاً إذا كانت أعماله فاسدة . فقيمةُ المرء الحقيقية ما يُحْسِنه ، إذ إن عمله يَمنحه شرفَ القُرب ، أو ذُلَّ الطرد .

ولا يوجد في الإسلام حصانة لأحد تَقِيه من غضب الله تعالى ، ولا يوجد عاقلٌ يَأْمن مكرَ الله تعالى . وهذه مسألة محسومة وقطعية في الإسلام بعكس الجاهلية الطبقية الإقطاعية الممتدَّة على مستويات النَّسَب والْحَسَب والثروة والنفوذ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤): عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((مَن بَطَّأ به عملُه لم يُسرع به نَسَبُه)) .

والمنهجُ الإسلامي يطالب الناس بالعمل وعدم الاتكال على مكانة الآباء ، أو شرف النَّسَب ، أو الوضع الطبقي . فمن كان عملُه فاسداً لا ينتفع بِنَسَبه الشريف ، أو مَنْزلةِ آبائه الغابرين .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٢و٢٣) : ((معناه : مَن كان عمله ناقصاً لم يُلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال ، فينبغي أن لا يَتَّكل على شرف النَّسَب ، وفضيلة الآباء ، ويُقصِّر في العمل)) اهـ .

وانعكاسُ الصور الذهنية الممقوتة على تكوينات التعامل مع المخلوقات ذات التماس المباشر مع حياة الإنسان كالأنعام ، يدل بشكل قاطع على تضارب الأنساق الفكرية واختلاط جزيئاتها

بصورة لا تسمح للفرد ببناء نماذج الوعي المنساب بسلاسة . ولا يستطيع التشكيلُ السياسي المقموع تأسيسَ وضع ثَوري يخترق الظواهر الاجتماعية ويُغربلها . والسبب في ذلك يعود إلى أن قُوى الحرمان المعرفي تسلب الفردَ حق معارضته لأي شيء نال مُبارَكةَ القوى الحاكمة . وبالتالي يغدو الفرد بحد ذاته ظاهرة اجتماعية سلبية ، فكيف سَيَقْدر على تغيير الظواهر المحيطة به، وهو قد أضحى جزءاً من المشكلة لا الحل ؟! .

إن الانهيار العقائدي الوثني ينسحب _ سلباً _ على عناصر البيئة الطبيعية ، والكائناتِ الحية بدون تمييز . كما أن الميثولوجيا العنصرية في التجمع البشري البدائي تتشكل على صورة تيار ضاغط على الإنسان والحيوان والبيئة . لذلك لم تَسْلَم الحيوانات من ضغط الإفرازات الدينية الهلامية ، لأن الجاهلية كدولة بوليسية عُرفية تَمَّت أدلجتها دِينياً بشكل بالغ الركاكة والفظاظة . وأيَّةُ منظومة دينية فوضوية قمعية تسعى إلى فرض رأيها على الأنساق الحياتية بقوة السيف لا المنطق . وهذا أدخل الكائناتِ الحية في دائرة السيطرة الدينية بالغة التشويش .

وقد كانت نظرة الجاهليين إلى الأنعام مُضحكةً ومُبكية في آنٍ معاً . إذ إنهم حاولوا اختراع أفكار دينية بشرية وصبغها بهالة القداسة ، ومِن ثَمَّ إسقاطها على الطبيعة الوجودية للحيوانات .

وهذا العبث المرتدي ثياب الدِّين ، يَعكس حجمَ شهوة السيطرة الميثولوجية التي تتأجج في الكيانات البشرية الأولية . والإنسانُ المحكوم بشهوة السُّلطة ، سوف يسعى بكل قوة إلى بسط سيطرته على كل ما يحيط به ، لكي يُشبع غُرورَه ، ويُقنع نفْسَه أن كل السياقات الحياتية خاضعة لأمره .

وهذه الثقافة السُّلْطوية ناتجة عن أيديولوجية " المراكز " . أي إن الفرد الجاهلي يعتبر نفْسَه مركز الوجود الحتمي ، وكل ما حوله أطراف يأتمرون بأمره . والفردُ في المجتمعات المتخلفة يحاول إحاطة نفْسه بالأهمية والرِّفعة والمكانة السامية ، فَيَعتبر نفْسَه السيدَ المطْلق ، وكل العناصر من حَوْله عبارة عن حاشية له ، وتابعة له .

وهذا الفكرُ المتهاوي ناتج عن المركز العقائدي الأول في المجتمع الوثني (القبيلة) . والقبيلةُ تعتبر نفْسَها مركزَ الوجود ، والمحورَ الإنساني الكَوْني ، والركيزةَ التي تدور حولها العناصر . وفي ظل هذه الثقافة القائمة على فكرة اختراع المراكز ، تتشظى ماهياتُ السيادة والنفوذ ، لِتَشمل الزمانَ والمكانَ بكل محتوياتهما من الكائنات الحية ، والبيئاتِ المحيطة .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال : ((لا فَرَعَ ولا عَتيرةَ))[140].

من الواضح أن العقل الجاهلي كان مُهْتماً بموضوع الأنعام واختراع أحكام خاصة بها ذات طابع مُمَيَّز ، ومهووساً ــ في الوقت ذاته ــ بإحكام السيطرة على قضايا التشريع ، وبسط النفوذ على الكائنات الحية بما فيها الأنعام .

وأهلُ الجاهلية كانوا حريصين على التقرب لآلهتهم عن طريق ذبح الأنعام . لذا كانت قضيةُ الأنعامِ والطقوسُ المرتبطة بها شديدة الأهمية . وهذه القضيةُ ذات ارتباط وثيق بماهية العبادة ، وعلاقةِ العربي الوثني بالآلهة الحجَرية .

ونجد أن الفَرَع (المولود الأول من الأنعام) يتم التقرب به للأصنام . وفي هذا إشارةٌ بليغة على أهمية الأصنام الآلهة التي يُذبَح لها أول نتاج البهيمة لنيل البركة ، أي قبل أن يستفيد الناسُ من بداية الإنتاج الحيواني . وفي فتح الباري (٩/ ٥٩٦) : ((الفَرَعُ أول نتاج الإبل والغنم ، كان أهلُ الجاهلية يذبحونه لأصنامهم)) اهـ . أمَّا العَتيرةُ فهي ذبيحة تُقدَّم للأصنام في وقت مُحدَّد ، وهو شهر رَجَب . لذلك تُسَمَّى بالرَّجبية [141] .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ١٣٦) : ((والعَتيرة ذبيحة كانوا يذبحونها في العشر الأول من رَجَب ، ويُسَمُّونها الرَّجبية أيضاً . واتفق العلماء على تفسير العَتيرة بهذا)) اهـ .

---

(١٤٠) متفق عليه . البخاري (٥/٢٠٨٣) برقم (٥١٥٧) ومسلم (٣/١٥٦٣) برقم (١٩٧٦) .

(١٤١) قال إبراهيم أبو عواد في فلسفة المعلَّقات العشر (ص ٢٥١) : ((كانَ العربُ في الجاهلية يُقدِّمون القرابينَ والذبائحَ لأصنامهم المقدَّسة ، وذلك شُكراً لها ، وتعظيماً لها . والذبحُ للأصنام من أركان العقيدة العربية الوثنية . يقولُ الشاعرُ الحارث بن حِلِّزَة :

عَنَناً باطلاً وَظُلماً كما تُعْتَر عَن حَجْرةِ الرَّبيضِ الظِّباءُ

العَنَنُ هو الاعتراض . والحُجْرة هي الناحية . والعَتْرُ ذَبح العَتيرة : وهي ذبيحة كانت تُقدَّم للأصنام في شهر رَجَب . وفي الجاهلية ، كان الواحدُ إذا طلبَ أمراً ما ، نذرَ إن ناله أن يَذْبح مِن غَنمه في شهر رجب، وهذه هي العَتائر. وربما إذا نالَ مُبتغاه، وحصلَ على مُراده، بَخِلَ بالغنم (الربيض) ، فيأخذ بدلاً منها ظِباء ، فيذبحها في رَجَب بدلاً من الغنم . يقولُ الشاعرُ : أَخَذْتمونا بِذَنْب غَيْرنا وأَلْزمتمونا به عَنَناً باطلاً ، كما أُخذت الظِّباءُ مكانَ الغنم)) اهـ .

ومن القضايا المرتبطة بالأنعام ، بَيْعُ حَبَلِ الْحَبَلَةِ . وهو معاملةٌ تجارية متعلقة بالأنعام .

فعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال : كان أهلُ الجاهلية يتبايعون لحومَ الْجَزور إلى حَبَلِ الْحَبَلَةِ . قال : وَحَبَلُ الْحَبَلَةِ أن تُنْتِج الناقةُ ما في بطنها ، ثم تَحمل التي نَتجتْ ، فنهاهم النبيُّ ﷺ عن ذلك (142).

وهذه المعاملةُ التجارية الجاهلية مُرَكَّبة وغير مُحدَّدة زمنياً . فهي بيع بثمن غير حاضر ، وإنما مُؤجَّل إلى أن تلد الناقةُ، ليس هذا فَحَسْب ، بل أيضاً ويلد ولدُها . وهذا البيعُ باطل لأنه بيع بثمن إلى وقت غير معروف ، وهذا الوقتُ يأخذ جزءاً من الثمن .

نلاحظ انهيار منظومة المعامَلات التجارية بين أفراد الشعب الجاهلي، وذلك لأنهم منقطعون عن رسالة السماء انقطاعاً نقلهم إلى الوثنية الأيديولوجية . وانقطاعهم قادهم إلى غبش المعاملات التجارية ، واختلال معاييرها. كما أن الاستقلال عن مصلحة الفرد، وانعدام قدرة الوثنية على تلبية حاجات الجماعة الفِطرية والمعيشية ، قادا إلى تناحر وظيفي في إمكانية قبول الإنسان من حيث هو إنسان . فالطبقة التي تقبض على الحُكم بأسنانها وأظافرها تحتل كُلَّ القيم المعنوية والمادية في حياة الأفراد ، وتوجهها نحو توليد أنماط إرهابية في معاملة الإنسان مع الآخر .

ولأن نظام الحُكم أسَّسَ قواعدَ اللعب بالمنظومات الأخلاقية، انعكس ذلك على أساليب البيع والشراء التي تجسد لُبَّ الجماعة البشرية المادية . وإذا اعتمدنا على التحليل الواعي للأنساق

---

(١٤٢) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣٩٥)، ومسلم (٣/ ١١٥٣) . وقال النووي في شرحه على = =صحيح مسلم(١٠/ ١٥٨): ((واختلف العلماء في المراد بالنهي عن بيع حبل الحبلة . فقال جماعة : هو البيع بثمن مُؤجَّل الى أن تلد الناقة ويلد ولدها . وقد ذكر مسلم في هذا الحديث هذا التفسير عن ابن عمر وبه قال مالك والشافعي ومن تابعهم . وقال آخرون : هو بيع ولد الناقة الحامل في الحال ، وهذا تفسير أبي عبيدة مَعْمَر بن المثنى وصاحبه أبي عُبَيْد القاسم بن سلام وآخرين من أهل اللغة ، وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وهذا أقرب إلى اللغة ، لكن الراوي هو ابن عمر ، وقد فَسَّره بالتفسير الأول وهو أعْرف. ومذهبُ الشافعي ومحققي الأصوليين أن تفسير الراوي مُقَدَّم إذا لم يُخالف الظاهرَ ، وهذا البيع باطل على التفسيرين . أمَّا الأول فلأنه بيع بثمن الى أجل مجهول ، والأجل يأخذ قِسطاً من الثمن ، وأمَّا الثاني فلأنه بيع معدوم ومجهول وغير مملوك للبائع وغير مقدور على تسليمه ، والله أعلم)) اهـ .

الاجتماعية ، اكتشفْنا حتميةَ الصِّدام بين عِلْية القوم والعوام ، لأن عِلْية القوم قد أعْطَوا لأنفسهم حقَّ التشريع ، فوضعوا القوانينَ التي تضمن وجودهم واستمرارهم المادي والمعنوي، ووضعوا القواعدَ الرامية إلى تعزيز سَطْوتهم مستغلين القوانين الهمجية التي اخترعوها ، من أجل امتصاص دماء الفقراء والمشردين والعبيد (الطبقة الاجتماعية المتدنية / قاع المجتمع) . وشخصنة القوانين كانت سِمةً بارزة لعصر كامل ، امتازَ باختراع قوانين ما أنزل الله بها من سلطان ، وهذا انعكس على كل جوانب الحياة التي صارت انتحاراً بطيئاً ، يَقضم كُلَّ طموحات الفرد في تأسيس حياة قائمة على العدالة الاجتماعية ، وحريةِ الاعتقاد والتفكير ، وضمانِ حقوق الإنسان . ولأن المادة هي أساس حياة الوثنيين المتهاوي ، كانت النتائج المترتبة على المعاملات التجارية بالغة الغباء ، وشديدة الظلم. وهذا غير مستغرَبٍ في مجتمع بشري قائم على الحقد، والطبقيةِ، والهلوسةِ الدِّينية ، واختلالِ المنظومة الأخلاقية ، وانكسارِ قيمة الحياة الاجتماعية .

إن البُنية الاجتماعية النمطية المشتملة على الأوهام المتناظِرة ، تؤدي إلى صناعة مضامين اجتماعية مُؤدلَجة، وهذه المضامين لها علاقة تلاحمية مع المعاملات التجارية والمعطيات الفكرية. وبسبب احتلال الطبقة الحاكمة للبلاد، وسيطرتها على المقدَّرات والاتجاهات الفلسفية والسياسية والاجتماعية ، وُجدت أشكال صورية للعلاقة بين الفرد ومحيطه ، أشكال خالية من قيم الانتماء الفعلي . فالانتماء صار صفقة تجارية خالية من المضمون الواعي ، يتم تشكيلها وفق ما تقتضيه مصالح الفرد الشخصية .

لكن السؤال الذي يطرح نفْسه هو : ما نهاية هذه اللعبة المقيتة ؟. الجواب : إن نهايتها بالتأكيد تعني نهاية الأفراد المتسلقين على ظَهْر هذه اللعبة الدائرة بكل همجية ووقاحة وسادية ، وهذه النهاية لن تخرج عن إطار نسف الذات البشرية ، وتقويضِ دعائم الوحدة المتآكلة أصلاً ، والتعاملِ مع الآخر (الفرد أو الحكومة العُرفية) بكل عنجهية وغرور .

وحيث تغدو ضوابطُ الحياة الجاهلية العبثية ضامرةً ذائبة ، تبرز رؤى متبلورة في الوهم الذي يُسمى خلاقاً، وذلك لاشتماله على عوامل خدمة الطبقة الحاكمة التي فَرضتْ نفوذَها بحد السيف ، واشترت الولاءَ بالقوة مُلوِّحةً بالعصا والجزرة تارة ، وتارة أخرى بالمال والسيف . كما أن شروط الاستعداد الحياتي سائرة في طريق إنتاج كيانات إرهابية قمعية توظِّف كلَّ شيء لخدمة مصالحها الشخصية، وهكذا تلمع في الأفق بوادر غير خادعة ، تدل على انهيار التجانس النسبي بين عناصر التجمع البشري .

وإذا كان إنتاجُ المنظومات الاجتماعية العبثية مَحْكوماً بالفشل والانهيارِ ، فمن غير اللائق _ بالنسبة للفرد الجاهلي _ تكريس جزء من وقته لمناقشة المنحى الأخلاقي للقيم السلوكية ، والتي تنعكس على قدرة الفرد التي يتم تحجيمها لإقناعه بأنه غير مناسب للثورة ومتطلباتها . والتجريد الأيديولوجي يلعب دوراً محورياً في تسيير المعاملات التجارية ، وإلباسها صِبغة دينية وثنية من أجل المتاجرة بها لتحقيق أهداف الطبقة الحاكمة .

وهناك منحنيات أخرى لهذا المتاجرة بالقيم المقدَّسة لدى الكائن البدائي، منها: تحييدُ السلوك الثوري _ في حال وجوده _ ، والتشويشُ عليه بُغية سحق كل حركة رافضة لبنية العلاقات السائدة ، وتعميقُ الوجود الإستراتيجي للسلوكيات المادية البحتة ، وترسيخُ الأساس التشريعي لنشأة العقائد الزائغة . وفي هذا السياق ، ينبغي تذكُّرُ القدرة المكبوتة للإنسان في الجماعة المتخلفة التي تظن نفْسها مجتمعاً متجانساً ، وهي ليست كذلك . وكيف تكون مجتمعاً متجانساً وهي تفتقد إلى مُقوِّمات المجتمع الأساسية ؟ . إن هذا المجتمع الوهمي عبارة عن قبائل وثنية لا هَمَّ لها سوى اختراع العقائد الزائغة ، وإسنادها إلى الله تعالى . والهدف من هذا الإسفاف والانهيار العَقدي هو إيجاد شرعية مستمدة _ حَسَبَ زعمهم _ من تعاليم الله تعالى . وبالتالي فَهُم يُروِّجون للناس دِيناً وهمياً ، ويُحاولون جاهدين رَبْطه بالسماء ، معَ عِلْمهم التام بأنهم كاذبون في دعواهم ، آثمون في انحرافهم، فضلاً عن كَوْنهم عُبَّاداً للحجارة الخرساء. وهذا السقوط المدوِّي ينسحب على كافة العلاقات الاجتماعية الزمكانية (الزمانية _ المكانية) .

والأطروحاتُ الفكرية المستمدة من تساقط المنظومات اللاأخلاقية العابثة ، تقع بين فكرتَيْن متناقضَتَيْن : الأُولى _ ادِّعاء التناسق الوظيفي في تجمع بشري متخلف ، والثانية _ التوفيق بين عقلانية الثورة وعبثيةِ السلوك الخانع . ولا مفر من حتمية سقوط المشروع الجاهلي بسبب غياب المنظِّرين الحقيقيين للثورة ، ووجودِ آليةٍ فوضوية ترمي إلى عَقْلنة الدِّيانة الوثنية وتبريرها ، وتغليفها بالقداسة المزعومة . ولا يخفَى أن الثورة لا تُولَد من تلقاء نفْسها ، وإنما تحتاج إلى قيادات تُحدِّد عقيدةَ الثورة ، وتُوَجِّه مسارَها .

إن تناقضات النُّخب الحاكمة المتنفذة ، قَادت البشرَ إلى ابتكار وسائل دفاع متهاوية كي يحموا مشروعهم الوطني اللاوطني . وهذا جعل العبءَ كله على كاهل الفرد المسحوق ، والمسيطَر عليه أيديولوجياً . إنها سيطرة من نوع خاص تهدف إلى تنويع مصادر استغلال

الموجودات وتسخيرها في سبيل تعميق الطموحات غير الشرعية ، والتي تقوم على جثث الأبرياء والفقراء والمسحوقين .

والأجهزةُ النُّخبوية تؤدي عملها بحرفية عالية، لكنها قاتلة. ويرجع هذا الأمر إلى سيطرة شهوة الحُكم السياسي والاجتماعي والاقتصادي على النُّخب المتناحرة حقيقةً ، والمتآلفة ظاهرياً بسبب تقاطع مصالحها المستندة إلى قتل الروح في الآخَر ، واعتبار وجوده شكلاً خَدَمياً لا أكثر ، وأن كيانه موجود لخدمة أسياده أولاً وأخيراً . وكأن الهدفَ من وجود الإنسان على ظهر البسيطة هو الخضوعُ لسُلطة الظلم والطغيان، وإيجادُ مُبرِّرات لتسويق الحقد والاضطهاد من أجل الحصول على رضا السادة وعطفهم وأموالهم التي غسلوها بدماء الأبرياء ، الذين رضوا بأن يلعبوا دور الخاسر الراضي بخسارته . وهذا الانهيارُ الشاملُ لا يُشَرْعِنُه إلا أذناب السُّلطة الحاكمة من متطفلين وخاضعين ومرتزقة . وهؤلاء المنتفِعون سَوْفَ يُقاوِمون الثورةَ نيابةً عن أسيادهم النائمين على فُرشهم الوثيرة ، بُغية الحصول على مكاسب شخصية ، ومناطق نفوذ أوسع .

وتجذيرُ استغلال النفوذ الاجتماعي المنعكس على الحياة الاقتصادية ، ما هو إلا شكل للرأسمالية الجاهلية في أبشع صورها القائمة على امتصاص دم الشعوب ، لكي يستمتع المتنفِّذون بالمكاسب المادية . والفئةُ النُّخبوية الحاكمة أسَّست لنفْسها آمالاً عريضة ، أكثر حقداً وجنوناً واضطهاداً ، وذلك لتضمن سيطرة مُطْلقة على الأنساق الاجتماعية المتشعبة . وهذه الإرهاصات تدل على أن الأدوات البشرية البدائية الموغلة في الجهل الوثني، تَستخدم تفكيرها النابع من خصوصياتها المعرفية، من أجل تجميع أكبر قَدْر ممكن من الامتيازات الشخصية ، وتحويلها إلى واقع عملي قائم على مُمارَسات عشائرية مُتخلِّفة . لكن الواقع لن يكون براقاً_كما يتخيل المرتزقة الملتفون حول موائد أسيادهم _، بل على العكس تماماً فهو واقع مُؤدلَج ساقط في أحضان الخرافاتِ والوثنيةِ. لذلك من الصعب على أصحاب الفكر الثوري العيش في هذه البيئة البدائية ، بسبب افتقادها للمناحي الوجودية والمعنوية السامية ، وخُلُوِّها من الثقافة الجمعية الرافضة لتعاليم مؤسسة الحُكم الجاهلي . وهذه البيئةُ البدائية تؤدي _ بالضرورة _ إلى سَلْخ المرء عن ثقافته الثورية، وفصله عن قضايا شعبه المضطهَد . والحديث عن انحرافات الأنظمة الحاكمة في الجاهلية ، يُسهم في توضيح معالم الفكر الثوري في هذا المحيط المظلم من أجل التغيير للأفضل . وعلينا أن نلاحظ أهمية دور أزلام النظام السياسي والمرتزقة المنتفعين منه ، وأهمهم الشعراء الذين يلعبون دَوْرَ المنظِّرين الأساسيين في مدح الحكام ، وتبرير ظلمهم للشعب وممارساتهم

القمعية ، وإيجاد خلفية ملائمة لاضطهاد الآخرين . وهذا كله يهدف إلى الحفاظ على مصالح الطبقات القائمة على أنقاض العوام، وجعلِ المنافع الشخصية(المادية والمعنوية) تستمر لأطول فترة ممكنة ، وترسيخِ سياسة الأمر الواقع ، ورفضِ جميع مشاريع التغيير . ويجب أن ندرك دور الدولة العُرْفية في تعميق الصراع الأيديولوجي بين الأفراد وحكامهم ، والعبيد وأسيادهم . والدولةُ الجاهلية العُرفية عبارة عن شركة تجارية ، تتوغل في دماء الطبقات المسحوقة . وهذه الدولةُ لا تُمثِّل إلا مصالح عِلْية القَوم . والأجهزةُ البوليسية الحارسة لشرعية هذه الدولة الوهمية، تُفرِّق التجمعَ الإنساني بالسيف ، كي تحافظ على هيمنة السادة المطْلقة على الموارد البشرية والطبيعية ، والمقدَّساتِ الوثنية القَبَلية المنقطعة عن السماء .

والسياساتُ العنيفة التي تُمارسُها الأنظمةُ الحاكمة في الجاهلية، إنما تهدف إلى تأمين مصالح عِلْية القوم، وتكريسِ دَوْر الدولة العُرفية في قمع الأفكار الانقلابية الرافضة للظلمِ، والتفرقةِ العنصريةِ ، والشَّططِ الطبقي ، والتمييزِ على أساس عشائري .

ومن العبث افتراضُ حُسن النية في أي عمل تقوم به الدولة الجاهلية الطاغوتية . إذ إن كل عمل تؤسسه الدولةُ الطاغوتية يهدف إلى تجذير التخلف والقمع والإرهاب بحق الطبقات الاجتماعية المتدنية (قاع المجتمع) . وهذه الطبقاتُ البائسة لا تجد حكومةً تدافع عنها ، لأنها ببساطة عبء ثقيل على كاهل الدولة ، ومواطنون من الدرجة العاشرة ، هذا إن كانوا مواطنين أصلاً . ولا يخفَى أن القوانين الجاهلية يتم تفصيلها لصالح طبقة السادة (الأشراف والأغنياء) ضد العوام والفقراء والعبيد. وسلوكياتُ دولة الجاهلية تُغيِّب _ عَمْداً _ منظومةَ حقوق الإنسان ، وتقطع الجسورَ بين الإنسان وإنسانيته ، لكنها تمد جسورَ التواصل بين سِياط النظام الحاكم وجُلودِ العبيد ، ضمن علاقة عنيفة سالبة لكل الحريات والحقوق .

إننا نطمح إلى تفسير الظواهر الاجتماعية المادية التي تنبثق من انشغال الفرد بالبحث عن طرائق لإرضاء أسياده . وهذا التجمعُ البشري السالبي تكون فيه المنظومةُ الفكرية الجاهلية سائرة نحو احتكار السُّلطة ، وإضفاءِ هالة الشرعية والقداسة على بُنية الوهم . وبسبب سيطرة هذه

المفاهيم على الحياة العامة ، انتشر النفوذُ الاحتكاري [143] الذي يَضرب بشراسة أُسسَ البُنَى الدِّينامِيكية [144] . وهذه الآلية الهلامية تُحكِم الحصارَ على القدرات الفردية، والمواردِ البشرية الجمعية. وهكذا يصبح الفرد مجرد صدى لأفكار صارخة ترددها أبواق السُّلطة الحاكمة. وبالتالي يفقد المرء طموحه الكبير في اكتشاف عبوديته لله تعالى. وهذا الخلل الذي يَقتل الروحَ ، ويَحتقر الجسدَ ، سَوْفَ ينعكس على كل التفاصيل الحياتية .

إن أهلَ الجاهلية كانوا حريصين على ربط العقائد الدينية والسلوكياتِ الاجتماعية بالأنعام . وقد أدَّى هذا الأمرُ إلى كوارث حقيقية بسبب اعتمادهم على تحسين العقل الناقص ، والأهواءِ الشخصية ، والأوهامِ المتوارَثة ، والتقاليدِ المفتقِدة إلى الْحُجَّةِ والبُرهان .

قال اللهُ تعالى : ﴿ لن يَنالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها ﴾ [الحج : ٣٧] .

وقد كان أهلُ الجاهلية يُضرِّجون البَيْتَ بدماء الإبل تقرُّباً إلى الله تعالى . وقد أَعْلمهم اللهُ تعالى أن لحوم الإبل ودماءها لا تصل إليه ــ سُبحانه ــ ، فهو الغنيُّ عن كُل شيء . فالعِبرةُ بالتقوى لا اللحمِ والدمِ .

وفي لباب النقول (ص ١٤٨): ((عن ابن جُرَيج قال : كان أهلُ الجاهلية يُضَمِّخون البيتَ بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب النبي ﷺ : فنحن أحق أن نُضَمِّخ ، فأنزل اللهُ : ﴿ لن يَنالَ اللهَ لحومُها ﴾ الآية)) اهـ .

---

(١٤٣) هو نفوذ أصحاب السُّلطة الاجتماعية ، وسَيطرتهم المطْلقة على ما يسمونه مقدَّسات ، وهيمنتهم على البشر بصورة لا تتيح لهم التنفس، وسَطوتهم التي تحتكر ما يعتقدونه حقائق ومُسلَّمات، من أجل توجيهها نحو تثبيت دعائم حُكمهم على أنقاض البشر المسحوقين .

(١٤٤) التجمع الجاهلي ستاتيكي (سكوني) بامتياز ، إذ إنه يفتقد إلى عوامل الحراك الاجتماعي الحقيقي الفعال ، بسبب تخلفه المريع ، وتَقَوْقُعه على ذاته، خوفاً من الأفكار الثورية التنويرية . وعلى الرغم من هذا ، يبزغ بين الحين والآخر تحركات انقلابية . صحيحٌ أنها محدودة ، إلا أنها تُحرِّك الماءَ الراكد . وهذه التحركات نابعة من بُنى ديناميكية متمركزة في أعماق المجتمع الإنساني ، وهي تُشبِه بقايا الفِطْرة السليمة التي لم تُلوَّث .

ومن العجائب التي اخترعها أهلُ الجاهلية في موضوع الأنعام ، أن الرَّجل إذا بَلغت إبِلُه مئةً ، أغلقَ ظَهْرَ البعير الذي كَمُلت به المئة ، وذلك بأن يَنْزع شيئاً من فِقراته ، ويَقْطع سَنامه ، لِكَيْلا يُركَب ، وَلِيُعْلَم أن إبلَ صاحبه قد وصلت إلى المئة [145] .

وكان الرَّجلُ في الجاهلية إذا امتلكَ ألفَ بعير فقأَ عَيْنَ بعيرٍ منها ، وسَرَّحه ، فلا يُنْتَفَع به . وهذه العمليةُ تُسمَّى التَّفْقئة .

وإذا امتلكَ ألفَيْن فقأَ العَينَ الأخرى ، وهذه العملية تُدعى التَّعمية . وإنما يَفْعلون ذلك لإبعاد العَين والحسد عن الإبل .

قال الشاعر :

وَهَبْ لنا وأنتَ ذو امتنان تَفقأ فيها أعينَ البُعران [146]

وقال الرَّاجزُ :

وكان شُكْرُ القَومِ عِند المِنَنِ كَي الصَّحيحاتِ وفقأ الأعينِ [147]

وهذا يدل على البَطَر ، وعدمِ تقدير النِّعمة ، وعقليةِ التكبر والعنجهية، والاحتكامِ إلى الأهواءِ الشخصية ، والتقاليدِ البالية . ولا يخفَى أن الاعتداء على الحيوان بكسرِ ظَهْره ، أو فقء عَيْنه ، عملية وحشية وجنونية إلى أبعد حَد ، وهي احتقار للحيوان وتعذيب له ، وجَعْله عنصراً فاسداً لا فائدة مِنه ، بعد أن كان صالحاً ، وذا فوائد جَمَّة . والجديرُ بالذِّكر أن هذه العملية (كَسر ظَهْر البعير أو فقء عَيْنه) لا يقوم بها إلا السادة والأثرياء في المجتمع الجاهلي ، فَهُم وَحْدَهم الذين يَمْلكون هذه الثروات الكبيرة من الأنعام .

---

(١٤٥) صُبح الأعشى للقلقشندي (١/ ٤٥٩) .

(١٤٦) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٤٣٥) .

(١٤٧) عمدة القاري (١٦/ ٩٢) ، والروض الأُنف (١/ ٤٣) .

وفي الرَّوض الأُنف (١/ ٤٣) : ((ذكر أبو الوليد الأزرقي في أخبار مكة : أن عمرو بن لحي فقأ أعين عشرين بعيراً)) اهـ .

وذَكَرَ ابنُ سلام الْجُمحي في طبقات فحول الشعراء(٢/ ٧١٨): ((أن بَشامة بن الغَدِير[148] كان كثيرَ المال ، وكان مِمَّن فَقَأَ عَيْنَ بَعيرٍ في الجاهلية)) اهـ .

ومن الأمثال العربية القديمة " عِنْدَهُ من المالِ عَائِرَةُ عَيْنٍ " . والمعنى : أنهُ كثير المال ، وعليه أن يَفقأ عَيْنَ بعيرٍ .

وفي مجمع الأمثال للميداني (٢/ ٦) : ((والتقدير : عِنده من المال إبلٌ عائرةُ عَيْن ، أي مقدار ما يُوجِبُ عَوَرَ عَيْن ، أي أَلْف)) اهـ .

إن فلسفةَ التعامل مع الحيوانات في الجاهلية مُشَّوشةٌ للغاية، ومرتبطة بالتقليد الأعمى والأهواءِ الشخصية ، كما أن كثيراً من الأَحكام والسلوكيات تَمَّ رَبْطُها بعالَم الحيوان دون دَليل نَقْلي ولا عقلي . وهذا يُشير إلى التخبط العَقَدي ، والانهيارِ الاجتماعي ، وغيابِ البوصلة الإنسانية ، والوحشيةِ في التعامل مع المخلوقات ، وعدمِ تقدير العطايا الإلهية والنِّعَمِ الرَّبانية . وقد كانَ بعضُ العرب إذا حضره الموتُ ، يَطلب من أهله أن يَدْفنوا معه راحلته حتى يُحشَر عليها ، وإذا لم يَفعلوا ذلك ، جاءَ يوم الحشر على رِجْلَيْه [149] . وهذا الصِّنف النادر يُؤمن بالبعث(الحياة بعد الموت) ، ولكن إيمانه مختلط بالخرافات بسبب غياب الهداية الرَّبانية ، والتأثرِ الشديد بالأوهام الجاهلية ، والأفكارِ البشرية القاصرة .

وكانوا يَرْبطون الناقة (البَلِيَّة) عند قبر صاحبها ، فلا تُعلَف ولا تُسقَى حتى تموت ، وذلك من أجل أن يأتيَ صاحبُها يومَ القيامة راكباً . وإذا لم يَفْعلوا ذلك جاءَ حافياً راجلاً .

وقد قال أحدُهم :

---

(١٤٨) هو خال الشاعر الجاهلي زُهير بن أبي سُلمى .

(١٤٩) المِلَل والنِّحَل للشهرستاني (٢/ ٢٤٠) .

كالبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم حر الخدود[150]

وكان أحدُهم إذا ضَلَّ في الفلاة ، قلبَ ثيابَه ، وحبسَ ناقته ، وصاحَ في أُذنها كأنه يُومِئ إلى إنسان ، وصفَّق بيديه ، معتقداً أن هذا العمل يَجْعل ناقته تهتدي إلى الطريق[151] .

ومِن غرائب أهل الجاهلية ، أن أحدَهم كان يَعْمد إلى كَي السَّليم من الإبل لِيَبْرأ الجربُ (العَر) مِنها. وهذا الأمر ضِد المنطق. فالمنْطقُ السليم يقول إن المريض هو الذي يحتاج إلى العلاج ، وليس السليم . وبالتالي ، فالمصابُ بالجربِ هو الذي ينبغي عِلاجه . أمَّا كَيُّ السليم من الإبل فهذا هو الجنون بِعَيْنه . وقد كانوا يَزْعمون أن الإبل إذا أصابها عَرٌّ وهو الجرب ، فَكَوُوا صحيحاً إلى جانبه ليشم رائحته بَرِئَ ، وربما زَعموا أنه يُؤمَن معه العَدْوى . قال النابغة الذبياني :

وَكَلَّفْتني ذَنْبَ امرىء وَتَرَكْتَهُ كَذِي العُرِّ يُكْوَى غَيْرُه وَهُوَ راتع [152]

وكانوا يَزْعمون أن الغُول تتراءى لأحدهم في الفلاة ، فيتبعها فتستهويه ، وربما ادَّعى أحدُهم أنه قابلها وقاتلها .

قال تأبَّط شَرًّاً :

ألا مَن مُخبِر فِتيان فهم بما لاقيتُ عند رحا بطان
بأني قد لَقيتُ الغُولَ تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان[153]

---

(١٥٠) تأويل مختلف الحديث لابن قُتيبة (١/ ١١٢) . وفي الروض الأُنف (١/ ٦٨) : ((والولايا : هي البراذع . وكانوا يَثقبون البرذعة فيجعلونها في عُنق البلية ــ أي الناقة ــ وهي معقولة حتى تموت . وأوصى رَجل ابنه عند الموت بهذا : لا تتركن أباك يُحشَر مَرَّةً عَدْواً يَخِرُّ على اليدين)) اهـ .

(١٥١) صُبح الأعشى للقلقشندي (١/ ٤٦٢) .

(١٥٢) المرجع السابق (١/ ٤٦٣) . وقال ابن قُتيبة في أدب الكاتب (١/ ٢٤٠) : (((والعُرُّ) قُرُوحٌ تخرج في مَشَافِر الإبل وقَوَائمها)) اهـ . قلتُ : هذا البَيْتُ للنابغة الذبياني يُعْتَبَر مِن الأمثال في أخذ البريء بِذَنْبِ صاحب الجناية .

(١٥٣) المرجع السابق (١/ ٤٦٢) .

ومِن عجائب أهل الجاهلية ، أنهم كانوا يَعْتقدون أن الجن تَرْكب الثيرانَ ، فتمنع البقرَ عن الشُّرب ، لذلك كانوا يَضْربون الثورَ ليشربَ البقرُ . قال الشاعر :

كذاك الثور يُضرَب بالهراوى إذا ما عافت البقرُ الظماء[154]

ومن الأشياء الغريبة في البيئة الجاهية ما يُسمَّى بالتَّعشير . وقد زَعموا أن الرَّجل إذا أراد دخولَ قرية ، فخاف وباءها ، فوقف على بابها قبل أن يدخلها فَعَشَّرَ كما ينهق الحمار ثم دَخَلها لم يُصِبْه وباؤها .

قال عُروة بن الورد :

لَعَمْري لَئِن عَشَّرْتُ مِن خَشية الرَّدى نُهاق حمير إنني لجــزوع[155]

ومِن الأمور العجيبة عند أهل الجاهلية ، ربطُ الخيلِ بالشَّهوة الجنسية . فقد كانوا يَزعمون أن الفَرَس المهقوع إذا عَرِقَ تحت صاحبه ، سيطرَ الشَّبقُ على زوجته واشْتَهَت الرجالَ .

قال الشاعر :

إذا عَرِقَ المهْقوعُ بالمرء أَنعظتْ حَليلته وازدادَ حَرًّا عِجانها [156]

---

(١٥٤) المرجع السابق(١/ ٤٦٢). وقال العسكري في كتاب جمهرة الأمثال (١/ ٢٨٨): ((قَوْلهم: الثورُ يُضْرَب لَمَّا عَافت البقرُ _ أي عَافت الماءَ ولم تَشْرب _ . هكذا رواه الأصمعي وهو مَثَل الرَّجل يُؤخذ بِذَنْبِ غَيْره)) اهـ .

(١٥٥) صُبح الأعشى للقلقشندي (١/ ٤٦٤) . وفي مجمع الأمثال للميداني (٢/ ٤٢) : ((عَشَّرَ والمَوْتُ شَجَا الوَرِيدِ . التعشير : نهيق الحمار عشرة أصوات في طلق واحد ... وذلك أنهم كانوا إذا خافوا من وَبَاء بلدٍ عَشَّروا تعشير الحمير قبل أن يَدخلوه ، وكانوا يَزعمون أن ذلك ينفعهم ، يقول : عَشَّرَ هذا الرَّجلُ ، والموتُ شَجَا وريده ، يريد قُرب الموت منه ، يُضرَب لمن يَجزع حين لا يَنفعه الجزعُ)) اهـ .

(١٥٦) صُبح الأعشى للقلقشندي (١/ ٤٦٥) . وفي المغرب في ترتيب المعرب (٢/ ٣٨٦) : (((المهْقوع)من الخيل: الذي به (الهَقْعَة)، وهي دائرةٌ في جَنبه حيث يكون رَحْل الراكب)) اهـ. قلتُ : والنَّعظ هو الشهوة .

ومن القضايا المعتمَدة في الجاهلية أنهم كانوا إذا أرسلوا خَيلاً على صَيد ، فسبقَ أحدها ، خضَّبوا صَدْرَ الفَرس السابق بدم الصيد علامةً له .

قال الشاعرُ :

كأن دِماءَ الهادياتِ بِنَحْرِهِ عُصارةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ[157]

*

(١٥٧) صُبح الأعشى للقلقشندي (١/ ٤٦٥) .

الأنشطة في الأسواق

إن أهل الجاهلية كانت لديهم تجمعات وأسواق يلتقون فيها لممارسة نشاطاتهم المتنوعة كالتجارة وغيرها . وهذه الأسواق تشير إلى ثقافة البيئة الجاهلية وعقائدها وأحلامها . فهي ليست تجمعاتٍ بشرية فَحَسْب ، بل أيضاً ملتقى فكري واجتماعي تتلاقح فيه الآراء والثقافات الآتية من الخلفيات البيئية المتباينة .

وهذه الأسواقُ كانت مركزاً تجارياً في الجاهلية ، فلمَّا جاء الإسلامُ كرهوا أن يتاجروا في المواسم ، وأصابهم الحرجُ جرَّاء ذلك . لكن الله تعالى أباح لهم التجارة .

ففي صحيح البخاري (٢/ ٦٢٨) أن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((كان ذو المجاز وعُكاظ متجر الناس في الجاهلية ، فلمَّا جاء الإسلامُ كأنهم كَرهوا ذلك حتى نزلت : ﴿ ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ في مواسم الحج))[158] .

لقد كان ذو المجاز وعُكاظ مكانَ تجارة أهل الجاهلية ، وعندما جاءَ الإسلامُ كأن المسلمين كَرهوا التجارةَ في هذا الوقت ، وخافوا من الاشتغال في أيام النُّسك بغير العبادة ، وبالتالي يَقعون في الإثم والحرام. فَنَزَلت الآيةُ: ﴿ ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ [البقرة: ١٩٨]. أي : لا حَرَجَ عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده . وفي الآيةِ دليلٌ على جَواز التجارة في الحج للحاجِّ ، وأن هذا الأمر لا يتعارض مع الإخلاص ، ولا يُعْتَبَر شِرْكاً .

ويظهر لنا أن العرب في الجاهلية كانت لهم أسواق يُتاجرون فيها ، ويقومون بأنشطتهم الاقتصادية المختلفة . ومن الضروري أن نعرف أبعاد الحياة المادية للفرد الوثني المتشكلة من

---

(١٥٨) ((وأسواق الجاهلية أربعة: وهي عُكاظ وذو المجاز ومَجَنَّة وحُباشة ... وقال محمد بن حبيب : عُكاظ بأعلى نجد قريب مِن عَرفات ، وقال غَيْرُه : عُكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء وهي من عمل الطائف . ... فكان سوق عُكاظ يقوم صبح هلال ذي القعدة عشرين يوماً ، وعُكاظ مُشتق من قولك: عكظتُ الرَّجلَ عكظاً إذا قهرته بحجتك ، لأنهم كانوا يتفاخرون هناك بالفخر . ... وأمَّا ذو المجاز ، فقد ذكر ابن إسحاق أنها كانت بناحية عرفة إلى جانبها . ... وأمَّا مَجَنَّة ... وهي على أميال مسيرة من مكة بناحية مر الظهران. ... وأمَّا حُباشة ... وكانت بأرض بارق)) [عمدة القاري (١٠/ ١٠٣)] .

خليط غير متجانس من الرغبات الشهوانية والطموحات الوثنية البدائية . وفي هذا الخليط العبثي يصير الاقتصاد المالي هو منبع كثير من العقائد . فصناعة الأصنام وبيعها تجارة رائجة في المقام الأول ، تدر أرباحاً طائلة على أصحابها الذين يعلمون في قرارة أنفسهم سخافة الأصنام ، وعدم صلاحيتها لتكون آلهة ، ولكنهم يؤثرون الأموال الطائلة على عقائدهم الدينية المشوَّشة .

إن وجود الأسواق يُمثِّل حاجة مُلِحَّة في التجمع الجاهلي الذي يفتقد إلى تجانس المجتمع الجمعي. والأسواقُ هي مُتَنَفَّس أساسي لتبادل السلع والبضائع ، كما أنها تُتَّخذ مِنبراً شِعرياً لعرض وجهات النظر المتباينة التي غالباً ما تكون لدعم القبيلة ، وترويج سياستها ، وتلميع صورتها. وبعض الشعراء يكون لديهم انتماء حقيقي للقبيلة، والبعض الآخر يتخذ القبيلة سُلَّماً للوصول إلى مآربه الشخصية، مستخدماً كل ما أُوتي من قوة بيان وفصاحة لتمثيل دور المنافح عن طموحات قبيلته ووجودها ، من أجل حفنة من المال تُلقى في جيبه .

إن الوقائعَ الاجتماعية مُؤدلَجةٌ شأنها شأن المراحل السياسية المتداخلة مع اقتصاديات الأسواق الجاهلية . وامتدادُ تلك الوقائع وحجمها يبقيان في دائرة سيطرة أصحاب النفوذ ، بغية تحويل النسق السياسي المتفكِّك إلى نظام اقتصادي مُغلَق. وتبقى الوسائل التي تستخدمها السُّلطة القمعية ذات مساس مباشر بحياة الفرد السائرة في غياهب القمع الوظيفي الذي يتخذ تارةً منحى غامضاً، وتارة أخرى وجوداً شعورياً واضحاً. وكل هذا من أجل تعويم مصطلح الجلاد والضحية . وفي هذا النمط الكارثي يتم تحويل الفرد إلى مجرد سلعة تُباع وتُشترى ضمن خطة ترمي إلى إيجاد كل الوسائل الموصلة إلى تَسَلُّع الفرد المسحوق (تحوُّله إلى سِلْعة)، وإحاطته بمفردات التشيؤ [159] ، وتحويله إلى دمية رخيصة تتلاعب بها أيدي أصحاب القرار. وقد كانت الأسواق الجاهلية تقوم بهذا الدور بشكل مثير للاشمئزاز.فقد أضحت الجاهلية سوقاً كبيرة لسحق القيم الإنسانية عن طريق التوغل في المادية القاتلة.ويرجع تفسير هذا إلى عبادة الأوثان التي حَوَّلت الفردَ إلى مجرد شيء للبيع والشراء، وقناع لكائن خائف من كل شيء حَوْله، لأن الذي يَفقد الإيمانَ يَفقد

---

(١٥٩) التشيؤ ترجمة للكلمة الإنجليزية " Reification " ، وهو مصطلح وضعه الناقد المجري الماركسي جورج لوكاتش ، وهو يعني تحول العلاقات بين البشر إلى ما يُشبه العلاقات بين الأشياء (علاقات آلية غير شخصية) ، ومعاملة الناس باعتبارهم مَوْضعاً للتبادل .

كُلَّ شيء، ويسيطر عليه القلقُ والخوفُ والشَّكُّ ، وتصير الأشياءُ المحيطة به مصدراً للوهمِ والرُّعبِ والألمِ الدائم .

إننا نقوم بعمليات تشريح وتحليل للوقائع الجاهلية الداخلة في التَّسَلُّع القسري.وهذه العمليات تطمح إلى تكوين فهم مركزي يستند إلى بيئة الظواهر السياسية وأنويتها وقشورها ولبابها . ولنكن واضحين في تسمية الأشياء بأسمائها من أجل ممارسة أكثر اتزاناً في تفكيك البنى الاجتماعية والاقتصادية .

ولا بد من ملاحظة طبيعة تشكل العلاقات غير المنطقية بين المستويين السياسي والاقتصادي، فالعلاقات بينهما تحتاج إلى فهم أكثر انضباطاً، وأقل تشويشاً. وبالتالي نحصل على قدرة ثنائية بالنسبة للتشكيلات البصرية المتأزمة . ولأن التجمع البشري النواة واقع تحت وصاية طغيان النظام الحاكم ، وجدنا أن العلاقات بين المستويات مشوبة بكثير من الاختلال الوظيفي ، والتقلصِ المرحلي .

والتأمل في طبيعة الروابط التجارية الأولية يتخذ من نزعة الأنسنة ستاراً يخدم مصالح المتلاعبين بالمدلولات الأيديولوجية. ومن الوسائل المستخدمة لسحق الإنسان تمهيداً لتسليعه ، إقامة قطيعة تامة بينه وبين رسالات الأنبياء السابقين _ عليهم الصلاة والسلام _ ، بغية اجتثاث جذوره من محيط الإيمان . وأيضاً تجذير الانقطاع عن تعريفات المناحي الفكرية الثورية ، وعدم السماح بإقامة النقاشات والحوارات بين الأفراد من جهة ، وبين السُّلطة الحاكمة . ومنع أي انتقاد لأعضاء عصابة الطبقة المتنفذة ، فهم _ وفق المنظور الجاهلي _ معصومون ومُنَزَّهون عن الأخطاء.

إن المدلولات السُّلطوية البدائية لا يمكن تعريفها إلا إذا عرَّفنا الجذريةَ المؤسِّسة للنظام الاقتصادي المسيَّس . وتعريفها في هذا الموضع إنما يُقصَد به الوقوف على طبيعة العلاقات الإنسانية وصلتها المباشرة أو غير المباشرة بمستلزمات الحُكم والهيمنة . والتعريف له جوانب كثيرة إلا أن ارتباطه بالأشكال السُّلطوية يؤدي به إلى السير في اتجاه محدد .

والدولة العبثية التي يكون نظامها مبنياً على قواعد الفوضى الخلاقة ، تكون غارقةً في الظواهر السياسية المتشعبة. فمثلاً ، لُب الصراع بين الحاكم والمحكوم في البيئة الجاهلية المتخلفة ما هو في الحقيقة إلا شكل اقتصادي ، لأن التجمع الإنساني الوثني يصير فيه الاقتصاد معبوداً مقدَّساً . وهذه النظرية تُفسِّر كثيراً من الظواهر البنائية في نخاع ذلك التجمع البشري. أمَّا الأشكال التي

يتخذها المسار الوظيفي للأيديولوجية فهي لا تعدو عن كَوْنها إجراء ظاهرياً وهمياً ، الهدف منه تعميق مساحات الفراغ بين السُّلطة الرسمية، ونقيضتها السُّلطة الشعبية الحاملة للوعي الجزئي المتجذر في بعض الشرائح الاجتماعية الطامحة إلى الانعتاق من هالة الوهم الذي يحتل عقولَ الناس ، ويغزوهم في عُقْر دارهم . والمدلول الذاتي السلبي يتمثل حَرفياً في تكالب أهل السُّلطة عليها . وكل سياسة إنما تُبنَى على أنقاض الشعب المسحوق . وهذه السياسةُ مُجازَفة وجودية تمسُّ كثيراً من الجوانب الاقتصادية في نخاع العلاقات الإنسانية . وفي هذه المراحل ، تبرز أهميةُ العلاقة الجوهرية بين المدلولات وحالاتِ الوعي الشعبي العام . وشيئاً فشيئاً ، تتكشَّف تفاصيلُ هذا الطَّوْر ومستلزماته، ومن المعلوم أنه إذا ثَبَتَ الشيءُ ثَبَتَتْ لوازمُه .

ومن الجدير بالذِّكر أن التجمع الجاهلي البشري واقع تحت وصاية التعاليم الاقتصادية الساقطة في أَسْر المادية الفجة . ولا شَكَّ أن العقائد الوثنية كان يُحرِّكها ويبعثها من رمادها تيارٌ سياسي اقتصادي قاس. فتسييسُ الوثن وجَعْله مشروعاً استثمارياً يُدِرُّ أموالاً وفيرة ويضمن أتباعاً كثيرين ، كان صفةً لازمة للجماعة البدائية ، التصقتْ بكل قدرات الأفراد الموجَّهة نحو الانهيار الشامل والسقوطِ المريع .

وفي هذا المقام يتَّضح العطشُ الجماعي للمعرفة ، ويَبْرز افتقادُ الفرد إلى نظام اقتصادي يحميه من العثرات الأيديولوجية الذاتية . وهذا يقود إلى اليأس التام وفقدان الأمل بمستقبل مشرق _ حَسَبَ طبيعة التفكير البدائي الْمُدَجَّن _ . أمَّا العناصر المتجذرة في الموروث اللاحضاري فلها دور محوري في تقويض دعائم البنية الفكرية غير التقليدية . فالوهمُ الْمُؤدلَجُ مُكَرَّسٌ لخدمة الطواغيت. ونحن إذْ نتصدى لتشريح الدراسات الاجتماعية للحصول على تفسير فلسفي موزون، نستكشف بُنى النماذج العامة الباحثة عن إيجاد علاقات ما بين الأزمة الأخلاقية والانحسار الاقتصادي الشامل . وتظهر أنماط كثيرة كلها يتم توظيفها لِشَرْعنة الاحتلال، احتلالِ النُّخب السُّلطوية للأرض والإنسان . وللأسف ، فإن كثيراً من الباحثين الذين يَدْرسون فلسفةَ الجاهلية لا يقيمون وزناً لمدلولات الأنساق الواقعية، فتراهم يقفون عند ما يسمونه بالمصالحة التامة بين الفرد وبيئته ، ويعتقدون أن الجاهلية كانت خاضعة للسِّلم الأهلي والمصالَحةِ الاجتماعية . وهذا بحد ذاته خطأ كارثي وقع فيه كثير من الدارسين غير المؤهلين لمعرفة النماذج الفلسفية ، وغير العالِمِين بأشكال الصراع بين الثنائيات التقابلية أو التضادية في البيئة الجاهلية ، مثل الفرد والحاكم ، أو العقل والصَّوْلجان ، أو العوام والنُّخبة ، أو القلم والسيف ، أو العبد والسَّيد . وجهلهم بهذه

الأشكال المتصارعة جعلهم ينسجون أحلاماً غير واقعية عن تضامن اجتماعي بين الجلاد والضحية في البيئة الوثنية . لذا فإنني أدعو الدارسين إلى تعميق نظرتهم ، وعدم الوقوف عند الحواجز الوهمية المتخيَّلة التي أنشأتها السُّلطات القمعية الصنمية ذات الصِّفة الأبوية العليا .

وحيث يكون الاتصال بين الفوضى الاقتصادية " الخلاقة " والمنحى الاجتماعي ، تكون إرهاصات ودلائل الانهيار الأيديولوجي . والفشل المتكرر في التشكيلات السُّلطوية يُعتبَر من ركائز التمدد الاقتصادي الوثني . والهزيمةُ المعرفية في حقول السياسة أدَّت إلى توليد نزعات انتكاسية في طبيعة الحياة العامة . واختمار الأحكام العقلانية في ضمائر بعض الأفراد ، أبعدهم عن تجسيد الكابوس الوثني واقعاً ملموساً .

والجدير بالذِّكر أن اشتمال الأبعاد التنسيقية على قيم لاعقلانية هو أحد الأسباب التي ساهمت في حَيْونة الإنسان وسَلْخه عن إنسانيته . ومعالجة هذه الانحرافات الْمُبَرْمَجَة لا تتم إلا بنسفها بشكل كلي ، من أجل إنهاء سيطرة المال السياسي على الفرد في المتاهة الصنمية . ولم تكن هذه الأزمة إلا تجسيداً للطموحات البشرية الرامية إلى اكتشاف الذات الإنسانية ، والوقوف على تفاصيلها وأبعادها . ولكن _ للأسف _ إن النية الصالحة لا تُصلِح العملَ الفاسد . كما أن الطريق إلى جهنم مُعبَّد بالنوايا الحسنة . لقد ضَلَّ أهلُ الجاهلية طريقَهم ، وفشلوا في ترسيخ الخطوة الأُولى، بسبب عجرفتهم ، ورفضهم لقيم الجَمالِ والحقيقةِ والأنسنة المؤمنة بالخالق والمخلوق .

والأزمةُ المؤدلَجة التي أوقع الجاهليون أنفسهم فيها ، هي صورة طبق الأصل عن انهيار قيم الجمال في حياتهم. وتأثير البنى الاجتماعية الخائفة من طرح الأسئلة على التجمع البشري واضحٌ لكل دارس متعمق. وإن المكاسب الذاتية في فلسفة القمع الاجتماعي ، لها تأثير واضح في تحطيم العلاقات الاقتصادية السوية ، ثم إقامتها وفق مبادئ استغلالية تعتمد على سيادة رأس المال ، وهيمنته على البشر، وهكذا يصير الإنسان عَبْداً للدينار والدرهم .

إن الجاهلية كمَوْروث عَقدي ثقافي قمعي، كان هدفها سحق الإنسان باسم الآلهة، وتجريده من كل تفاصيل إنسانيته . وهذا أدَّى إلى اختلالِ التركيب النفسي للأفراد، وسقوطِ الثقافة الشعبية في أحضان الخرافة والأساطير ، وظهورِ تيارات سياسية تنسب نفْسَها إلى الشعب ، لكنها تتحرك ضد مصالح الشعب ، وتتحدث باسم السُّلطة الإرهابية الحاكمة ، وتُشَرْعِن احتلالها واضطهادها .

والنماذجُ الاجتماعية في الجاهلية لا تُجسِّد ذاتيةَ المؤسسة القمعية فَحَسْب ، بل تُجسِّد أيضاً اعتبارات الخوف من الأسئلة الوجودية، خضوعاً للسُّلطة السياسية الاستبدادية. وانهياراتُ الجماعة الجاهلية واحتضاراتها، كانت الوقود المحرِّك للأجهزة البوليسية الاحتلالية ، حيث يحتل الإنسانُ المضادُ لانتمائه وهويته ابنَ جِلْدته نظير نَيْل رضا السَّادة في هذا العالَم المغلَق المتخلف ذي التوجه الوثني الأحادي (أحادي النظرة ، وأحادي المسار) . ويجب القول إن السُّلطة الإجرامية المرتدية أقنعة الحِملان لا تُمثِّل سوى مصلحتها الآنية ، بعيداً عن مصلحة الأفراد وحاجاتهم وآمالهم . فالسُّلطة ضد الشعب ، والشعب ضد السُّلطة .

إن الجماعة البشرية البدائية أحادية التَّوَجُّه ، فهي ترفض كل حركات التنوير والإصلاح ، وتحاول وأدها في مهدها قبل أن يتعاظم خطرها . وما يُميِّز النماذج القمعية الشاذة هو استنادها إلى نفي التعليل، وتغييبِ الأسئلة الوجودية الكبرى ، ومحاصرتها في ساعات ميلادها الأُولى .

وفي هذا السياق ، تَبْرز عمليةُ ترجمةِ الفكر الاجتماعي المنحرِف إلى توجهات غير متكيفة مع الواقع . وهذه العمليةُ تُعْتَبَر تجاهلاً مفضوحاً لأطروحات الثقافة السياسية الجمعية . والعلاقاتُ الرمزية الْمُؤدلَجة لها ارتباط واضح بالنسق التاريخي المشوَّش، وهذا يجعلها مصابة بكثير من التشويش والتناقض والبُنى المتهاوية . ونستطيع من خلال التحليل الوظيفي [160] للصور الرمزية إيجادَ روابط بين الجمعنة السياسية [161] والنتائجِ غير السُّلطوية، مما يقودنا إلى تكوين صورة صادقة ومطابقة للواقعية الوثنية بكل حيثياتها المعقَّدة ، وتفاصيلها المركَّبة من مزج المخيال الثقافي بالحقائق المحاصَرة .

ولنُعرِّج على التوجهات المختلطة المشوَّشة للقيادة الاقتصادية التي تتخذ من السياسة غطاء لها. فنقول إن النَّزعة النافية لحتمية الصدام بين المقدَّس وغبشِ الارتباطات الذهنية ذات الهالة

---

(١٦٠) هو التحليل المعتمد على تفكيك وظيفة الفرد ومهامه وحقوقه وواجباته في ظل النظام الاستبدادي ، وفرز المناحي الوظيفية الأيديولوجية في بنية النظام الفوضوي ، المتماسك ــ صُوَرِيَّاً ــ .

(١٦١) هي التعامل مع الجماعة البشرية وكأنها وَحدة سياسية واحدة ، وتجميع مكوِّنات الأجهزة الاستبدادية للدولة ، والتصرف بصورة تُكثِّف الثقافةَ السياسية التي تصير جمعيةً عمومية للشعب حتى لو لم تُعبِّر عن طموحاته وآماله ، لأن الثقافة الجاهلية قامت بحُكم السيف ، وهي تستند إلى الغالبية العظمى. والرافضون للاستحواذ والأحادية هم قِلة قليلة ، والنادر لا حُكم له .

الضبابية نزعةٌ حقيقية وليست مُتخيَّلة . والمدلولاتُ الوظيفية العنصرية تتلاعب بكل أجزاء الثقافة البدوية الجاهلية التي يعتبرها كثيرٌ من المروِّجين لها تاريخاً معصوماً مقدَّساً، بينما يعتبرها المضادون لها خليطاً همجياً هجيناً فاقداً للهوية ، وضد الأنسنة الحضارية . ونحن إذ نقوم بعرض هذين الرأيين ، نستذكر أهميةَ الخصوصية الفردية والجمعية في تكوين النماذج البشرية التي تصير صدى هَشَّاً لاقتصاد مسيطر عليه مِن قِبَل أجهزة النظام الحاكم العبثي ، كما نستذكر أهمَّ ملامح الجمعنة السياسية وعلاقتها بالاقتصاد الوحشي المادي المضاد للأنسنة الحقيقية . والانتباه لهذه العناصر المتضادة التي لا يَجمعها سوى حُكم السيف يقودنا_حتماً_ إلى ترسيخ الحالة التقويمية لهذه البيئة المغلقة المهووسة بقتل الإنسان وسحقه وحَيْونته تمهيداً للحصول على كائن مسخ ، يقول ما يُقال ، ويخاف من طرح الأسئلة الحتمية على ذاته أو محيطه . وهذا ما ترمي إليه الأجهزة التابعة لِحُكم الصَّوْلجان الجاهلي. والتحولاتُ الهامشية في البُنية الاجتماعية لا تَقْدر على مواجهة القيم النافية للآخَر ، لأنها تحولات خائفة من نتائج المنهج الثوري الطامح إلى قلب نظام الحُكم الجاهلي اجتماعياً وسياسياً . وحين يَستولي الخوفُ على الإنسان فإنه يشلُّ تفكيره بالكامل، وهذا هو الهدف الرئيسي في أدبيات الحركة الجاهلية . وعلى الرغم من أن النماذج الدلالية في البيئة الوثنية تُحلِّل منظومةَ الأبعاد العَقدية والسلوكياتِ الاجتماعية. إلا أنه يجب الكشف عن دَور التيارات المناهِضة للفكرة الثورية، لأن الكشف عن هذا الدور يؤدي إلى إنضاج التحليلات النسقية التراكمية .

ومعالجة الحالات الجاهلية الوظيفية المتمتعة بالاستقلال الوهمي ، لا بد أن تمر بأطوار تركيبية موضوعية . لكن الإشكالية الحقيقية في هذا السياق ، هي أن القوى المسيطرة على المسارات الإنتاجية [162] تدفع باتجاه تنكيس روح الانتماء إلى الجماعة . والخيارات البائسة التي تتبناها سُلطة فرض الموروث الشيطاني ، هي إفرازات احتمالية نابعة من العقل العَقدي الذي يُشرِّح

---

(١٦٢) المقصود بالإنتاجية _ هنا _ : إنتاجُ المعرفة التراكمية القاصرة ذات الامتدادات العكسية ، وصناعة الأساليب الموصلة إليها بواسطة قمع المنظور الثوري ووأدِ الانقلاب الفكري . وهذا كله من أجل تضييق الخناق على أولئك الرافضين للنظام الاجتماعي الصنمي السائد ، وإقصائهم من الحياة العامة بشكل حاسم حتى لا يتعلق الناس بأفكارهم وأساليبهم التنويرية .

الإنسانَ ويُلغيه باسم العقيدة ، وهكذا فإن أجهزة الدولة الجاهلية العُرفية السَّادِيَّة [163] تؤتي ثماراً عكسية ، إذ إن تشكيكها بالحقائق الكَونية الساطعة يؤدي إلى تخلي الكثيرين عنها ، حتى لو لم يُعلنوا ذلك ، أو يُصرِّحوا بمعارضتهم لهذا التوجه .

ويقودنا الحديث إلى عناصر الأدلجة المختمرة في نفوس أتباع الأجهزة القمعية. فقياس القدرات التحويلية في المنظور السياسي لديهم مرتبط بمدى توافقه مع مصالحهم الذاتية. وتتوقف تفاصيل أي نظام عن العمل إذا تبنَّى أصحاب النظام رأياً مُخالِفاً ، أو جُوبهوا بمعارَضة صارمة .

لكن الجاهليين المستندين إلى فَوضوية سُلطة الموروث المصلحي يعزلون الأبعاد التقويمية عن المدلولات الواقعية ، من أجل تزيين الواقع وتجميله في عيون العائشين على هامش الحياة،وبالتالي لا يفكرون بالمنهج الانقلابي الانعتاقي ذي الطبيعة الفِطرية التي تعطي الكائنَ امتداداً أكثر رحابة لروحه.

وكل الأجهزة المهيمنة على واقع البشر المخيالي ، تؤسس عبثيةَ الدولة العُرفية بواسطة إسباغ نظريات أخلاقية مزعومة على طبيعة الحركة السياسية السائرة باتجاه موغل في المركزية الفجة . كما أن التراكمية المعرفية الطبقية ذات امتداد سالبي، وهي قاصرة عن فهم حركة الوجود ولوازمه. لذلك تتركز وسائل المعرفة في أيدي حَفنة قليلة هُم الحرس القديم(كِبار رِجالات القبيلة) ويُحْرَم منها العوام والعبيد .

أمَّا الفوضوية في حركة التاريخ الوثني فهي متفشية بصورة لا ينفع معها إلا الثورة عليها . والتناقضاتُ في علاقات إفراز الأفكار الشاذة هي الأخرى بحاجة إلى انقلاب نوعي شامل لكي يتخلص الناس من عبء الموروث الصنمي الذي أثقل كاهلَ الجماعة الإنسانية . وينبغي الانتباه إلى خطورة صناعة الوعي المنحرف ، وارتباطاته بالفعاليات الاقتصادية ذات النَّزعة المادية الشرسة . وضمن هذه المعاني ، تكون الوثنية انعكاساً للعُقد النَّفسية المتفشية في التجمع البشري ، ولَيْسَتْ _ أي الوثنية _ عقيدةً مستقلة عن السالبية الواقعية .

---

(١٦٣) لم تُكَوِّن السُّلطةُ الجاهلية دولةً خاصة بها على وجه التحقيق ، لكنها كانت تتصرف كما لو كانت دولة مُنظَّمة، لذلك أطلقتُ عليها عبارة " الدولة الجاهلية العُرفية". فالموروث الجاهلي السُّلطوي يتخذ شكلَ الدولة غير الرسمية ، وينضوي تحت دستور شفوي غير مُدوَّن . وهذا الدستورُ الأسطوري يُعَدُّ التزاماً أخلاقياً جاهلياً لا مَحيد عنه .

والتمييز العنصري يكون على أشده داخل المنظومة النواة للسُّلطة الاجتماعية الفَوقية والشعبية. وهذا التمييز القاتل يزداد ويتعاظم أثره بُغية الهيمنة على الأتباع ، وإقناعهم بحتمية الخضوع للتشريع الجاهلي المضاد لتكوين الإنسان .

وفي كثير من الأحيان يَحِلُّ انعدامُ ترابط المدخَلات الاجتماعية مَحل الموروث الوثني المسيَّس ، وهذا مرجعه إلى تغييب الصلة الحقيقية بين الاقتصاد كقوة محرِّكة للجماعة ، وبين السياسة كسُلطة هيمنة على التحركات الاجتماعية_ الاقتصادية . والمرجعياتُ الآلية الوظيفية تحاول جاهدةً تأسيس مشروعيتها الاستحواذية وفق مبادئ استغلال الناس وعناصرِ الطبيعة . وهذه المشروعية الواهمة ستؤدي إلى تفكيك أجزاء الجسم الجاهلي المتناحر الذي يُحارب بَعْضُه بَعضاً .

والجسمُ الجاهلي هو كيان مريض ، حيث تتجمع فيه الأنساقُ الاجتماعية البدائية العشوائية ، وتتكاثر فيه النِّزاعات حول مفهوم الهوية وعلاقاتها التاريخية والجغرافية ، وتستقر فيه المدلولات الثقافية الوهمية التي تُمثِّل كوابيس حقيقية تطارد الفردَ والجماعةَ. والمشكلةُ الجذرية في هذا السياق هي أن التحليل الجاهلي للحركة الاجتماعية غير الحقيقية لا يؤدي إلى فهم الظواهر السلبية ، لأن الدراسات الجاهلية خارجة من رحم التخلف والأدلجةِ المغرِضةِ . ومن الْمُحال أن تَقوم هذه الدراساتُ بتوجيه الناس نحو الخلاص المعنوي والمادي . إذ إن فاقد الشيء لا يُعطيه ، ولا يمكن أن تجنيَ من الشوك العنبَ .

ولا بُدَّ من تجزئة المدلولات الخاصة بالتمدد الوثني ، والتوسعِ السياسي، والنمو الاجتماعي الاقتصادي ذي الاتجاه العكسي ، إلى أنظمة نسقية فكرية مستقلة ، لتسهل دراستها على حِدة ثم تجميعها ضمن إطار واعٍ يكشف أبعاد كُلِّ قضية ، ويُؤطرها ضمن مرحلة جديدة من الوعي الإستراتيجي المبني على التشريح والتحليل المنطقي .

إن انخفاض القيمة المعنوية للعادات والتقاليد يجعل منها صدى لاقتصاد متواطئ مع التوجه السياسي العام . ويمكننا أن نطلق على الدولة الجاهلية غير المعلَنة _ من باب إسقاط المعطيات الجديدة على القديمة _ اسم دولة الحزب الواحد . وعلى الرغم من أن خطوط الصراع تتخذ مسارات متوازية ، إلا أن هذه الخطوط سَوْفَ تتصادم ، لأن الحركة السياسية التي تظهر للعيان بكامل حيويتها ، ما هي على وجه الحقيقة إلا جمود قاتل ، بسبب التوجهات العِرْقية داخل

الجماعة الاجتماعية ، والتناحراتِ القَبَلية داخل التكتل السياسي الاجتماعي (الأفقي والعمودي) .

والمعاييرُ الاجتماعية الجمعية المحتلة للشرعية الوهمية ، هي معايير خاضعة لانهيارات النُظم الحاكمة . وحيث يحتل الإنسانُ ابنَ جِلْدته ، تبزغ القيمُ الجديدة التي قَعَّدها سادةُ العالَم الوثني . ولا يخفى أن إنتاج الوعي والفكر والتخيلات والعلائق الذهنية داخل البيئة الجاهلية خاضعٌ في كثير من حيثياته إلى العلاقات المادية الواقعية. فالتجمع الجاهلي وثني بامتياز، وبالتالي ستكون قوانينه مبنية على المحسوسات المادية الاقتصادية المصبوغة بهالة الفعاليات الاجتماعية، وهذا المنحى هو المقدمة الكارثية لصراع الطبقات الذي يحدث في كل تجمع بشري منقطع عن الغَيْب(خَبر السماء).

والأبعادُ الفلسفية الداعمة لاتجاهات المحاور والتكتلات ، لَيست بأكثر من اتجاه تراكمي مُعبِّر عن التعارض الكلي المتصل بالجزيئات الاجتماعية المؤدية إلى حتمية التصادم والتشابك ، ومِن ثَمَّ الاضمحلال الأكيد (النهائي والحاسم) .

والخصوصيةُ الذهنية المختلطة بعلاقات إنتاج الأنساق الواقعية ، هي الفعالية الأساسية التي تجعل المادة هي المهيمنة على الروح ، وهذا بالضبط ما يحدث في الجاهلية التي تُمثِّل موقفاً بشرياً خانقاً للرُّوح . والبُنية الفَوْقية (السياسة ، الثقافة ، ...) تصير عبئاً ثقيلاً على البنية التحتية ، وهاجساً يقض مضاجع الكثيرين ، وهكذا تتبلور معالم السقوط المدوي في مقدمات ونتائج الحالة النواة ذات التماس المباشر مع الحياة الاجتماعية في الجاهلية .

ويبدو أن الحلم الجاهلي بتكوين مجتمع قائم بذاته له تاريخه الواعي ، قد مات في مهده . وذلك يرجع إلى الإغراق في الوثنية ، ونبذ كل رأي مخالف ، وعدم إعمال العقول . ولم يتوقف الأمر عند هذه المرحلة ، بل نُظِّمت حملات مُمنهَجة لوأد التفكير التنويري، ومحاربة العقل بكل الوسائل الممكنة .

إننا أمام حالة بالغة التعقيد تستند إلى تأثير الوثنية _ باعتبارها دِين الآباء الأوحد _ في توجهات الأفراد وتكويناتهم الداخلية والخارجية. والواقع أن هذا التأثير كان مُتبادِلاً ومَارَّاً في طَوْرين متسلسلَيْن . فالمادية الواقعية أنتجت كثيراً من العقائد والتعاليم ، والعقائد والتعاليم أنتجت واقعاً وثنياً مُركَّباً ، وكل منحى كان حاملاً ومحمولاً ضمن طَوْرين متتابعين . فالتأثير متبادل ، وهذا يشير إلى مبدأ عدم الاستقلالية في طبيعة نشأة عناصر العقائد الجاهلية .

وإذا غَيَّرْنا زاويةَ الرؤية ، يمكن القول إن هناك استقلالاً من جهة ، وعدم استقلال من الجهة الأخرى . فالعقيدة المكوَّنة من المادية الاقتصادية لا تتمتع باستقلالية منفصلة عن مكوناتها . أمَّا العقائد الجاهلية المرتبطة بالسلوك الاجتماعي ، فيظهر فيها أثر الاستقلالية سواءٌ كانت دائمة أم مرحلية .

وتتداخل العناصر المحرِّكة للصور الرمزية في العقل الباطن للجماعة ، وينشأ عن هذا التداخل تشكيل ازدواجي يعمل على تعميق الهوة بين اللفظ والمعنى، وبالتالي الوصول إلى حالة انتحار المعنى الشامل. وفي هذه الأبعاد ثلاث مسائل هامة : التراكمية الثقافية القاصرة [(164)]، وتوطيد الأعراف والعادات بعد أن تُصبَغ بهالة القداسة [(165)] ، وتفشي السلوكيات الشاذة غير الحضارية في البنية العَقدية [(166)]. والمجتمع الجاهلي كان حريصاً على ممارسة أنشطة مُعيَّنة في مجالات متعددة . فهو يريد دمج الفكر الشعبي مع البنية الاجتماعية . كما أن الناس بحاجة إلى مُتَنَفَّس ينتشلهم من الأجواء المعيشية الخانقة ، لذلك خَصَّصوا أسواقاً للتجارة ، وملتقياتٍ شِعرية ، ووقتاً مُحدَّداً من السَّنة من أجل اللعب والمرح .

---

(١٦٤) هي مُخلَّفات العصور الغابرة التي تعجز تماماً عن إعطاء تفسير لهذا الكون وعناصره ، وهي تبزغ للمحافظة على الموروث السالبي المقيَّد بأغلال التبعية والخوف من طرح الأسئلة والإجابة عنها . وهذه المخلَّفات تدعو إلى مضامين وظيفية مُعيَّنة تُقدِّس المصلحةَ الشخصية الجزئية على حساب كُلِّية المنظور الاجتماعي ، وتعتبر المصلحةَ الفردية الأنانية فوق كل المقدَّسات المعرفية الشمولية .

(١٦٥) عادات الجاهلية وتقاليدها هي نتاج المادية الوثنية، فهي ليست سوى تحليلات ناقصة تُعبِّر عن واقعية اجتماعية مضطربة . فالكرم أو الشجاعة أو إكرام الضيف عادات حميدة في شكلها العام ، لكن المراد منها لا يكون وجه الله تعالى ، بل تَصَدُّر المجالس ، ونيل رضا العامة والخاصة ، والحصول على المديح والثناء . إذن ، يُقصد منها الرياء ولا شيء سواه . وهذا هو محتواها الاجتماعي المصبوغ بالتخلف والشرك وانهيار القيم الثقافية المؤدلَجة السائرة باتجاه تعزيز المادية الوثنية .

(١٦٦) إن عقائد الجاهلية في غالبيتها مصدرها هو الواقعية الصنمية الاقتصادية، فالتغييرات السلوكية ذات الامتدادات المكرَّسة للهذيان والمادية، اقتحمت قلبَ العقيدة الوثنية بكل ما تحمله من شذوذ ، وفلسفةٍ مُؤسَّسة على إشكالية المقدَّس .

وعن أنس قال : قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ ولهم يَوْمان يَلعبون فيهما ، فقال : ((ما هذان اليَوْمان ؟)) ، قالوا : يَوْمان كُنَّا نلعب فيهما في الجاهلية ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما ، يوم الأضحى ويوم الفِطْر))[167].

فالمنهجُ الإسلامي لم يجئ للتضييق على الناس أو خنقهم . فالناسُ بحاجة إلى الترفيه عن أنفسهم بغض النظر عن عقائدهم وخلفياتهم الاجتماعية . ففي الجاهلية كانوا يُخصِّصون يَوْمَيْن يَلعبون فيهما من أجل التخلص من ضغط الحياة ، والروتين المعيشي القاتل . والشريعةُ كلما أَغلقت باباً فَتحت باباً آخر لأنها لا تريد حشر الناس في الزاوية . فالشريعةُ جاءت لرفع الحرج . لذلك كان في الإسلام يَوْمان هما يوم الأضحى ويوم الفطر ، وهما خَيرٌ من أيام الجاهلية. إذ إن عِيدَي المسلمين يشتملان على العبادة ، وممارسةِ الأنشطة الاجتماعية، والترفيهِ والمرح . وهنا يتضح المنهجية الشرعية في إخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ، مع مراعاة التدرج ، والفروقاتِ البشرية ، والحاجاتِ النفسية والمادية للفرد والجماعة .

---

(١٦٧) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٣٤) برقم (١٠٩١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

الكِهانة والتَّطَيُّر

إن العالَم الجاهلي مُلوَّث بالطقوس الخفية . فيكثر فيه السِّحرُ ، والشَّعوذة ، والكِهانة ، والتَّطيُّر ... إلخ. وهذه القضايا ظهرت ونالت شرعيةً شعبية بسبب الجهل المتفشي في البيئة العربية. وهذه العوالم المستترة هي انعكاس لقلق الفرد الجاهلي وارتباكه الروحي في مجتمع يستمتع بغرقه دون وجود طَوْق نجاة. وهذه العوالم السِّرية الغامضة تُعبِّر عن خوف الفرد من المستقبل المجهول .

ولأن التجمع الجاهلي كان يفتقد للمعرفة، والبنيةِ الحضارية ، والثقافةِ التنويرية ، لَجَأَ إلى العوالم الغامضة ، تماماً كالخفافيش التي لا تجرؤ على مجابهة النور ، فترسم حياتها كاملةً في الظلام .

أمَّا المعاني اللغوية المتعلقة بالجذر (كَهُنَ): ((كَهُنَ ـ كِهانةً: صار كاهِناً. وتكهَّن له : أخبره بالغيب . وتكهَّن بالأمر أخبر به على وجه التوقع . والكاهِن : من يتنبأ بالغيب))[168].

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٩٥) : عن السيدة عائشة ـ عليها السلام ـ قالت : ((كان لأبي بكر غلام يُخرِج له الخَراج، وكان أبو بكر يأكل من خَراجه، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : تدري ما هذا ؟ . فقال أبو بكر : وما هو ؟ . قال : كنتُ تكهنتُ لإنسان في الجاهلية وما أُحْسِن الكِهانة إلا أني خدعتُه ، فَلَقِيَني فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلتَ منه ، فأدخل أبو بكر يده فقاءَ كلَّ شيء في بطنه))[169].

يبرز الدورُ المحوري للكهانة في المجتمع الجاهلي الذي لا يؤمن بأي شيء وراء الموت . وبالتالي كانت الكهانة هي الشريعة التي تربطه بعالَم الغيب . فالإنسانُ ـ بطبعه ـ يتوق لاكتشاف

---

(١٦٨) المعجم الوجيز ، ص ٥٤٤ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(١٦٩) قال الحافظ في الفتح (٧/ ١٥٤): ((قال ابن التين : إنما استقاء أبو بكر تَنَزُّهاً ، لأن أمر الجاهلية وُضع، ولو كان في الإسلام لَغُرِّم مثل ما أكل أو قيمته ولم يكفه القيء كذا قال . والذي يظهر أن أبا بكر إنما قاء لما ثبت عنده من النهي عن حُلْوان الكاهن . وحُلْوان الكاهن ما يأخذه على كهانته، والكاهن من يخبر بما سيكون عن غير دليل شرعي، وكان ذلك قد كثر في الجاهلية خصوصاً قبل ظهور النبي ﷺ)) .

المجهول وما وراء المحسوسات . كما أن الكهانة كانت مصدرَ دخل كبيراً يُدِرُّ أرباحاً طائلة على المشتغلين بها . وهكذا تكرَّست الكهانة كصناعة دينية ودنيوية في آنٍ معاً .

والكِهانةُ صورة الجاهليِّ المقيَّدة بدوائر تغييب الوعي اعتماداً على استشراف الغيب. والتنظيمُ العشوائي للعادات والتقاليد يفرض نمواً تكوينياً على مستويات الخلل الاجتماعي. ولهاثُ الفرد نحو معرفة الغيب إنما هو شكل مُخترَع لكي يَخدع نفْسه بأن وجوده في هذا الحياة ذو أهمية بالغة ، وهكذا يستشعر أهميته الوجودية الوهمية .

والتأثيرُ الوظيفي المهيمن على عوامل التغيرات الفردية داخل الجماعة يصف الحالة بشكل مثير للاشمئزاز والغثيان. والظواهر الحياتية عبارة عن خليط من تبادل الأدوار وتوزيعها والثقافةِ العاجزة اللامنطقية . ومهما بحث الفرد البدائي عن حلول للتشظي المعرفي فإنه سيصطدم _ لا محالة _ بالجمعنة الطاغوتية باعتبار أن الحاكمية المطْلقة هي للطاغوت . وهذا أدى إلى إلغاء الصلات بين الإنسان والإنسان سوى صلة المنفعة الطبقية البائسة . أمَّا الإنتاجات التي تهضم حقوقَ الإنسان، وتُحيِّده بحيث ينسلخ عما يمس حياته بشكل مباشر ، فهي لا تعدو عن كونها مصلحة ذاتية يتم صبغها بهالة القداسة والقيم المثالية . لذا لا نستغرب بعد كل هذا إذا اكتشفنا خلطاً متعمداً بين البنية التحتية والبنية الفوقية .

إن التنوعات الكبيرة في عناصر الإنتاج الوظيفي المسيطرة على الظواهر المسيَّسة ، ترتبط بحتمية التراجع القسري عن احتكار سُلطة توجيه الموروث الديني. وليس الازدواج الناتج عن العلاقات الجزئية الاجتماعية إلا صورة هلامية تلهث من أجل إزالة الضباب المعرفي الكثيف عن إطارات انهيار المكوِّنات التاريخية المنحرفة المشكِّلة لاتجاهات الروح والعقيدة .

ونحن إذ نبني العلاقات الواعية لتصور أفضل عن العلاقة الجدلية بين التاريخ المنحرف وتشكُّل العقيدة، فإننا سنصل إلى نتائج مبهرة تقودنا إلى فهم عميق للنَّزعة الاجتماعية التي تدَّعي النموَّ العمودي ، والامتدادَ الأفقي في قلب الجماعة غير الناضجة .

إن الكهانة ومزاعم ادعاء الغيب تدق أوتادَ الخرافة في قلب الجماعة. حيث يتم عزل العقلانية الانقلابية عن مجريات الأدوار الاجتماعية ، والظواهرِ السلبية ، والممارساتِ الارتجالية ، من أجل تفكيك قيم الجماعة إلى كيانات متنافرة، مما يضمن استمرار السادة في حصار التجمع البشري واحتكاره وتوجيهه نحو أهداف عِلْية القوم ومطامعهم .

والتعسف الأيديولوجي صورة ضبابية غير مكتملة عن البنى الاستغلالية ، سواءٌ كانت اجتماعية أم اقتصادية. والوضع الأساسي للأشكال الحاكمة يفرض أطروحات قاصرة غير منظورة، ليس لأنها بعيدة المدى ، بل لأنها هلامية ذات أشكال متنوعة لا تمس احتياجات الفرد الحقيقية . وهذا يجعل الأطروحاتِ الاجتماعية بعيدة كل البعد عن ملامسة تفاصيل حياة الفرد . وتبقى الصراعات المحمومة تحدد طبيعة التكتلات الصنمية داخل الجسم التاريخي الذي يحاصر كلَّ مظاهر التخلف، وظواهرِ الاستغلال الطبقي المبرمَج .

إن نزعة الأنسنة العقلانية تذوب في أجزاء التوحش الاقتصادي . وحيث تصبح الأصنام آلهة من دون الله تعالى ، تتجمع الانهيارات الشرسة المتأثرة بالبنية غير النامية إلا على جثث الأبرياء والصامتين . وهكذا يصير الصمتُ المتخاذل شكلاً من أشكال التعبير المحاصَر، ووجهاً أسود لعناصر الإرادة الفردية المسيَّجة بالرعب. ويبقى الاختلال البنائي صورةً للنَّزعة المتوحشة للاقتصاد القاسي المبني على انهيار القيم الإنسانية ، وتفتتِ السلوكيات الإيجابية ، واضمحلالِ الفِطْرة السليمة الداعية إلى توحيد الله تعالى .

والصورُ السجينة في الواقع المتخيَّل تُجابِه كُلَّ التحليلات الفعالة داخل الفكر الجماعي الجاهلي المصبوغ بالوثنية التي تصير واقعاً مُؤدلَجاً ، وفشلاً يُراد إلباسه قميص النجاح الحتمي ، وهذا بحد ذاته إرهاب لكل الوحدات المكوِّنة للنسيج الاجتماعي المتهالك .

لقد حاول النمو الاجتماعي باتجاه المركَّبات الموازية للمحتوى غير الديناميكي إثارة النعرات القَبَلية ، والمحتوَياتِ المضادة للإصلاح الوظيفي. ومن غير المعقول افتراض الحياد الوظيفي للطبيعة الصنمية القائمة على نفي الإنسان من الإنسان .

وإذا قلنا إن هناك تجريداً مُطْلقاً في الظواهر الكامنة في الأنساق الاجتماعية الجاهلية، لَزِمَ القولُ بوجود نتائج بعيدة عن الموضوعية ، ومتسترة بتداعيات الوعي . ومهما يكن من أمر ، فلا بد من تشريح الخطاب الجاهلي الأيديولوجي ، وإخضاعه لمستويات من الوعي التراكمي الحر. وهذا ليس تضييعاً للوقت ، بل هو تنظيم لعلاقات التغيير ولوازمه المقيِّدة . وبشكل عام نقول إن التطور الجماعي مختلط بتاريخ حافل بالإرهاصات الهدامة التي تمهد لانهيار شامل في البنى، مما يجعل تقدم المعارف أمراً متعذراً بسبب تفشي صياغة الأنظمة الفوضوية ، ووصولِ التجمع البشري إلى مرحلة الهذيان النهائي ، وانفصالِ كيانات الجماعة عن بعضها البعض بشكل علني ، واستيلاءِ الحالة الوثنية على المعرفة البشرية التاريخية .

إن مراحلَ الهيمنةِ الفكريةِ والأطوارَ الاجتماعية المتتابعة ، كلها خاضعة بشكل أو بآخر للتحشيد القَبَلي ذي التوجه التابع. والقدرة على حشد وتعبئة كتل الإرهاصات المجتمعية في قلب العادات والتقاليد ، لا تنفصل عن الدلالات الذهنية للانكسار الأيديولوجي .

إن التبادل الذهني المادي بين التاريخية العَقَدية كَنَص شَفوي يُلَقَّن للأتباع ، وبين التاريخيةِ الاقتصادية الوثنية كمنبع للفكرة والتطبيق ، يُعزِّز وظائفَ البُنى الاجتماعية المتماهية مع عملية استهلاك العقائد ، وتأطيرها ضمن نسق مُسَيْطَر عليه مِن قِبَل القوى الحاكمة . وهكذا نكتشف أنويةَ العقلية الجاهلية السائرة ضد العقل تماماً . والهالةُ الاجتماعية النمطية تكتسب دوراً سياسياً مُفرغاً من محتواه البنائي . والعناصرُ الفكرية التي تتجمع تارةً ، وتنفصل تارة أخرى ، تنشر الثقافةَ الهجينة الراكعة لسُلطة الموروث الصَّنمي .

إن محاولات عَقْلنة الهيجان الثقافي الفَوْضوي باءت بالفشل ، لأن العقلانية خَضعت لسيف المحاكمة الذي يُشهره حُرَّاسُ النظام الحاكم. والأطوارُ المجتمعية المتبادَلة التي تغرس الحلولَ العدمية في الواقع المعاش لا تَنتج إلا عن مجموع لاديني ، ومجموعة تقاليد عنيفة تمارس الهيمنةَ المطْلقة على الموارد البشرية والاقتصادية ، والْمُدْخَلاتِ الاجتماعية ، والْمُخْرَجاتِ العَقدية . والهدف الرئيسي من هذه العبثية تأسيس ثقافة استهلاكية مُهَجَّنة غير معنية بِنَزعة الأنسنة الانقلابية . وهكذا تصيرُ عقيدةُ الفردِ هي المحافظةَ على مصالحه الشخصية ، ومُقتنياته الفانية ، ومُكتسباته الذاتية .

وتتَّصل سَطْوةُ العادات والتقاليد بالنصوص الشفوية المقدَّسة ، كما تتصل القدرات الذهنية المكتسَبة بأساسها المادي ، ومَوْروثها البعيد عن الحراك الاجتماعي . والبنيةُ الاجتماعية التقليدية الخاضعة للوهم (الفِعْل) والوهمِ المضاد(ردَّة الفِعل)، لا تختلف كثيراً عن إرهاب السُّلطة السياسية التي تُقدِّم نفْسَها على أنها منظومة الخلاص النهائي والحاسم ، وأنها مُواكِبة للعَصْرنة والتحديث ، وهي في الحقيقة مناوئة لكل تجديد ، وهذا مرجعه إلى الفرضية الْمُطَبَّقة في الموروثات القَبَلية ، وهي أن العقل المفكِّر يُشكِّل خطراً على نظام الحُكم . وبما أن السُّلطة الحاكمة المحصورة في أيدي عِلْية القوم تؤمن بهذه الفرضية وتعتبرها نظرية مقدَّسة [170]، استمرت

---

(١٧٠) الفرضية : هي رأي أو مجموعة من الآراء يفترضها الباحث لِيُفَسِّر بواسطتها ظاهرة ما أو واقعة مُعيَّنة . والنظرية : هي فرضية تم التحقق من صحتها بعد اختبارها بأسلوب خاضع للمنهج العِلْمي .

السُلطة في إقصاء كل مؤشرات الديناميكية الاجتماعية ، وعملت جاهدةً على إحلال التبعية المعرفية ، ومقاضاة الحركة التنويرية المنثورة في عقول بعض الأشخاص . وهذه الحركةُ التنويرية تظهر في حَيِّز الوجود على شكل أفعال متباينة منثورة هنا وهناك. والجديرُ بالذِّكر أن الأُسرة في التجمع الوثني التقليدي كانت بمثابة مقبرة جماعية ، تخاف من كل ما يحيط بها . وقد كان دَوْرُ الأُسرة الرئيسي هو وأد المشروع التنويري الثقافي في عقول أبنائها ، لكي يظلوا خاضعين لفكرة هيمنة الدولة العُرفية ، وهكذا يضمنون مستوى مُعَيَّناً من الحياة البائسة . ولا شَكَّ أن الفرد لا تَقوم له قائمة إلا إذا أسَّس كَينونته المنتمية إلى العدل على أنقاض دولته الطاغوتية .

إن الاتصال القوي بين المادية الوثنية المؤسِّسة للمَوْروث العَقدي الروحي وبين السياسةِ الاجتماعية يواجه صعوبات جمة . فالبنية السياسية خارج نطاق العقيدة تبدو أقل تأثيراً ، خصوصاً في القيم المعرفية الحاكمة ، التي تُسَيِّر قطارَ الظواهر الاجتماعية المحصورة في الإيقاع العدمي . وعلى أية حال ، فإن أكاذيب نظام الحُكم المهيمن على المشهد الإنساني ، لا تزال هي الوقود المحرِّك لِمُرَكَّبات الانهيار الحتمي . وإذا عُدنا إلى المنظومة الأساسية للطبيعة الفلسفية للجاهلية ، وجدنا أن الانتقادات الفكرية ذات النطاق الضيق تُعامَل على أنها نوع من الانقلاب، وسلبِ الشرعية عن الأصوليين الوثنيين . لذلك، يتم قمع الأفكار وأصحابها بصورة بالغة التوحش ، حيث تُنحَر الأفكار في مهدها قبل أن تتفشى في المحيط البشري والبيئةِ الفكرية ، ويتم إقصاءُ أصحاب الأفكار وتصنيفهم كمنشقين وعناصر شاذة عن المسار الحضاري ، ومتمردين على قانون القبيلة وتاريخها، خانوا تراثَ الآباء والأجداد .

لقد أدَّت التبعيةُ المفرِطة في قلب الأجهزة الرسمية إلى تحويل الفرد إلى صدى لأفكار من يملكون المال والسَّوْط . والظاهرة الجيوسياسية في الجاهلية ذائبة في المرجعية المركزية للفوضى الخلاقة . وبينما ينشغل كثير من الساسة باختراع مُقارَبات وهمية للأداء الحاكم ، نرى أن البعض ما زال متخوفاً من مساءلة هزيمته الذاتية وانهيار بيئته . والذي يمتلك الجرأة لطرح الأسئلة نجده خائفاً من انتمائه لمحيطه . فهو ما زال يُلقي على كيانه أسئلةَ الانتماء . ولا نبالغ إذا قُلنا إن أفراداً كُثُر في الجماعة البشرية ، لا يعرفون على وجه الدقة هل هم منتمون إلى وسطهم المعاش أم لا. وبالتالي تصاب عملية الانتماء الفوضوية بكثير من الانتكاسات ، لا سِيَّما وأن الأفراد الجاهليين غارقون في الوساوس والأحكامِ العقلية المتضاربة . فعقولهم خائفة ، والعقولُ الخائفة عاجزة عن

التفكير واتخاذ القرارات المناسبة . وبعبارة أخرى ، إن العقلَ الجاهلي قَد شَلَّ حَرَكَتَهُ الخوفُ والأزمةُ المعنوية الأخلاقية .

إن النتائج المتأتية من اللامبالاة تجاه المدلول الأخلاقي ، تُعْتَبَر ناقلاً ملائماً للفكر المتطرف. ومن المؤكد أن الهيجان التقسيمي الذي يُشرِّح الجماعةَ البشرية إلى مناطق نفوذ وصراع ، يُعتبَر مثالاً بارزاً على الفكر الجاهلي الإقصائي الرافض لحركة التنوير المحاصَرة.

إن الحرب الخفية بين الأصوليين (حُماة الحاكمية القَبَلِيَّة) والانقلابيين (أصحاب العقول المفكِّرة) لعبتْ دوراً هامة في التمايز الطبقي ، كما أنها أسَّستْ خلفيةً معرفيةً لمحتكِري السُّلطة ، وأوجدت الْمُبَرِّرَ لقمع الآخرين باسم حماية المكتسبات الجمعية .

والمخيال السياسي في الجاهلية لم يكن سوى مشروع استبدادي لتجذير التبعية للصنم البشري (شيخ القبيلة)، والصنمِ الحجري المتشظي إلى كيانات متساقطة. وهذه الازدواجيةُ فَكَّكتْ كُلَّ المحاولات الحثيثة لربط الحياة البدوية الوثنية بالعقلانية الثورية، لذا ظهر الانفصال القاتل بين الأنساق الاجتماعية ، وبرزَ الافتراق في المناهج الفكرية . وهكذا نبع انفصام قاس في شخصية الجماعة غير المتجانسة. ونتجَ عن هذا الانفصام ازدياد هيمنة الأجهزة القمعية على المعطَى الاجتماعي، وسيطرتها على سُلطة تأويل النص التاريخي ذي الصِّبغة الدينية ، واحتكارها للقيم الثقافية المحصورة في إطار التاريخ الماضَوِي .

وتبرز في هذا السياق عملياتُ بناء المنظومة الاجتماعية وفق آليات إنهاك جسد الأُمَّة الجاهلية ، وذلك من أجل التلاعب بطبيعة المؤسسات السُّلطوية (القبيلة ، الأُسرة ، ...) خدمةً لمصالح المتنفذين . وعلى الرغم من كَوْن المؤسسات الاجتماعية السُّلطوية المنهارة في البيئة المتحجرة محاطة بهالة من القداسة ، إلا أن هذه المؤسسات صارتْ دُميةً بالية تُستخدَم لتحقيق مصالح فئة ساحقة على حساب أخرى مسحوقة .

ولا يمكن أن تُفلِت المدنيةُ الْمُصْطَنَعَةُ من فخ الهيمنة ، التي تمارسها العقلية البدائية للدولة الوحشية الهلامية . والحديثُ عن استقلالية المنظور السياسي عن الواقعية السيكولوجية يغدو ضرباً من اللغو الذي يُروِّجه حُرَّاسُ النظام الحاكم من أجل ترسيخ نفوذهم ومصالحهم الشخصية .

وتأسيس الشخصية الاعتبارية للظاهرة الاجتماعية ما زال مرتبطاً في أذهان الكثيرين بالسَّطْو والقهر . وهذا يُغرق التجمعَ البشري في ثنائية (السيف المسيطِر على الفكرة / المال المحرِّك للجماعة) . وبالإضافة إلى هذا ، فإن تفعيل الأيديولوجية التي تُعتبَر من ميراث الماضي البشع ،

إنما يهدف بالدرجة الأولى إلى تقليص دور الفرد في عملية البناء الذاتي ، كخطوة تمهيدية لإلغاء النسق الثوري في أدبيات الجماهير العاطفية .

ويجب ألا ننسى دَوْرَ المخيال الاستهلاكي في تشكيل الظواهر الهمجية الهابطة كالكِهانة وغيرها. وتعددُ ملامح الشِّقاق المجتمعي القسري في مدلولات الحُكم الفئوي ، يزرع قواعدَ التصفية الجسدية لكل المخالفين ، باعتبار أن القتل أعلى درجات المراقَبة والحصار .

وتشتمل قواعد لعبة الإبادة التي يُقَعِّدها سادة العالَم الوثني على تفاصيل متضاربة . وسبب ذلك إنما يرجع إلى اختلالات قاعدية في دوائر الفكر القَومي الجاهلي ، مما يُعزِّز محاولاتِ السُّلطة لبناء تجمع قَومي على أساس عِرقي متفوق وهمياً .

وقد قامت الحركةُ الجاهلية العليا بتأسيس منظومة أُحادية قائمة على السَّلْبِ ، سلبِ الآخرين كل معاني الإنسانية الفاضلة . لذلك نرى تتابع الأطوار التحطيمية في تمثيل العلاقات الجيوسياسية واضحاً أشد الوضوح . وتستند السُّلطات القمعية في عملها إلى تكريس مفهوم السيطرة المركزية في قلب الظواهر الاجتماعية المتخلفة .

ويقوم التكريس الفئوي السُّلطوي على عِدَّة أُسس ، من أبرزها تعويمُ مفهوم الانتماء إلى الجماعة، كي يظل الأفراد خاضعين لشريعة رؤوس القبيلة وأصحابِ الفكر العِرْقي المتفوق خيالياً ، وإحاطةُ مفهوم الوطن بالضبابية الكثيفة ، كي يتم ترويج مصطلحات الخضوع والتبعية على أنها انتماء إلى الوطن والقبيلةِ . وهكذا يصير مفهوم الوطن الضبابي سَيفاً على رقاب العبيد والعوام. والوطنُ _ في هذا النسق الانتكاسي _ صار مفهوماً استبدادياً يُحاصِر الفردَ من كل الجهات . وبالطبع لا يملك الفرد إبداء المعارضة لئلا يُتهم بأنه منشق عن السياق الوطني الموظَّف لخدمة لصوص القبيلة المتنفذين ، وهؤلاء اللصوص قد يَسْرقون الرُّوحَ ، وقَد يَسْرقون المادةَ .

وليستْ هُلاميةُ المصطلَح هي الحائل دون توليد تدفقات عقلانية فَحَسْب ، بل هناك أيضاً تكثيف مُتعمَّد للصُّور الاجتماعية الْمُشَوَّهة المتعلقة بإمكانية تولي الأفراد زمام حُكم أجسادهم وأفكارهم . والهدف من تشكيك الفرد بقدراته وإمكانياته هو إعادة رسم صورة الكائن المسخ غير الواثق من نفْسه، والذي يجعل السادةَ الجدد يُفكرون نيابة عنه، ويتخذون القرارات الحاسمة باسمه ، وهو لا يملك إلا أن يُغمِض عينيه ، ويُسلِّم زِمامَ أموره للواقع المصطنَع القاتل ، ويُصفِّق لجلاديه .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٤٨): عن مُعاوية بن الحَكَم السُّلَمي قال : قلتُ : يا رسول الله ، أموراً كنا نصنعها في الجاهلية ، كنا نأتي الكُهَّان ، قال : ((فلا تأتوا الكُهَّان))، قال : قلتُ : كُنَّا نتطيَّر، قال : ((ذاك شيء يجده أحدُكم في نَفْسه فلا يَصُدَّنكم)) .

إن الكُهَّانَ أشخاصٌ شديدو الذكاء ، لكنهم يَستخدمون ذكاءهم في مجال الشر . وهُم قادرون على التلاعب بالأشخاص ، ولَوْي أعناق الكلام ، وتركيب الكلمات على المواقف الحياتية المعاشة. وبهذه الألاعيب يَخْدعون الناسَ ، ويتحايلون عليهم ، ويقومون بابتزازهم للحصول على المال ، وتحقيق نفوذ اجتماعي ، ومكاسب شخصية .

وفي فتح الباري (١٠/ ٢١٩) : ((وقال الخطابي : هؤلاء الكُهَّان فيما عُلم بشهادة الامتحان قومٌ لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطبائع نارية، فهم يَفْزعون إلى الجن في أمورهم ويستفتونهم في الحوادث ، فَيُلْقون إليهم الكلمات)) اهـ .

أمَّا التَّطَيُّر (التَّشاؤم) ، فينبغي إهماله وعدم تركيبه على الأحداث الواقعية ، فالقضيةُ قضيةٌ نَفسية ، والكراهيةُ تقع في النُّفوس في العادة . ولكنْ ينبغي المضي قُدماً ، وعدم الالتفات إليها ، كأنها غير موجودة أصلاً .

والكِهانةُ (ادِّعاء معرفة الغيب)والتَّطيُّر (التشاؤم) [171] صارا ثقافةً شعبية في الجاهلية . فقد كان الكهنةُ هم المرجعية للناس في الأحكام والوقائع ، يُصدرون قراراتٍ ذات طبيعة إلزامية ، ويُنظَر إليهم على أنهم حلقة الوصل بين عالَم الشَّهادة (المحسوس) وعالَمِ الغيب (غير المحسوس). لذلك كان لهم مكانة اجتماعية سامية .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٢٢٣) : ((قال القاضي ــ رحمه الله ــ : كانت الكِهانة فى العرب ثلاثة أضرب ، أحدها يكون للإنسان وَلِيٌّ من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء، وهذا القِسم بطل من حين بعث اللهُ نَبِيَّنا ﷺ . الثاني : أن يخبره بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خُفي عنه مما قَرُبَ أو بَعُدَ ، وهذا لا يَبعد وجوده ... الثالث :

---

(١٧١) وفي عمدة القاري (٢١/ ٢٧٣) : ((قال ابن العربي : ... وأصل الطِّيَرة أنهم كانوا يُنفِّرون الظِّباء والطيور ، فإن أخذت ذات اليمين تبرَّكوا به ومضوا في حوائجهم ، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن ذلك وتشاءموا بها ، فأبطله الشرعُ وأَخبر بأنه لا تأثير له في نفع أو ضرر)) .

الْمُنَجِّمون ، وهذا الضَّرْب يخلق اللهُ تعالى فيه لبعض الناس قوةً ما ، لكن الكذب فيه أغلب)) اهـ .

أمَّا التَّطيُّر فهو التشاؤم من شيء ما وكراهيته ، وفيه سوء الظن وتوقع المصائب . فإذا وقعت كراهيةُ ذلك الأمر في نَفْس الإنسان ، فينبغي أن يُهمِلها ، ولا يَلتفت إليها ، بل يمارس حياته كأن شيئاً لم يكن . وفي الجاهلية كان التطيرُ أساسياً في كل الطبقات الاجتماعية ، ولا يمكن الاستغناء عنه بسبب تجذره في ثقافة المجتمع . وهذا التجذر نتيجة تراكمات معرفية بدائية على مدار سنوات طويلة جداً . ومن الصعب أن تزول هذه التراكمات في لَيلة وضُحاها .

وفي فتح الباري (٦/ ١١٤) : ((وقد نقل ابن بطال أن أهل الجاهلية كانوا يَتَحَرَّوْن أوائل الشهور للأعمال ، ويَكرهون التصرف في مُحاق القمر)) اهـ .

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : كان رسول الله ﷺ يقول : ((كان أهلُ الجاهلية يقولون : إنما الطِّيَرة في المرأة والدابة والدار))[172].

إن رأسمال الجاهلية الروحي والمادي يتكون من المرأة والدابة والدار ، فالمنظومةُ الجاهلية برمتها تتشكل من هذه العناصر الثلاثة . وهذه العناصر ــ التي لا يمكن الاستغناء عنها ــ قَلَّما تَسْلم من مصيبة أو مكروه ، لذلك ارتبط الشؤمُ بها ، وأُضيفت الطِّيَرةُ إليها .

وتاريخُ العربِ حافلٌ بالتشاؤم ، وربط الأشياء بصورة غير منطقية . وهذا يدل على هَيْمنة الخرافة على العقل العربي الجاهلي ، وانكماشه في عوالم الوهم ، والخوفِ من المجهول ، والتقليدِ الأعمى ، والأهواءِ الشخصية المتخبطة .

وفي تفسير القرطبي (٣/ ٦٠) : ((وقيل : كانت العرب تتشاءم بِمُلابَسة أموال اليتامى في مؤاكلتهم)) اهـ .

وكان العربُ تتشاءم بِزُرق العيون وتذمُّهم ، وتعتقد أن زُرقة العيون تُشَوِّه خِلْقتهم . والزُّرقةُ أبغض شيء من ألوان العُيون إلى العرب ، وذلك لأن الرُّومَ (أعداء العرب) كانوا أصحابَ عيون زرقاء .

كما أن العرب تتشاءم بالأشقر .

---

(١٧٢) رواه الحاكم في المستدرك(٢/ ٥٢١)برقم(٣٧٨٨) وصححه ، ووافقه الذهبي.

وفي مجمع الأمثال للميداني (٢/ ١٤٠) : ((كالأشْقَرِ إنْ تَقَدَّمَ نُحِرَ ، وإنْ تَأَخَّر عُقِرَ . العربُ تتشاءَمُ من الأفراس بالأشقر . قَالوا : كان لقِيط بن زُرَارة يوم جَبَلَة على فرَسٍ أشقر ، فجعل يقول : أشقر إن تتقدم تُنْحَر وإن تتأخر تُعقَر ، وذلك أن العرب تقول : شُقر الخَيْل سِرَاعُها وكُمْتُهَا صِلابُهَا ، فهو يقول لِفَرسه : يا أشقر إن جَرَيْتَ على طبعك فتقدمتَ إلى العدو قتلوكَ ، وإن أسرعتَ فتأخرتَ مُنْهَزِماً أتَوْكَ من ورائك فعقروك ، فاثْبُتْ والزم الوَقَارَ وانْفِ عني وعنك العَار)) اهـ .

والعربُ تتيمَّن بالسانح ، وهو الذي يأتي من ناحية اليمين ، وتتشاءم بالبارح ، وهو الذي يأتي من ناحية الشمال . وفي مجمع الأمثال (٢/ ٣٠١) : ((مَنْ لِي بِالسَّانِح بَعْدَ البَارِحِ ؟ ... وأصل المثل أن رَجلاً مَرَّت به ظِباء بارحة ، والعرب تتشاءم بها ، فكرهَ الرَّجلُ ذلك ، فقيل له : إنها ستمرُّ بك سانحةً، فعندها قَالَ : مَنْ لي بالسانح بعد البارح ؟. يُضرَب مَثلاً في اليأس عن الشيء)) اهـ .

وكان العربُ تتشاءم بالصُّرَد (طائر فوق العصفور نصفه أبيض ونصفه أَسْود) ، وقد نُهِيَ عن قتله لكي يَزول مِن قلوبهم التشاؤمُ به [173].

ومن الأشياء المشهورة ، تشاؤم العرب بالغراب . فقد رَكَّبوا عقائد وسلوكيات عليه . وهناك نوعٌ من الغُربان يُسمَّى غُراب البَيْن (الفِراق) .

وفي فتح الباري (٤/ ٣٨) : ((قِيل : سُمِّيَ غُراب البَيْن ، لأنه بَانَ عن نوح لَمَّا أرسله من السفينة ليكشف خبر الأرض ، فلقيَ جِيفة فوقع عليها ، ولم يرجع إلى نوح . وكان أهل الجاهلية يتشاءمون به ، فكانوا إذا نعب مرتين قالوا : آذَنَ بِشَر ، وإذا نعب ثلاثاً قالوا آذَنَ بخير ، فأبطل الإسلامُ ذلك)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((مَن رَدَّتْهُ الطِّيَرةُ مِن حاجة فقد أشركَ)) ، قالوا : يا رسول الله ، ما كفارة ذلك ؟ ، قال : ((أن يقول أحدُهم : اللهم لا خَيْرَ إلا خَيْرُكَ ، ولا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ ، ولا إلهَ غَيْرُكَ))[174].

---

(١٧٣) روى أبو داود في سُننه (٢/ ٧٨٩) عن ابن عباس ــرضي الله عنهماــ قال : ((إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع مِن الدَّواب : النملة ، والنحلة ، والهدهد ، والصُّرَد)) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٢٣٩): ((رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم)) .

وسببُ الشِّرك أنه اعتقد أن لله تعالى شريكاً في تقدير الخير والشر . وينبغي على المرء إذا وَقَعَت الطِّيَرةُ في نَفْسه أن يُهملها تماماً ، ويمضي إلى حاجته مُتَوَكِّلاً على الله تعالى ، ومُعتقداً أنهُ النافع والضار ، وَحْدَه لا شريك له .

ولا يمكن تجاهل تأثير الكِهانة في الأفعال والأقوال . ويتجلى ذلك التأثير في النسق الكلامي الذي يُسمَّى السَّجْع [175]. وهو علامة جاهلية مميَّزة مستمدة من أقوال الكهنة وتأثيرهم في الجماعة البشرية .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ : أن رسول الله ﷺ قضى في امرأتين مِن هُذَيْل اقتتلتا ، فَرَمَت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهي حامل ، فَقَتَلَتْ وَلَدَها الذي في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ ، فقضى أن دِيَةَ ما في بطنها غُرَّةٌ عَبْدٌ أو أَمَةٌ ، فقال وَلِيُّ المرأة التي غَرِمَتْ : كيف أَغْرَمُ يا رسول الله مَن لا شرب، ولا أَكل، ولا نطق، ولا استهلَّ، فَمِثْل ذلك بطل. فقال النبي ﷺ: ((إنما هذا مِن إِخْوان الكُهَّان))[176].

هذا النسق الكلامي شبيه بِسَجْع الجاهلية المذموم الذي كَرَّسه الكهنةُ ونشروه بين الناس . وقد اعتبرَ النبيُّ ﷺ هذا الرَّجلَ مِن إخوان الكُهَّان بسبب مشابهته لهم في كلامهم الذي يُزَيِّنونه بِسَجْعهم ، لكي يَنفوا الحقَّ ، ويُثبِتوا الباطلَ . فعلى المرء أن يبتعدَ عن التكلف في استعمال الكلام، ويُخالفَ طقوسَ الجاهلية ــ القَوْلية والفِعْلية ــ بكل حَزْم .

وقد ذَمَّ النبيُّ ﷺ سَجْعَ الرَّجلِ ، لأنه عارضَ به الحُكمَ الشرعيَّ وأرادَ إبطالَه ، وأيضاً بسبب تَكَلُّفه في الكلام . وهذان الوجهان مذمومان . وأمَّا السَّجْعُ الذي كانَ يَصْدر عن النبي ﷺ أحياناً ،

---

(١٧٤) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٢٠) برقم (٧٠٤٥) . وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٧٩) : ((رواه أحمد والطبراني ، وفيه ابن لهيعة ، وحديثه حسن ، وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات)) اهـ .

(١٧٥) السَّجْع: هو الكلام الذي له فواصل كفواصل الشِّعر، مُقَفًّى غير مَوْزون.[انظر المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ص ٣٠٣]. وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٤٠): ((والحاصل أن المنهي عنه ما كان مُتَكَلِّفاً ، أو متضمناً لباطل ، لا ما جاء عفواً عن غير قصد إليه)) اهـ .

(١٧٦)رواه البخاري(٥/ ٢١٧٢)برقم(٥٤٢٦) واللفظ له، ومسلم(٣/ ١٣٠٩) برقم (١٦٨١).
غُرَّة : هو في الأصل بياض الوجه ، عَبَّرَ به عن الجسم الذي يُدْفَع دِيَةً عن الجنين إذا سَقَطَ مَيْتاً .
استهلَّ : صاح عند الولادة / بَطَل : من البُطلان .

فهو سَجْعٌ حَسَن ، لأنه لا يُعارِض حُكمَ الشَّرع ، ولا يَتكلَّفه [177]. وبشكل عام ، فإن السَّجْع حَسَنه حَسَن ، وقبيحه قبيح ، مِثْل كُل الكلام .

لقد نشأت الكِهانةُ في مناخ الخرافات والأوهام التي كانت منتشرةً في المجتمع العربي الجاهلي . ويمكن ذِكر بعض الخرافات_ على سبيل المثال لا الحصر _ ، والتي تُعطي صورةً عن حجم الانهيار

في العقل العربي البدائي .

فقد كان أهلُ الجاهلية يزعمون أن الرَّجل إذا طرف عين صاحبه ، فهاجت ، فمسح الطارفُ عين المطروف سبع مرات ، يقول في كل مرة : بإحدى جاءت من المدينة ، باثنتين جاءتا من المدينة، بثلاث جئن من المدينة ، إلى سَبْع ، سكن هيجانها [178].

وكانوا يَرَوْنَ أن الفتى إذا ظَهر فيه الْحَلَى بِشَفَته ، وهي بُثور تنبت بالشَّفة ، فيأخذ مُنْخُلاً على رأسه ، ويمر بين بيوت الحي ، وينادي : الحلى الحلى ، فَيُلْقَى في مُنْخُله من هنا تمرة ، ومن هنا كِسرة ، ومن هنا قطعة لحم ، فإذا امتلأ نثره بين الكلاب ، فيذهب عنه الحلى [179].

إن هذه السلوكيات الخرافية تشير إلى التحديات الهائلة التي كانت تَنخر في بُنية العقل العربي . وهذا متوقَّع ، لأن العقل العربي محصورٌ في إطار أسطوري ، وخاضعٌ لسُلطة المؤروث الدِّيني والاجتماعي ، ومستسلم للتراث الشعبي بكل ما فيه من عقائد زائفة ، وتناقضات اجتماعية ، وأحلام مكسورة ، وآمال ضائعة .

---

(١٧٧) مِن الأمثلة على ذلك : أ _ الحديث المتفق عليه [البخاري (٣/ ١٠٣١) ومسلم (٣/ ١٤٢١)] أن النبيَّ ﷺ قال بعد أن جُرحت إصبعه في أحد المواقف : ((هَل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ ، وفي سبيل الله ما لَقِيتِ)). ب _ الحديث المتفق عليه [البخاري (٢/ ٧٥٩) ومسلم (٢/ ١١٤١)] أن النبي ﷺ قال : ((قضاء الله أحق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق)) . ج _ ما رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٨٨) أن النبي ﷺ قال : ((اللهم إني أعوذ بك مِن عِلْم لا يَنفع ، ومِن قلب لا يَخشع ، ومِن نَفْس لا تَشْبع)) . د _ ما رواه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٣٠٤) أن النبي ﷺ قال : ((اللهم إني أعوذ بِكَ مِن الجوع، فإنه بِئس الضجيع ، وأعوذ بِكَ مِن الخِيانة ، فإنها بِئست البِطانة)).

(١٧٨) صُبح الأعشى للقلقشندي (١/ ٤٦٣) .

(١٧٩) المرجع السابق (١/ ٤٦٤) .

الرُّقْية

إن وجود الرُّقية (العُوذة التي يُرقَى بها المريض ونَحْوه) في الجاهلية دليل على التكافل الاجتماعي، وسعي الناس الحثيث لعلاج مرضاهم ، والتخلصِ من كل الأمراض الروحية والمادية . وهذا أمرٌ طبيعي ، فكلُّ مجتمع يسعى نحو تنقية نفْسه من الأمراض بكل أنواعها. وما اللجوء إلى الرُّقية إلا دليل على سَطْوة الحالة الدينية في الجاهلية وسيطرتها على العقول والقلوب. فالدِّينُ في المجتمع الجاهلي كان متغلغلاً في كل جوانب الحياة ، بحيث كان من المستحيل فصل الدِّين عن الدنيا. ومن الجدير بالذِّكر أن الكلام الموجود في الرُّقية يعكس الحالةَ الدينية العامة في المجتمع ، كما يَعكس مستوى ثقافة الأفراد ، ووعي الجماعة ومدى نضجها . إذ إن لغةَ الرُّقية هي مقياس دقيق لمدى تقدم المجتمع أو تخلفه .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٢٧) : عن عَوْف بن مالك الأشجعي ــ رضي الله عنه ــ قال : كُنَّا نَرقي في الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى في ذلك ؟ ، فقال : ((اعرضوا عليَّ رُقاكم ، لا بأس بالرُّقى ما لم يكن فيه شِرك)) .

إن الرُّقيةَ لَيْست ممنوعةً ، وإنما الممنوع هو الرقية المحتوية على شِرك .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ١٩٥) : ((وقد أجمعَ العلماءُ على جُواز الرُّقى عند اجتماع ثلاثة شروط : أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته ، وباللسان العربي أو بما يُعرَف معناه من غَيْره ، وأن يُعْتَقَد أن الرُّقية لا تُؤثِّر بذاتها ، بل بذات الله تعالى)) اهـ .

وقد أشارَ قيس بن الملوَّح (مجنون ليلى) إلى موضوع الرُّقية في قَوْله :

هي السِّحْرُ إلا أن للسِّحْرِ رُقْيةً وإني لا ألقى لِسِحْري راقيا

ومن المؤكد أن الغالبية الساحقة من الرُّقى في الجاهلية كان فيها شِرك ، وذلك بسبب الوثنية الطاغية على العرب قبل بعثة النبي ﷺ . ونحن بصدد تحليل المعطيات والملابَسات الاجتماعية الخاصة بالرُّقى الشِّركية بوَصْفها حالة اجتماعية سياسية .

إن المقاييسَ الاجتماعية في الرقى الشركية تأسيسٌ خاضع لقانون الوثن المعظَّم . وهذا القانون يتم تداوله شَفَوياً من جيل إلى جيل . ومن البديهي القول إن مفهوم الوطن كحاضن اجتماعي قد

انهار في النفوس، على الرغم من الانتماء الشكلي إلى القبيلة . وهذا الانتماء ليس سوى انعكاس للعصبية القَبَلية ، وتعصب أعمى لرابطة الدم (الأسرة ، العشيرة ، القبيلة) . وهذه الرابطةُ هي التي تَمنح الفردَ هويته وأيديولوجيته . وفي واقع الأمر إن الذين يعبدون غير الله تعالى لا ينتمون إلا لمصالحهم ونزواتهم وطَيْشهم وفجورهم ، حتى لو مَثَّلوا دور المواطن الشريف المنتمي لمحيطه .

وتطبيقُ مدلولات الأعراف القَومية ، وثقافةُ الرعب الموزَّعة في الأرجاء ، والمنظورُ الفلسفي للظواهر الاجتماعية ، كلُّ هذه العناصر من شأنها توليد حالة جماعية هلامية تنقسم إلى كينونات بشرية فرعية تتَّسم بانعدام ثقافة التحليل الواعي للمسار التاريخي بشكل عام . وهذا المسار التاريخي الذي صنعه المنحرفون كان سبباً مباشراً في توليد ردود أفعال متباينة .

والعقائدُ الوثنية لم تكن سوى ردة فعل للممارسات البشرية في صناعة تاريخ إجرامي متوحش، يقتل الآخرين بعد أن يصبغهم بصبغته . وانعزالُ الموروث العَقدي عن الطموح البشري المخيالي مكَّن المنحى المادي الإغراقي في تشكيل خصائص الروح الجاهلية المحبوسة في أجساد مقموعة أيديولوجياً . والقمع القادم من كل جهات البيئة دفع باتجاه تكوين الظواهر الشِّركية في مؤسسات الجماعة كالأسرة والقبيلة .

إن البيئة الجاهلية المغلَقة فشلتْ في إيجاد تعليلات للظواهر الاجتماعية المؤسَّسة على الانهيار التدريجي ، والماديةِ المشكِّلة لاتجاهات الروح المقيَّدة . وهنا تبرز أهميةُ توضيح الأوصاف السياسية للأنوية الاجتماعية المتغلغلة في نسيج المنظومة المترسبة في قاع التجمع البشري اللاجئ إلى العنف بشتى صوره وعلى كافة المستويات . فنحن نجد العنف الأسري كان متفشياً بشكل جنوني ، والعنف تجاه المرأة والنظر إليها نظرة دونية هو أيضاً كان متفشياً، بل كان سِمة مُميِّزة لحقبة ليست بالقصيرة ، حتى إن القبيلة مارست اضطهاداً من نوع ما على أفرادها الخانعين وأتباعها المقموعين . وهكذا تشكلت سلسلةُ القهر التي تنسحب على التشكيل المعرفي للجماعة ، بَدْءاً من رأس الهرم وصولاً إلى القاعدة العريضة التي تمثل القاع السحيق الحاضن للأنوية البشرية المكوِّنة لمسارات الأنظمة المعرفية الفوضوية .

واستبعادُ المنظور الاجتماعي التحليلي من تركيبة البنية السيكولوجية ، سَوْفَ يؤدي إلى نشر تناقضات نماذج المشروع الجاهلي المتمثل في صناعة حاكمية الطاغوت التي تُشيِّد أبراجَ الظواهر الاجتماعية . والفكرُ الوثني الماضَوِي يُعاد اكتشافه من جديد لتوليد حركة بؤرية للتأسيس المادي المتحجر . والعلاقاتُ الرابطة بين اختراع العقائد الوثنية التاريخية وبين الاقتصاد الاجتماعي ، من

شأنها تفجير الهدنة المتعارف عليها بين سُلطة القهر الصنمية والموروثِ التاريخي المقموع ، والمسيَّر نحو انتحارات المعنى الوجودي ، وتداعياتِ الحلمِ الإنساني الضائع . وكل الصفات المصبوغة بهالة الجمعنة السياسية، وأساطيرِ الوَحدة الوطنية المنتمية إلى سُلطة الموروث الوثني ، إنما هي تشكيل ذهني مضاد للمنطق . وعلى الرغم من زخم التحولات في المسار الأفقي للفكرة الصنمية ، إلا أن تلك التحولات لم تحقق طموح الفرد بسبب افتقادها للطابع الأخلاقي ، وحرصِها على توظيف العبء الأسطوري في مكوِّنات قَوْلبة تاريخ الآباء المناوئ للثقافة الواعية ، والمعادي للمحتوى الثوري في تشكيلات الظاهرة الإنسانية . وإذا قُمنا بتحليل جزئياتِ الوظائف الاجتماعية اللاشعورية التي صارت جزءاً من المجموع الثقافي ، سَوْفَ نكتشف أن الانزلاق الخطير نحو القيم السلبية هو الذي قدَّم المشاريع المجهِضة للثورة الإنسانية .

إنَّ تبني اتجاه متطرف مُعرِض عن معالجة قضايا الشعب، ومن ضمنها الظواهر الاجتماعية ذات الصبغة العَقدية كالكِهانة والرُّقْية ، كان أحد أركان الدولة الجاهلية البوليسية . والقائمون على تدعيم التصورات الوثنية يَستخدمون العقائدَ الزائغة لترسيخ حُكمهم في محيط يحكمه الجهل والخرافة والأساطير. وبالطبع هذا يُسهِّل عليهم إحكام قبضتهم ، ويضمن لهم ديمومة حُكمهم الإجرامي القائم على ثقافة الضحايا ، وأكوامِ الجثث ، وأهراماتِ الجماجم . وهكذا تخلو لهم الساحة ، وتصبح ثقافةُ الاستهلاكِ واللهاثُ وراء الماديات ومتطلباتِ الحياة اليومية، يشغلان تفكير الفرد، وبالتالي يستثني السياسةَ من قاموسه في طريقه نحو تحصيل قُوت عياله . وهذا هو المبدأ الذي يُقدِّسه الطواغيت في كل عصر، ويعتبرونه اللبنة الأولى في بنائهم المتهاوي القائم على نفي الآخر روحياً ومادياً ، ومحاربة أفكاره ، وتصفيته جسدياً إن تطلَّب الأمر ذلك . والظاهرة الاجتماعية سواءٌ كانت ذات مدلول سياسي أو اقتصادي مشبعة بالتناقضات المتضمنة للشخصياتِ المنفية داخل كيان الفرد الواحد .

والفرد ينشأ على مفاهيم نفي نفْسه واضطهادها، قبل أن يتعلم إلغاء الآخرين . فالفردُ يتجرع كل محتويات الكأس الأيديولوجي رغماً عن أنفه . وإن لم يفعل فَسَوْفَ يعيش منبوذاً طريداً مُحارَباً في كل مناحي حياته . لكن هذا لا يعني خُلُوَّ الجماعة من معارِض حقيقي رغم المحاولات الشرسة لطمسه وإلغائه، والحملاتِ الدعائية المغرِضة التي تشنُّها عليه أبواق السُّلطة المكوَّنة من الشعراء والتجار ورجال القبيلة المتخوفين من أية حركة ثورية انقلابية ، لأن هذا يعني زوالهم ، وخسارة مكتسباتهم المعنوية والمادية ، وفقدان نفوذهم وسُلطتهم .

ويستمر الطواغيت في تصليب النسيج الاجتماعي المتداعي ، من أجل تسليط المرتزقة أذنابِ السُّلطة الحاكمة على مُكوِّنات الجماعة وثرواتها ، لكي يسيطروا عليها ويُوَجِّهوها نحو تكريس الحُكم الاستبدادي . وهكذا يصبح الفرد يدور في حلقة مفرغة خاضعاً لسُلطة الموروث الوثني ، وهيمنةِ احتكار تفسير التاريخ ، وحاكميةِ الطاغوت المطْلقة .

ومن الأمور التي يعمل المتسلقون على ظَهْر الحكومة العُرفية على تعزيزها ، بثُّ روح الانتماء لِحُكم السيف القَبَلي ، وتجذير الولاء للطغاة بكل أبعاده ، وتحريك دفة الاهتمام الشعبي باتجاه القضايا الاستهلاكية . وهناك أهداف أخرى هلامية يبتكرها المرتزقة المنتفعون في كل وقت لتعديل أي انحراف قد ينشأ عن مسارهم الدموي الوضيع . وكل هذه المسائل تعمل على إبادة الإسهامات المنطقية، وإجهاضِ الثورات العقلانية، مما يقود الجماعةَ إلى نفي المثقف الواعي ، ومحاصرته من كل الجهات، ووصفه بالخيانة العظمى وعدم انتمائه للوطن والقبيلةِ. معَ العِلْم أن أبواق السُّلطة الحاكمة هدفها الرئيسي ترويج ثنائية " الوطن / القبيلة " على أساس أنها ترسيخٌ للظلم الطبقي، والهيمنةِ الحكومية الصارمة ، ومُبايَعةٌ على استمرار حُكم الطواغيت . والصِّيَغُ الاجتماعيةُ التي يَخترعها حُرَّاسُ المشروع القَومي الصَّنمي ، تُصَفِّي مشاريعَ الحداثة الانقلابية التي تختمر في أذهان بعض المثقفين الرافضين لسياسة الخضوع للأنظمة الحاكمة .

وتستدعي الحركةُ الوثنية الدائرة حول نفْسها كثيراً من التناقضات الصارخة داخل المؤسسة الطاغوتية الحاكمية التي تبتكر ظواهر اجتماعية منحرفة ثم تُسيِّسها لخدمة الوثن البشري المعظَّم . وهذه التقنية الرسمية في التعامل مع عناصر المحتوى الفلسفي للحياة المخطوفة مِن قِبَل الساسة والمنظِّرين لثقافةِ القهر الواقع على الشعب، وسياسةِ الولاء للهالة الإعلامية الشرسة التي ينشرها أذناب السُّلطة ، إنما هي تقنيةٌ تابعة للسَّادية الذهنية ، وهذه التقنيةُ تنحت صياغةً قَسْرية للعلاقات الاجتماعية المنهارة في المخيال السياسي وعلى أرض الواقع .

وينبغي تدقيق النظر في الصلات بين التفاعلات الثقافية العشائرية وبين السياساتِ الاجتماعية. وهذه الصلاتُ تُمثِّل الخلفيةَ الذهنية للظواهر الكهنوتية المتماهية معَ المشروع الاستهلاكي العَقدي. والجديرُ بالذِّكر أن التيارات الفكرية المتناحرة في صميم الجماعة الوثنية التي لا ترقى إلى مستوى المجتمع الكياني الفعال ، هي أدلجة تراكمية واستعدادات جزئية للقبول بالحد الأدنى من المستوى المعيشي . واستناداً إلى هذه الرؤية البؤرية الخانقة ، تصير حياة الفرد (الحيوان الناطق) كحياة الحيوان غير الناطق ، مما يُشكِّل في نخاع الجماعات البدوية الجاهلية دائرة قاتلة محيطها

مغلق ، ترتمي عليه نزعات عنصرية بغيضة وإرهاصات وجودية للظواهر الاجتماعية ، ومنها الرُّقْية الشِّركية على سبيل المثال لا الحصر .

وقد قدَّم المشروع الجاهلي المحمول على رؤوس الرماح والسيوفِ الْمُسَلَّطة على الرقاب مثالاً بشعاً في تخمير المخيال المنحرف ، وفرضه على الواقع الهش المصاب بِنَزيف حاد ، فكرياً ومادياً. وخصوصيةُ القومية البدائية تكمن في قدرتها على سلب الشعب وسائل الرقي والتمدن والتحرر ، وابتزازِ المشاريع الفردية ذات الخصوصية الذاتية ، من أجل تسخير الفرد لخدمة جلاديه وأسياده الطواغيت . وتجيء مهنة تعميم الظواهر الاجتماعية الشِّركية لتُطْبِق على الجماعة إطباقاً تاماً بُغية نسف النموذج الإنساني الراقي الداعي إلى توحيد الله تعالى . وتنجم عن تعميم تلك الظواهر انتكاسة أخلاقية لا تنمو إلا على أجساد المهمَّشين وضحايا النُّخب الحاكمة . والنُّخبويةُ الميكانيكية المحتكِرة لثقافة الحُكم ، تُسلِّط أذنابها المرتزقة على الأفراد لسحقهم وإعادة صياغتهم وفق منظور يضمن استمرارية الاستعباد والخضوع .

وبالطبع لا يتم ذلك إلا بتصليب الأرضية الهلامية في جوف العقيدة الزائغة . ومن شأن هذا الفعل تمييز الأفراد حسب انتماءات وهمية ونزعات عشائرية. وتلبيةً للحاجات الوجودية للفرد ، يقوم الحاكمون باسم الآلهة بتلميع صورتهم عن طريق العزف على وتر المتطلبات الاستهلاكية للجماعة وتوفيرها.مما يجعل من السُّلطة الحاكمة في عيون العوام ذات رسالة إنسانية كريمة وشريفة. والسُّلطة تسير على خطين متوازيين ، فهي تقطع وريدَ الشعب من جهة ، وتصله من جهة أخرى . وهكذا تسيطر على الناسِ ، وطبيعتهم الفكرية ، وبيئتهم الاجتماعية .

إن أُسس الظاهرة الاجتماعية الشِّركية هي تنويعات غير حيادية تعزز الانتحارَ الوظيفي . والروابطُ الاجتماعية (الشعورية واللاشعورية) تَنْزع إلى تقديس الشخصية الاعتبارية للوثن الساكن (الصنم) ، والوثن المتحرك (شيخ القبيلة) . وينجم عن هذا التصنيف انزلاق خطير نحو خَصْخصة المشروع الجاهلي ، الأمر الذي ينعكس على المؤشرات السلوكية للطبقات النخبوية والشَّعبوية . وتعليل هذا الانزلاق إنما يتم عن طريق معرفة الانهيار الوجداني العائش على حساب الواقعية المخيالية . وليست الأمور بهذه البساطة، بل تتجاوز المنظور المادي لتنخر في قيمة العاطفة وتُحجِّمها في دائرة الانطفاء الرسمي .

واللجوءُ إلى التصنيفات الاجتماعية التفسيرية ،كان هدفاً غير مُعْلَن بالنسبة للممارسة القمعية المنهجية . والاتجاهاتُ الاجتماعية حدَّدت طبيعةَ البُنى العَقدية . ولا شَكَّ أن تفشِّي الظواهر

الاجتماعية السلبية يرجع أساساً إلى عوامل اقتصادية ربحية ، وليس عوامل دينية أو قَبَلية. وهكذا تسقط منظومة (الولاء / الانتماء) الوهمية. والعقيدةُ الصنمية رغم تأثيرها في سلوكيات الكثيرين، إلا أنها تظل في النفوس مضطربةً وغير راسخة بسبب افتقادها للقوة الذاتية والحجج المقنعة والبنية المتينة . أمَّا بالنسبة للقطيعة المعرفية الوقتية بين الاقتصادي والاجتماعي في عقول البعض ، فليست بأكثر من هالة تفتقد إلى التفسير الواقعي والتجربةِ الوجدانية العميقة . ويجب ألا ننسى دورَ الانهيارِ السياسي والفراغِ العاطفي في تشكيل الظواهر الاجتماعية السلبية .

وتشريحُ السلوكِ الاجتماعي الجاهلي ليس كتلةً خيالية أو بُنيةً غير واقعية. إن هذا التشريح امتدادٌ للنمط الثَّوري في رفض سياسة الأمر الواقع . والترميز العالي [180] في صيغ المنحنيات السياسية عبء ثقيل على كاهل المنظور الكُلِّي للأداء الاجتماعي . وهذا الترميز لا يسمح ببناء دولة تحترم حقوق الإنسان .

والأبعادُ المقترِنة بالهاجس القَومي العشائري ما فَتِئت تخترع الذرائعَ الواهية ، من أجل تكييف التكريس المناوئ للعقلانية مع الهالة الحاكمية للطاغوت . ومن المعلوم أن التركيبات الخانعة في قلب المشروع الفكري المسيطر عليه مِن قِبَل الموروث التاريخي الوثني ، تتراوح بين نمذجة السُّلطة الاستبدادية [181] ، وقَوْلبتها داخل الحطام الذهني [182].

إن حصاراً من هذا النوع يصنع واقعاً تتجاذبه التناقضات على جميع الأصعدة ، وإذا أدركنا أهمية هذه النقطة عرفنا حجم المعاناة التي يتكبدها المواطن المسحوق الباحث عن الوطن المسروق في أحلام منهارة،أو الباحث عن الوطن في اللاوطن.وهذا المواطنُ التائه كالمستجير من الرمضاء بالنار.

---

(١٨٠) هو تحويل البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلى حالات كهنوتية سرية وثنية تكون حِكْراً على طبقة المتنفذين ، ويُمنَع العامة من الاطلاع عليها بدعوى أنهم غير مؤهلين لذلك .

(١٨١) هي عملية فرز مكوِّنات موروث نظام الحُكم ومخلفاته وتوابعه ، ثم اتخاذها نماذج تقليدية تخدع العوام ، من أجل تسويق الإرهاب الحاكم المناهض للعقلانية الانقلابية .

(١٨٢) الحطام الذهني يعني تشتيت القوى العقلانية، وابتكار قواعد معيارية لقمع الفكر الثوري ، وذلك من أجل ربط لامنطقية الأيديولوجية معَ الواقع الشعبي المسحوق . والهدف من هذه العملية تعميقُ الفجوة بين المعطَى المخيالي الثوري ، والواقعِ المنفصل عن طموح الشعب .

والبحثُ عن الاقترانات السببية والعلاقاتِ التعليلية الهادفة إلى تبرير سَطوة أذرع الدولة الجاهلية الأخطبوطية ، يوصلنا إلى الاقتناع بحتمية اللجوء إلى تفسير رافض للانصياع للواقع الرديء الذي صنعه المتطفلون على النظام الحاكم بمباركة أسيادهم الطغاة . والإرهاصاتُ المشبعة باحتكار تأويل النص التاريخي غير المدوَّن ، هي بؤرة جنونية شاذة عن المسار الحضاري شذوذاً يُعمِّق الانشغالَ بالهوس المنهجي ، والفوضى الخلاقةِ . وهناك على الأقل مساران يُحدِّدان طبيعةَ الحياد الوهمي في التعامل مع التاريخ الصنمي : المسار الأول _ اعتماد التقنيات المصطنَعة في إضفاء الطابع القانوني على هَلْوسات القبيلة ، ولصقِ المناحي النفسية بالمدلولات العصرية بغية خداع الرأي العام الشَّغْبَوِي. والمسار الثاني_ تفتيت أسباب الظواهر الاجتماعية بحيث تصير كُتلاً متشظية لا يمكن محاصرتها للتخلص من عبئها وثقلِ معناها الفلسفي والوجودي .

ولا يستطيع المنحنى السياسي الذي يمارس التهجيرَ القسري للأفكار الثورية أن يُفسِّر الترابطاتِ المصيرية بين التناقضات . وافتراضُ مستوى ذهني مُعَيَّن لا يجيب عن الأسئلة المتجذرة في كَينونة الجماعة الواقعية والمخيالية . وأيضاً ، هناك إعادة صياغة لاتجاهات الجماعة الوثنية المكبَّلة بالأساطير وفق تصنيفات طبقية . وهذه التصنيفات العنصرية تنخر مبادئ التنظير لدولة ذات سيادة تستمد شرعيتها من شعبها الحر لا الخاضع . وللأسف ، فإن انتماء الشعب الجاهلي إلى بيئته وقبيلته ودَولته الوهمية ، كان محصوراً في ثنائية العصا والجزرة .

والغوص في ما وراء التخمر الاجتماعي الذاتي ، يؤسس لمشروع تشريح السلوك الإنساني في الجاهلية . وهذا يؤدي _ بالضرورة _ إلى ربط الانحلال الخلقي بالانحلال السياسي ، وتكوينِ فهم جديد للعلاقة بين البُنية التحتية والبُنية الفَوقية . وفي هذا السياق ، لا بد من التمييز بين النتائج الثورية للمعرفة المقموعة وبين السلوك الاجتماعي المتواطئ مع أوهام الطبقة الحاكمة . وهذا التمييزُ ضروري من أجل فصل المعطَى التاريخي المسيَّس عن إرهاب الدولة المنهجي . ومهما يكن من أمر ، فإن الظواهر الاجتماعية ستبقى وعاءً تتصارع فيه كل الاتجاهات المتناحرة .

والجدير بالذِّكر أن الإسهامات الذهنية في منظومة أولويات الجماعة ، تُجسِّد الواقعَ المظلم الذي يَغوص فيه الفردُ من أجل الوصول إلى حالة السِّلم المدني والتصالح مع الذات ، ظناً منه أن هذين الهدفين سَيُوَفِّران له العيش الرغيد ، ويضمنان حمايته من سَطْوة الموروث . ولم يعرف هذا الفردُ الضائع أن الوصول إلى حالة السلام مع الذات والآخَر ، يتطلب قلب نظام الحُكم بشكل جذري وفعال ونهائي وحاسم ، وعلى جميع مستويات البنية التحتية والفوقية .

التَّمائم

التَّمائمُ (جَمْع تَميمة) وهي خَرَزَات أو قلائد ، كان أهلُ الجاهلية يُعلِّقونها على أبنائهم لحمايتهم مِن العَيْن ــ بزعمهم ــ . والإيمانُ بأنها تردُّ العَيْنَ إيمانٌ بأنها تردُّ القَدَرَ ، وهذا أمرٌ باطل لا يجوز اعتقاده [183] .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٧٤) : ((... مِمَّا كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم، وتصرف عنهم البلاء، وذلك لا يَصْرفه إلا الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ وهو الْمُعَافِي وَالْمُبْتَلِي ، لا شريك له)) اهـ .

وقد كان أهلُ الجاهلية طبائعيين . أي إنهم يَعتقدون بالنفع والضُّر الاستقلالي ، وأن الأشياء تنفع وتضرُّ بِطَبْعها . وكانوا يَعتبرون التمائم تَنفع بذاتها ، وبشكل استقلالي ، ويَعتقدون أنها قادرة على جلب النفع ودفعِ الضُّر . وهذا ضلالٌ مُبين . فالنافعُ والضَّارُّ هو الله وَحْدَه . وَكُلُّ ما سِوى اللهِ تعالى مُلْكٌ لله ، واللهُ يتصرَّف في مُلْكه كيفما يشاء .

وَرَوى ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٤٥٦) أن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ الرُّقى وَالتَّمائمَ والتِّوَلةَ شِرْكٌ)) .

فالرُّقى محظورةٌ إذا كانت محتويةً على شِرْك ، أو إذا اعْتُقِدَ أنها تنفع وتضرُّ بذاتها . والتمائمُ محظورةٌ لأنها شِرك . والتِّوَلةُ شِرْكٌ . وهي شَيءٌ تَصْنعه النِّساءُ يَتَحَبَّبْنَ إلى أزواجهن ، وهي نوعٌ من السِّحر .

---

(١٨٣) قال إبراهيم أبو عواد في فلسفة المعلَّقات العشر (ص ٢٤٢و٢٤٣) : ((يقولُ الشاعرُ امرؤ القَيْس :

فمِثلِكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ فَأَلْهَيْتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ

والشاعرُ يَذْكر أنَّ هذه المرأة التي تربطه بها علاقة غرامية ، قَد عَلَّقت على ابْنِها العُوذة (التميمة)، وذلك من أجل حِفظه من الشرور والمخاطر ، وجلبِ السعادة له . وهذا يدل على حِرْص الأمهات على أبنائهن ، وتفكيرهنَّ الدائم بمصلحة فلذات أكبادهنَّ ، وقد أدى هذا الحِرْص الأعمى إلى الإيمانِ بالخرافات (التمائم) بلا تفكير . وكما قِيل : صاحب الحاجة أَرْعَن)) اهـ .

وهذه الأشياءُ الثلاثة مِن الشِّرك ، بسبب الاعتقاد أنها تجلب المنافع وتَدْفع الأضرار . والنافعُ والضَّارُّ هو الله وَحْدَه .

وعن عُقْبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: ((مَن عَلَّقَ تميمةً فلا تَمَّمَ اللهُ له))[184].

وفي مسند أحمد (٤/ ١٥٦) أن النبي ﷺ قال : ((مَن عَلَّقَ تميمةً فقد أشركَ)) .

لقد كانوا يَعتقدون أن التميمةَ تحملَ الخيرَ والصلاحَ لهم ، وأنها تجلبَ المصالحَ وتَطْرد المفاسدَ ، وأنها الدواء الشافي ، والشفاء التام . وقد اعتبرها الشَّرْعُ شِرْكاً لأنها طَلَبٌ للخير ودَفْعٌ للشر مِن عند غير الله تعالى . واللهُ ـ وَحْدَه ـ القادرُ على جلب الخير ، ودفعِ الشر .

ومن الأشياء العجيبة في عالَم التمائم الجاهلي ، تعليقُ سِن الثعلب ، وَسِن الهِرَّة ، وحَيْض السمرة . فقد كانوا يَزْعمون أن الصبي إذا خِيفَ عليه نظرة أو خطفة ، فَعُلِّقَ عليه شيء من ذلك، سَلِمَ من آفته ، وأن الجنية إذا أرادته لم تَقْدر عليه . قالت امرأةٌ تصفُ ولداً :

كانت عليه سِنَّة مِن هِـرَّة وثعلب والحيضُ حَيْض السمرة [185]

وهذا الانهيارُ الشامل يدل ـ بكل وضوح ـ على انتكاسة العقل العربي ، وغرقه في مستنقع الأساطيرِ والخرافاتِ ، وخوفه من المستقبل المجهول . وفي ظل هذه الفوضى العارمة ، من الطبيعي أن تنشأ تراكيب فكرية غريبة ، ويتم إسقاطُها على الواقع المعاش بشكل عبثي ولا منطقي.

*

(١٨٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٦٣) برقم (٨٢٨٩) وصَحَّحه ، ووافقه الذهبي.

(١٨٥) صبح الأعشى للقلقشندي (١/ ٤٦٢) .

الاعتقاد بتأثير النجوم والكواكب

لقد كان الفكرُ الجاهلي غارقاً في عوالم الوهم والأساطير والأهواء والآراء المعارِضة للعِلم . والاعتقادُ بتأثير النجوم كان راسخاً في البيئة العربية . حيث تم ربط الأشخاص بحركة الأجرام السماوية . فمثلاً ، كان الاعتقاد الجاهلي بوجود علاقة بين النجم وولادة رَجل عظيم وموت رَجل عظيم . وهذا البُعدُ الخرافي نتج بفعل الثقافة الأسطورية الوهمية التي كانت تَحكم حياةَ العرب المحصورين في صحراء مغلقة ، والمعزولين عن المعرفة الحضارية .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٥٠) : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : أخبرني رَجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنهم بينما هُم جُلوس لَيلةً مع رسول الله ﷺ رُمِيَ بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ : ((ماذا كُنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمِيَ بِمِثْل هذا ؟))، قالوا : الله ورسوله أعْلم، كُنَّا نقول: وُلد الليلة رَجل عظيم ومات رَجل عظيم ، فقال رسول الله ﷺ : ((فإنها لا يُرمَى بها لموت أحد ولا لحياته)) .

نلاحظ أن البيئة الجاهلية قد أَفْرزت ارتباطاتٍ غير منطقية بين عالَمِ النجوم ، وعالَمِ الإنسان . فكانوا في الجاهلية يَعتقدون أنه إذا رُمِيَ بنجمٍ ، فإن رَجلاً عظيماً وُلد في تلك الليلة ، ومات فيها رَجل عظيم . وهذا الارتباطُ الوهمي قائمٌ على ربطِ لمعان النجوم بالأشخاص اللامعين في المجتمع . وبالتأكيد، هو رَبْطٌ لا دليل عليه ، وإنما يَقوم على الهوى ، ويستند إلى منظومة الخرافات الجاهلية .

وعن المغيرة بن شُعبة ــ رضي الله عنه ــ قال : كُسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يَوْمَ مات إبراهيم ، فقال الناس : كُسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله ﷺ : ((إن الشمس والقمر لا يَنْكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم فَصَلُّوا وَادْعُوا الله))[186].

وهذا الرَّبطُ بين كسوف الشمس وموت إبراهيم ــ رضي الله عنه ــ ، إنما هو من تأثير الجاهلية ، فقد كان أهلُ الجاهلية يَعتقدون أن الشمس لا تُكسَف إلا لموت شخصٍ عظيم . وهذا يدل على إيمانهم بتأثير الكواكب في الأرض . وقد أبطلَ الإسلامُ هذه الأوهامَ .

---

(١٨٦) متفق عليه . واللفظ للبخاري (١/ ٣٥٤) ، ومسلم (٢/ ٦٣٠) .

وكان بعضُ أهل الجاهلية يُعظِّمون الشمسَ والقمر ، ويعتقدون أن لهما تأثيراً في عالَم الإنسان. فَبَيَّن الشرعُ أنهما مِن خَلْق الله تعالى، يَطْرأ عليهما النقص والتَّغيُّر كما يَطرأ على باقي المخلوقات .

وفي عمدة القاري (٧/ ٦٥) : ((وقال الخطابي : كانوا في الجاهلية يَعْتقدون أن الكسوف يُوجِب حُدوث تغيُّر في الأرض مِن مَوْت أو ضَرَر)) اهـ .

وهذا يُشير إلى سيطرة الأوهام على العقل العربي الجاهلي ، وحرصه على رَبْط الآيات الكَوْنية بعالَم الإنسان ، وجعلها ذات تأثير في الحياة والموت . وهو اعتقادٌ باطل ، فالشمسُ والقمرُ آيتان مِن آيات الله الباهرة ، ولَيْس لهما قُدرة على جلب منفعة ، أو دَفْع مضرَّة .

وهناك أشخاصٌ يَرْبطون الحالة الجوية بالكواكب متجاهلين قُدرة الله تعالى .

ففي الحديث الشريف أن الله تعالى قال : ((أصبحَ مِن عِبادي مُؤمن وكافر ، فأمَّا مَن قال : مُطِرْنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي ، وكافر بالكوكب ، وأمَّا مَن قال : بِنَوْء كذا وكذا ، فذلك كافر بي ، ومؤمن بالكوكب))[187].

وهكذا تتجلى أهميةُ رَدِّ الفضل إلى صاحب الفضل ، وهو الله وَحْدَه . فالمطرُ إنما هو مخلوقٌ ، خلقه اللهُ تعالى ، وأنزله على عباده رَحمةً بهم . والفضلُ كُلُّه لله تعالى . ولا علاقة للكواكب بتكوين المطر وإنزاله ، كما كان يَعتقد بعضُ أهل الجاهلية .

وَمَن قال : مُطِرْنا بِنَوْء كذا ، معتقداً أن الكوكب هو الفاعل المنشِئ للمطر ، فهذا كافرٌ ، ولا شَكَّ في كُفره . أمَّا لو قال : مُطِرْنا بِنَوْء كذا معتقداً أن الله هو خالق المطر ومُنْزِله، فهذا لا يَكْفر .

---

(١٨٧) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٩٠) برقم(٨١٠) ، ومسلم (١/ ٨٣)برقم (٧١) .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٦١) أن ابن الصلاح قال : ((النَّوْءُ في أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء النجم يَنوء نَوْءاً، أي : سقط وغاب . وقيل : أي نهض وطلع . وبيان ذلك أن ثمانية وعشرين نجماً معروفة المطالع في أزمنة السَّنة كلها ، وهي المعروفة بمنازل القمر الثمانية والعشرين، يسقط في كل ثلاثة عشرة ليلة منها نجم في المغرب مع طلوع الفجر ، ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته. وكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلى الساقط الغارب منهما)) .

وقال ابن سلام في غريب الحديث (١/ ٣٢١) : ((فكانت العرب في الجاهلية إذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا : لا بد أن يكون عند ذلك مطر ورياح ، فينسبون كل غيث يكون عند ذلك إلى ذلك النجم الذي يسقط حينئذ فيقولون : مُطِرْنا بِنَوْءِ الثُّريا والدَّبَران والسِّماك)) اهـ .

والعربُ في الجاهلية لا يَنْسبون الفضلَ إلى الله تعالى ، فَهُم غارقون في دُنيا الأسباب ، ولا يَرَوْنَ قُدرةَ الْمُسَبِّبِ _ سُبحانه وتعالى _ . لذلك كانوا يَنسبون الظواهرَ الكَوْنية إلى النجوم والكواكب ، مع العِلم أن الله وَحْدَه هو المتحكِّم في الكَوْن ، والمتصرِّف في كُل المخلوقات . وكلُّ ما سِوى اللهِ تعالى هُوَ مُلْكٌ لله تعالى . وأيُّ شيء يَقع في مُلْكِ الله إنما هو بِعِلْمه وخاضع لإرادته .

وقال الفراهيدي في كتاب العَين (٣/ ٢٧): ((وكانت العَرَبُ في الجاهلية الجهلاء إذا نَظَرت إلى الهِلال قالت : لا مرحباً بِمُحِلِّ الدَّيْن مُقَرِّب الأَجَل)) اهـ .

ومن خلال هذا السياق ، يتَّضح أن العربَ كانوا مشغولين باختراع روابط بين الكواكب وحياةِ الإنسان . وهذا يُشير إلى سيطرة الأوهام المتوارَثة ، وانتشارها الواسع في البيئة البدائية .

وقال الثعالبي في ثمار القلوب (١/ ٥٧٠) : ((كانت العرب في الجاهلية الجهلاء إذا تتابعت عليهم الأزمان ، وركد فيهم البلاء ، واشتد الجدب ، واحتاجوا إلى الاستمطار ، استجمعوا ما قدروا عليه من البقر وعقدوا في أذنابها)) اهـ .

وهذا مؤشرٌ واضح على ربط المطر بعالَم الحيوانات . وقد كانوا في الجاهلية الأُولى (الجهلاء) إذا احتبسَ المطرُ، جَعلوا حَطَبَ السَّلَع في أذناب البقر، وأشعلوا فيه النارَ ، فتثور البقرُ . ويَزعمون أن ذلك من أسباب المطر . هكذا كان الاستسقاء في الجاهلية الجهلاء . وقد قال الشاعر :

أَجاعِلٌ أَنْتَ بَيْقوراً مُسَلَّعَةً ذَريعةً لكَ بينَ اللهِ والمطَرِ[188]

ويتضح لنا أن الاعتقاد بتأثير النجوم والكواكب ظاهرة حياتية سائدة في الجاهلية . وعملية تحليلها تستدعي إلماماً بالجزئيات الاجتماعية للأيديولوجية الوثنية، وإحاطةً بالجانبين السياسي

---

(١٨٨) قال الرازي في مختار الصحاح (١/ ٧٣) : ((وأهل اليمن يُسَمُّون البقرة بَاقُورةً)) اهـ .
المسَلَّعَةُ : جماعةُ البَقَرِ التي يُعَلَّقُ في أَذنابِها من حَطَب السَّلَعِ .

والاجتماعي للظواهر الحياتية . والتدفق الفكري المقنَّن والخاضع لحاكمية الاستبداد ، يتم تقديمه على شكل عقيدة لازمة ومُلْزِمة .

ولأن تاريخ الجماعة البدائية تم الاستحواذ عليه وتسييره نحو شَرْعنة الوجود الاحتلالي للنظام الحاكم باسم الآلهة ، وجدنا تناقضات صارخة بين المعطيات الفكرية على جميع الأصعدة. وبما أن القيادة المجسِّدة لمركزية السُّلطة مشغولة بتدجين الشعب، كان على الشعب تأسيس حكومة ظل عُرفية في الأذهان أملاً في تغيير الواقع المزري . وصورة المنظومات الاجتماعية مقتصرة على إحاطة الجماعة بهالة صنمية ، وتغليف الفكر الاجتماعي بشرنقة الولاء الأعمى للسياف المرتدي لباس الحمل الوديع . والعقلانيةُ الرافضة للوضع الاجتماعي بِرُمَّته لا مكان لها في العقل السُّلطوي ، وهذا ينعكس على الشعب الذي تغيب عن أدبياته منهجية إعمال العقل . فكل شيء مُسخَّر لخدمة الطاغوت ، وتحقيقِ هَوَسه الدكتاتوري ، وإشباعِ رغباته النَّرجسية ونزواته الجنونية .

والبنيةُ التحتية ، والبنيةُ الفَوقية ، والأوثانُ المقدَّسة ، والبشرُ الْمُدَجَّنون، والتاريخُ المصطنَع، والثرواتُ، والمشاعرُ الإنسانية، والولاءُ الأعمى،والانتماءُ المصلحي. كل هذه العناصر تتم أدلجتها وتسخيرها بشكل تام للانصياع لأوامر الدكتاتور الذي يراه الناس إلهاً يُحلِّل لهم الحرام ، ويُحرِّم عليهم الحلال ، وهذه قمة محاربة الله تعالى .

وهناك تشظيات هائلة في السياق غير المنطقي الذي يتبلور في المؤسسة الحاكمة ، وبالطبع فهذه المؤسسة تنتج تاريخاً خصوصياً ذا تركيبة عجائبية ، تجبر الآخرين على الانخراط في مشروعها الوثني المعادي للانطلاقات الروحية وسعيها نحو إيجاد موقعها الطبيعي في ظل شريعة سماوية خالية من التناقض المتكاثر في عقائد العرب الجاهليين . والمكوِّنات الأولية للنسق الظواهري البدائي ، ما هي إلا تعبير عن انهيار مشروع الكيانات السياسية المنسحب على حياة الفرد العادي ، وهذه السلسلة من الانهيارات تُحيِّد القدراتِ العقلية للإنسان . وهذا التحييد المقصود عبارة عن طَوْر من أطوار حَيْوَنة الإنسان ، وتحويله إلى آلة ميكانيكية لتفريخ الانكسار والذعر وتقديس غير المقدَّس .

إن آليات تحويل الأنساق التاريخية إلى عقائد هجينة ، تعمل وفق مبدأ انفلات السُّلطات الشَّعْبوية ، وتحطيمِ سيادتها على نفْسها لصالح الخضوع لهيمنة الحاكمية البدائية . والبحثُ عن العناصر التفسيرية للظواهر الاجتماعية ، يمر عبر مراقبة الانفجارات الذهنية في المسار التاريخي

للأفراد ، وفحصِ المبادئ الفكرية المتناقضة داخل الفرد وخارجه ، وتحليلِ كُتلة المنتَجات الثقافية غير الواعية .

وتتعارض قوى الإنتاجية الانقلابية مع مسار الأطروحات الخاضعة لفلسفة الهزيمة الذاتية التي يبثها زعماء القبائل في أتباعهم . فهؤلاء الزعماء يعملون وفق مسارَيْن متكاملين ، مسار في داخل الجماعة يعتمد على قمع الشعب ، وإشعاره بالهزيمة كي يظل ساجداً لأوامر شيخ القبيلة الذي يَحكم بالحديد والنار والقوةِ الاعتبارية المرجعية (القوة الناعمة) . ومسار خارجي يستند إلى بث روح الانتماء والولاء المطلقَيْن للمرجعية الطاغوتية ، والافتخارِ بالقبيلة بخَيْرها وشَرِّها ، وحمايةِ رابطة الدم من العوامل الخارجية والتحديات المصيرية ، كالصراعِ بين القبائل على الماء والكلأ ، والغزوِ الذي تعوَّد عليه العرب الوثنيون .

وضمن دائرة انهيار التجسيد الفكري للهزيمة والنصرِ ، واللانتماءِ في الداخل مقابل استحضار الانتماء المطْلق في حال المواجَهة مع الخارج ، يتضح حجم المأزق الوجودي الذي وُضع فيه الشعب المدجَّن المقيَّد بسلاسل الثنائيات المتضادة، والإرهاصاتِ الاقتصادية المتخذة طابعاً عَقدياً ، والتي تُحدِّد جزءاً كبيراً من حجم الظاهرة الاجتماعية الانكسارية ، وجانباً مهماً من مسارها .

وبنائية الظاهرة الاجتماعية الوثنية هي أطروحة واقعة في إطار التجريد الحاد المنسلخ عن قيم الحق والعدالة . والوقائع الاجتماعية المعقَّدة هي فلسفة التساقط الإنساني رُوحياً ومادياً . وهذا التساقط ليس خيالاً منفصلاً عن الواقع . إنه قلب الواقع المسيطَر عليه مِن قِبَل القوى الظلامية .

وينبغي أن ندرك التكوينات الفلسفية التجسيدية للظاهرة الاجتماعية قبل أن نقتحمها ، لأن الظاهرة الاجتماعية لا تتمتع باستقلالية ذاتية قائمة بنفْسها ، فهي ذات جوانب متعددة مُوزَّعة بين الجوانب الفكرية والسياسية والاقتصادية . وفي هذا السياق ، لم يُذْكَر الجانب الدِّيني ، لأن الدِّينَ الوثني خليط عبثي من كل الجوانب الحياتية والإرهاصاتِ المعاشة . وهو دِين أرضي وَضْعي منفصل بالكُلِّية عن السماء .

إن التكنولوجيا الدينية الزائفة في التجمعات الجاهلية ، تتَّخذ طابعاً استغلالياً طبقياً ، إذ يتم احتكار الوطن وعناصره وتوجيهه لخدمة الطاغوت وعِلْية القوم. ولأن المشروع الوثني يستند إلى تِقنية القمع وتفريغ الإنسان من محتواه ليظل خاضعاً للمَوْروث، وجدنا حُرَّاسَ الحاكمية الوثنية يَعزلون الحيادية عن مسار الجماعة ، فمن ليس معهم فهو ضدهم، وهذه ذريعة رسمية متداولة

لتصفية الفرد فكرياً وجسدياً . أمَّا المراحل التي تمر بها عملية التصفية ، فهي تختلف باختلاف إمكانيات الفرد المناوئ للفكرة السُّلطوية للمَوْروث . وبالتالي تصير القبيلة منظمة سرية تقتل باسم الحرية ، وتُبيد باسم الآلهة .

والتكتلات الاجتماعية العائشة كالطفيليات على هامش الوجود البشري ، هي تنظيمات عشائرية خالية من وضوح الهدف السامي . وهذه التكتلات تسعى إلى إيجاد نصيب لها في الكعكة الجاهلية المسمومة ، وتثبيتِ أقدامها وأقدام أتباعها العميان في هذه الحفلة الشيطانية المسماة المشروع الوثني . وبالتحليل المنطقي الانقلابي ، يتضح لنا أن الظاهرة الاجتماعية يتم حقنها بالعمومية الانتشارية ، لكي يتم قتلُ الثقافة السياسية في النفوس ، ووأدُ المعطيات الإنسانية الرامية إلى التغير والتغيير ، وخنقُ رُوح الفردِ والجماعة . وهذا المجتمعُ الخانق ينفي كلَّ شيء ، لدرجة أنه ينفي نفْسه تدريجياً . وهذا هو الانتحار التدريجي الفظيع .

وبناء الدولة الطاغوتية المركزية يُشيَّد على أنقاض الكَينونة البشرية . والتموجاتُ النُّخبوية الخاضعة لسُلطة الموروث الغارق في تكريس التخلف والتبعية لِحُكم السيف ، ما هي إلا انسحابٌ انسلاخي عن المسار الحضاري الإنساني ، وتجريدٌ لدور الفرد من كل المعاني الراقية .

والعُزلةُ المفروضة على القيم السلوكية للإنسان ليس لها أساس منطقي ، وإنما تُقدَّم وفق أساس عبثي يعتمد على تحييد المشاعر والعقلانيةِ من أجل الانقضاض على الخبرة الزمنية التراكمية في عقل الفرد. واصطناعُ الخطاب اللاأخلاقي وقَوْلبته في حَيِّز الفكر الاقتصادي هو مُجانَبة للصواب ، لأن الاقتصاد خاضع للسياسة والسياسة خاضعة للدِّين. حتى في التجمعات الصنمية التي دِينها اللادين، فإن سياسة الجماعة وسياسة الفرد تخضعان في العقل الباطن للمُقدَّس الوثني .

واللوثةُ الجاهلية المتعلقة بتأثير النجوم والكواكب على حياة الإنسان، قد وَصَلت إلى الْمُنجِّمين الذين ظَهَروا العصور الإسلامية .

وقد أشارَ الشاعرُ أبو تمام في قصيدته الشهيرة عن فتح عَمُّوريَّة إلى أكاذيب الْمُنجِّمين الذين يَعتقدون بتأثير النجوم والأبراج والكواكب على حياة الإنسان ، فقال :

أيْنَ الرواية ؟ بل أينَ النجومُ وما ... صاغوه مِن زُخرفٍ فيها ومِن كَذبِ
تخرُّصاً وأحاديثاً مُلَفَّقــةً ... لَيستْ بنبعٍ إذا عُدَّت ولا غَرَبِ
عجائباً زَعموا الأيامَ مُجْفلـة ... عنهن في صَفَرِ الأصفارِ أو رَجَبِ

وخَوَّفوا الناسَ مِن دَهياءَ مُظلمةٍ إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذنبِ
يَقضونَ بالأمرِ عَنها وهي غافلة ما دارَ في فلكٍ مِنها وفي قطبِ

لقد أشاعَ المنجِّمون البلبلةَ ، وخَوَّفوا من الاتجاهِ إلى عَمُّورية . وتحدَّثوا عن أمور عظيمة ستحدث في صَفَر أو رَجب ، حِين يبدو على الأفق الغربي كوكب مُذنَّب ، مؤكدين أنهم فيما زعموه إنما يستنطقون النجومَ ، ويأخذون علومهم منها ، ويَنقلون عنها أموراً غيبية ستحدث في المستقبل .

وقد اتَّضح كذبُهم، وأنهم يؤلفون القصص الخيالية التي لا نصيب لها من الصِّحة أو المصداقية . والشاعرُ في الأبيات السابقة يسخر منهم ، ويَفضح كذبَهم ، ويُفنِّد مزاعمهم الباطلة .

التلاعب بالأشهر الحُرُم

يُوضِّح القرآنُ جهلَ العرب قبل الإسلام وتحكيمهم لأهوائهم وشُبهاتهم، وغياب المنهج الإيماني عن حياتهم . فهم يُخضعون شريعتهم لضغط الواقع المادي . فإذا تعارضت مصلحتهم الشخصية مع طقوسهم الدينية ، فإنه يتم التلاعب بهذه الطقوس وتمييعها بحيث تتلاءم مع مصلحتهم . ومن الأمثلة البارزة على هذا التلاعب ، تغيير الأشهر الْحُرُم بسبب وقوفها سَدَّاً منيعاً في وجه أهوائهم ، ونفوذهم ، ومصالحهم المادية .

قال اللهُ تعالى : ﴿ إنما النسيء زيادة في الكُفر يُضَل به الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً ﴾[التوبة : ٣٧] .

النَّسيءُ هو التأخير . والآيةُ تتحدث عن تلاعب عرب الجاهلية بالأشهر الْحُرُم ، حيث كانوا يُؤخِّرون الأشهر الْحُرُم إلى أشهر الحِل ، ويستحلُّون فيها القتال . فالْمُحَرَّمُ شهرُ اللهِ الحرامُ ، كانوا يُحرِّمون فيه القتالَ ، فإذا احتاجوا إلى القتال ، حَرَّموا صَفَرَاً بدلاً مِنه ، وقَاتَلوا في المحرَّم .

وسببُ هذا التلاعب هو أن العرب كانوا عائشين على الغزو والغزو المضاد ، فكان من الصعب عليهم أن يَظلوا ثلاثة أشهر متوالية (ذو القِعدة ، ذو الحِجَّة ، المحرَّم) بلا غَزْوٍ ولا نَهْبٍ . وكانوا يَعتقدون أن هذا التوقف عن الغزو سَيُؤدِّي إلى هلاكهم . وهكذا ، انبثقت فكرةُ التلاعب بالأشهر الْحُرُم .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦٩) : ((هذا مما ذَمَّ اللهُ تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حَرَّم اللهُ، وتحريمهم ما أحلَّ اللهُ ، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والْحَمِيَّة ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أَحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرَّم ، فأَخَّروه إلى صَفَر ، فيُحِلُّون الشهرَ الحرام ، ويُحرِّمون الشهرَ الحلال)) اهـ .

إن الأشهر الْحُرُم عند الله تعالى أربعة: ذو القِعْدة ، ذو الْحِجَّة ، المحرَّم ، رَجَب. فَيَحْرم فيها القتالُ ، وهذا الأمرُ ثابتٌ في الجاهلية والإسلام بلا اختلاف. وقد كان العربُ في الجاهلية يُحرِّمون القتالَ في الأشهر الْحُرُم .

وفي الدر المنثور (٣/ ٢٠٢) : ((عن ابن زيد قال : كان الناس كلهم فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، ولم يكن في العرب ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، فجعل اللهُ لهم البيتَ الحرام قِياماً يدفع بعضهم عن بعض به، والشهر الحرام كذلك، يدفع اللهُ بعضهم عن بعض بالأشهر الْحُرُم والقلائد ، ويَلقى الرَّجلُ قاتلَ أبيه أو ابن عَمِّه ، فلا يَعْرض له)) اهـ .

لقد كان أهلُ الجاهلية يعيشون على الغارات والغزو فيما بينهم . فالاقتصادُ الجاهلي قائمٌ على أساس الإغارة على الآخرين ونهب ما يمكن نهبه . فإن احتاجوا إلى القتال في شهر حرام قاموا بتحليله والقتال فيه ، ثم تحريم شهر آخر مكانه. وبما أن هناك ثلاثة أشهر حُرُم متوالية ، وهي ذو القِعْدة ، ذو الحِجَّة ، المحرَّم . فإن هذه المدة الطويلة كانت تعيق مشاريعَ الغزو والنهب ، وهذا يعني انهيار عائداتهم المادية من الغارات ، لذلك لجأوا إلى التحايل باختراع النسيء (التلاعب بتحريم وتحليل الأشهر) . مما يشير إلى أن المنفعة الذاتية أدَّت إلى قيام العرب بتغيير أحكام الأشهر الْحُرُم ، يعني إخضاع الشريعة المتعارف عليها لسُلطة المصلحة المادية الدنيوية .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال عن أهل الجاهلية : ((ويجعلون المحرَّم صَفَراً))[189].

وقد كانوا يقومون بهذا الفعل القبيح لئلا تتوالى عليهم ثلاثة أشهر وهم ممنوعون من القتال . فاخترعوا هذه الحِيلة لتحقيق مصالحهم الشخصية ، ولئلا تضيق أمورهم المادية التي يحصلون عليها من الغارات . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢٥) : ((وكانوا في الجاهلية على أنحاء، منهم مَن يُسمِّي المحرَّم صَفراً فَيُحِلُّ فيه القتالَ ، ويُحرِّم القتالَ في صَفر ويُسَمِّيه المحرَّم . ومنهم من كان يجعل ذلك سنة هكذا وسنة هكذا ، ومنهم من يجعله سنتين هكذا وسنتين هكذا ، ومنهم من يُؤخِّر صَفراً إلى ربيع الأول وربيعاً إلى ما يليه ، وهكذا إلى أن يصير شوال ذا القِعدة ، وذو القِعدة ذا الحِجَّة ، ثم يعود فيعيد العدد على الأصل)) اهـ .

وعن أبي بَكْرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال : ((الزمانُ قد استدار كهيئته يوم خلق اللهُ السماواتِ والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متواليات : ذو القِعدة وذو الحِجَّة والمحرَّم ورَجَب مُضر الذي بين جُمادى وشعبان))[190].

---

(١٨٩) متفق عليه . البخاري (٢/٥٦٧) برقم (١٤٨٩) ، ومسلم (٢/٩٠٩) برقم (١٢٤٠) .

(١٩٠) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٦٨) برقم (٣٠٢٥)،ومسلم (٣/ ١٣٠٥) برقم (١٦٧٩).

وقد كان أهلُ الجاهلية مؤمنين بالأشهر الْحُرُم ، ومتمسكين بحُرمتها ومكانتها الجليلة ، وتحريم القتال فيها . لكنَّ الغزو _ الذي كان مَوْرداً اقتصادياً أساسياً _ جعلهم يتلاعبون بالأشهر الْحُرم تقديماً وتأخيراً ، وذلك لكي يَخرجوا من الحرج وإثمِ القتال في الشهر الحرام .

ومن فَرْط تقديم الأشهر وتأخيرها ، اختلط عليهم الأمر ، وعجزوا عن تحديد الأشهر . وقد أخرجهم النبيُّ ﷺ من المتاهة التي غَرقوا فيها ، فحدَّد ﷺ الشهرَ الحرام كما حَكم اللهُ تعالى به يومَ خلقَ السماواتِ والأرض .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ١٦٨): ((فقال العلماء: معناه أنهم في الجاهلية يتمسكون بِملة إبراهيم ﷺ في تحريم الأشهر الحرم ، وكان يشق عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات ، فكانوا إذا احتاجوا إلى قتال أخَّروا تحريم المحرَّم إلى الشهر الذي بعده وهو صَفَر ، ثم يؤخرونه في السنة الأخرى إلى شهر آخر ، وهكذا يفعلون في سنة بعد سنة حتى اختلط عليهم الأمر ، وصادفتْ حَجَّةُ النبي ﷺ تحريمهم وقد تطابق الشرع ، وكانوا في تلك السَّنة قد حرَّموا ذا الحِجَّة لموافقة الحساب الذي ذكرناه ، فأخبر النبيُّ ﷺ أن الاستدارة صادفتْ ما حَكَمَ اللهُ تعالى به يوم خَلَقَ السماواتِ والأرض)) اهـ .

وقال ابن سلام في غريب الحديث (٢/ ١٥٩و١٦٠) : ((عن مجاهد قال : كانت العربُ في الجاهلية يَحُجُّون عامَيْن في ذِي القِعدة ، وعامَيْن في ذي الحِجَّة ، فلمَّا كانت السَّنة التي حَجَّ أبو بكر فيها قبل حَجَّة النبي ، كان الحج في السنة الثانية في ذي القِعدة ، فلمَّا كانت السنة التي حَجَّ فيها النبي _ عليه السلام _ في العام المقبل عاد الحج إلى ذي الحِجَّة)) اهـ .

وهذا يُفسِّر قَوْلَ النبي ﷺ : ((الزمانُ قد استدار كهيئته يوم خلق اللهُ السماواتِ والأرض)). أي إنَّ الأشهر قد ثَبَتَت كما أرادها اللهُ تعالى ، وانتهى عصرُ التلاعب بالأشهر الْحُرُم ، وتوقَّفت الأيدي العابثة بها . وثَبَتَ الحجُّ في ذِي الحِجَّة ، وهذا هو مُراد الله تعالى . وهذا الأمرُ ثابتٌ إلى يوم القيامة ، ولا مجال للتلاعب به .

*

قتلُ النَّفْس

إن الجاهلية عملية قتل متواصل. قتلٌ للأنساق الروحية تم تتويجه بالقتل المادي . فلم يكن هناك أدنى احترام للنفس البشرية . فالإنسانُ قد يُقتَل لسبب تافه ، أو حسب مزاج أحدهم .

وقد كان القتلُ والقتالُ عمليةً أساسية في العقلِ العربي، والبيئةِ الجاهلية البدائية . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، كانت هناك حروبٌ كثيرة بين الأوس والخزرج [191] ، وأيضاً حرب داحس والغبراء [192] التي نشبت بسبب سباق بين فَرَسَيْن .

كما أن القتل في الجاهلية يَحمل ملامحَ الإبادة الجماعية التي لا تُبقي ولا تَذَر . وهذا يتضح في الصورة الفنية التي رسمها الشاعر الجاهلي زُهير بن أبي سُلمى إذ يقول :

تَداركتُما عَبْساً وَذُبيانَ بَعْدَما تَفانَوا وَدَقُّوا بينهم عِطرَ مَنشمِ [193]

---

(١٩١) في تفسير الطبري (٣/ ٣٧٨) : ((قال ابن إسحق : كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومئة سنة ، حتى قام الإسلام وَهُم على ذلك ، فكانت حربهم بينهم وهم أخوان لأب وأُم ، فلم يُسْمَع بقوم كان بينهم من العداوة والحرب ما كان بينهم ، ثم إن الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ أطفأ ذلك بالإسلام ، وَأَلَّفَ بينهم برسوله محمد ﷺ)) اهـ .

(١٩٢) في سيرة ابن كثير (٢/ ١٨٧): ((وكان سببها فيما ذكره أبو عُبَيْد مَعْمَر بن المثنى و غيره : أن فرساً يقال لها داحس كانت لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة الغطفاني ، أجراها مع فرس لحذيفة بن بدر بن عمرو بن جؤية الغطفاني أيضاً ، يقال لها الغبراء ، فجاءت داحس سابقاً ، فأمر حذيفة من وجهها ، فوثب مالك بن زهير فلطم وجه الغبراء ، فقام حمل بن بدر فلطم مالكاً ، ثم إن أبا جنيدب العبسي لقي عوف بن حذيفة فقتله ، ثم لقي رَجل من بني فزارة مالكاً فقتله ، فشبَّت الحرب بين بني عَبْس وفَزَارة)) .

(١٩٣) قال إبراهيم أبو عواد في فلسفة المعلَّقات العشر (ص ٦٩) : ((يُخَاطِب سَيِّدَيْن من سادات العرب (هَرِم بن سنان والحارث بن عَوْف) ، ويُورِد ذِكْرهما الضمني في سياق المدح ، ويُخلِّد هذا الذِّكر إلى الأبد بسبب دورهما البارز في إنهاء الحرب الطاحنة بين قَبيلة عَبْس وقبيلة ذُبيان. وهنا يتضح دورُ الشاعر في دعم مسيرة السلام ، ووقف شلال الدم الذي جرفَ الأخضرَ واليابسَ . فهو مِن دُعاة الحوار واللاعنف ، وقد حوَّل رسالته الشِّعرية إلى قضية إنسانية ، تساهم في إصلاح العلاقات بين = =القبائل ،

وتكوين مجتمع متسامح يحتكم إلى قوة اللغة لا لغة القوة . وفي هذه الحالة يصبح الشِّعرُ رسولَ سلامٍ ، وباعثاً على الأمن والأمان .

تلافيتما أمر هاتين القبيلتين، وقُمتما بانتشالهما من مستنقع الدماء، ولحقتما بهما في آخر لحظة (قبل أن تقعا في الهاوية السحيقة). فالقتلُ وصلَ إلى مستويات غير مسبوقة، وقد أفنى القتالُ رجالهما. إنه القتالُ حتى آخر رَجل . تواصلَ مسلسل القتل حتى النهاية . وهذه الحربُ الطاحنة حَصدت أرواحَ الرجال ، ورَمَّلت النساءَ ، ويتَّمت الأطفالَ ، وقضت على الممتلكات المادية ، وتسبَّبت بكوارث اجتماعية وسياسية واقتصادية في المجتمع العربي. ومن خلال هذا المنظور ، يلتصق معنى الحرب بمعنى الفناء والنهاية المؤلمة .

وقَوْلُه " دَقُّوا بينَهم عطرَ مَنشم " يَحمل إشارةً بليغة ومؤلمة إلى أن القتال أتى على آخرهم كما أتى على آخر المتعطرين بعطر مَنشم .

و " مَنشم " امرأةٌ عطارة، اشترى قومٌ منهم عِطراً ، وتحالفوا على قتال العدو، فقُتلوا عن آخرهم، فتطيَّر العربُ بعطر مَنشم . وصار رمزاً للتشاؤم لأنه يَحمل في الذاكرة العربية معنى القتل والفَناء .

وفي هذا السياق يَظهر معنى العلاقات التي كان العربُ يخترعونها ، ويَبنون عليها نسقاً فكرياً واجتماعياً ، ويربطونها بنتائج عقلية ، وتطبيقات واقعية . وهذه العلاقاتُ متأثرة إلى حَد بعيد بالمناخ الوثني ، وإقحام الأصنام بثنائية الأسباب والمسبِّبات . فالمجتمعُ الجاهلي مُلوَّث بالطقوس الخفية ، فيكثر فيه السِّحرُ والشَّعوذة والكِهانة والتَّطيُّر (التشاؤم) . وهذه القضايا ظهرت ونالت شرعيةً شعبية بسبب الجهل المتفشي في البيئة العربية . فهذه العوالم المستترة هي انعكاس لقلق الفرد الجاهلي وارتباكه الروحي في مجتمع يستمتع بغرقه دون وجود طَوق نجاة . ولأن التجمع الجاهلي كان يفتقد إلى المعرفة والبُنيةِ الحضارية والثقافةِ التنويرية ، لَجَأَ إلى العوالم الغامضة اللامنظورة ذات الطابع السحري .

العلاقةُ الأولى تتمحور حول شراء العِطر من قِبَل أشخاص يريدون التعاقد والتحالف ، وجعلهم آية الحِلف هي غمسهم الأيدي في ذلك العِطر . وهذا الطقسُ غريب ، فلا يوجد رابطٌ منطقي بين الحِلف والعِطر . ومع هذا فقد رُبطت آية الحِلف بغمس الأيدي في العِطر ، وهذه العمليةُ تأتي في سياق التأثر بعالَم القرابين والكهانة والتطير .. إلخ .

العلاقةُ الثانية هي التي بناها العربُ على حادثة عابرة ، وهي مقتل هؤلاء الرِّجال (الذين تعطَّروا بعِطر منشم) عن آخرهم . لقد قام العقلُ العربي الجمعي بربط حادثة قتلهم بالعِطر ، وإدخال هذا الأمر ضمن السبب والمسبِّب أو الفعل والنتيجة. وانبثق من هذه العملية فلسفةُ التطير وثقافة التشاؤم.=

إن عَبساً وذُبيان دخلتا في حرب شَعْواء حتى تفانى الرِّجال من كثرة القتل . وهذه الصورة البليغة تدل على شراسة القتل في الجاهلية ، وأنه يتم انطلاقاً من العَصَبية القَبَلية وأهواءِ النَّفْس ، بلا وازع دِيني ، أو رادع أخلاقي .

كما أن القتل في الجاهلية لم تكن له ضوابط ، فيمكن أن يُقتَل البريء وينجو القاتل بِفِعْلته . وفي هذا دلالةٌ على قسوة الطبع العربي البدائي وخضوعه لشهوات الغضب والْحَمِيَّة والثأر والانتقام بلا حساب أو تفكير .

قال اللهُ تعالى : ﴿ فلا يُسرِف في القتل ﴾ [الإسراء : ٣٣] .

وهذه الآيةُ لَيْست دعوةً للقتل باعتدال، وإنما هي تتحدث عن قتل القاتل بلا زيادة أو نقصان. فلا يجوز أخذ البريء بجريمة القاتل . فلا يُقتَل بالمقتول ظُلماً إلا قاتله ، ولا أحد غير القاتل .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٧٤) : ((وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يفعلون ذلك ، إذا قَتَلَ رَجلٌ رَجلاً عَمِدَ وَلِيُّ القتيل إلى الشريف من قبيلة القاتل فقتله بِوَلِيِّه ، وترك القاتلَ ، فنهى اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ عن ذلك عباده)) اهـ .

والآيةُ تشتمل على ثلاثة معانٍ : الأول ــ عدم قتل غير القاتل . والثاني ــ لا يُقتَل اثنان بدل الواحد ، أو يُقتَل الشريف من قبيلة القاتل ، كما كان أهلُ الجاهلية يَفْعلون . والثالث ــ عدم التمثيل بالقاتل .

والفوضى العارمةُ في موضوع القتل في الجاهلية ، كانت نابعةً من الظلم ، والاحتكامِ إلى عقلية الثأر الأعمى والتَّشفي لا إقامة العدل . وقد بَيَّنَ الإسلامُ ــ بشكل واضح ــ أن القاتل وَحْدَه هو الذي يُقتَل ، ولا أحد غيره يتحمل مسؤوليةَ جريمته .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القِصاصُ في القتلى ﴾ [البقرة : ١٧٨].

إن الإسلامَ قد أسَّس العدالةَ في موضوع القتل ، وهو موضوعٌ شديد الحساسية ، وذو علاقة وثيقة بالأفراد والجماعات ، وله تأثير كبير في المجتمع البشري بِرُمَّته . فالقِصاصُ قد فَرَضَه

=وهكذا صار " عِطر مَنشم " مثلاً شهيراً ، وثقافةً اجتماعية يتناقلها الأجيالُ جيلاً بعد جيل . ودخل هذا التعبير " عطر منشم " في أشعار العرب ، وتراثهم الإنساني ، وحياتهم الاجتماعية ، وفلسفتهم الروحية ، ومعتقداتهم الدينية .

القرآنُ وثَبَّته حِفظاً لحقوق الناس ، وَلِكَيْلا يتحول المجتمع الإنساني إلى غابة ، يأكل فيها القويُّ الضعيفَ .

وفي الدر المنثور (١/ ٤١٩) عن قتادة قال : ((كان أهل الجاهلية فيهم بغي وطاعة للشيطان، فكان الحَي منهم إذا كان فيهم عددٌ فَقَتَلَ لهم عبداً عبدُ قومٍ آخرين ، فقالوا : لن نقتل به إلا حُرَّاً ، تعززاً وتفضلاً على غيرهم في أنفسهم ، وإذا قُتلت لهم أنثى قتلتها امرأةٌ، قالوا: لن نقتل بها إلا رَجلاً. فأنزل الله هذه الآية)) اهـ .

وهذا يُشير إلى عقلية التكبر والاستعلاء ، وسيطرةِ العَصَبية القَبَلية على التفكير والسلوكِ الاجتماعي . والفردُ في الجاهلية كان خاضعاً لإملاءات الجماعة ، ومستسلماً لإفرازات العقل الجمعي ، وغارقاً في العُقد النَّفسية النابعة من ضغط القبيلة . وكل هذه المؤثِّرات جَعَلَتْهُ رَجلاً آلياً يعيش كما يريد الآخرون لا كما يريد هُوَ .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ ولكم في القِصَاص حياةٌ يا أُولي الألباب لعلكم تتَّقون ﴾ [البقرة : ١٧٩].

إن تشريع القِصاص له حكمة بالغة . فقتلُ القاتل يؤدي إلى تطهير المجتمع من الجرائم وثقافة الحقد والثأر . كما أن هذه العقوبة الحاسمة سَتَرْدع الذين يُفكِّرون في قتل الآخرين خوفاً من أن يُقتَلوا . وبالتالي فإن الحياة البشرية على الأرض ستتألق وتستمر بلا خوف أو اضطراب . فكان القِصاصُ حياةً، أي إنه حفظَ حياة الآخرين ، وصانها من عبث العابثين ، وحمى المجتمعَ من الأزمات الخطيرة ، وانتشارِ الجرائم ، وثقافةِ الانتقام ، التي تُهدِّد الوجودَ الاجتماعي وتَعصف به .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٢٥٢) : ((وكانت العربُ إذا قَتل الرَّجلُ الآخرَ ، حَمِيَ قبيلاهما وتقاتلوا ، وكان ذلك داعياً إلى قتل العدد الكثير ، فلمَّا شَرع اللهُ القِصاصَ قنع الكلُّ به ، وتركوا الاقتتالَ ، فلهم في ذلك حياة)) اهـ .

وهذا يدل على الْحَمِيَّة الجاهلية وثقافة الثأر السائدة في البيئة العربية . فكان القتلُ في البيئة الجاهلية عبثياً ومجانياً وبلا ضوابط . فهو محكوم بشريعة الغاب والعنجهية القَبَلية . فكلُّ قبيلة تريد إثبات أنها الأقوى والأكثر نفوذاً ، وأن كلمتها هي العليا بين القبائل . ومن هنا كان الاحتكام للسيف والغزو والقتل العبثي . فقد كانوا يَقتلون غيرَ القاتل ، والجماعة بالواحد ، مما يؤدي إلى إزهاق أرواح الأبرياء ، وانتشار الأحقاد والفوضى الجارفة .

أمَّا في حالة القِصاص فلا يُقتَل إلا القاتل ، وبالتالي ينجو الآخرون من القتل ، وتزول الضغائن وحب الانتقام ، وهكذا تتكرس الحياة البشرية بلا تهديد ، ويَأمن الناسُ على حياتهم وممتلكاتهم . فالقتلُ أنفَى للقتل ، أي إن قتل القاتل سبب حياة الآخرين . وفي هذا السياق ، تبرز أهميةُ النظر إلى القضايا من كل الجوانب .

كما أن تطبيق القِصاص لا يكون إلا بأمر الحاكم (الحكومة) ، أو المسؤول الذي عَيَّنه الحاكمُ لهذا الشأن. ولا يجوز للناس أن يَقْتَصُّوا من بعضهم البعض ، لأن هذا يؤدي إلى إشاعة الظلم والفوضى في المجتمع ، وتحوُّل النسق الإنساني إلى مجتمع الغاب. فليس للناس أن يَأخذوا حُقوقَهم بأيديهم ، فهذا الأمرُ له آثار وخيمة تقضي على وجود الفرد والجماعة معاً .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾[الأنعام : ١٦٤] .

لا أحد يَحْمل ذَنْبَ غَيره ، ولا يُؤاخَذ الفردُ بأفعال الآخرين . فكل امرئ بعمله رهينٌ ، ولا تفارقه حسناته ولا سيئاته . وهذا هو العدلُ الإلهي المقدَّس الْمُنَزَّه عن الظلم ، وتحميلِ الناس فوق طاقاتهم ، وأخذِهم بآثام غيرهم . فالنقلُ والعقلُ متفقان على أن الإنسان يُجازَى بما كَسبت يداه ، وليس عليه خطايا الآخرين مهما كانوا قريبين منه . وهذا بالطبع لا يتنافى مع مبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ، وإرشاد الآخرين ، وتقديم النصح لهم ، والأخذ بأيديهم إلى سُبل الخير والنجاة والسعادة الدُّنيوية والأُخْرَوِيَّة .

قال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٤٠) : ((وقيل : إنها نزلت رداً على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرَّجل بأبيه وبابنه وبجريرة حَليفه)) اهـ .

إذن ، كلُّ فردٍ يتحمل مسؤوليةَ أعماله ، فالقاتلُ _ وَحْدَه _ هو الذي يُقتَل . فالذَّنْبُ ذَنْبُه لِوَحْده ، وليس ذَنْب أقاربه أو عشيرته .

وفي الجاهلية كان هناك فوضى عارمة ، حيث القتل الهمجي والقتال العبثي . وكان العربُ يَقتل بعضُهم بَعضاً ، ويُغِير بعضُهم على بعض ، ويَسْبي بعضُهم بَعضاً ، وأهلُ مكة آمنون بسبب وجودهم في حَرَمِ اللهِ تعالى .

قال اللهُ تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أنَّا جعلنا حَرَماً آمناً ويُتخطَّف الناسُ من حَوْلهم ﴾ [العنكبوت : ٦٧] .

والخِطابُ مُوَجَّهٌ إلى الكفار . ألم ينظروا كيف جعلنا مكة المكرمة حَرَماً يتمتع بالأمن والإيمان ، فيأمن الإنسان على نفْسه وماله وعِرْضه دون حدوث أي اعتداء عليه ، في حين أن جرائم القتل

والنهب تصيب من حولهم . وفي هذا إشارة واضحة وبليغة إلى نعمة الله العظيمة بأن جعل مكة المكرمة حَرَماً مَصُوناً مَحْمياً له حُرْمة جليلة لا ينتهكها إلا ضال .

وكان موضوعُ القتل (الثأر) في الجاهلية مرتبطاً بالخديعةِ، والتحايلِ، والكذبِ على الآخرين. وكان البعضُ يتَّخذون من الدِّيَةِ حِيلةً ، ويَعتبرونها خطوةً تمهيدية للقتل .

قال اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن اعتدى بعد ذلك فله عَذابٌ أليم ﴾ [البقرة : ١٧٨].

الاعتداء المقصود في الآية هو القتل بعد أخذ الدِّيَة . وفي تفسير القرطبي (٢/ ٢٣٩) : ((قال الحسن : كان الرَّجلُ في الجاهلية إذا قَتل قتيلاً فَرَّ إلى قَوْمه، فيجيء قَوْمُه فيصالحون بالدِّية ، فيقول وَلِيُّ المقتول : إني أَقْبل الدِّيةَ، حتى يَأمن القاتل ويخرج، فيقتله ، ثم يرمي إليهم بالدِّية)) .

وهذه الخدعةُ الجاهلية تدل على الخيانة واللؤم وسوء الأخلاق ، كما أنها تُشعل نارَ الكراهية والحقد والثأر. ولا يخفَى أن هذه المفاهيم تَقود المجتمع البشري إلى الانقسام والتناحر والاقتتال.

ومن العجيب انتقال القتل إلى الدائرة الأُسرية الضَّيقة ، فكان الأبُ يَقْتل ابْنَه (فلذة كبده).

قال اللهُ تعالى : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قَتلَ أولادهم شركاؤهم ﴾ [الأنعام : ١٣٧] .

شركاؤهم هُم شياطينهم الذين زَيَّنوا للمشركين قَتْلَ أولادهم ، وحسَّنوا في أذهانهم هذه الجريمةَ . وَسُمِّيَ الشياطين شُركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله ، فأشركوهم مع الله في وجوب الطاعة. وفي زاد المسير (٣/ ١٣٠) : ((وفي الذي زَيَّنوه لهم مِن قَتْلِ أولادهم قَوْلان : أحدهما _ أنه وأد البنات أحياء خِيفة الفقر، قاله مجاهد . والثاني _ أنه كان يَحْلف أحدهم أنه إن وُلد له كذا وكذا غُلاماً أن يَنحر أحدَهم كما حَلَفَ عبد المطلب في نحر عبد الله، قاله ابن السائب ومقاتل)) .

ومن الأمثلة الواضحة على فوضى القتلِ والقتال في الجاهلية ، ما حدثَ بين الأوس والحزرج (قبيلتَي الأنصار) . فقد سالتْ دماء كثيرة في حروبهم، واشتعلت القلوبُ حِقداً وغَيْظاً ، ولم تهدأ النُّفوس إلا بالإسلام.

قال اللهُ تعالى : ﴿ واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كُنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكُنتم على شَفا حُفرة من النار فأنقذكم منها ﴾[آل عمران : ١٠٣] .

وفي الآية تذكيرٌ للعرب كيف كانوا في الجاهلية، فقد قَضَوا حياتهم في الحروب فيما بينهم ، والاقتتال على أتفه الأسباب. وكانوا يعتمدون على الغزو والسلب والنهب ، ضمن فوضى عارمة، فلا وازع ديني ، ولا قيم أخلاقية رادعة . لكنَّ الله تعالى مَنَّ عليهم ، فنقلهم من العداوة والحقد فيما بينهم إلى المحبة والألفة ، فصاروا إخواناً على قلب رَجل واحد . وكانوا على شفير الهاوية سائرين إلى النار ، فأنقذهم اللهُ منها بأن أرسل إليهم خيرَ رُسله، وأنزل عليهم أعظمَ كُتبه ، ونقلهم من الجاهلية إلى الحضارة ، وأخرجهم من الظلمات إلى النُّور ، وأنقذهم من النار ، وجعلهم على طريق الجنة .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٤) : ((وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة... طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم ، فلمَّا جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البِر والتقوى)) اهـ .

وروى الطبري في تفسيره (٣/ ٣٧٠) : [عن زيد بن أسلم قال : مَرَّ شأس بن قيس ، وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من جماعتهم وأُلفتهم وصلاح ذات بَيْنهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ... فأمرَ فتى شاباً من يهود وكان معه ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم وذكِّرْهم يوم بُعاث وما كان قبله وأنشِدْهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار _ وكان يوم بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج _، ففعل فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا ... فانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : ((يا معشر المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كُفاراً ؟)) ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكَيْد من عدوهم ، فألْقَوا السلاح من أيديهم ، وبَكَوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين] .

فالأصابعُ اليهودية في التحريش بين الأوس والخزرج واضحة المعالم ، وقد كانت العداوة بينهما في الجاهلية شديدة للغاية ، حيث خاضوا حروباً شرسة حَصدت الأخضر واليابس . وكما يقال : مُعظَم النارِ من مُسْتَصْغَر الشَّرر .

وقد روى الطبري في تفسيره (٣/ ٣٧٨) أن الحرب بينهما استمرت مئة وعشرين سنة ، فلم تَخمد نارُ الفتنة والحرب بينهما إلا بمجيء الإسلام الذي ألَّف بين قلوبهم ، ونزع الحقدَ من صدورهم ، وجعلهم على قلب رَجل واحد ، إخوةً متحابين في حمل الرسالة الإلهية . وهنا تتجلى عظمةُ الإسلام الذي وحَّد الصفوفَ رغم تاريخ العداء الشديد والطويل ، وقضى على الجاهلية ، ونقل الناس إلى الحضارة رُوحاً ومادةً .

وعن عبد الله بن زيد ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال : ((يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم اللهُ بي ؟، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم اللهُ بي ؟ ، وكنتم عالةً فأغناكم اللهُ بي ؟))[194].

لقد حَرَّكَ النبيُّ ﷺ فيهم العواطفَ الإيمانية، وذَكَّرهم بفضل الله عليهم ، وإنجازاتِ رسوله ﷺ. فقد كانوا غارقين في الضَّلال ، فهداهم اللهُ بأن أرسلَ إليهم خيرَ رُسله، وكانوا متفرِّقين ومتناحرين وغاطسين في حروب لا نهاية لها ، فجعلهم اللهُ إخوةً متحابين ، وأزالَ من قلوبهم الحقدَ والفُرقة بأن أرسلَ إليهم النبيَّ طبيباً وهادياً . وكانوا فقراء ، فأغناهم اللهُ برسوله ﷺ .

والجديرُ بالذِّكر أن القتل والثأر قد ارتبطا ــ في البيئة الجاهلية ــ بالتقاليد الشعبية ، والأوهامِ ، والأساطيرِ . وقد كانت النساءُ لا يَبْكينَ المقتولَ مِنهم حتى يُؤخذ بثأره ، فإذا أُخذ به بَكَيْنَهُ عندئذٍ . قال الشاعر :

مَن كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساءَ حواسراً يَنْدبنه يَلْطمنَ قبل تبلج الأسحار[195]

والمعنى : مَن كان مسروراً بمقتل مالك ، فإن سروره لا يَدوم إلا فترة قصيرة ، وسوفَ يَحْزن بسبب أخذ الثأر ، إمَّا من ذلك المسرور (إن كان هو القاتل) ، أو مِن أحد قَوْمه . وسَوْفَ يَعُمُّ الحزنُ قَوْمَه . وبعبارة أُخرى ، مَن كان مسروراً بمقتل مالك ، فقد قَتَلْنا قاتلَه ، ونساؤنا يَنْدبنه .

---

(١٩٤) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٥٧٤) برقم (٤٠٧٥) ، ومسلم (٢/ ٧٣٨) برقم (١٠٦١).
(١٩٥) تاريخ الطبري (٥/ ١١٣) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٢٤٢) .

ونساءُ الجاهلية كُنَّ لا يَنْدبنَ القتيلَ ، ولا يَبْكينَ عليه ، حتى يتم قتل قاتله . وعندئذٍ تبكي عليه النساءُ ويَنُحْنَ .

وكانت العربُ في الجاهلية تقول : إذا قُتل الرَّجلُ ولم يُؤخذ بثأره، خَرجتْ من رأسه هامة ، وهي دودة ، فَتَدور حَوْل قبره ، فتقول : اسقوني اسقوني ، فإن أُدرك بثأره ذَهبت وإلا بَقِيَتْ . كما قال الشاعر :

يا عمرو إلا تَدَع شَتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامةُ اسقوني [196]

ومن الخرافات الدموية في البيئة الجاهلية أن المرأة المِقْلات ـ وهي التي لا يعيش لها ولد ـ إذا وَطِئَت قتيلاً شريفاً بَقِيَ أولادها . وهذه الخرافة كانت اعتقاداً راسخاً عند العرب . قال الشاعر :

تظل مقاليتُ النساء يَطأنه يَقلنَ ألا يُلْقَى على المرء مِئْزَرُ[197]

ومن التقاليد المتعلقة بعالَم الحروب ، جَزُّ ناصية الأسير . فكانوا إذا أَسَروا رَجلاً ، ثم أَطْلقوه ، جَزُّوا ناصيته ، ووضعوها في كِنانة . قالت الخنساء :

جَزَزْنا نواصي فرسانهم وكانوا يظنون أن لا تُجَزَّا [198]

وفي صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦) : أن النبي ﷺ قال في حَجَّة الوداع : ((ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قَدَمي مَوْضوع، ودماء الجاهلية مَوْضوعة ، وإن أوَّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، كان مُسْتَرْضَعاً في بني سعد فَقَتَلَتْهُ هُذَيْل))[199].

---

(١٩٦) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٤١) . ومعنى " أضربك " : أقتلك .

(١٩٧) إصلاح المنطق لابن السكيت (١/ ٧٦) ، ولسان العرب لابن منظور (٢/ ٧٢) .

(١٩٨) صُبح الأعشى للقلقشندي (١/ ٤٦٥) .

(١٩٩) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم(٨/ ١٨٢و١٨٣): ((فقال المحقِّقون والجمهور : اسم هذا الابن إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ... ، وكان هذا الابن المقتول طفلاً صغيراً يحبو بين البيوت فأصابه حَجر في حرب كانت بين بني سعد وبنى ليث بن بكر، قاله الزبير بن بكار)).

وهذا إبطالٌ لجرائم القتل في الجاهلية، فلا قِصاص فيها . فالإسلامُ هَدم ما قَبْلَه. فعلى الناس أن يبدأوا صفحةً جديدة ، وأن يَنسوا دماءَ الجاهلية التي أُريقت بدافع العَصَبية والْحَمِيَّة والأهواء الشخصية . فهذه الدماءُ لا قِصاص فيها ولا دِيَة ولا كَفَّارة . لقد ذَهبتْ في طوايا الزمن ، وهي متروكة . وعفا اللهُ عمَّا سلف .

ونلاحظ أن الإسلام يُؤسس بدايةً جديدة لتاريخ الأفراد والجماعات ، فلا يَترك أعباء الجاهلية تُثقل كاهلهم . لذلك أراحهم من كوابيس القتل الجاهلي ، وأنقذهم من عقلية الثأر والانتقام والتشفي. فأغلق البابَ على الجاهلية بكل دمائها وقتلاها ، لكي يبدأ الناس من جديد ، ويبنوا أفعالهم على قيم العدالة التي أرستها الشريعة المحمَّدية الإسلامية .

انتشار الرِّبا

يُعْتَبَر الرِّبا من المعامَلات المالية المحرَّمة نَقلاً وعَقلاً. فهو مبنيٌّ على ابتزاز الآخرين ، واستغلالِ نقاط ضَعفهم . وهذا يُؤدي إلى تدمير القيم الاجتماعية ، وتفتيتِ وَحدة المجتمع ، وتحويله إلى بؤرة للصراع . كما أنه يساهم في انهيار النظام الاقتصادي ، فالرِّبا يَحْصر الثروةَ في يد طبقة مُعيَّنة ، ويَقود إلى الكسل . وعندئذٍ تَغيبُ قيمةُ العمل عن المجتمع ، وتنتشر ثقافة الكسب السريع دون وجود أعمال حقيقية (استثمارات) على الأرض . والتعاملُ بالرِّبا كُفرٌ بالنِّعمة ، فالمالُ وسيلةٌ لا غاية . وفي الرِّبا صارَ المالُ هو الغاية التي تُبرِّر الوسيلةَ .

قال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة : ٢٧٨][200].

فهذا أمرٌ إلهي للمؤمنين بترك ما لهم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال .

والمجتمع الجاهلي شديد القسوة والتوحش . وهذه القسوة انعكست على المعاملات المالية . فكان الرِّبا هو حجر الأساس في اقتصاد المجتمع العربي الوثني المبني على الفوضى المادية ، واستغلالِ الآخرين ، وامتصاصِ دماء الناس حتى الرمق الأخير. وبالتأكيد، إن الرِّبا استغلال لضعف الآخرين وحاجتهم ، كما أنه يُعبِّر عن الطمع ، وسحقِ البشر من أجل المال . وهذا كُلُّه تدميرٌ لقيم التكافل الاجتماعي .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦) : أن النبي ﷺ قال في حَجَّة الوداع : ((ورِبا الجاهلية مَوْضوع ، وأوَّل رِبا أضع رِبانا ، رِبا عباس بن عبد المطلب ، فإنه مَوْضوعٌ كُلُّه)) .

وهذا إبطال للربا ، وإعلان تطهير المجتمع من آفاته . وفيه إشارةٌ بليغة إلى ضرورة أن يبدأ الآمر بالمعروف أو الناهي عن المنكر بنفْسه وأهله، لكي يكون قدوةً للآخرين ليسيروا على خطاه.

---

(٢٠٠) في تفسير ابن كثير (١/ ٤٤١) : ((وقد ذَكر زيد بن أسلم وابن جُرَيج ومقاتل بن حيان والسُّدي أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عُمَيْر من ثقيف وبني المغيرة من بني مخزوم ، كان بينهم رِبا في الجاهلية ، فلمَّا جاء الإسلام ودخلوا فيه ، طَلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاورا ، وقالت بني المغيرة : لا نؤدي الرِّبا في الإسلام بكسب الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أُسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ ، فَنَزلت هذه الآية)) .

فالنبيُّ ﷺ بدأ بِعَمِّه العباس _ رضي الله عنه _ ، فأبطل الرِّبا ، وأسَّس القاعدةَ الأساسية لاقتصاد المجتمعات ، وهي عدم الاستغلال ، ونَبَّه إلى أن الأمور المالية (الاقتصاد) ينبغي أن تكون إنسانية الجوهر والمظْهر ، وليست معاملاتٍ جشعة ومتوحشة .

وقال الشَّوْكاني في السَّيْل الجرَّار (٣/ ٦٦) : ((واعلم أن من أعظم الرِّبا وأشده رِبا الجاهلية الذي وضعه _ ألغاه _ رسولُ الله ﷺ ، ودلَّت عليه الأحاديث الصحيحة ، وثبت إجماع الأئمة جميعاً على تحريمه ، وهو أن يَحضر أجلُ الدَّيْن فلا يرده من هو عليه ، فيزيد عليه من هو له شيئاً ، ويمهله إلى أجل آخر)) اهـ .

وفي هذا إشارةٌ واضحة إلى استغلال حاجة الآخرين ، وغيابِ قِيَم الرحمة والرأفة في المجتمع . فكلُّ شخصٍ يتربص بالآخر ، ويَحرص على انتهاز أيَّة فرصة من أجل الحصول على منفعة مادية .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٤١) : ((... كان أهلُ الجاهلية يقول أحدُهم لِمَدينه إذا حَلَّ عليه الدَّيْن : إمَّا أن تَقضي ، وإمَّا أن تُرْبي)) اهـ .

إن المعاملات المالية في الجاهلية كانت متوحشة . فلم تكن مسألة الدَّيْن من أجل التكافل الاجتماعي ومساعدة الآخرين ، بل من أجل ابتزازهم واستغلال نقاط ضعفهم لامتصاص دمهم ، وتحصيل أكبر قَدْر من المنافع منهم. فلا مكان للتسامح أو المساعدة إذا عجز المَدين عن سداد دَيْنه، فالدائن يزيد على المبلغ ، ويُمهل المدينَ إلى وقت لاحق . فهذا الإمهال ليس مجانياً ، بل له ثمن يزيد أعباء المدين ومشكلاته المالية .

*

الزِّنا

الزِّنا تدميرٌ شامل للمجتمع الإنساني ، فهو بؤرة للأمراض الفتاكة ، كما أنه يؤدي إلى ضياع الأنساب ، والقضاء على الأُسرة ، وانتشارِ ثقافة الشهوات والغرائز بشكل حيواني لا أخلاقي .

قال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحشَ ما ظَهر منها وما بَطن ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

هذا نهي عن كل المعاصي والأفعال الشنيعة الظاهرة والباطنة (المستتِرة) . سواءٌ تَمَّت المجاهَرة بها أَم تَمَّت في الخفاء . سواءٌ ما ظهر من المعاصي كأفعال الجوارح ، وما بطن كأفعال القلب .

وفي الدر المنثور (٢/ ٤٩٠) : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((كان أهل الجاهلية يُحرِّمون ما ظَهر من الزِّنا ، ويستحلُّون ما خَفِيَ . يقولون : أمَّا ما ظَهر منه فهو لؤم، وأمَّا ما خَفِيَ فلا بأس بذلك . فأنزل الله : ﴿ ولا تقربوا الفواحشَ ما ظَهر منها وما بَطن ﴾)) اهـ .

إن أحكامَ أهل الجاهلية نابعةٌ من الأهواءِ الشخصية ، والعقولِ القاصرة . وهُم لا يَملكون أدلةً نقلية ولا عقلية . وقد نَظروا إلى الزِّنا باعتباره شهوةً عابرة ينبغي إخفاؤها مثل العلاقة الحميمة بين الرَّجل وزوجته . فإذا كان الزِّنا وراء أبواب مغلقة فلا بأس به ، لأنه تفريغٌ للغريزة بعيداً عن أعْين الناس ، أمَّا إذا حدث الزِّنا بشكل علني ، فهذا يدل على سوء الأخلاق ، وفسادِ الطِّباع . وهذا مؤشرٌ باهرٌ على أن فلسفة الجاهلية قائمة على الرياء ، وخداعِ الآخرين ، وارتداء الأقنعة الزائفة ، والاهتمام بالمظهر دون الجوهر . فالتركيزُ الجاهلي كان مُنْصَبَّاً على أفعال الجوارح الظاهرة ، وأحكامِ الناس، ولم تكن الثقافةُ الجاهلية معنيةً بأفعال القلب ، والطهارة الداخلية . ويمكن القولُ إن الجاهلية مسرحٌ كبير ، يقوم كلُّ فردٍ بتقمص دَوْر الشريف دون الاهتمام بحقيقة الشرف .

وقال ابن قُتَيْبة في غريب الحديث (١/ ٢٠٧) : ((وكان الرَّجلُ في الجاهلية يَلْقى المرأةَ ، فيقول لها : سافحيني . فيكون ذلك عنده أحسن من أن يقول : زانيني))[201].

وهذا يُشير إلى التلاعب بالألفاظ، فلفظةُ " زَانيني " حادةٌ وشديدة الوطأة، أمَّا لفظةُ "سافحيني" فهي أقل حِدَّة من لفظة " زانيني " . وهكذا يتجلى التحايل ، واختيار الألفاظ

---

(٢٠١) قال الزمخشري في الفائق (٣/ ٣٥٤) : ((تقول العربُ للمرأة : مَاذِيني وسافِحيني . وقيل : هو أن يُخَلَّى بينهما ، مِن أَمذَيتُ فَرَسي ومَذَيْتُه ، إذا أرسلتُه يَرْعى)) اهـ .

المخادِعة . وهذا الأمرُ منتشر في كل المجالات . فالخمرُ صارت تُسمَّى مشروباتٍ رُوحية ، والرقصُ الماجنُ صار
يُسمَّى فَنّاً ، والرِّبا صار يُسمَّى فائدةً ، والعشيقات صِرْنَ تحت مُسمَّى صديقات ... إلخ .

وكان أَهلُ الجاهلية إذا خَطَبَ الرَّجلُ المرْأَةَ قال : أَنكِحيني ، فإذا أَرادَ الزِّنا قال : سافِحيني . والمسافِحُ هو الزَّاني ، مِن السَّفْح ، وهو صَبُّ المني . فالزاني ليس معنياً بتكوين أُسرة ، وتحمُّل مسؤولية الزوجة والأولاد . وإنما هو معنيٌّ بالحصول على متعة رخيصة عابرة ، وقضاء شهوته بشكل سريع ، وإطفاء نار الغريزة كَيْفما اتَّفق .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تُكرِهوا فتياتكم على البِغَاء ﴾ [النُّور : ٣٣] .

أي : لا تُكرِهوا إماءكم على الزِّنا .

وكانوا في الجاهلية يُرسِلون إماءهم يَزْنين، ويَجعلون عليهنَّ ضرائب يأخذونها منهنَّ كلَّ وقتٍ. وكان هذا الأمرُ ثقافةً مجتمعية غير مُنْكَرَة . وبالتأكيد ، تُعْتَبَر الإماءُ الحلقة الأضعف في المجتمع ، فَهُنَّ أنصاف نساء ، وصاحبات مكانة اجتماعية متدنية ، ويُنظَر إليهنَّ باعتبارهنَّ سِلعةً للبيع والشراء . وفي المنظور الجاهلي ، لا توجد مشكلة إن فَقدت الإماءُ عِفَّتهنَّ أو شرفهنَّ ، فهنَّ مُجرَّد إماء (نساء درجة ثانية) ، ولَسْنَ حرائر .

قال ابن قُتَيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ٣٢٢) : ((وكان أهلُ الجاهلية يأمرون إماءهم بالبِغاء ، ويأخذون أجورهنَّ . وكان لعبد الله بن جُدْعَان إماء يُساعين ، وهو في الجاهلية سَيِّدُ تَيْم)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٣٢٠) عن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ: أن جارية لعبد الله ابن أُبي بن سَلول يقال لها مُسَيْكة ، وأخرى يقال لها أُميمة ، فكان يُكْرِههما على الزِّنى ، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ .

وكان عبد الله بن أُبي بن سلول يَقوم بهذا العمل طلباً للمال، ورغبةً في أولادهنَّ، ورياسةً مِنه .

وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٦/ ١٧) : ((وأصل البَغْي الطلب، غير أنه أكثر ما يُسْتَعْمَل في طلب الفساد والزِّنا . والمراد ما تكتسبه الأَمَةُ بالفجور ، لا بالصنائع الجائزة)) اهـ .

والأُجرةُ التي تأخذها الزانيةُ على زِناها مالٌ حرام لأنه جاءَ من طريق غير مشروع .

قال النبيُّ ﷺ : ((مَهْرُ البَغِيِّ خَبيثٌ))[202] .

ومَهْرُ البَغِيِّ ما تأخذه على زِناها ، وَسُمِّيَ مَهْراً لأنه على صورته .

وكان عُرْفُ الإماء في الجاهلية الزِّنا، فقد كان علامةً مميَّزة لهنَّ. وكانت الحرائرُ يَمتنعنَ من الزِّنا ، لأنه إساءة لشرفهنَّ وشرفِ قبائلهنَّ . ولا يخفَى أن الشرفَ في المجتمع القَبَلي قضيةُ حياةٍ أو موت .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : جاءت فاطمة بنت عُتبة بن ربيعة تُبايع النبيَّ ﷺ ، فَأَخَذَ عليها ﴿ أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ﴾ ، الآية . قالت : فَوَضَعَتْ يَدَها على رأسها حَياء ، فَأَعْجَبَ رسولَ الله ﷺ ما رأى منها . فقالت عائشة : أَقِرِّي أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا ، قالت : فنعم إذاً ، فَبَايَعَها بالآية [203].

لم يكن أحدٌ في الجاهلية يتصوَّر أن تَزنيَ المرأةُ الْحُرَّةُ . فالزِّنا من خصائص الإماء صاحبات المنْزلة الوضيعة في المجتمع . أمَّا الحرائرُ المنتميات إلى العائلات المحترمة ، والقبائلِ المعروفة ، فهنَّ بعيدات كلَّ البُعد عن الزنا. فهذه الجريمةُ سَتجلب العارَ إلى عائلاتهن ، وهذا العارُ لا يمكن غَسْلُه ، ولا يمكن نسيانه مهما طال الزمنُ ، وسيظل الخزي والعار والتعيير طِيلة الحياة .

ولهذا لَمَّا بَايَعَ النبيُّ ﷺ هند بنت عُتبة (امرأة أبي سفيان) على ألا تَزني ، قالت : ((وهَل تَزني الْحُرَّةُ ؟!))[204]. وهذا يُشير إلى أن الزِّنا لم يكن من خصائص الحرائر صاحبات المكانة الرَّفيعة ، بل هو أمرٌ قذر تختص به الإماء المحصورات في قاع المجتمع .

لقد حَصَّنَ الإسلامُ المجتمعَ من جريمة الزِّنا ، وسدَّ كافةَ الذرائع الموصلة إليه ، وركَّز على صيانة شرف المرأة خاصةً ، لأن المرأة هي وعاء الشهوات ، ومَنْبع الفِتنة ، وكتلة الغرائز .

---

(٢٠٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨) برقم (٢٢٧٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢٠٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١٥١) واللفظ له ، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤١٨) .

(٢٠٤) قال ابن حجر في الإصابة (٨ / ١٥٥) : ((مِن طُرقه ما أخرجه ابن سعد بسند صحيح مُرسَل عن الشَّعبي ، وعن مَيمون بن مهران ، ففي رواية الشعبي : " ولا يَزْنين " ، قالت هند : وهل تزني الحرَّة ؟!)) .

وقد قَدَّم اللهُ تعالى ذِكر الزانية على الزاني ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ الزانيةُ والزاني فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جَلدة ﴾[النُّور : ٢] . فالمرأة هي منبع الفتنة الجنسية ، ومصدر الجذب، وهي _غالباً_ صاحبة المبادَرة في المشكلات الجنسية لِمَا تملكه من إغراء وعوامل استدراج.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٧٢) : ((وإنما قَدَّم ﴿ الزانيةُ ﴾ لأن الزِّنا في الأغلب يكون بتعرضها للرَّجل ، وعرض نفْسها عليه ، ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَلا مُتَّخذاتِ أَخْدان ﴾ [النِّساء : ٢٥][205] .

أي : ولا مُتَّخذات أصدقاء بقصد السِّفاح (الزِّنا) في السِّر .

فالزَّواني في الجاهليةُ كان لهنَّ عُشَّاق للفجور بهنَّ سِرَّاً . وأهلُ الجاهلية كان يَعيبون الإعلانَ بالزِّنا ، ولا يَعيبون اتخاذَ الأخدان . وقد ألغى الإسلامُ كلَّ الفواحش ، ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَنَ .

ولا يخفَى أن الطهارة والشرف هُما قيمتان حميدتان في كل الأديان،وعند كل الأمم والشعوب. ولا يُوجد عاقلٌ _ مهما كان دِينه _ يَمدح الزِّنا ، ويُشيد بالخيانة . بل على العكس ، فإن الطهارة هي القيمة التي يَمدحها الجميع ، وهذا الأمر محل إجماع .

وقد قال الشاعرُ أبو العلاء المعري مادحاً أحد الفضلاء :

أنتَ مِن أُسرةٍ مَضَوا غيرَ مغرورين مِن عِيشةٍ بذاتِ ضِمادِ [206]

لقد مَدَحَ الشاعرُ صاحبَه المتوفَّى ، ونوَّه بمكانته الرفيعة ، وأُسرته الشريفة . فقال : أنتَ من عائلةٍ شريفة طاهرة ذات صِيت طَيِّب ، عاشوا بشرفٍ ، ومَضَوا بشرف ، ولم يكونوا مغرورين مِن عيشةٍ بذاتِ ضِماد . والضِّمادُ أن يكون للمرأة أخدان (عُشَّاق) ، أو يكون للرَّجل عشيقات .

وهذا يدل على أن الشرف هو الركيزة الأساسية في المجتمع ، وأن الطهارة هي القيمة التي يُعوَّل عليها في المنظومة الاجتماعية . وكلُّ علاقةٍ بين الرَّجل والمرأة خارج إطار الزواج ، إنما هي علاقة باطلة مُجلَّلة بالخزي والعار .

---

(٢٠٥) قال ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ١٣٩) : ((والخِدْنُ والخَدِينُ الذي يُخَادِنك فيكون معك في كل أَمر ظاهر وباطن)) اهـ .

(٢٠٦) هذا البيت من قصيدة شهيرة لأبي العلاء المعري مطلعها : غَيْرُ مُجْدٍ في مِلَّتي واعتقادي ... نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ . وقد نظمها في رثاء صاحبه أبي حمزة ، وهو فقيه حنفي ماتَ شاباً .

الخَمر والقِمار

الخمرُ والقِمارُ رُكنان أساسيان في الحياة الجاهلية ، لا يُمكن الاستغناء عنهما . وهما مرتبطان باللهو والكَرَم رغم تأثيرهما المدمِّر في المجتمع .

قال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا إنما الخمرُ والميْسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تُفلحون (٩٠) إنما يُريد الشيطانُ أن يُوقِع بينكم العداوةَ والبغضاء في الخمر والميسر ويصدَّكم عن ذِكر الله وعن الصلاة فهل أنتم مُنتَهون (٩١) ﴾[سورة المائدة] .

وقد ذَكرت الآيةُ بعضَ المحرَّمات ، وهي : الخمر التي تُذهب العقلَ وتُسقط المروءةَ وتُفسد الأخلاقَ الحميدة . والميْسِر (القِمار) فقد كان أهلُ الجاهلية يتقامرون فنهاهم الإسلامُ عن هذا الخُلق الذميم . والأنصاب (حجارة كان المشركون يذبحون قرابينهم عندها) . والأزلام (قِداح كانوا يستقسمون بها) . وكل هذه المحرَّمات هي قاذورات ونجسٌ من إغواء الشيطان وتزيينه للمعاصي . فعلى المسْلم أن يبتعد عنها بشكل كامل ، ولا يقترب منها بأية حال من الأحوال .

والخمرُ والقِمارُ تؤدِّيان إلى نشر العداوة في المجتمع ، وزراعةِ الحقد بين الناس . وبالتالي تنهارُ الوَحدةُ المجتمعية ، وتتمزق الروابط الإنسانية ، وتصبح الحياةُ كتلةً من المشكلات والصراعات.

ومن المعروف أن الأشخاص إذا شَربوا الخمرَ سَكروا وتشاجروا بسبب زوال عقولهم . وإذا زالَ عقلُ الإنسان ، فإنه قد يَفعل أيَّ شيء . لذلك تُسمَّى الخمر أُم الخبائث. أمَّا القِمارُ فيؤدي إلى خسارة المال ، فيظل الخاسرُ حزيناً حاقداً على الذين سَلبوه مالَه .

وفي زاد المسير (٢/ ٤١٨) عن قتادة قال : ((كان الرَّجلُ يُقامِر على أهله وماله فَيُقْمَر ويبقى حزيناً سليباً ، فينظر إلى ماله في يد غيره ، فيُكسبه ذلك العداوة والبغضاء)) اهـ .

وقال الْمُنَجِّد في كتابه مُحرَّمات استهان بها الناس (ص ٥٢): ((وكان أهل الجاهلية يَتَعَاطَوْنَ الميْسِر ، ومن أشهر صوره عندهم أنهم كانوا يشتركون في بعير عشرة أشخاص بالتساوي ، ثم يُضرب بالقداح وهو نوع من القُرعة ، فسبعة يأخذون بأنصبة متفاوتة مُعيَّنة في عُرفهم ، وثلاثة لا يأخذون شيئاً)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٦) : عن سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ قال : ((وأتيتُ على نفَر من الأنصار والمهاجرين ، فقالوا : تعال نطعمك ونسقيك خمراً ، وذلك قبل أن

تُحرَّم الخمر، فأتيتُهم في حَش _ والحش البستان _ فإذا رأس جَزور مشوي عندهم، وزِق من خمر، فأكلتُ وشربتُ معهم، فذكرتُ الأنصار والمهاجرين عندهم، فقلتُ : المهاجرون خيرٌ من الأنصار ، فأخذ رَجلٌ أحد لَحْي الرأس فضربني به ، فَجَرح بأنفي فأتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرتُه ، فأنزل اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ _ يعني نفْسه _ شأن الخمر : ﴿ إنما الخمر والميسِر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان ﴾)) .

فالخمرُ كانت مباحة بلا نكير قبل تحريمها النهائي الحاسم . لكنها قادت إلى مشكلات عديدة بسبب إفسادها للعقل . فبعد أن شرب سعد بن أبي وقاص الخمرَ ، قال إن المهاجرين خيرٌ من الأنصار ، وهو محقٌّ في هذه الكلمة ، ولكن لكل مقام مقال ، فاغتاظ أحد الرجال، ويظهر أنه كان أنصارياً ، فضرب سعداً على أنفه بِعَظْم الْجَزُور (ما يصلح للذبح من الإبل) ، فجرح أنفَه ، وَهُمْ في مجلس الأكل وشرب الخمر . وكانت هذه الحادثة سبب نزول الآية الكريمة التي تُحذِّر من الخمر والقِمار والأنصاب والأزلام ، لِمَا فيها من كوارث مُدمِّرة لحياة الفرد والجماعة، وتأثيرات سلبية في كل المجالات . وهي بالطبع قاذوراتٌ من عمل الشيطان .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : كنتُ سَاقي القوم في مَنْزل أبي طلحة ، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ ، فَأَمَرَ رسولُ الله ﷺ مُنادياً يُنادي : ألا إن الخمر قد حُرِّمتْ ، قال : فقال لي أبو طلحة : اخرجْ فَأَهْرِقها ، فخرجتُ فَهَرَقْتُها ، فَجَرَتْ في سِكك المدينة [207].

لقد كان الصحابةُ _ رضوان الله عليهم _ وَقَّافين عند أوامر الله تعالى ، وأوامرِ رسوله ﷺ . وما إن سَمعوا بخبر تحريم الخمر ، حتى تخلَّصوا من كل الخمر التي كانت لديهم ، وتَمَّ سَكْبُها في طرقات المدينة . وقد كان تحريمُ الخمر شديداً على العرب ، فالخمرُ ذات حضور أساسي في حياتهم بكل تفاصيلها . لذلك جاءَ تحريمها بالتدريج ، وليس مَرَّةً واحدة .

والجديرُ بالذِّكر أن هناك أشخاصاً في الجاهلية قاموا بتحريم الخمر اعتماداً على تقبيح العقل لها. ومن هؤلاء قيس بن عاصم المِنْقَري ، فقد كان سِكِّيراً في الجاهلية ، ثم حَرَّمَ الخمرَ على

---

(٢٠٧) متفق عليه. البخاري (٢/ ٨٦٩) برقم (٢٣٣٢) ، ومسلم (٣/ ١٥٧٠) برقم (١٩٨٠).
وقال الجرجاني في التعريفات (١/ ٢١٥) : ((الفضيخ هو أن يجعل التمر في إناء ، ثم يُصَب عليه الماء الحار ، فيستخرج حلاوته ، ثم يغلي ويشتد)) اهـ .

نفْسه ، وكان سبب ذلك أنه غَمَزَ عُكْنة ابنته وهو سكران ، وَسَبَّ أبويه ، ورأى القمر فتكلم بشيء ، وأعطى الخمَّارَ كثيراً من ماله ، فلمَّا أفاق أُخبر بذلك ، فَحَرَّمها على نفْسه ، وفيها يقول :

رأيت الخمرَ صالحةً وفيها خِصالٌ تُفسِد الرَّجلَ الحليما
فلا والله أَشربها صحيحاً ولا أُشْفِي بها أبداً سقيما
ولا أُعطي بها ثمناً حياتي ولا أدعو لها أبداً نديما
فإن الخمر تَفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيما[208]

والقِمارُ (الْمَيْسِرُ) مِن أركان الحياة الاجتماعية في الجاهلية . إنهُ ثقافةُ مجتمعٍ ضاربة جذورها في أعماق الحياة الروحية والمادية . والعربُ تَفْخر بالميسِر لأنه لا يقوم به إلا الرِّجال الكِرام أصحاب الهِمَّة العالية . يقولُ الشاعرُ طَرَفة بن العبد :

وأصْفَرَ مَضْبوحٍ نَظَرْتُ حِوارَهُ على النارِ واسْتَوْدَعْتُه كَفَّ مُجْمِدِ

يَصِفُ الشاعرُ القِدْحَ (أحد سِهام الميْسِر) بأنه أصْفر مَضْبوح (قُرِّب من النار حتى أثَّرت فيه). والقِدْحُ يتم تقريبه من النار لكي يَصْلب، ويَكْتسب اللونَ الأصفرَ. لذلك ، تُوصَف سِهامُ الميْسِر بالصُّفرة . ويَبدو أن هذا اللون _ بحد ذاته _ يُشكِّل عالَماً سِحرياً مُتكوِّناً من الأحلامِ والإغراءِ والمتعةِ والنَّشوةِ. ولاعبو القِمار يَعْتنون بهذه التفاصيل الساحرة التي لها تأثير كبير في الذهنِ والسلوكِ الاجتماعي . ولاعبُ القِمار محصورٌ بين خِيَارَيْن لا ثالث لهما : الفوز أو الخسارة . وقد انتظرَ الشاعرُ فَوْزَ قِدْحِه أو خَيْبته ، أي إنهُ نَظَرَ حِوارَه (مراجعة الحديث) ، وكأن هناك حِواراً خفياً بين الشاعر وقِدْحِه . وبالطبع ، فهذا الحِوار يتجلى في الفوز أو الخسارة . وانتقلَ الشاعرُ إلى الجو العام المحيط بلعبة القِمار، فقد كان مجتمِعاً مع ندمائه على النار، وذلك مِن أجل متابعة أخبار القِدْح ، ومعرفة إمكانية فَوْزه أو خَيْبته . وكما يقال : المكتوبٌ ظاهرٌ من عنوانه. فقد أَوْدَعَ الشاعرُ القِدْحَ كَفَّ رَجل مُجْمِد (الشخص الذي لا يَفوز). وهكذا ، يتجلى الفخرُ جماعياً وفَرْدياً. فالعربُ تفتخر بالميْسِر ، لأنه مُلْتَقَى الأجواد الذين لا يُقيمون وزناً للمال . والشاعرُ شخصياً يَفتخر بأنه مَنَحَ قِدْحَه كَفَّ رَجلٍ معروف بالخيبة وعدم الفوز . وهذا يدل على أنه لا يُقيم وزناً للمال ، ولا يَحرص على كَسْبه . فغايته هي المتعة والنَّشوة فقط.

---

(٢٠٨)تفسير القرطبي (٣/ ٥٠).وانظر أُسد الغابة(١/ ٩٢١)،وتهذيب الكمال للمِزِّي (٦٣/٢٤).

الاستئذان والتحية

كان لدى أهل الجاهلية عاداتٌ اجتماعية مُعيَّنة . وهذه العاداتُ تتجلى في موضوع التَّحية ، كما تتجلى في فلسفة عدم الاستئذان .

قال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا تَدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتُسلِّموا على أهلها ﴾ [النُّور : ٢٧] .

هذه الآدابُ الرَّفيعةُ مِن شأنها إزالة الحرج وسوءِ الفهم . فقد أمرَ اللهُ المؤمنين ألا يَدْخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أي : يستأذنوا قبل الدُّخول ، ويُسلِّموا بعده .

وهذا السُّلوكُ الحضاري الرَّاقي من شأنه حماية المجتمع من الفساد الأخلاقي ، وبث رُوح التماسك الاجتماعي عبر إحاطة البيوت بسياج أخلاقي منيع من الآداب العامة ، والاستئذان ، والسلام . فكيفيةُ الدخول إلى البيوت أمرٌ بالغ الأهمية، لأن فيه اطلاعاً على ما وراء الأسوار والستائر المغلَقة ، فأعطته الشريعةُ مكانةً خاصة وأهمية كبرى .

وفي الدُّر المنثور (٦/ ١٧١) : ((أخرج الفِريابي وابن جرير من طريق عدي بن ثابت عن رَجل من الانصار قال : قالت امرأةٌ لرسول الله ﷺ : إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أُحب أن يراني عليها أَحد ولد ولا والد ، فيأتيني الآتي فيدخل عليَّ ، فكيف أصنع ؟ . ولفظ ابن جرير : وإنه لا يزال يَدخل عليَّ رَجل مِن أهلي وأنا على تلك الحال . فَنَزلتْ : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا تَدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴾ ، الآية)) اهـ .

إن حَالَ هذه المرأة تُشبه حالَ نساء كثيرات . وكثيرٌ من الناس لا يُعطون موضوعَ الاستئذان حَقَّه ، خصوصاً عندما يكون في الأُسرة أبناء متزوِّجون يَعيشون كلهم في نفْس المنْزل ، فيختلط الرجالُ بالنساء الأجنبيات (زوجات الأُخوة) ، ويَدْخلون عليهم بلا استئذان بِحُكم العيش في بيت واحد ، وهذا الأمرُ كارثي بكل معنى الكلمة ، وله عواقب وخيمة . وللأسف ، فالكثيرون يَسْتهينون به متذرِّعين بالقَرابة ، وصفاء القلوب ، والنوايا الصادقة . ومِن مأمنه يُؤتى الْحَذِرُ .

وفي الدُّر المنثور (٦/ ١٧٦) عن مقاتل بن حيان قال : ((كان الرَّجلُ في الجاهلية إذا لَقِيَ صاحبه لا يُسَلِّم عليه ، يقول : حُيِّيتَ صباحاً ، وحُيِّيتَ مساءً . وكان ذلك تحية القوم بينهم . وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يَستأذن حتى يَقتحم ويقول : قد دَخلتُ . فيشق ذلك على الرَّجل ، ولعله يكون مع أهله ، فَغَيَّر اللهُ ذلك كله في سِتْرٍ وعِفَّة)) اهـ .

إن الاستئذان يُعطي فرصةً للآخرين كي يَستروا أنفسهم ، خصوصاً النساء . ولا يخفَى أن المرأة في بيتها تَكون مرتديةً ثياباً رقيقة ، والدخولُ عليها بلا استئذان وهي في تلك الصورة ، أمرٌ قبيح للغاية . فلا بد من الاستئذان حِفظاً لأَعْراض الناس ، وحمايةً لأسرار بيوتهم .

أمَّا موضوعُ التَّحية ، فهو في غاية الأهمية . فالتَّحيةُ كلمةٌ مخصوصة. ولَيْست سلوكاً اجتماعياً فَحَسْب ، بل هي أيضاً مَظْهر واضح للعقيدة الدينية ، وانعكاس للثقافة العربية الجاهلية ، كما أنها تُشير إلى البُنية الطبقية الاجتماعية ، والتَّراتبية الإنسانية في المجتمع . وهذا يتَّضح في أشعار العرب . يقولُ الشاعرُ النابغة الذبياني :

هذا الثناءُ فإن تَسْمع به حَسَناً فَلَمْ أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللعنَ بالصَّفَدِ

يُقدِّم الشاعرُ أوراقَ اعتماده ، ويُحاول جاهداً إثباتَ وَلائه . إنهُ يَمْدح أحدَ الملوكِ، ويَطمح إلى نَيْل رِضاه. فيقول: إن هذا هو الثناء الصحيح النابع من لسانٍ صادق لا كاذب ، وهذا هو المديحُ الحقيقي النابع من قلبٍ مُخلِص لا مُنافِق . فإن أعجبكَ مَدْحي ونالَ استحسانكَ، فإني صادقٌ في كُل كلمة قُلْتُها، ولم أقْصد بمدحي أن أحصلَ على منفعة مادية ، ولم أتعرَّض به لعطائك . وإنما مَدَحْتُكَ لأنكَ أهلٌ للمديح ، وأَثْنيتُ عليكَ لأنك تستحق الثناء ، ووضَّحتُ صفاتك الجميلة إقراراً بفضلكَ . والصَّفدُ هو العَطاء .

والتَّحيةُ " أَبَيْتَ اللعنَ " هي تحية كانوا يُحَيُّون بها الملوك في الجاهلية . وطبعاً ، التعامل مع الملوك يَختلف بالكُلِّية عن التعامل مع الأشخاص العاديين . واعتماداً على هذا ، كانت تحيةُ الملوك تختلف عن تحية العامة. فهذه التحيةُ " أَبَيْتَ اللعنَ " عبارةٌ مخصوصة لا تُقال إلا للملوك تعظيماً لهم، وتمجيداً لأفعالهم ، وإبرازاً لمكانتهم الاجتماعية السامية. ومعناها : أَبَيْتَ أن تأتيَ مِن الأمور ما تُلعَن عليه ، وتُذَم بسببه.

ويقولُ الشاعرُ عنترة بن شَدَّاد :

يا دَارَ عَبْلةَ بالجِواءِ تكلَّمي وعِمِي صَباحاً دارَ عَبْلةَ واسْلَمي

هذا البَيْتُ يَكشف لنا التحية الجاهلية " عِمْ صَباحاً أو عِمِي صباحاً "، وهي التحية المعتمدة في الجاهلية ، ومعناها: طَابَ عَيْشك في صباحك .

التعامل مع الأطعمة

تعاملُ أهلِ الجاهلية مع الأطعمة يَكشف لنا عقائدهم الدينية ، وعاداتهم الاجتماعية ، وتراثهم الشَّعبي ، وتفاصيل حياتهم المتشعبة. وفلسفةُ الطعام لا تَكمن فيه ، وإنما تَكمن في خلفيته الفكرية . وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ، ويتركون أشياء تقذُّراً ، فبعث اللهُ تعالى نَبِيَّه ﷺ وأنزل كتابه ، وأحلَّ حلاله ، وحَرَّمَ حرامه، فما أَحلَّ فهو حلال، وما حَرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عَفو))[209].

إن فوضى التشريع الجاهلي أدَّت إلى تحكيم الأهواء الشخصية في قضية التحليل والتحريم . فقد كان أهلُ الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء اعتماداً على تقبيح العقل لها ، حيث يعتبرونها قذارة لا ينبغي أكلها. وهم في هذه القضية سائرون حَسَبَ أحكامهم الشخصية بلا شريعة سماوية . وعندما جاءت الشريعةُ الإسلامية وَضَّحت الحلالَ والحرام ، ولم تترك لأمزجة الناس أن تتحكم في قضية التحليل والتحريم. وما تم السُّكوت عنه فهو معفوٌّ عنه لرفع الحرج عن الناس وعدم التضييق عليهم ، فالشريعةُ مُنَزَّهة عن النسيان والخطأ وتعذيب الناس .

وأهلُ الجاهلية كانوا غارقين في فوضى التعامل مع المأكولات، فلم يكونوا يسيرون وفق شريعة سماوية تُحدِّد الطَّيبَ والخبيثَ. لذلك كانوا يتحركون استناداً إلى أهوائهم بلا أحكام شرعية.

قال اللهُ تعالى : ﴿ حُرِّمت عليكم الْمَيْتةُ والدمُ ولحمُ الخِنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقةُ والموقوذةُ والمتردِّيةُ والنطيحةُ وما أكل السَّبُعُ ﴾ [المائدة : ٣] .

إن هذه الآية شريعة متكاملة في قضية الأطعمة . فقد تم تحريم الميْتة ، وهي ما مات حَتْف أنفه بدون ذبح شرعي ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير . وهذه الآيةُ هدمٌ لفعل الجاهلية ، ((وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه ، فيفصد به بعيره أو حيواناً من أي صنف كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه ، ولهذا حَرَّم اللهُ الدَّمَ على هذه الأُمة))[210]. وأهلُ الجاهلية غير معنيين بالحلال والحرام، أو الطهارة والنجاسة . فهم يَفعلون ما يحلو لهم ، ويخترعون شريعتهم الخاصة، ويُؤسسون عليها أحكامَهم التي تعكس طبيعةَ شخصيتهم

---

(٢٠٩) رواه الحاكم في المستدرك(٤/ ١٢٨) برقم(٧١١٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢١٠) تفسير ابن كثير (٢/ ١١) .

وسلوكهم . وقد كانوا يَشربون الدمَ بعد جمعه بلا نكير . وحينما جاءت الشَّريعةُ الإسلامية ألغت هذا الفعلَ ، ووضَّحت أن الدم حرام . والدمُ نجسٌ باتفاق العلماء لا يُشرَب ولا يُنتفع به .

﴿ وما أُهِلَّ لغير الله به ﴾ ، أي : ما ذُبح فذُكر عليه اسم غير الله . وقد كان أهلُ الجاهلية يَذبحون لآلهتهم الأصنام ، فيَذكرون اسم غير الله _ سُبحانه وتعالى _ ، مثل اللات والعُزَّى .

قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٩٢) : ((أي رفع الصوت لغير الله به ، كقولهم : باسم اللات والعُزَّى عند ذبحه)) اهـ .

﴿ والمنخنقةُ ﴾ : هي التي تموت خنقاً،وهو حبس النَّفَس سواءٌ قام بالخنق إنسان أو حبل...إلخ. وقد كان أهلُ الجاهلية يخنقون الشاةَ فإذا ماتت أكلوها [211]. ﴿ والموقوذةُ ﴾ [212]: هي التي تُضرَب بشيء ثقيل (حجر ، عصا،...) حتى تموت. وكان أهلُ الجاهلية يضربونها ثم يأكلونها.

وفي تفسير القرطبي (٦/ ٤٦) : ((قال قتادة : كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك ويأكلونه. وقال الضحاك: كانوا يضربون الأنعام بالخشب لآلهتهم حتى يقتلوها فيأكلوها)) اهـ .

﴿ والمتردِّيةُ ﴾ : هي التي تَسقط من موضع عالٍ فتموت . ﴿ والنطيحةُ ﴾ : هي التي ماتت بسبب نطح غَيرها لها . ﴿ وما أكل السَّبُعُ ﴾ : أي ما أكل بعضَه السَّبعُ فمات. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١): ((وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السَّبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك، فَحَرَّمَ اللهُ ذلك على المؤمنين)) اهـ . وقد كان أهلُ الجاهلية يأكلون كل هذه الأصناف التي سبق ذِكرها . وهم يتصرفون بحُكم طباعهم وشهواتهم وأحكامهم العقلية بلا توجيهات سماوية . وعندما جاءت الشريعةُ المحمَّدية الإسلامية أحلَّت الحلالَ وحَرَّمت الحرامَ . وبالتالي صار لدى الناس منهج سماوي متعلق بالأطعمة وتمييز الطَّيب من الخبيث . مما أدى إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النُّور ، وجعلهم يتحركون وفق بصيرة نورانية مستمدة من الكتاب والسُّنة ، وليس حَسب تقليد الآباء ، وأهواءِ النَّفْس ، وحُكمِ العقل القاصر .

---

(٢١١) وفي تفسير القرطبي (٦/ ٤٦) : ((وذكر قتادة أن أهل الجاهلية كانوا يخنقون الشاة وغيرها فإذا ماتت أكلوها ، وذكر نحوه ابن عباس)) .

(٢١٢) (وَقَذَ) فلاناً _ (يَقِذه) وَقْذاً : ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت . [انظر المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ص ٦٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طَيِّباً ﴾ [البقرة : ١٦٨] .

واللهُ تعالى يمنُّ على عباده بأن أباح لهم الطيبات ، فأمرهم بأن يأكلوا من الخيرات الطيبة الحلال الموجودة في الأرض . فلا يوجد ضيقٌ أو حَرج في تناول الطيبات، فهي تُعين على العبادة ، وتبعث البهجة في النَّفْس ، فيستقبل الإنسانُ يومَه بإشراق وتفاؤل دون تحجير للرحمة الإلهية ، أو تحريم للطعام الحلال بدافع الزهد أو التقوى . فالتقوى في اتِّباع الأوامر الشرعية ، وليس تحريم الحلال أو التضييق على النَّفْس وتعذيبها وحرمانها من الطيبات .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧٧) : ((أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كَوْنه حلالاً من الله طَيِّباً ، أي مُستطاباً في نفْسه غير ضار للأبدان ، ولا للعقول)) اهـ .

وأهلُ الجاهلية كانوا مولعين بتحليل الحرام وتحريم الحلال ، وقد اخترعوا أحكاماً كثيرة ما أنزل اللهُ بها من سلطان، وربطوها بعقائدهم وعاداتهم وحياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وهذا يعكس مدى التخلف العقائدي نتيجة غياب الهداية الإلهية ، وغبشِ الوعي الإنساني .

والقاعدةُ الفقهية الشهيرة تقول إن الأصل في الأشياء الإباحة . أي إن كل شيء حلال ما لم يأت نصٌّ بتحريمه . والجدير بالذِّكر أن عملية الابتعاد عن الحلال الطيب والغرقِ في الحرام ، من شأنها تدمير كيان الإنسان والقضاء على حياته الدنيوية ، وإضاعته يوم القيامة . فالحرامُ له تأثير سلبي للغاية في مسار حياة الفرد وعواطفه وطموحاته وإمكانياته . فهو يَحْرمه التوفيق ، ويجعل صدرَه ضَيِّقاً ، ويجعل نظرته للحياة غارقة في المادية الآنية والاستهلاكية الفجَّة بلا هدف ولا مسار، مما يؤدي إلى تكوين سلوكيات منحرفة تُعمِّق أزمات الإنسان على الصعيدَيْن الحِسِّي والمعنوي. وفي صحيح مسلم (٢/ ٧٠٣): عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أيها الناسُ إن اللهَ طَيِّبٌ ، لا يَقبل إلا طَيِّباً ، وإن اللهَ أَمرَ المؤمنين بما أمر به المرسَلين ، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحَاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[المؤمنون :٥١]. وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[البقرة : ١٧٢] . ثم ذَكَرَ الرَّجلَ يُطيل السَّفرَ ، أشعثَ أَغبر، يمدُّ يَدَيْه إلى السماء : يا رَب يا رَب ، ومَطْعمه حرامٌ ، ومَشْربه حرام ، ومَلْبسه حرام، وغُذِّيَ بالحرام فأنَّى يُستجابُ لذلك)) . والحرامُ من شأنه أن يُعرِّض الإنسان لغضب الله تعالى،ويُفقده طمأنينة الإيمان. فيصبح دعاؤه مرفوضاً غير مستجاب، وهذا يقوده إلى الهاوية السحيقة على الصعيدَيْن النَّفْسي والمادي ، لأن الإنسان سيضيع إذا تخلى عنه اللهُ تعالى ، فيفقد توازنه الروحي ، ويغرق في مستنقع الحياة الدنيا ، بلا مسار ولا هدف .

تسمية الأيام والشهور

إن تسمية الأيام والشُّهور في الجاهلية كانت تَنطلق من العقائد الدينية ، والتراثِ الشعبي . ولا شَكَّ أن الأسماء تدل على دِين أصحابها ، وثقافتهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم .

وقال السيوطي في المزهر في علوم اللغة (١/ ٣٥٤) : ((عن أبي عمرو قال : كانت العربُ في الجاهلية تُسمِّي الأحد الأوَّل ، والاثنين الأَهْوَن ، وبعضهم يقول : الأَهْوَد ، والثلاثاء جُبَاراً ، والأربعاء دُباراً ، والخميس مُؤْنِساً ، والْجُمُعةُ العَرُوبة ، وبعضهم يقول : عَرُوبة فلا يُعرِّفها ، والسَّبْت شِياراً)) اهـ .

وهذه الأسماء لم تجئ من فراغ ، فلكلِّ اسمٍ سببٌ . فالأحدُ سُمِّيَ " أَوَّل " ، لأنه أوَّل أعداد الأيام . والاثنين سُمِّيَ " أَهْوَن " ، أخذاً مِن الهون والهوينى . و" أَوْهَد " أخذاً مِن الوَهْدَة ، وهي المكان المنخفض من الأرض ، لانخفاضه عن اليوم الأوَّل في العدد . والثلاثاء سُمِّيَ " جُبار " ، لأنه جُبر به العدد . والأربعاء سُمِّيَ " دُبار " ، لأنه دُبْر ما جُبر به العدد ، بمعنى أنه جاء دُبُرَه. والخميس سُمِّيَ " مُؤنِس " ، لأنه يُؤنَس بِه لبركته . والجمعةُ سُمِّيَ " العَرُوبة " ، ومعناه اليوم البَيِّن ، أخذاً من قولهم : أَعْرَبَ ، إذا أبانَ . والمراد أنه بَيِّنُ العَظَمة والشَّرف ، إِذْ لم يَزَلْ مُعظَّماً عند أهل كُل مِلَّة ، وجاء الإسلام فزاده تعظيماً . والسَّبْتُ سُمِّيَ " شِيار " ، أخذاً مِن شِرْتُ الشيء ، إذا اسْتَخْرَجْتُه وأَظْهَرْتُه مِن مكانه ، بمعنى أنه اسْتُخْرِجَ من الأيام التي وَقَعَ فيها الخلق ، على مذهب من يرى أنه آخر أيام الأسبوع وأن ابتداء الخلق الأحد [213].

وأيضاً ، تسمية الشهور لم تجئ عبثاً ، بل هي تستند إلى أسباب دِينية واجتماعية ، تَعكس طبيعةَ العقل العربي ، وطبيعةَ الحياة العربية بكل أبعادها الروحية والمادية .

وفي مختصر تاريخ دمشق (١/ ٤) عن أبي عمرو بن العلاء قال : ((إنما سُمِّيَ المحرَّم لأن القتال حُرِّم فيه ، وصَفَر لأن العرب كانت تَنْزل فيه بلاداً يقال لها صَفَر ، وشهرا ربيع كانوا يَرْبعون فيهما ، وجماديان كان يَجمد الماء فيهما ، ورَجَب كانوا يَرْجبون فيه النخلَ ، وشعبان تشعَّبت فيه القبائل ، ورمضان رَمِضَتْ فيه الفِصال من الْحَر ، وشَوَّال شالت الإبل بأذنابها للضِّراب ، وذو القِعدة قَعَدوا فيه عن القتال ، وذو الحِجَّة كانوا يَحُجُّون فيه . فأمَّا أوَّل السَّنة فالْمُحَرَّم)) اهـ .

---

(٢١٣) صُبح الأعشى للقلقشندي (٢/ ٣٩٠ و٣٩١) .

((الدعاءُ هو العِبادة))[214]. وهذا يُشير إلى أهميته البالغة، إذ إنه دليلٌ باهر على صِدق توجُّه العبد إلى خالقه تعالى . ومهما بَلَغَ العبدُ من القوة والثروة والمجد ، فلا يُمكنه أن يَستغنيَ عن دعاءِ الله تعالى ، والطلب منه .

وأهلُ الجاهلية كانوا يتوجَّهون إلى الله تعالى ، ويَطلبون منه تحقيق أُمنياتهم . لكنَّ المشكلةَ تَكمن في أن هذه الأُمنيات كلها دُنيوية لا علاقة لها بالآخِرة . فالعقلُ العربيُّ الوثنيُّ محصور في العالَم المادي الضَّيق ، ولا يُؤمِن بحياة بعد الموت . وهذا يَعني أن الدعاء سَيَكون محصوراً في المكاسب المادية ، والمتاعِ الدُّنيوي الزائل .

قال اللهُ تعالى : ﴿ فَمِن الناس مَن يقول رَبَّنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة مِن خَلاق ﴾ [البقرة : ٢٠٠] .

فمن الناسِ مَن يَحصر كلَّ تفكيره في أمور الدنيا ، وما له في الآخرة مِن نَصيب. وهذا الصِّنفُ مذمومٌ ، لأنه قد حَوَّل الدعاءَ (العبادة) إلى مشروع تجاري مادي بَحْت لا علاقة له بالمصير الإنساني (الجنَّة أو النار) .

وفي تفسير القرطبي (٢/ ٤٢٧) : ((قال أبو وائل و السُّدي وابن زيد : كانت العرب في الجاهلية تدعو في مصالح الدنيا فقط ، فكانوا يَسألون الإبلَ والغنمَ والظفرَ بالعدو ، ولا يَطلبون الآخرةَ ، إذ كانوا لا يعرفونها ، ولا يؤمنون بها)) اهـ .

وفرقٌ شاسعٌ بين هذه الرؤية الجاهلية الضَّيقة ، وبين الرؤية الإسلامية الواسعة التي تتجلى في قَوْله تعالى : ﴿ وَمِنهم مَن يَقول رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسَنَةً وفي الآخِرةِ حَسَنةً وَقِنا عَذابَ النار ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

وهذه الآيةُ تدل على شمولية المنهج الإسلامي . فهذا المنهجُ يُعطِّي تفاصيلَ حياة الإنسان في الدنيا الزائلة، والآخرةِ الباقية. وقد اشتملت الآيةُ على جوامع الدعاء المختص بالدنيا والآخرة معاً. فالحسنةُ في الدنيا هي النِّعم الْمُعينة على طاعة الله تعالى.والحسنةُ في الآخرة هي المغفرة والجنَّة .

---

(٢١٤) رواه ابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٢) برقم (٨٩٠) . وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٩) : ((أخرجه أصحابُ السُّنن بسند جيِّد)) .

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال : كان أكثرُ دُعاء النبي ﷺ : ((اللهم رَبَّنا آتِنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقِنا عذاب النار))[215].

ومن خصائص دُعاء أهل الجاهلية أنهم كانوا إذا اجتهدوا في الدُّعاء ، جَعلوا كلامَهم سَجْعاً ، وهو الكلام الذي له فواصل كفواصل الشِّعر ، مُقفًّى غير مَوْزون . وهو شَبيه بكلام الكُهَّان .

قال ابن إسحاق في سيرته (١/ ٢) : ((كانت قُرَيْش ومَن سِواهم من العرب في الجاهلية ، إذا اجْتَهَدوا في الدُّعاء سَجَعُوا)) اهـ .

ومن الأمثلة على ذلك دعاءُ عبد المطلب ، حيث قام يَدْعو اللهَ تعالى ، ويقول :

اللهم أنتَ الْمَلِكُ المحمود ربي وأنتَ الْمُبْدئ الْمُعيد
ومُمسك الراسية الْجُلمود مِن عِندك الطارف والتليد
إنْ شِئتَ ألهمتَ ما تريد لموضع الحِلية والحديد
فَبَيِّن اليومَ لِما تريد إني نذرتُ عاهد العُهود
اجْعَلْه رَبِّي فلا أَعود[216]

*

(٢١٥) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٣٤٧) برقم (٦٠٢٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٠) برقم (٢٦٩٠).

(٢١٦)سيرة ابن إسحاق(١/ ٢). وانظر سيرة ابن كثير (١/ ١٧١)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٤٦) .

التمييز الطبقي

إن المجتمع الجاهلي مبنيٌّ على الظلم الاجتماعي ، والتمييزِ الطبقي ، وسوءِ توزيع الثروة ، والعنصريةِ على أساس قَبَلي وعِرْقي .

والجاهليةُ هي منظومة قاسية ، فهي غابةٌ يأكل القويُّ فيها الضعيفَ ، ويَخضع الفقيرُ للغني ، ويَضطهد السَّيدُ العبدَ ، وتستسلم القبيلةُ الضعيفة للقبيلة القوية ... وهكذا دُوالَيْك .

وعندما جاء الإسلامُ أنهى حُكْمَ الطواغيت ، وأسَّس مجتمع العدل والإخاء ، وبنى القِيَم على التقوى وتكافؤ الفُرص ، والخضوع للحق ــ مهما كان مَصْدره ــ .

وقد رَوى أحمد في مسنده (٤/ ٢١٨) أن وفد ثقيف اشترطوا على النبي ﷺ ألا يُعْشَروا ، فوافقَ النبيُّ ﷺ على هذا الشَّرط .

وقد كان ملوكُ العربِ في الجاهلية يأخذون العُشُر من أموال الناس بدون وَجه حَق . حيث إنهم كانوا يَستغلون الضعفاء ، ويَمتصون دماءَ الرَّعية ، وذلك من أجل تثبيت سُلطانهم ، وزيادة ثرواتهم ، وتعميق نفوذهم ، وتحقيق مكتسبات شخصية. ولَمَّا جاء الإسلامُ أنقذهم من هذا الظلم.

قال الحربي في غريب الحديث (١/ ١٥٦) : ((لأَنَّ مُلُوكَ العَجَمِ والعَرَبِ في الجَاهِلِيَّةِ يَأْخُذُون العُشُرَ مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ ، فَرَفَعَ اللهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ)) اهـ .

ومن مظاهر الظلم الواضحة في الجاهلية ، استغلال عِلْية القوم للأراضي والمراعي .

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ١٠٥٥) : ((قيل : كان الشَّريفُ في الجاهلية إذا نَزل أرْضاً في حَيِّه اسْتَعْوَى كلباً مَدَى عُوَاء الكلب لا يَشْرَكُه فيه غَيْره ، وهو يُشارك القوم في سائر ما يَرْعَوْن فيه)) اهـ .

والمعنى أن الشريف في الجاهلية كان يَحتكر مَوْضعاً مُعيَّناً فيه الكلأ والعُشب ، ويَمنع الآخرين من الوصول إليه، كما أنه يُشارك الآخرين في سائر ما يَرْعَوْن فيه .

وهذا هو جوهرُ النظام الإقطاعي الجائر . فقد كان لسادة القَوْم مَحْمِيَّات خاصة ، وإقطاعيات شخصية مُحرَّمة على الآخرين . ولم يكتفوا بهذا ، بل أيضاً شَارَكوا الآخرين في ممتلكاتهم . وهذا يدل بوضوح على أن الجاهلية نظام إقطاعي طبقي عُنصري يَسرق الفقراءَ لصالح الأغنياء .

وقد ألغى الإسلامُ هذا النظامَ الإقطاعي الجائر . ففي صحيح البخاري (٢/ ٨٣٥) : عن الصَّعْب بن جَثَّامة ــ رضي الله عنه ــ قال: إن رسول الله ﷺ قال : ((لا حِمى إلا لله ولرسوله)).

والحِمى : مَوْضع فيه الكلأ والعُشب ، يَحميه الإمام من الناس ، فلا يَرْعى فيه أَحد، ولا يَقْربه أَحد .

ومعنى الحديث أنه لا يَجوز اتِّخاذ إقطاعيات خاصة للأفراد ، ولا يَحق لأي شخص أن يَحميَ شيئاً من الأرض ، ويكونَ له حِمى شخصي . فالحِمى للهِ ولرسوله ، أي إن الحِمى يَكون مُخصَّصاً لرعي خَيل الجهاد ، وإبلها ، وإبل الزكاة ، وما شابه ذلك . ولا يَكون الحِمى من أجل رفاهية السادة ، أو زيادة ثروة عِلْية القوم .

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ : أن النبي ﷺ حَمَى النَّقيعَ لِخَيْلِ المسلمين[217].

وفي الجاهلية كانت هناك ثقافة مجتمعية سائدة قائمة على احتقار الفقراء ، وازدراءِ أصحاب المكانة الاجتماعية المتدنية ، والنظر إليهم نظرةً دونية .

قال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَطْرد الذين يَدْعُون رَبَّهم بالغَداةِ والعَشِيِّ يُريدون وَجْهَه ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

أمرٌ إلهي بعدم طرد المؤمنين الذين يَدْعون رَبَّهم في الصباح والمساء بكل إخلاص .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٨) : عن سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ قال : كُنَّا مع النبي ﷺ ستة نفَر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطْرُد هؤلاء لا يَجترؤن عَلَيْنا . قال : وكنتُ أنا ، وابن مسعود ، ورَجل من هُذَيْل ، وبلال ، ورَجُلان لَسْتُ أُسَمِّيهما ، فَوَقَعَ في نَفْسِ رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يَقَعَ ، فَحَدَّثَ نَفْسَه ، فأنزل اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ﴿ ولا تَطْرد الذين يَدْعُون رَبَّهم بالغَداةِ والعَشِيِّ يُريدون وَجْهَه ﴾ .

إن المشركين يُقيمون أحكامهم وفق الموازين الدنيوية المتعلِّقة بالمال والحَسَب والنَّسَب . وقد احتقروا هؤلاء الصحابةَ الفقراءَ ، وتكبَّروا عليهم ، وهذا التَّكبر أعماهم عن رؤية الحق ، ومنع الإيمانَ من دخول قلوبهم .

وقد كان النبيُّ ﷺ حريصاً على إسلام المشركين خصوصاً ساداتهم ، لأن السَّيدَ إذا أسلمَ ، فإن كلَّ أتباعه سَيُسْلِمُون. وهذا ما جعلَ النبيَّ ﷺ يُحدِّث نَفْسَه بالأمر، ليس تسليماً بكلام المشركين ، ولكنْ طَمَعاً في إسلامهم .

---

(٢١٧) رواه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٥٣٨) برقم (٤٦٨٣) .

وقال الحافظ في الفتح(١/ ١٩٨): ((وقَوْله "حمى النقيع" هو وادٍ بينه وبين المدينة عشرون فَرْسخاً)).

فهرس

مقدمة..... ٥

تمهيد..... ٧

الفساد القلبي..... ١١

الانهيار العَقَدي والأخلاقي..... ٢٣

الجهل بأسماء الله وصفاته..... ٢٨

الاستعاذة بغير الله..... ٤٤

حاكمية الطاغوت..... ٤٧

الحَمِيَّة..... ٦٠

التأثر باليهودية والنصرانية..... ٧٠

أثر الجاهلية في الأمة الإسلامية..... ٨٨

وضع المرأة ٩٥

التعامل مع الأبناء..... ١٣٥

التبني..... ١٣٩

التفاخر بالآباء..... ١٤٣

التنابز بالألقاب..... ١٤٨

تقديس ما ليس مقدَّساً..... ١٤٩

السعي بين الصفا والمروة..... ١٦١

الطواف حول البيت عُراة..... ١٦٥

شعائر الحج..... ١٧٢

إتيان البيت من ظَهْره..... ١٧٨

رمي البعرة..... ١٨٣

صيام عاشوراء..... ١٨٧

النذر..... ١٩١

التعامل مع الأنعام..... ١٩٦

الأنشطة في الأسواق.....٢١٣
الكهانة والتطير.....٢٢٥
الرُّقية.....٢٣٧
التمائم.....٢٤٤
الاعتقاد بتأثير النجوم والكواكب.....٢٤٦
التلاعب بالأشهر الْحُرُم.....٢٥٣
قتل النفس.....٢٥٦
انتشار الرِّبا.....٢٦٦
الزنا.....٢٦٨
الخمر والقِمار.....٢٧٢
الاستئذان والتحية.....٢٧٥
التعامل مع الأطعمة ٢٧٧
تسمية الأيام والشهور.....٢٨٠
الدعاء.....٢٨١
التمييز الطبقي.....٢٨٣
فهرس.....٢٨٥

تَمَّ الكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالى